

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

رُوسُو والثَّوْرَة

مُراجَعَة
عَلَمِيّ أَدهم

تَرْجَمَة
فؤاد أندراوس

الجزء الأول من المجلد العاشر

٣٩



تونس



بيروت

قصة الحضارة - الجزء العاشر

روسيا والثورة

تاريخ الحضارة في فرنسا ، وانجلترا ، وألمانيا
من ١٧٥٦ وفي بقية أوروبا من ١٧١٥ إلى ١٧٨٩

بقلم

ول وإيريل ديورانت

إلى ابنتنا الحبيبة

إثيل بنفسونا

التي كانت خلال هذه المجلدات كلها

عونا وإلهامنا لنا

أيها القارئ العزيز

هذا هو المجلد الأخير في قصة الحضارة التي كرسنا لها أنفسنا عام ١٩٢٩ ، والتي كانت شغائنا اليومي الشاغل وسلوى حياتنا منذ ذلك التاريخ .

لقد كان هدفنا أن نؤلف « تاريخاً متكاملًا » أي أن نكتشف ونسجل ألوان النشاط الاقتصادي ، والسياسي ، والروحي ، والخلقي ، والثقافي ، لكل حضارة ، في كل عصر ، بوصف هذه الألوان عناصر وثيقة الترابط في كل واحد يسمى الحياة ، ثم نضفي على القصة صبغة إنسانية بدراسات للأبطال في كل فصل من فصول هذه المسرحية المتصلة الحلقات ومع أننا نسلم بأهمية الحكم والسياسة ، فقد سقنا التاريخ السياسي لكل حقبة ودولة كما تساق خلفية رويت من قبل غير مرة ، دون أن يكون لب القصة أرواحها ، وتركز جل اهتمامنا على تاريخ العقل . ومن ثم كان أكثر اعتمادنا في شئون الإقتصاد والسياسة على المصادر الثانوية ، بعكس ما انتهجناه في تناولنا للدين ، والفلسفة ، والعلم ، والأدب ، والموسيقى ، والفن ، فقد حاولنا الرجوع فيها إلى الأصول والمنابع : حاولنا أن نرى كل دين وهو يعمل في منبته ، وأن ندرس أخطر الفلفسات في مؤلفاتها الكبرى ، وأن نزور الفن في موقعه الأصلي أو الجديد ، وأن نتلوق روائع الأدب العالمي ، في لغاتها الأصلية في كثير من الأحيان ، وأن تستمع إلى الألحان الموسيقية العظمى مراراً وتكراراً ، ولو باقتطاعها من جوها المعجز . وتحقيقاً لهذه الأهداف طفقنا بالعالم مرتين ، وبأوروبا مرات لاتحصى من ١٩١٢ إلى ١٩٦٦ . وسيدرك القارئ العطوف أنه يستحيل علينا في الأجل الواحد الذي كتب لنا أن نرجع بالمثل إلى المصادر الأصلية في الإقتصاد والسياسة ، خلال قرون التاريخ الستين ، وحضاراته العشرين

ولم نجد منذ وحة عن الرضى بالحدود والقيود ، والتسليم بما فينا من عجز وقصور.

ويؤسفنا أننا سمحنا لإفتناننا بكل جزء في ملحمة الإنسان بأن يوقفنا في رضى كثير ، حتى ألفينا أنفسنا في خاتمة المطاف منهوكى القوى حين بلغنا الثورة الفرنسية . ونحن نعلم أن هذا الحدث لم يزه التاريخ ، ولكنه نهينا . وما من شك في أن طريقتنا المتكاملة الشاملة أفضت بنا إلى إثقال معظم هذه المجلدات بالطول المفرط . ولو أننا كتبنا تاريخاً ممزقاً — كقصبة أمة ؛ أوفرة أو موضوع واحد — فلربما وفرنا على القارئ وقته وعتاده . غير أن تصوير جميع الجوانب في قصة واحدة ، عن عدة أمم ، في فترة معينة ، تطلب حيزاً للتفاصيل التي لم يكن معها بد لنفخ الحياة في الأحداث والشخصيات . وسيشعر كل قارئ من جانبه بأن الكتاب مسرف في الطول ، وأن تناوله لأتمته أو لتخصيصه مسرف في القصر.

فقد يرغب قراء الإنجليزية أو الفرنسية في أن يقصروا قراءتهم الأولى لهذا المجلد على الفصول ١ — ٨ ، ١٣ — ١٥ — ٢٠ — ٣٨ ، ويرجئوا الباقي إلى حين ، وقد يختار قراء لغات أخرى فصولهم على هذه الشاكلة . غير أننا نأمل أن يسير بعض الأبطال الشوط كله معنا ، فيحاولوا أن يروا أوروبا بوصفها كلاً في تلك السنين الثلاث والثلاثين المفعمة بالأحداث . والممتدة من حرب السنين السبع إلى الثورة الفرنسية ، على أننا ننفترق هذا الأسباب مرة أخرى ، ولكن لو استطعنا أن نفلت من حاصد الأرواح سنة أخرى أو سنتين ، فإننا نرجو أن نقدم للقارئ مقالاً ملخصاً في « عظات التاريخ » .

ول وإيريل دبورانت

لوس أنجيليس

أول مايو ١٩٦٧

الكتاب الأول

مقدمة

الفصل الأول

روسو جواب الآفاق

١٧١٢ - ٥٦

١ - الاعترافات

كيف حدث أن رجلاً ولد فقيراً ، وفقد أمه عند مولده ، ثم هجره أبوه بعد قليل وابتلى بمرض أليم مذل ، وترك يضرب في الآفاق إثني عشر عاماً بين مدن غريبة ومذاهب دينية متناحرة ، مرفوضاً من المجتمع والحضارة ، رافضاً فولتير ، وديدرو ، والمسوعة ، وعمر العقل ، رجلاً طورد من مكان إلى آخر باعتباره ثائراً خطراً ، واتهم بالإجرام والجنون ، وشهد في شهور حياته الأخيرة تأليه خصمه الألد - نقول كيف حدث أن رجلاً كهذا ، بعد موته ، انتصر على فولتير ، وأحيا الدين ، وقلب التعليم رأساً على عقب ، ورفع أخلاقيات فرنسا ، وألهم الحركة الرومانية ، والثورة الفرنسية ، وأثر في فلسفة كانط وشوينهاور ، وتمثيليات شيلر ، وروايات جوته ، وشعر وردزورث وبيرون وشلي ، واشتراكية ماركس ، وأخلاق تولستوى ، وأتيح له - على الجملة - من التأثير على الأجيال التالية ما فاق تأثير أى كاتب أو مفكر آخر في ذلك القرن الثامن عشر ، القرن الذى فاق فيه تأثير الكتاب تأثيرهم فى أى عهد سبقه ؟ هنا تواجهنا هذه

المشكلة أن كان لها أن تواجهنا في أى موضع : ما الدور الذى لعبته العبقريّة
في التاريخ ، مادور الإنسان لإزاحة المجتمع والدولة ؟

كانت أوروبا آنذاك مهيمّة لأنجيل ييوىء الوجدان مكاناً فوق الفكر
فلقد سئمت قيود التقاليد والأعراف ، والآداب ، والقوانين . وسمعت
ما يكفي عن العقل ، والجدل العقلي ، والفلسفة ، وبدأ أن كل هذه
الفوضى ، فوضى العقول التي أطلق جبلها على غاربها ، قد جردت الدنيا من
المعنى ، وعطلت النفوس من الخيال والرجاء ، وكان الرجال والنساء بينهم
وبين أنفسهم تواقين للعودة إلى حظيرة الإيمان . لقد ملت باريس ، ملت
الضجيج والعجلة ، وسجن حياة المدينة وتزاحمها المحنون ، وهفت الآن إلى حلم
حياة الريف الأكثر هوناً ، الحياة التي قد يجلب نظامها الرتيب البسيط للبدن
صحة وللعقل سلاماً ، والتي يرى فيها الإنسان من جديد نساء تزيّنهن الحشمة
والخمر ، والتي تلتقي فيها القرية كلها في كنيسة الأبرشية في هانة أسبوعية .
ثم ما بال هذا « التقدم » الذي يزهون به ، و « تحرير العقل » هذا الذي
يفاضرون به - هل أحلا شيئاً محل مادمره ؟ هل أعطيا الإنسان صورة للعالم
ومصير الإنسان أكثر وضوحاً للأفهام أو لإطاما للنفوس ؟ هل حسناحفظ
الفقراء ، أو أتيا بالعزاء والسلوى للمحزونين على فقد الأعزاء أو للمتألمين
المكرويين ؟ سأل روسو هذه الأسئلة ، وأضنى الشكل والإحساس على هذه
الشكوك ، فأصغت إليه أوروبا بأسرها بعد أن أخذ صوته . وبينما كان فولتير
يعيد على المسرح في الأكاديمية (١٧٧٨) ، وبينما كان روسو الموبخ المزدرى
يختبئ في ظلام حجرة من حجرات باريس ، بدأ عصر روسو .

ولقد ألف أشهر ترجمة ذاتية في أخريات أيامه ، وهي كتابه « الاعترافات » .
ذلك أنه - وهو الرجل الحساس لكل نقد الظنون الذي خال جريم ، وديدرو ،
وغيرهما ياتمرون به ليشوهوا سمعته في صالونات باريس وفي « مذكرات »
مدام دينيه - هذا الرجل بدأ عام ١٧٦٢ ، بإلحاح من أحد الناشرين ،
كتابة قصته هو ليروى سيرته وخلقه . وكل التراجم الذاتية بالطبع غرور
في غرور ، غير أن روسو - الذي أدانته الكنيسة ، وحرّمته من حماية

القانون ثلاث دول ، وهجره أخلص أصدقائه - كان له الحق في الدفاع عن نفسه ، بل في المدافع المستغيث : وحين قرأ فقرات من هذا الدفاع على بعض المحافل في باريس حصل خصومه على أمر من الحكومة يحظر أى قراءة علنية أخرى لمخطوطته . فلما فت في عضده ، تركها عند موته مشفوعة برجاء للأجيال التالية قال فيه :

« إليكم هذه اللوحة الإنسانية الوحيدة - المنقولة بالضغط عن الطبيعة بكل صدق - الموجودة الآن أو التي ستوجد إطلاقاً في أغلب الظن . وأما كنتم ، يامن نصيبكم قدرى وثقتي حكماً على هذا السجل ، فإنى استخلفكم بحق ما أصابني من خطوب وعن وبحق ما تشعرون به من أخوة البشر ، وباسم الإنسانية جمعاء ، ألا تدمروا عملاً نافعاً فريداً في بابيه ، قد يصلح بحثاً مقارناً من الدرجة الأولى لدراسة الإنسان . وألا تنزعوا من شرف ذكرى هذا الأثر الصادق الوحيد لخلق ، الأثر الذي لم ينسل من خصومي مسخاً وتشويهاً ^(١) .

والكتاب ، بمحاسنه ومآخذه ، نتاج لما فطر عليه مؤلفه من شدة الحساسية ، وقوة الذاتية ، ورهافة العاطفة . يقول روسو «إن قلبي الحساس كان أس بلائى كله ^(٢) . ولكن هذا القلب أضفى ألفة حارة على أسلوبه ، وحنانا على ذكرياته ، وفي كثير من الأحيان سماحة على أحكامه ، وكلها تذيب نفورنا ونحن نمضي في قراءة الكتاب . ففيه يغدو كل تجريد واقعاً شخصياً مجسداً ، وكل سطر شعوراً نابضاً بالحياة فهذا الكتاب أشبه بالنبع الذي تدفق منه نهر الاعترافات المستبطنة ، النبع الذي روى أدب القرن للناسع عشر ، لأنه لم يكن له ضريب سابق من كتب الاعترافات ، ولكن حتى القديس أوغسطين لم يستطع أن يضارع كل هذه التعرية للذات ، أو يدعى دعواها في الأمانة والصدق . والكتاب يستهل بدققة من البلاغة التي تتحدى المقلدين :

« إنني مقبل على مغامرة لم يسبق لها نظير ، ولن يكون لتفيلدها مقلد ، أريد أن أظهر إخواني في الإنسانية على إنسان في كل صدق الطبيعة ، وهذا

الإنسان هو أنا نفسى . أنا مجرداً عن كل شىء . أننى أعرف قلبى ، وأنا عليم بالناس . ولم أخلق كأى حى من الأحياء . ولذا لم أكن خيراً منهم ، فلأننى على الأقل مختلف عنهم . أما أن الطبيعة أحسنت أو أساءت بتحطيم القلب الذى صبيت فيه ، فذلك شىء لا يستطيع الحكم عاينه لإنسان إلا بعد أن يقرأنى .

« وأياً كان موعد الساعة التى سينفخ فيها فى صور يوم الحشر ، فسوف أتى وكتابى هذا فى يمينى لأمثل أمام الديان الأعظم وسوف أقول بصوت عال : كذلك سلكت ، وكذلك فكرت ، وكذلك كنت ، لقد تحدثت إلى الأبرار والأشرار بنفس الصراحة ، وما أخفيت شيئاً فبه سوء ، ولا أضفت شيئاً فيه خير . وقد أظهرت نفسى كما أنا : حقيراً خسيساً حين كنت كذلك ، وبخيراً سمحاً نبيلاً حين كنت كذلك ، لقد أمطت اللثام عن أعماق أعماق نفسى (٣) . »

وتتردد دعواه فى توخى الصدق الكامل فى الكتاب مراراً وتكراراً . ولكن روسو يسلم بأن تذكره لأشياء انقضت عليها خسون عاماً كثيراً ما يكون تذكراً مبتوراً لا يمكن الركون إليه ، وللجزء الأول فى جملة جو من الصراحة يشيع الطمأنينة فى القارئ . أما الجزء الثانى فتشوهه الشكاوى المملة من الاضطهاد والتآمر . وأياً كان الكتاب ، فهو من أعظم مانع من الدراسات السيكولوجية كشفاً عن النفس ، وهو قصة ووح حساسة شاعرة خاضعت صراعاً أليماً مع قرن واقعى قاس . وعلى أية حال ، فلأن كتاب الاعترافات ، لو لم يكن ترجمة ذاتية ، لكان من إحدى الروايات العظيمة فى العالم (٤) . (٥)

(*) مازال الجدل حول صدق « الاعترافات » حاراً . وأهم ما يدور عليه هو اتهام روسو لجريم وديدرو بأنهما تأمرا على تزيف رواية علاقته بمدام ديبينيه ، ومدام دوديتو ، وبشخصيهما . وكانت كفة الرأى الناقد راجحة ضد روسو قبل ١٩٠٠ . ففى ١٨٥٠ قرر سانت بييف ، بفظاظة غير مبهودة فيه ، أن روسو لا يتردد فى الكذب أقل تردد أيتها تعرضت كرامته وغروره المريض للخطر ، وقد خلصت إلى أنه كذب نيماً يتصل بجريم ووافقه على هذا رأى قطب مؤرخى الأدب الفرنسيين ، جوستاف لانسون (١٨٩٤) ، فقال « إننا نغاضى روسو فى كل صفحة متلبساً بأكاذيب مفضحوحة - كذب ، لا مجرد - »

خطأ ، ومع ذلك فالكتاب في جملته يتقد إخلاصا وصدقا - لا صدق الوقائع بل صدق المشاعر (٦). وقد سبق هذان الحكمان نشر كتاب السيدة فرديكا مكدونلد «جان جاك - روسو» دراسة جديدة في النقد - (لندن ١٩٠٦) . - Jean - Jacques Rousseau A New Study in Criticism ، الذى يثبت صواب اعتبار « المذكرات التى ألفتها مدأم دينيه متأثرة بموقف جريم وديدرو المنطوى على الحقد ، إن لم تكن غلاة فعلا من هذا الموقف . ودراستها للوثائق تغير ولا ريب كثيرا من المزاعم التى زعمها النقاد من قبل (٧) . قارن كتاب ماسون Mason ديانة روسو (I, 184) La Religion de Rousseau « نرى أن علينا أن نكون شديدي الحذر في الاعتماد على هذه الروايات التى أجزى فيها ديدرو قلبه بالكثير من التعديل والتبديل » . وقد وصل إلى أحكام مماثلة في صف روسو ، ماثيو جوزفسن (Jean - Jacques Rousseau 35, 531 - 434) واميل فاجيه (حياة روسو Vie de Rousseau, 189) ، وجول لوميتر (Jean - Jacques Rousseau, 9 - 10) وفون C. E. Vaughn (كتابات روسو السياسية (Political Writings of Rousseau II, 295, 547 - 552 f.)

٣ - الفتي الشريد : ١٧١٢ - ٣١

« ولدت بجنيف في ١٧١٢ ، ابنا لإسحاق روسو وسوزان برنار ، المواطنين . والكلمة الاخيرة كانت تعني الكثير ، لأن ألفا وسمائة فقط من بين سكان جنيف العشرين ألفا كانوا يملكون اسم المواطن وحقوقه ، وسيشارك هذا العامل في تاريخ جان - جاك . وكانت أسرته فرنسية الأصل ، ولكنها وولدت في جنيف منذ ١٥٢٩ . وكان جده قسيسا كلفنيا ، وقد ظل الحفيد في صميمه كلفنيا طوال تطويفه الديني كله ، أما أبوه فكان من إقطاب صناعة الساعات ، رجلا خصب الخيال لا يستقر له قرار ، أنه زواجه (١٧٠٤) بصداق قدره ستة عشر ألف فلورين . وبعد أن أنجب غلاما ترك زوجته (١٧٠٥) ورحل إلى الآستانة حيث مكث ست سنوات ثم عاد لأسباب مجهولة ، « وكنت الثمرة الحزينة لهذه العودة : (٨) وماتت الأم بحمى النفاس بعد أسبوع من مولد جان - جاك » جئت إلى العالم أحمل أمارات قليلة جداً على الحياة ، بحيث لم يكن هناك كبير أمل في الإبقاء على . وكفلته خالة له وأنقذته ، وهو عمل « أغتفره لك دون تحفظ » على حد قوله . وكانت الحالة تجيد الغناء والترتيل ، ولعلها بثت فيه ذلك الشغف بالموسيقى الذي لازمه طيلة حياته . وكان طفلا عبقريا ، تعلم القراءة في زمن وجيز ، ولما كان أبوه إسحاق مولعا بالقصص الرومانسية ، فقد راح الوالد والولد يقرءان معا الروايات المتخلفة في مكتبة أمه الصغيرة . ونشأ جان - جاك على مزيج من القصص الغرامية الفرنسية ، وتراجم بلوتارخ ، والفضائل الكلفينية ، وجعله هذا المزيج قلعا مهزوزا . وقد وصف نفسه وصفا دقيقا بأنه « أبى هش في وقت معاً ، في خلق أنوثته وهو مع ذلك خلق عات لا يقهر ، دأب على وضعي في موضع التناقض مع نفسي لأنه متذبذب بين الضعف والشجاعة ، وبين الترف والعفة (٩) .

وفي ١٧٢٢ تشاجر أبوه مع رجل يدعى الكابتن جوتييه ، فأسال الدم

من أنفه ، فاستدعاه القاضى المحلى ، ولكنه هرب من المدينة أتقاء السجن ، واتخذ مقره مدينة نيون على ثلاثة عشر ميلا من جنيف . وبعد سنوات تزوج ثانية . وكفل فرانسوا وجان - جاك خالهما جابريل برنار . وألحق فرانسوا بصانع ساعات ، فهرب ، وأختفى من التاريخ . وأما جان - جاك وابن خاله أبراهام برنار فقد أرسلوا إلى مدرسة داخلية يديرها القس لا مبرسييه فى قرية بوسيه القريبة . « هنا كان علينا أن نتعلم اللاتينية ، وكل اللغو التافه الذى أطلق عليه اسم التعليم . » (١١) وكان التعليم المسيحى الكلفى جزءا من صميم المنهج ؟

وأحب معلميه ، لاسيما أخت القسيس ، الآنسة لا مبرسييه ، وكانت فى الثلاثين ، وجان - جاك فى الحادية عشرة ، فوقع فى غرامها على طريقته العجيبة . كان إذا ساطته عقابا على سوء الأدب ، أبهجه أن يتعذب على يديها ، « فإن شيئا من الشهوانية أختلط بالآلم والخزى ، مما خلف فى الرغبة فى تكرار العقوبة أكثر من الخوف منه » . (١٢) فلما عاد إلى الذنب وضح التذاذه بالعقاب وضح صممت معه على ألا تعود إلى ضربه بالسوط ؟ وقد ظل عنصر مازوكى يلزم تكوينه العشق إلى النهاية .

« وهكذا قضيت سن المراهقة ، ببنية متقدمة ، دون أن أعرف أو حتى أشتهى أى أشباع آخر لرغباتى المشبوبة غير ما أوحى به إلى الآنسة لا مبرسييه فى براءة ، وحين بلغت مبلغ الرجال لم يختلف هذا الميل الصببى بل إتحد مع الميل الآخر . ولقد ظلت هذه الحماسة وما صاحبها من شدة حياء فطرى تحول دائما بينى وبين الاجترار مع النساء ، وهكذا كنت لإقضى أيامى أتحرق فى صممت شوقاً لمن أهمم بهن دون أن أجروء على البوح برغباتى . .

« وهانذا قد خطوت أول خطوة وأشقها فى تيه اعترافى الحالك الإلیم . ذلك أننا لا نستشعر فى البوح بذنب ينطوى على الإجرام فعلا ذلك النفور الشديد الذى نستشعره فى البوح بذنب لا يثير غير السخرية » (١٣) .

ويجوز أن روسو ، في حياته اللاحقة ، وجد عنصر لذة في شعوره بالمقاومة والصد من العالم ، ومن أعدائه ، ومن أصدقائه .

وبعد اللذة التي وجدها في عقوبات الأنسة لا مبرسيه وجد متعة في المنظر الطبيعي الرائع الذي أحاط به ، « كان في الريف من الفتنة . . . ما حجب إلى الحياة الريفية حباً لم يستطع الزمن أن يطفئه » . (١٣) ولعل هذين العاملين اللذين أنفقهما في بوسيه كانا أسعد سنى عمره رغم ما تكشف له من ظلم في هذه الدنيا . فقد عوقب مرة على ذنب لم ينجح ، فاستجاب بسخط لم يفارقه قط ، وبعدها « تعلم أن يرائي ، ويتمرد ، ويكذب ، وبدأت كل الرذائل المألوفة في حياتنا تفسد براءتنا السعيدة » . (١٤)

ولم يتجاوز قط هذه المرحلة من التعليم المدرسي أو الكلاسيكي وربما كان افتقاره إلى التوازن ، وصواب الحكم ، وضبط النفس ، واخضاعه العقل للوجدان . . ربما كان هذا كله راجعاً لانتهاء تعليمه المدرسي في فترة مبكرة . ففي ١٧٢٤ ؛ حين بلغ الثانية عشرة ، أعيد هو وابن خالته إلى بيت أسرة برنار . وزار أباه في نيون ، وهناك هام بفتاة تدعى فولسون ، فصادته عنها ، ثم بأخرى تدعى جوتون « أبت أن تسمح لي بشيء من التجاوز معها ، في حين أباحت لنفسها أشد الحريات معي » . (١٥) وبعد عام من التردد والتذبذب ألحق صييا الحفار في جنيف . وكان يحب الرسم ، وقد تعلم الحفر على ظروف الساعات ، ولكن معلمه كان يضربه بقسوة على ذنوب صغيرة . « فدفعتني إلى رذائل كنت أحتقرها بفطرتي ، كالكذب ، والكسل ، والسرقة » . وانقلب الصبي الذي كان من قبل سعيداً إلى غلام منطو مكتئب كاره لعشرة الناس .

ووجد السلوى في الأدمان على قراءة الكتب التي استعارها من مكتبة قريبة ، وفي الرحلات الريفية يقوم بها في الآحاد . وحدث مرتين أنه تباطأ في الحقول حتى وجد أبواب المدينة مغلقة إذ حاول العودة ، فانفق الليل في العراء ، ومضى إلى عمله نصف مشدوه ، وكان جزاؤه علقه ساخنة .

وفي رحلة ثالثة من هذه الرحلات حملته ذكرى هذا الضرب على أن يقرر
إلا يعود إطلاقاً فضى قدما إلى كونفنيون في سافوى الكاثوليكية ، على
سنة أميال من بلدته ، وهو لم يبلغ بعد السادسة عشرة (١٥ مارس ١٧٢٨)
لا نقود معه ولا ثياب سوى ما يحمله على ظهره .

هناك طرق باب قسيس القرية الكاثوليكية الأب بنوا ديونفير ، ولعله
سمع أن هذا الكاهن الشيخ تواق هداية الجنيبيين الشريدين ، فهو
يقدم لهم الطعام الطيب علا بالنظرية القائلة أن المعدة الممتلئة تعين على
التفكير المستقيم . وقد قدم لجان — جاك غذاء طيباً ، وقال له « اذهب
إلى آنسى ، حيث تجد سيدة صالحة خيرة يتيح لها كرم الملك أن تحول
النفوس عن تلك الخطايا التي إقلمت عنها لحسن الحظ »^(١٦) . ويضيف روسو
أن هذه السيدة هي « مدام دفارن ، التي اهتدت إلى الكتلكة مؤخرًا ،
والتي رتب القساوسة أن يبعثوا إليها بأولئك التعساء المستعدين لبيع عقيدتهم ،
وكانت إلى حد ما مضطرة إلى أن تشارك هؤلاء معاشا قدره ألفا فرنك
أنعم بها عليها ملك سردانيا » . ورأى الفتى الشريد أن شطراً من ذلك المعاش
قد يستأهل تغيير العقيدة . وبعد ثلاثة أيام ، في آنسى ، مثل أمام مدام
فرانسوا — لويز دلاتور ، بارونة فاران .

كانت في التاسعة والعشرين ، امرأة حلوة ، كيسية ، دمة ، ممحة
جذابة الملبس ، « ما رأيت وجهها أبجل ولا جيداً أبدع ، ولا ذراعين
مليحتين أروع تكويناً »^(١٧) . وكانت في مجموعها أبلغ حجة تناصر
الكاثوليكية رآها روسو على الإطلاق . ولدت يفيقي لأسرة طيبة ،
وتزوجت وهي صغير جداً من المسيو (البارون فيما بعد) دفارن اللوزاني
وبعد سنوات من التنافر الأليم تركته ، وعبرت البحيرة إلى سافوى ،
ونالت حماية الملك فكتور أمادو ، وكان يومها في إفيان . وبعد أن نزلت
آنسى ، قبلت اعتناق الكاثوليكية ، معتقدة أنها لو ادت شعائرها الدينية
على الوجه الصحيح لغفر الله لها غرامياتها التي تقع فيها بين الحين والحين ،

ثم لأنها لم تستطع أن تصدق أن يسوع الرقيق القلب سيقذف بالرجال - فما
بالك بامرأة جميلة - في النار الابدية^(١٨).

وكان يطيب لجان - جاك أن يمكث معها لولا أنها كانت مشغولة ؛
ففتحته ببعض المال ، وأمرته بأن يمضي إلى تورين ويتلقى التعليم في « نزل
الروح المقدس » وقد استقبل هناك في ١٢ أبريل ١٧٢٨ ، وفي ٢١ أبريل
عمد في المذهب الكاثوليكي الروماني . وحين استعاد ذكرى هذه الواقعة
بعد أربعة وثلاثين عاماً - وقبل عودته إلى البروتستنتية بثماني سنوات - كتب
يصصف في رعب تجربته في النزل ، بما في ذلك محاولة للاعتداء على عفته من
زميل مغربي حديث الاهتداء ؛ وقد خيل إليه أن موقفه من اعتناق
الكاثوليكية كان موقف النفور ، والحزى ، والتسويق الطويل . ولكن
الظاهر أنه تكيف مع الظروف التي وجدها في النزل لأنه مكث هناك
دون إكراه أكثر من شهرين بعد أن قبل في كنيسة روما^(١٩) .

ثم ترك النزل في يوليو ، مسلحاً بستة وعشرين فرنكاً . وبعد أن أنفق
أياماً في مشاهدة معالم المدينة وجد عملاً في متجر جلدته إليه جمال السيدة
الواقفة خلف منصته . ووقع في غرامها للتو والساعة ، وما لبث أن جثا
أمامها وبذل لها عهداً بالوفاء مدى الحياة . وابتسمت مدام بازيل ، ولكنه لم
تسمح له بأن يتجاوز يدها ، ثم أن زوجها كان وشيك الوصول في أية
لحظة . يقول روسو « إن عدم توفيقى مع النساء نشأ دائماً عن أفراطى في
حين »^(٢٠) ولكن كان في فطرته أن يجد في التأمل المدة أعظم مما يجد في
الإشباع وقد فرج عن ضيقه بتلك « التكملة الخطرة التي تخدع الطبيعة
وتنقل الفتيان ، الذين على شاكلتى مزاجاً ، من اضطرابات كثيرة ، ولكن
على حساب صحتهم ، وقوتهم ، وأحياناً حياتهم »^(٢١) .

ولعل هذه العادة ، التي تفاقمت حماها نتيجة النواهي المرهبة ، لعبت
دوراً خفياً في زيادة نزقه ، وأهامه الرومانسية ، وشعوره بالقلق في المجتمع ،
وحبه للوحدة . وهنا نجد « الاعترافات » تنوح صراحة لم يسبق لها نظير .

« كانت أفكارى فى شغل شاغل بالفتيات والنساء ولكن بطريقى الخاصة . وقد أبقت هذه الأفكار حواسى فى نشاط دائم مؤذ ... وبلغ فى التبعج مبلغا جعلنى ألهب رغباتى بأشد المناورات لإسرافا بعد أن عجزت عن اشباعها . فكنت التمس الأزقة المظلمة والأركان المنزوية ، حيث استطيع أن أتعري عن بعد أمام اشخاص من الجنس اللطيف فى الوضع الذى لإستهيت أن أكون عليه بقرهن . لولم يكن ما رأيته منى هو عورتى - فذلك ما لم يخطر لى ببال ، إنما كان العضو المثير للضحك (الأرداف) : ولا يمكننى وصف اللذة الحمقاء التى استشعرتها فى تعريتها أمام أعينى . ولم تكن بين هذا وبين المعاملة المشتهاة (وهى الجلد) غير خطوة واحدة ؛ ولست أشك أن امرأة حازمة كانت فى مرورها ما نحتى هذه المتعة لو لنى جرؤت على التمداد فى فعلتى .

« وذات يوم ذهبت لاقف فى مؤخرة حوش به بر تستقى منها فتيات البيت . . . وعرضت عليهن مشهداً يثير الضحك أكثر مما يثر الغواية » أما أحكهن فتظاهرن بأنهن لا يرين شيئاً ؛ وبدأ بعضهن يضحكن ، وأحسن غيرهن بالأهانة فصحن مسخيات . »

ولكن واحدة منهم لم تتقدم للأسف لتجلده - وبدلاً من ذلك حضر حارس يحمل سيفاً ثقيلاً وله شارب رهيب ، ومن خلفه أربع عجائز أو خمس مسلحات بالمسكانس . أما روسو فنجا بأن قال فى تعليل مسلكه أنه « شاب غريب من أسرة كريمة التاث عقله » ولكن ماله قصد يمكنه فى المستقبل من مكافأتهم على غفرانهم فعلته ، « وتاثر الرجل المرعب » وخطى سبيله ، الأمر الذى اسخط العجائز غاية السخط (٢٢) .

وكان خلال ذلك قد وجد وظيفة تابع يرتدى زى الخدم فى بيت مدام دفرسلى ، وهى سيدة تورينية لها نصيب من الثقافة . هناك اقترف جريمة أثقلت ضميره طوال عمره . ذلك أنه سرق شريطاً من أشرطة المدام الزاهية الألوان ، فلما أنهم بهذه السرقة ادعى أن خادمة أخرى أعطته

للمشرط . ووظيفته الخادمة — ماريون — البريئة تماماً من السرقة توبيخاً أنطوى على نبوة ، فقالت له « إيه ياروسو ، ظننك ذا طبيعة خيرة . أنك تجعلنى غاية فى التعاسة ، ولكننى لا ارضى أن أكون فى موقفك » (٢٣) . وطرده كلاهما ، ويضيف روسو فى إعرافاته :

لست إدري ما أصاب ضحية إفترائى هذا ، ولكن كان الاحتمال ضعيفاً جداً فى أن نجد لها وظيفة حسنة بعد ذلك ، لأنها عانت من تهمة مؤذية لسمعتها من جميع الوجوه . . . ولقد ظلت الذكرى الإلزمة لهذا العمل . . . تثقل ضميرى إلى اليوم ، وفى وسعى أن أقول صادقاً أن رغبتى فى التخفيف من ألم هذه الذكرى شاركت كثيراً فى تصميمى على كتابة إعرافائى (٢٤) .

وقد تركت تلك الشهور الستة التى عمل فيها خادماً بصمتها على خلقه ، فهو لم يصل قط إلى احترام نفسه رغم كل وعيه بعقريته : وشجعه قسيس شاب لقيه وهو يخدم مدام دفرسلى على الاعتقاد بأن فى استطاعته التغلب على أخطائه إذا حاول مخلصاً القرب من أخلاقيات المسيح . وقال السيد جيم هذا إن أى دين صالح ما دام يشيع السلوك المسيحى ؛ ومن ثم فقد أوماً إلى أن جان — جاك يكون أهناً بالاً إن هو عاد إلى مسقط رأسه ومذهبه الأصيل . وقد استقرت هذه الآراء « لرجل من أفضل من عرفت من الرجال ، طويلاً فى ذاكرة روسو ، وأوحى إليه بصفحات مشهورة فى كتابه « إميل » . وبعد عام التقى فى مدرسة سان — لازار اللاهوتية ، بقس آخر هو إذ الأبىه جاتبييه ، رجل له « قلب يفيض رقة وحناناً » فاته الترقى لأنه كان سيباً فى حمل عذراء فى أبرشيته . يقول روسو معقباً « لقد كانت هذه القصة فضيحة رهيبة فى أسقفية شديدة التزم ، لا يصح فيها أبداً للقساوسة (الحاضرين لتنظيم حسن) أن يكون لهم أبناء — إلا من نساء متزوجات » (٢٥) . ومن « هذين القسيسين الفاضلين ألفت شخصية قسيس صافوا » .

وفى مطلع صيف عام ١٧٢٩ ، عاود روسو - الذى بلغ الآن السابعة عشرة - الحنين إلى حياة الترحل ، ثم أنه علل نفسه بأنه قد يجد بمعونة مدام دفاران وظيفة أقل إذ لا لا لكبريائه . فانطلق بصحبة غلام جنينى مرح يدعى باكل سيرا من تورين ، واخترقا ممر جبل سنييس فى الألب إلى شامبرى وآنسى . وقد صور قلمه الرومانسى تلك الإفعالات التى جاشت بها نفسه وهو يدنو من مسكن مدام دفاران تصويرا رائعا « فقد ارتعشت ساقاى من تحنى وغامت عيناي ، فلم أبصر ولم أسمع ولم أذكر احدا ، واضطرت مرارا إلى الوقوف لألتقط أنفاسى وأملك أحاسيسى المشدودة (٢٦) » . ولا شك فى أنه كان غير واثق من أنها سترحب بمقدمه . فكيف يستطيع أن يفسر لها كل ما طرأ على حياته من صروف وتقلبات منذ تركها ؟ على أن « نظرتها الأولى بددت جميع مخاوفى . ووثب قلبي لسماع صوتها . وألقيت نفسى عند قدميها ، وفى نشوة من الفرح العارم ضغطت شفتاى على يدها (٢٧) » : ولم يسؤها هيأمة بها ، فخصصت له حجرة فى بيتها ، وحين بدأ البعض يتقولون كان جوابها « فليقولوا ما شاءوا ، ولكنى ما دامت العناية قد ردتى إلى ، فأنى عازمة على ألا اتخلى عنه » .



٣ — ماما : ١٧٢٩ — ٤٠

وتعلق بها تعلقاً شديداً ، كأى فتى يتعلق بامرأة الثلاثين كان يلثم سرّاً الفراش الذى تنام عليه ، والكرسى الذى تجلس عليه « بل الأرض ذاتها حين يخطر إلى أنها مشّت عليها^(٢٨) » .

(هنا يخيّل إلينا أن المبالغة طغت على التاريخ)

وكان شديد الغيرة من كل من ينافسونه على الاستئثار بوقتها . وتركته يخرج كالمهر السعيد ، وكانت تدعوه تارة بالقط الصغير ، وتارة بالطفل ، وشيئاً فشيئاً أرتضى أن يدعوها « ماما » واستخدمته فى كتابة رسائلها وإمساك حساباتها ، وجمع الأعشاب لها ، ومعاونتها فى تجارتها الكيميائية . وأعطته كتباً ليقراً — الاسبكتاتور ، ويوفندرف ، وسانت افرمون ، وملحمة فولتير الهنرياده . وكانت هى نفسها تحب أن تتصفح « قاموس بويل التاريخى النقدي » وكانت لا تسمح للاهوتها بأن يضايقها ، ولعل استمتاعها بصحبة الأب جرو ، ناظر مدرسة اللاهوت المحلية ، مرجعه أنه كان يساعدها على إحكام عقد مشدها « وبينما كان مشغولاً بهذا كانت تجرى فى أرجاء الغرفة ، هنا أو هناك كما تدعو الدواعى . وكان الأب ، ناظر المدرسة ، يتبعها متذكراً تجره الأربطة من خلفها ، وهو لا يفتأ يردد « أرجوك أن تقفى ساكنة ياسيدتى » . وكان هذا كله مشهداً مسلياً حقاً^(٢٩) » .

وربما كان هذا القسيس المرح هو الذى أشار بأن جان — جاك قد يستوعب من التعليم قدرًا يؤهله لأن يكون قسيس قرية ، وذلك على الرغم من كل أمارات الغباوة البادية عليه . ووافقت مدام دفران وهى مهتمة بالعثور له على مهنة يرتزق منها . وعليه ففى خريف ١٧٢٩ دخل

روسو مدرسة سان - لازار اللاهوتية ليعضد للقسوسية . وكان قد ألف الكاثوليكية الآن بل شغف بها^(٣٠) ؛ أحب فيها طقوسها المهيبة ، ومواكبها ، وموسيقاها ، وبخورها ، واجراسها التي خالها تعلن على الملأ كل يوم أن الله في سمائه ، وأن العالم ببحر أو سوف يكون ببحر ، أضف إلى ذلك أن ملهبا يستهوى مدام دافران ويغفر لها خطاياها لا يمكن أن يكون سيئا . غير أن التعليم المدرسي الذي حصله من قبل كان من الضالة بحيث اقتضى الأمر أن يفرض عليه منهج مركز في اللاتينية . ولكنه لم يستطع صبرا على تصارييف أسمائها وصفاتها وأفعالها ، وبعد خمسة أشهر من الجهد والعرق رده معلومه إلى مدام دافران بتقرير يقول أنه « غلام لا بأس بتقواه » ولكنه لا يصلح كاهنا .

وحاولت مساعدته من جديد . ودعاها ما لاحظته من ميله للموسيقى إلى تقديمه إلى نيكولوز لوميتير ، عازف الأرغن في كتدرائية آنسى وذهب جان - جاك ليعيش معه طوال شتاء ١٧٢٩ - ٣٠ ، وعزاؤه أنه لا يبعد عن ماما سوى عشرين خطوة . وراح يرتل في فرقة الترتيل ويعزف على القلوت ، وأحب الترانيم الكاثوليكية ، ووجد الغذاء الطيب ، وكان سعيداً . ولم يعكر عليه صفو العيش مع الميسو لوميتير غير إسراف هذا العازف في الشراب . وذات يوم تشاجر رئيس فرقة الترتيل الصغير مع رؤسائه ، فجمع كراسات موسيقاه في صندوق ، ورحل عن آنسى . وامرت مدام دافران روسو أن يصحبه حتى ليون . هناك سقط لوميتير على الطريق مغشيا عليه بفعل (البطاح) أى هذيان الحمى الذي يصيب مدمني الخمر . واستغاث جان - جاك بالمارة وقد أصابه الرعب ، وأعطاهم العنوان الذي كان مدرس الموسيقى يبحث عنه ، ثم فر راجعاً إلى آنسى وماماً . « أن تعلقى بها بكل ما فيه من حساسية وصدق اقتلع من قلبي كل مخطط يمكن تصويره وكل حماقات الطموح . فلم أر سعادة في غير العيش بقرىها ، وما كنت لأخطو خطوة دون أن أشعر أن المسافة بيننا قد بعدت^(٣١) » . ولكن علينا أن نذكر أنه لم يتجاوز يومها الثامنة عشرة .

فلما وصل إلى آنسى وجد أن المدام قد رحلت إلى باريس ولا أحد يعرف متى تعود . وأحسن أنه وحيد مهجور ، فراح ينفق اليوم تلو اليوم هائماً على وجهه في الريف ، يتأمل بالنظر إلى ألوان الربيع المشرقة وسماع زقزقة الطيور اللطيفة - هذه الطيور العاشقة بلاريب . وكان أحب الأشياء إليه أن يستيقظ مبكراً ويرقب الشمس تطلع ظافرة فوق الأفق . ورأى في إحدى جولاته تلك آنستين راكبتين ، تبحران جواديهما المترددين على خوض غدير أمامهما . وفي نوبة من نوبات البطولة أمسك بعنان أحد الجوادين وعبره الماء والآخر يتبعه . وكان على وشك المضى إلى حال سيبله لولا أن الفتاتين أصرتا على أن يصحبهما إلى كوخ يجفف فيه حذاءه وجواربه ، فوثب على ظهر أحد الجوادين خلف الأنسة ج . تلبية لدعوتها . فلما اضطرت إلى الإمساك بها لاستقر في مكانى راح قلبي يبدق وكانت دقاته من العنف بحيث أحست بها « (٣٢) في تلك اللحظة بدأ يكبر على هيأه بدمام دفاران . وأنفق الشباب الثلاثة يومهم في رحلة خلوية معاً ، وتجراً روسو فقبل يد إحدى الفتاتين ثم تركناه ، فقفلى إلى آنسى منتشياً لا يكاد يعبأ بغياب ماما عنها . وقد حاول العثور على الآنستين ثانية ، ولكن دون جدوى .

وما لبث أن عاد يضرب في الأرض من جديد ، واصططع هذه المرة خادمة مدام دفاران إلى فريبورج . وإذا اخترق جنيف « ألفيتنى متأثراً بالغ التأثير حتى لم أكد أقوى على المضى في طريقى . . . فقد رفعت صورة الحرية (الجمهورية) روحى إلى الذرى » (٣٣) . ومن فريبورج مشى إلى لوزان . ولم يعرف التاريخ كاتباً شديداً الولع بالمشى مثله . فن جنيف إلى تورين إلى آنسى إلى لوزان إلى نوشاتل إلى برن إلى شامبيرى إلى ليون عرف الطريق واستمتع شاكراً بالمناظر والروائح والأصوات .

« بطيبل أن أمشى على سيجيتى ، وأن أقف حيث اشتى ، فحياة المشى ضرورة لى . والسفر على الأقدام ، فى ريف جميل ، وجو بديع ،

ويهدف لطيف أختم به رحلتى - هذا أنسب ما يروفي من ضروب العيش » (٣٤) .

ذلك أنه لعدم شعوره بالإطمئنان فى حضرة الرجال الذين أصابوا حفظاً من التعليم ، وبالحجل والعى فى حضرة النساء الجميلات ، كان يسعد إذا انفرد بالغابات والحقول ، والماء ، والسماء ، فجعل من الطبيعة مستودع سره ونجواه وأفضى إليها بغرامياته وأحلامه فى حديث صامت ، ونخيل إليه أن حالات الطبيعة المتقلبة تمتزج أحياناً فى تناغم صوفى مع حالته النفسية . ولم يكن أول من أشعر الناس بحال الطبيعة ، إلا أنه كان أشد رسلها تحمساً لها وتأثيراً فيهم فنصف شعر الطبيعة منذ روسو هو جزء من ثرائه ، لقد شعر هالار من قبل بحلال جبال الآلب ووصفه ، ولكن روسو جعل من سفوح سويسرة على طول الساحل الشمالى لبحيرة جنيف ملكه الخاص ، وأورث الأجيال غير كرومها المدرجة . فلما أراد اختيار موقع لبيت يسكنه شخصيتى جولى وفولمار أسكنهما هنا ، فى كلارنس بين فيفيه ومونرو ، فى فردوس أرضى امتزجت فيه الجبال والحضرة والماء والشمس والثلوج .

وانتقل إلى نوشاتل حين لم يصب نجاحاً فى لوزان » هنا . . .
بفضل تدريسى للموسيقى اكتسبت بعض الإلمام بها دون وعى منى . » (٣٥)

وفى بلدة قرية تدعى بودرى التقى بحجر يونانى يلتصق بعض المال لترميم كنيسة القبر المقدس فى أورشليم ، فرافقه روسو مترجماً له ، ولكنه تركه فى سوليو ومشى خارجاً من سويسرة داخلاً فرنسا . وفى أثناء سيره دخل كوخاً وسأل صاحبه أيستطيع شراء طعام ، فقدم له الفلاح خبز الشعير واللبن ، وقال إن هذا كل ما يملك ، ولكنه حين رأى أن جان - جاك ليس جابى ضرائب فتح باباً مسحوراً نزل منه ثم عاد بخبز قمح ، وبيض ، ونبىذ . وعرض روسو أن يدفع ثمن طعامه ، ولكن الفلاح أبى أن يقبله ، وعلل سلوكه بأنه مضطر إلى إخفاء خير الطعام مخافة أن يفرض عليه المزيد من الضرائب . » إن ما قاله لى . . خلف فى ذهنى أثراً لا يمحي ،

وبذر بذور تلك الكراهية التي لا تطفأ والتي نمت منذ ذلك الحين في قلبي ،
الكراهية لما يقاسيه هؤلاء النساء من عنث . والسخط الشديد على
ظالمهم . (٣٦)

وفي ليون أنفق أياماً بغير مأوى ، يفتش المقاعد في الحدائق العامة
أوينام على الأرض ، واستخدم حيناً في نسخ الموسيقى . فلما سمع أن
مدام دفران .

تسكن شامبرى (على أربعة وخسين ميلاً إلى الشرق) ، انطلق لينضم
إليها من جديد . ووجدت له وظيفة سكرتير للملاحظ الأقالم (١٧٣٢-٣٤)
وكان خلال ذلك يعيش تحت سقفها ، لا يتقص من سعادته بعض الشيء
غير ما كشف من أن مدير أعمالها كلود آنية هو أيضاً يعشقها . ويتضح
ما طرأ على غرامه من فتور من هذه الفكرة الفريدة في اعترافاته :

ولم أستطع أن أعلم ، دون ألم ، أنها تعيش في مودة أوثق مع شخص
غيرى . . . ومع ذلك فبدلاً من أن أشعر بأى كراهية للشخص الذى تفوق
على على هذا النحو وجدت الود الذى أكنه لها يمتد فعلاً إليه ، فلقد
تمنيت لها السعادة فوق كل شيء وإذا كان معنياً بخطتها التى توسلت بها
للسعادة ، فقد رضيت له السعادة هو أيضاً واعتنق خلال ذلك أفكار
خليته تماماً وشعر بصداقة مخلصه لى . . وهكذا عشنا في وحدة أسعدتنا
جميعاً ، وحدة لا يقوى على فصم عراها غير الموت . ومما يدل على
سمو خلق هذه المرأة الودود أن كل الذين أحبوا أحبوا بعضهم بعضاً ،
فحتى الغيرة والتنافس أذعنا للعاطفة الأقوى التى ألهمتهم أياها وما رأيت
قط واحداً ممن أحاطوا بها يضمير أقل حقد للآخرين . فليتوقف القارئ
هنيه عند هذا المديح ، وإذا استطاع أن يتذكر أى امرأة أخرى تستحقه
فليرتبط بها أن أراد لنفسه السعادة (٣٧) .

أما الخطوة التالية في هذه الرواية الغرامية المتعددة الأطراف فكانت هي

أيضاً نقيضاً لكل قواعد الزنا . ذلك أن مدام دفران حين أدركت أن جارة لها تدعى المدام دمانتون تتطلع إلى أن تكون أول من يعلم جان - جاك فنون الغرام ، عرضت نفسها عليه خلية دون أن يكون في هذا الوضع إضرار بخدماتها المائلة لآنية ، إما لأنها أبت أن تسلم بالتفوق لجارتها وإما لأنها أرادت أن تحمي القتي من ذراعين أقل حناناً من ذراعها وأنفق جان - جاك ثمانية أيام يدير الأمر في رأسه ، فقد كان من أثر طول ألفته بها أن أفكاره عنها كانت بنوية أكثر منها شهوانية . يقول « لقد أحببتها حبا منعى من أن أشبهها^(٣٨) » وكان آتئذ يعانى من الأمراض التي قلدر لها أن تطارده حتى النهاية ، وهي التهاب المثانة وضيق مجرى البول . وأخيراً ، وبكل الحياء المنتظر منه ، ارتضى العمل باقتراحها . يقول :

« وأخيراً جاء اليوم الذى كنت أخشاه أكثر مما أتوق إليه
فلقد كان قلبي يجذب غرامياتي دون أن يشتهي الجائزه . ولكنى حصلت عليها رغم ذلك . ورأيتنى لأول مرة بين ذراعى امرأة ، وامرأة أعبدتها . أكنت سعيدة ؟ لا لقد ذقت اللذة ، ولكنى لا أدرى أى حزن طاغ ميم هذه التعويذه فلقد شعرت كأنى أقترف سفاح المحارم . وبينما كنت أضمهها بين ذراعى فى نشوة الفرح اغرقت صدرها مرتين أو ثلاثا بدموعى . أما هى فلم تكن بالحزينة ولا بالفرحة ، بل كانت هادئة وهى تعانقنى وتقبلنى ولم تستشعر أى إنششاء ، ولا أحست بالندم قط ، لأنها لم تكن شهوانية على الإطلاق ، ولم تكن تبحث عن اللذة بتاتا^(٣٩) .

وقد عزاروسو إلى سم الفلسفة مناورات هذه السيدة وهو يستحضر ذكرى هذا الحدث البارز فيما بعد . قال :

« أكرر أن كل مشاعرها كانت نتيجة خطئها لا نتيجة شهواتها . فلقد كانت كريمة المولد ، نقية القلب ، نبيلة السلوك ، وكانت رغباتها سوية فاضلة ، وذوقها رقيقاً مرهفاً . وبدا أنها خلقت لذلك الطهر الرائع - طهر الآداب - الذى أحبه على الدوام ولكنها لم تمارسه قط ، لأنها بدلا من أن تصغى إلى أوامر قلبها اتبعت أوامر عقلها الذى ضللها ومن

سوء حفظها أنها كانت تعزّز بالفلسفة ، وكان من أثر المبادئ الخلقية التي استخلصتها من هذه الفلسفة إفساد القضية التي أشار بها قلبها^(١٠) .

ومات آنيّه في ١٧٣٤ . واستقال روسو من وظيفته في خدمة ملاحظ الإقليم ، وتولى إدارة أعمال المدام وقد وجدها في حال خطرة من الخلل تشرف على الأفلاس فحصل على بعض المسال بتدريس الموسيقى ، وفي ١٧٣٧ آلت إليه ثلاثة آلاف فرنك إستحققت له من ميراث أمه . فأنفق بعضها على الكتب ، وأعطى الباقي لمدام ديفاران . ثم لزم الفراش ، فرضته ماماً بخنان . ولما لم يكن لبيتها حديقة فقد استأجرت (١٧٣٦) كوخاً في ضاحية يسمى الشارميت هناك « سارت حياتي سيراً هادئاً غاية الهدوء » ومع أنه « لم يكن يحب قط أن يصلى في قاعة » فإن الحلاء خارج الكوخ حفزه لشكر الله على جمال الطبيعة وعلى مدام ديفاران ، ولطلب البركة الألفية على رباطهما . وكان يومها شديد التعلق باللاهوت الكاثوليكي مع شائبة حزينة من الجانسانية « فكثيراً ما عذبنى خوف الجحيم^(١١) » .

وكان يقلقه أكتئاب هو ضرب من الوهم كان رائجاً في ذلك العهد . وقد خيل إليه أن هناك ورماً في غشاء قريب من قلبه ، فقصد مونبلييه في مركبة البريد : وفي الطريق هدأ من أكتابه بما زعم أنه تحقيق لوصال بدمام دلارناج (١٧٣٨) وكانت أما لفتاه في الخامسة عشرة . فلما عاد إلى شامبرى وجد أن مدام ديفاران تجرب علاجاً ممثلاً ، وأنها اتخذت عشيقاً جديداً لها من صانع باروكات شاب يدعى جان فنتسنريد . واحتج روسو؛ فقالت له إنه يسلك كالأطفال ، وأكدت له أن في حبها متسعاً لثنين باسم جان . ولكنه أبى أن « يخط من كرامتها على هذا النحو » ، فاقترح عليها أن يعود إلى وضعه القديم ، فزعمت أنها موافقة ، ولكن أستيائها من تخليه عنها بهذه السرعة أصاب محبتها له بالفتور . وأعتكف في شارميت وأقبل على دراسة الفلسفة .

ولأول مرة (حوالى ١٧٣٨) وعى بنسائم « التنوير » الهابة من باريس وسيريه . فقرأ بعض أعمال نيوتن ، ولينتنز ، وبوب ، وقلب في مناهات

قاموس بيل . ثم عاد إلى درس اللاتينية ، وأحرز في ذلك بمجهده وحده تقدماً أكثر مما أحرز من قبل على يد معلميه ووفق إلى أن يقرأ شذرات من فرجل ، وهوراس ، وتاسيتوس ، وترجمة لاتينية لمحاورات افلاطون . وطلع عليه لا بروير ، وبسكال ، وفنيلون ، وبريفوست ، وفولتير ، وكأنهم رؤيا أدارت رأسه « لم يفتنا شيء مما كتبه فولتير » ، والواقع أن كتب فولتير هي التي « أوحى إلى بالرغبة في أن أتأق في الكتابه ، وحملتني على محاولة تقليد تلوينات ذلك الكاتب الذي فتنت به أي فتنة^(٢٧) » وعلى غير وعى منه فقد اللاهوت القديم الذي كان من قبل إطار أفكاره ، شكله وصرامته ، فوجد نفسه يفكر دون رعب في عشرات الهرطقات التي كانت تبدو له في شبابه فاضحة شائنة . وحل محل إله الكتاب المقدس إيمان جار يوشك أن يكون مشبوباً هو الإيمان بوحدة الوجود . هناك إله ، نعم ، والحياة بدونها لا معنى لها ولا يطبقها الإنسان ، ولكنه ليس ذلك الإله الخارجى ، المنتقم ، الذى تصوره الناس القساة الجبناء ؛ إنما هو روح الطبيعة ، والطبيعة فى صميمها جميلة ، والطبيعة البشرية فى أساسها خير . وعلى هذا الإيمان ، وعلى بسكال ، سيقم روسو فلسفته .

وفى ١٧٤٠ وجدت له مدام دافاران وظيفة معلم خاص لولدى المسيويونو دمايليه ، رئيس بلدية ليون وافترق عنها دون لوم ولا عتاب من أحد الطرفین ، وأعدت له ثياب الرحلة ، وشا ططت لها بعض الملابس بيديها اللتين كانتا فتنة له يوماً ما .



٤ - ليون والبندقية وباريس : ١٧٤٠ - ٤٩

كانت أسرة مابليه حافزا فكريا جديداً لروسو . وكان رئيس البلدية أكبر إخوة ثلاثة ناهين ، أحدهم نجابريل بونو دمابليه الذى اقرب من الشيوعية ، والآخر هو الأبيه إيتين بونو دكوندياك ، الذى أوشك أن يكون ماديا . وقد التقى روسو بثلاثتهم . وبالطبع وقع فى غرام مدام دمابليه ، ولكنها كانت من السباحة بحيث لم تعر الأمر أهمية . واضطر جان - جاك أن ينصرف إلى مهمته ، وهى تعليم ولديها . فأعد للسيد دمابليه بياناً بأفكاره التربوية ، وكانت فى بعضها تفتق والمبادئ التحررية التى ستعرض عرضاً ورومانسيا ممتازاً فى كتابه « إميل » بعد اثنين وعشرين عاماً ، وفى بعضها تناقض رفضه اللاحق لـ « الحضارة » ، لأنها اعترفت بقيمة الفنون والعلوم فى تطوير النوع الإنسانى . وكان يلتقى مراراً برجال كالأستاذ بورد عضو أكاديمية ليون (وكان صديقاً لفولتير) ، فتشرب قدراً أكبر من « التنوير » ، وتعلم أن يهزأ بالجهل والخرافة الشائعين بين الجماهير . ولكنه ظل طوال حياته مراقباً . فذات يوم رأى شابة عارية تماماً إذ اختلس النظر إليها وهى تستحم فى الحمامات العامة ، وتوقف قلبه عن النبض ، فلما خلا إلى نفسه فى حجرته وجه إليها خطاباً جريئاً غفلاً من التوقيع قال فيه :

« لا أكاد أجزؤ على الاعتراف لك يا آنسة بالظروف التى أدين لها بسعادة رؤيتى أياك وعذاب حبى لك . فقد فتننى فيك ما هو أكثر من ذلك الجسد النحيل اللطيف الذى لا ينتقص العرى من جماله ، وذلك القوام الأنيق ، وتلك الخطوط الرشيقه . . . ما هو أكثر من نصارة الزئبق المنشور على شخصك بهذا السخاء الكثير . . . أنها حمرة الخجل الناعمة التى رأيتها تنكسو جبينك حين أسفرت عن وجودى لعينيك بعد أن جردتك بنجث شديد - بغناء بيتين من الشعر^(١٣) .

وكان الآن قد شب إلى السن التى تغريه بعشق الصبايا ، فكادت كل

فتاة حسنة الطلعة تثير أشواقه وأحلامه ، ولكنه تعلق على الأخص بسوزان سر . « مرة - وأأسفاه ، مرة واحدة فقط في حياتي ؟ لمس فمي فيها . إيه أيها الذكرى ؟ هل أفقدك في القبر ؟ » وبدأ يفكر في الزواج منها ، ولكنه اعترف لها قائلاً « ليس لدى ما أقدمه لك سوى قلبي ^(٤٤) » ولما لم يكن قلبه عملة قانونية ، فإن سوزان قبلت يد غديره ، وانكفأ روسو إلى أحلامه من جديد .

إنه لم يخلق ليكون عاشقاً ناجحاً ولا معلماً كفئاً .

« كان لدى من المعرفة القدر اللازم تقريباً لمدرس خاص . . . وبدأ أن رقة طبعي الفطرية تهينني لهذا العمل ، لولا أن تعجل الأمور اختلط بهذا الطبع فإذا سارت الأمور رخاء ورايت أن الجهود التي لم أضن بها أثمرت كنت ملاكاً ، إما إذا اخفقت فقد كنت أنقلب شيطاناً . فإذا لم يفهمني تلميذاي تعجلت الشرح ، وإذا أظهر أي أمارات على الطبع المشاكس كان ذلك يستفزني استفزازاً يكاد يجعلني على قتلها . . . وصممت على تركهما بعد أن اقتنعت بأنني لن أنجح أبداً في تعليمهما التعليم الصحيح : وتبين المسيو دماجليه هذا بالوضوح الذي تبينته به وأن كنت مبالاً إلى الاعتقاد بأنه ما كان ليطردي قط لولا أنني أعفيتها من هذا العناء » .

وهكذا أستقل مركبة البريد قافلاً إلى شامبري بعد أن أستقال وهو حزين ، أو طرد طرداً كريماً . والنفس العزاء من جديد بين ذراعي ماما : فاستقبلته هي في تلاف وأفسحت له مكاناً على مائتها مع عشيقها : ولكنه لم يكن سعيداً في هذا الموقف ، فاغرق نفسه في الكتب والموسيقى ، وابتكر طريقة للتدوين الموسيقي تستخدم الأرقام بدلاً من الرموز . ولما عزم على الذهاب إلى باريس وعرض اختراعه على أكاديمية العلوم أثني الجميع على قراره . وفي يوليو ١٧٤٢ عاد إلى ليون ملتحمساً خطابات تقديم إلى الأعيان في العاصمة . وأعطاه آل مابليه خطابات إلى فوننتيل

والمكونت دكايلوس^{١٧} وقدمه بورد إلى الدوق درشليو . ومن ليون أستقل المركبة العامة إلى باريس تداعب رأسه أحلام الجهد

وكانت فرنسا آنذاك مشتبكة في حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠-٤٨) وإلكن الحرب كانت تدور رحاها على أرض أجنبيه ، وعليه فقد سارت باريس سيرتها الأولى وواصلت حياة المرح البهي والاضطراب الفكري ، حياة المسارح الناطقة بمسرحيات راسين ، والصالونات المتألقه بالهرطقات والسخريات ، والأساقفة الذين يقرءون فولتير ، والشحاذين الذين ينافسون البغايا ، والباعة الجوالين الذين ينادون على بغنائهم ، والصناع الذين يبذلون العرق في سبيل لقمة العيش إلى هذه الدوامه أقبل جان . . جاك روسو ، وهو في الثلاثين من عمره ، في أغسطس ١٧٤٢ : وفي كيسه من المال خمسة عشر جنيها . واستأجر حجرة في فندق سان . . ككتان بشارع الكوردلييه قرب السوربون . . « شارع حثير وفندق تعس ، وحجرة بائسه^(١٨) » وفي ٢٢ أغسطس قدم إلى الأكاديمية « مشروعا عن علامات جديدة للتدوين الموسيقي » . ورفض العلماء مشروعه في جمامة لطيفة . وشرح له رامو رأيهم قائلا « أن علاماتك حسنة جدا . . . ولكن عليها إعتراضا ، هو أنها تحتاج إلى إعمال الذهن ، وهو أمر لا يمكن دائما أن يرافقه سرعة التنفيذ . أما موضع علاماتنا فيصور للعين دون تزامن مع هذه العملية » واعترف روسو بأن الاعتراض لا يمكن التغلب عليه^(١٩) .

وأناحت له خطابات التقديم التي أخذها معه خلال ذلك الاتصال بفونتبيل الذي كان وهو في عامه الخامس والثمانين أحرص على طاقته من أن يأخذ روسو مأخذ الجهد ، والاتصال بما يفوق الذي قرأ مخطوطة مسرحية روسو الهزلية « نارسيس » واقترح أن يدخل عليها تحسينات ، وذلك رغم لإنشغاله بنجاحه روائيا وكاتب مسرحيا وقابل الوافد الجديد ديدرو ، الذي لم يكن بعد قد نشر أى مؤلف يؤبه به ، وكان يومها يصغر جان . . جاك بعام واحد .

« كان ولوعا بالموسيقى ، يعرفها نظريا . . . وقد حدثني ببعض

مشروعاته الأدبية . . . وسرعان ما وثق هذا بيننا صلة دامت خمسة عشر عاماً ، وأغلب ظنى أنها كانت ستدوم إلى اليوم لولا أننا لسوء الحظ... أبناء حرفة واحدة » (٤٨) .

وكان يصاحب ديدرو إلى المسرح أويلاعه الشطرنج ، والتقى روسو في تلك اللعبة بفيليدرو وغيره من مهرة لاعبيها ، و« لم يكن عندى شلث في أننى في النهاية سأتفوق عليهم جميعاً » (٤٩) ووجد سبيله إلى بيت مدام دوبان وصالونها ، وكانت ابنة المصرفى صموئيل برنار ، وعقد صداقة مع ابن زوجها كلود دوبان دفرانكوى وخلال ذلك أوشكت نقوده على النضوب .

وبدأ يبحث من حوله عن عمل يستكمل به جهود أصدقائه في إطعامه . فعرضت عليه بنفوذ مدام بزنفال وظيفة سكرتير للسفارة الفرنسية في البندقية . وبعد أن قطع رحلة طويلة محفوفة بالخطر بسبب الحرب ، وصل إليها في ربيع ١٧٤٣ وقدم نفسه إلى السفير الكونت دمونتاجو . ويؤكد لنا روسو أن هذا الكونت كان أمياً تقريباً ، وكان على السكرتير أن يفك شفرة الوثائق وأن يحررها ، وكان يقدم رسائل الحكومة الفرنسية إلى مجلس شيوخ البندقية بشخصه لأنه لم ينس الإيطالية التى كان قد تعلمها في تورين وكان فخوراً بمنصبه الجديد ، وشكا من أن مركباً تجارياً زاره لم يطلق المدافع تحية له مع أن هذه « التحية نالها من هم أقل شأنًا » (٥٠) وتشاجر الرئيس والمرؤوس على أيهما يظفر بالرسوم التى تدفع نظير استخراج السكرتير لجوازات السفر إلى فرنسا . وقد صلحت حال روسو بفضل نصيبه من هذه الرسوم ، فتناول الطعام الطيب على غير العادة ، واختلف إلى المسرح والأوبرا ، ووقع في غرام الموسيقى الإيطالية والفتيات الإيطاليات .

وذات يوم زار موسماً تسمى لابدوانا « لكيلا أبدو شديد البلاهة أمام رفاقي » وطلب إليها أن تغنى فغنت ، فنقدها دوكاتيه وهم بالإنصراف ، ولكنها رفضت أن تأخذ قطعة النقود دون أن تكون قد بذلت في نيلها

جهداً . فأرضاهما ، وعاد إلى مسكنه « مقتنعا كل الاقتناع بأننى سأتجرع عواقب هذه الفعله ، فكان أول شيء فعلته أننى استدعيت جراح الملك لألتبس منه الدواء « ولكن الطبيب « أقنعنى بأن فى خلقتى ما يجعلنى لأقبل العدوى بسهولة » ^(٥١) وبعد فترة أقام له أصدقاءه حفلة يثاب فيها بجائزة هى الغانية الجميلة زوليتا فدعته إلى حجرتها وخلعت ثيابها . « وفجأة ، بدلا من أن اضطرم بنار الشهوة أحسست ببرودة قاتله تسرى فى عروقى ، وباشمئزاز ينفذ إلى أعماقى ، فيجلى وتخرطت فى البكاء كالأطفال . » وقد علل عجزه هذا فيما بعد بأن أحد ثديي المرأة كان مشوها . أما زوليتا فقد انقلبت عليه هازئة وقالت له « دع النساء وشأنهن . وانصرف إلى درس الرياضة » ^(٥٢) .

وأوقف الميسو دمونتاجو صرف راتب روسو لأن راتبه هو كان متأخراً . فعادا إلى الشجار ، ورفت السكرتير (١٧٤٤) وشكا روسو إلى أصحابه فى باريس وأرسل استفسار إلى السفير فأجاب « يجب أن أبلغكم كم كنا مخدوعين فى السيد روسو . ذلك أن حدة طبعه ووقاحته الناجمين عن شدة اعتداده بنفسه . وعن جنونه . هما اللذان أفضيا به إلى الحال الذى وجدناه عليه . لذلك طردته كما يطرد خادم سيء » ^(٥٣) وقفل جان — جاك إلى باريس (١١ أكتوبر) وطرح على الموظفين المختصين فى الحكومة وجهة نظره فى النزاع فلم ينصفوه . فلجأ إلى مدام دبرنفال . ولكنها رفضت أن تستقبله . فأرسل إليها خطابا عنيفا نستطيع أن نحس فيه لفحات الثورة الفرنسية البعيدة :

« كنت مخطئاً يا سيدتى ، فقد ظننتك منصفة فإذا بك « نبيلة » فقط ، وكان يجب على أن أذكر هذا وأن أدرك أنه لا يليق بى — وأنا رجل غريب أتنمى إلى طبقة العامة . — أن أشكر أحد السادة . ولو أن قدرى رمانى ثانية فى قبضة سفير بهذا الخلق لكابدت آلامى دون شكوى . فإذا كان مفتقراً إلى الإحساس بالكرامة ، ينقصه سمو النفس ، فذلك لأن النبالة فى غنى عن هذا كله ، وإذا اقترن بكل ما هو حقير دنىء فى بلد من أشد بلاد الله

فسادا ، فذلك لأن أجداده خلقوا له من الشرف ما يكفيه ؛ وإذا عاشر
الأوغاد ، أو كان هو نفسه وغدا ، وإذا أكل على خادم أجره ، إذن
ياسيدتى فلن أخلص إلا إلى هذا الرأى ، وهو أن من حسن حظ المرأة
إلا يكون وليد افعاله هو . فهولاء الاجداد — من كانوا ؟ أشخاص
لا شهرة لهم ، ولا مال ، نظرائى ، كان لهم موهبة من نوع ما ، وبنوا
لأنفسهم سمعة ، ولكن الطبيعة التى تبلر بذرة الخير والشر ، اعطتهم
نسلا حقيرا (٥٤) .

ثم إضاف روسو فى « الاعترافات » :

« لقد خلقت عدالة شكواى وعدم جدواها فى ذهنى بدور السخط
على نظمنا الاجتماعية الحمقاء التى تضحى فيها دليماً رفاهية الشعب والعدل
الحقيقى فى سبيل مظهر للنظام ما أنزل الله به من سلطان ، لا ثمرة له إلا أنه
يضيف موافقة السلطة العامة إلى ظلم الضعفاء وبغى الأقوياء (٥٥) .

ولما عاد مونتاجو إلى باريس أرسل إلى روسو « بعض المال تسوية
لحسابى . . . وتسلمت ما أعطانى وسددت كل ديونى ، وعدت يا هولاي
كما خلقتنى . » واستقر ثانية فى فندق سان — كنتان وارترق بنسخ مدونات
الموسيقى . ولما سمع النيل الذى كان يحمل آتند لقب دوق أوليان بفقره
أعطاه كراسات موسيقى لينسخها مشفوعة بخمسين جنيها ذهبيا ، فاحتجز
روسو منها خمسة ورد الباقي لأنه يزيد على حقه . (٥٦)

وكان ما يكسبه أقل كثيراً مما يتيح له أن يعول زوجة ، ولكنه رأى
أن فى استطاعته أن يعول خلية إذا أحكم التدبير وكان من بين من يؤاكلونه
فى فندق سان — كنتان صاحبة الفندق ، وبعض الآباء الدينيين المفلسين ،
وشابة تخدم الفندق غسالة أو خياطة . وكان فى هذه المرأة ، واسمها تريز
لقاسير ، ما فى جان — جاك من إحجام وتردد ، ووعى بالفقر وأن لم
تكن فخوره بفقرها مثله . وكان يدافع عنها إذا عاكسها الآباء . وانتهى بها
الأمر إلى أن ترى فيه حاميا ، وسرعان ما وجد الواحد منهما سبيلا إلى
حضان صاحبه (١٧٤٦) وبدأت إصارعها بأننى لن أتخلى عنها ولن أتزوجها (٥٧) .
ولاعترفت بأنها ليست عذراء ، ولكنها أكدت له أنها لم تأثم غير مرة واحدة ،

وكان ذلك منذ أمد بعيد . فصفح عنها صفحاً جميلاً ، مؤكداً لها أن عذراء العشرين مخلوق نادر الوجود في باريس على أى حال . وكانت مخلوقة بسيطة لا سحر فيها ولا دلال ، لا تستطيع الكلام في الفلسفة أو السياسة كنساء الصالونات ، ولكنها تعرف كيف تطهو ، وتدبر شئون البيت وتحتمل في صبر نزواته وعاداته الغريبة . وكان يتكلم عنها عادة باعتبارها « مديرة البيت » أما هي فتقول عنه « رجل » وندر أن اصططحها في زيارته لا صدقائه ، لأنها ظلت على الدوام مراةة ذهنية ، كما ظل هو على الدوام مراةة خلقية .

« حاولت أول الأمر أن أصلح عقلها ، ولكن جهودي ذهبت أدراج الرياح . ذلك أن عقلها بقي على ما فطرته الطبيعة ، فهو لا يقبل الثقيف . ولا ينجلى أن أعترف أنها لم تعرف قط كيف تقرأ جيداً ، وإن كانت تكتب كتابة لا بأس بها . . ولم تستطع قط أن تتلو شهور السنة بالترتيب ، أو تميز بين عدد وآخر رغم ما بذلت من عناء في محاولة تعليمها . وهي لا تعرف كيف تعد النقود ، ولا تحسب ثمن أى شيء فإذا تكلمت كانت الكلمة التي نخطر لها هي في احيان كثيرة عكس الكلمة التي تقصدها . وقد صنفنا فيما مضى قاموساً بعباراتها لأروح به عن المسيو دلكميسبورج ، وكثيراً ما ذاع أمر اغلاطها بين اخص اصحابي (٨٥) . »

فلما حملت « أرتبك أشد إرتباك » فماذا هو صانع بالأطفال ؟ وأكد له بعض اصحابه أنه من المألوف إرسال الأطفال غير المرغوب فيهم إلى ملجأ للقطاء . فلما ولد الطفل فعل هذا رغم احتجاجات تريز ، ولكن بتعاون أمها (١٧٤٧) وخلال الاعوام الثانية التالية ولد له أربعة أطفال تصرف فيهم على هذا النحو . وقد ألمع بعض الشكاك إلى أن روسو لم يرزق اطفالاً ، وأنه اخترع هذه القصة ليخفي عجزه الجنسي ، ولكن كثرة دفاعه عن تنصاه هذا من المسئولية تجعل هذه النظرية بعيدة الاحتمال . وقد اعترف سرأ بتصرفه في هذا الأمر لديدرو ، وجريم ، ومدام دينيه (٥٩) ؛ واعترف به ضمناً في كتابه « إميل » ؛ واستشاط غضبا على فولتير لأنه أذاع خبره ، ثم أقر به صراحة في كتابه « الاعترافات » واعر ب عن ندمه . إنه لم يخلق للحياة العائلية ، لأنه كان حزمة مرهفة من

الأعصاب ، وجواباً شريداً في الجسد والروح . وكان يعوزه ذلك الأهتمام بالأطفال الذى يجعل الأب صاحباً رزينا ، ولم تكتمل رجولته قط .

في نحو هذه الفترة اسعده الحظ بأن يجد وظيفة مريحة . فقد أشتغل سكرتيراً للمدام دويان ، ثم لأبن أخيها . وحين أصبح دويان دفرانكوى أميناً عاماً للصندوق رقى روسو صرافاً براتب ألف فرنك في السنة . واتخذ الآن الضفيرة الذهبية ، والجوارب البيض ، والباروكة ، والسيف ، وكلها شارات حاكي بها الأدباء ثياب الطبقة الارستقراطية ليجدوا طريقهم إلى بيوت النبلاء^(٦١) . وفى وسعنا أن نتصور ضيقه بشخصيته المنقسمه على ذاتها . وقد أستقبل في عدة صالونات وصنع أصدقاء جدد ، منهم رينال ، وما رمونيتل ، ودوكلو ، ومدام دينيه ، ثم فريدرش ملشيور جريم ، الذى ارتبط به ارتباطاً حميماً جداً ومؤذياً جداً . واختلف إلى حفلات العشاء المثيرة في بيت البارون دولباخ حيث كان ديدرو يقتل الآلهة بسلاح سماء خصومه فك خمار . في وكر الملحنين ذاك ذاب وتلاشى جل كتلكة جان — جاك .

وألّف الموسيقى خلال ذلك . وكان قد بدأ في ١٧٤٣ مزيجاً من الأوبرا والباليه سماه « ربات الفنون الرشقات » يحكي به غراميات أناكربون ، وأوفيد ، وتاسو ، وأخرجت الاوبرا في ١٧٤٥ محدثة بعض الضجة في بيت جاني الضرائب لابولفيير ، وقد سخر منها رامو وزعم إنها محاكاة لانتحالات من الملحنين الإيطاليين ، ولكن الدوق رشليو أعجب بها وعهد إلى روسو بتنقيح أوبرا وباليه تسمى « أعياد رامير » أعدها رامو وفولتير على سبيل التجربة . وفي ١١ ديسمبر ١٧٤٥ كتب روسو أول رساله لأمير أدباء فرنسا :

« لقد ظلمت خمسة عشر عاماً أكد وأكده لأجعل نفسي جديراً باحترامك وبالعطف الذى تحبو به شباب الإدباء الذين تكتشف فيهم الموهبة . ولكي بفضل كتابتي موسيقى أحدى الأوبرات أجلب قد انقلبت موسيقياً . وأيا كان النجاح الذى تحققه جهودي الضعيفة فإنها ستكون في نظري جهوداً

رائعه لو كسبت لى شرف معرفتك أياى ، والأعراب عن الأعجاب
والاحترام العميق للذين يشرفنى أن يكنهما لك خادملك المتواضع
المطيع جداً (٦١) .

وأجاب فولتير : « سيدى ، إنك تجمع فى شخصك موهبتين وجدتا
على الدوام منفصلتين حتى الآن ، فهذا مبرران طيبان يحملاننى على
تقديرك ومحبتك » .

وبهذين الخطابين من خطابات الحب بدأت خصومتها الشهيرة .

٥ - هل الحضارة مرض ؟

فى عام ١٧٤٩ سجن ديدرو فى فانسين عقابا له على فقرات مهينة فى
كتابه « رسائل عن المكفوفين » وكتب روسو إلى مدام دى مبادور يلتمس
الأفراج عن صديقه أو الإذن له بأن يشاركه سجنه . وخلال ذلك الصيف
قام غير مرة برحلة دائرية طولها عشرة أميال بين باريس وفانسين ليزور
ديدرو . وفى واحدة منها أخذ نسخة من مجلة الماركيز دفرانس ليقرأ أثناء
سيره . وهكذا وقع على الإعلان عن جائزة تقدمها أكاديمية ديجون لأفضل
مقال يجيب عن هذا السؤال « هل أعان إحياء العلوم والآداب والفنون على
إفساد الإخلاق أم على تطهيرها ؟ » وأغراه الإعلان بدخول المسابقة . فهو
الآن فى السابعة والثلاثين . وقد آن الأوان ليحقق لنفسه الشهرة . ولكن هل
بلغ من الإحاطة بالعلم أو الفن أو التاريخ مبلغا يكفى لمناقشة مثل هذه
الموضوعات دون أن يفصح ما فى تعليمه من قصور ؟ وقد وصف فى
خطاب كتبه إلى مالزيرب فى ١٢ مايو ١٧٦٢ بحماسة العاطفية المتميزة
تلك الرؤيا التى تراءت له أثناء هذه المسيرة . قال :

« وفجأة أحسست أن مئات الأضواء المتلألئة تخطف بصرى . وتزاحمت
حشود من الخواطر النابضة بالحياة فى ذهنى بقوة وأختلاط جعلاننى أضطرب
أضطراباً لا يوصف واحسست برأسى يدوم فى دوار كأننى نخمور : وضاق

صدرى بخفقان عفيف . فلما عجزت عن السير لصعوبة التنفس أرتمت تحت شجرة على الطريق وقضيت نصف ساعة في حال من الأنفعال الشديد حتى أننى قت وجدت مقدمة صدرتى كلها مبللة بالدموع . . أواه ، لو أتيت لي أن أكتب ولوربع ما رأيت وأحسست تحت تلك الشجرة ، فبأى وضوح كنت أميط اللثام عن كل تناقضات نظامنا الاجتماعى ! بأى بساطة كنت أبين أن الإنسان بفطرته خير ، وأن نظامنا هو الذى جعلته شريراً (٦٢) » .

وهذه العبارة الأخيرة ستكون نشيد حياته المتردد ، وتلك الدموع التى تدفقت على صدريته كانت متبعاً من المنابع العليا التى أثبتت منها الحركة الرومانسية في فرنسا وألمانيا . لقد كان في وسعه الآن أن يسكب قلبه في هجوم على كل تكلف باريس وتصنعها ، وفساد أخلاقها ، وزيف سلوكها المصقول ، وأباحية أدبها ، وشهوانية فنها ، وتعالى طبقتها . وسفه أغنيائها الغليظ الذى تموله أبتزازاتهم من الفقراء ، وجفاف الروح لحلول العلم محل الدين . والمنطق محل الوجدان . إنه بإعلانه الحرب على هذا الانحلال يستطيع أن يبرر بساطة ثقافته ، وعاداته الريفية ، وقلقه وضيقه في المجتمع ، ونفوره من حيث القيل والقال ، ومن الفكاكة التى تجردت من الاحترام . ويبرر احتفاظه المتحدى بإيمانه الدينى وسط إلحاد أصحابه . لقد عاد في أعماق نفسه كلفنيا كما كان ، وذكر بشيء من الحنين تلك العفة التى لقنها في صباه . إنه بدخوله مسابقة ديجون سيرفع وطنه جنيف فوق باريس . وسيشرح لنفسه ولغيره لم كان سعيداً في ليشارميت ، وشقياً غاية الشقاء في صالونات باريس ؟

فلما وصل إلى فانسين كاشف ديدرو بيتته في دخول المسابقة . فهلل ديدرو للفكرة . وأشار عليه بأن يهاجم حضارة جيلهما بكل ما وسعه من قوة . فلن يجرؤ متسابق آخر على اتخاذ هذا الموقف ، وسيكون موقف روسو فريداً في بابها (٦٣) وعاد جان - جاك إلى مسكنه وهو يتحرق شوقاً

(٦٣) هناك جدل سفير يهيم القصة في هذه النقطة . فقد روى ديدرو في ١٧٨١ زيارة -

لهدم الآداب والعلوم التي كان ديدرو يستعد للإشادة بها في « الموسوعة أو القاموس العقلاني للعلوم والآداب والحرف » : (١٧٥١ وما يليها) وكتبت « المقال » بطريقة فريدة جدا . . . فكرست له ساعات الليل التي جفاني فيها النوم ، وكنت أتأمل في فراشي وجفناي مغمضتان ، وأدير في ذهني المرة بعد المرة عباراتي بعناية واهتمام لا يصدقان . . . وحالما فرغت من المقال دفعته لديدرو فرضى عنه ، وأشار ببعض تصويبات يجب في رؤية إجراؤها . . . وأرسلت المقال دون أن أخبر بأمره أحدا غيره ، اللهم إلا جريم فيها لذكر^(١٥) .

أما أكاديمية ديشون فقد توجت مقالته بالجائزة الأولى (٢٣ أغسطس ١٧٤٠) — وهي مداليه ذهبية وثلاثمائة فرنك ، ولتخذ ديدرو الإجراءات بها عهد فيه من حاسة ، لنشر المقال الذي سمي « مقالا في الآداب والفنون والعلوم » وسرعان ما كتب إلى المؤلف يبلغه النبأ إن مقالك ساحر إلى حد فاق كل تصور ، فلم يكن لهذا النجاح ضريب على الإطلاق^(١٦) . وكأني بباريس وقد أدركت أنه هاهنا ، في قلب حركة التنوير تماما ، قام رجل يتحدى عصر العقل ، ويتحداه بصوت سيصغى إليه العالم .

أما المقال فقد بدا في استهلاله مشيدا بانتصارات عصره :

« أنه لمشهد جليل جميل أن نرى الإنسان يرفع نفسه — إن جاز هذا التعبير — من العدم بجهوده هو ؛ فيبدد بنور العقل كل السحب الكثيفة التي اكتنفته بالطبعة فسما فوق نفسه ، وحلق بالفكر إلى أجواز الفضاء ،

: . روسو له بطريقة يمكن التوفيق بينها وبين رواية روسو . قال : حين جاني روسو يستشيرني في الموقف الذي ينبغي أن يتخذه قلت له : أن موقفك هو الذي سيرفضه الآخرون ، فقال إنك على حق (٦٣) « وحوال عام ١٧٩٣ روى مارمونتيل عن ديدرو إنه أتى روسو عن اتخاذ موقف الموافقة ، فقال له روسو سأعمل بنصيحتك (٦٤) » .

وأشتمل بخطى عملاقة آفاق الكون الشاسعه كأنه الشمس ؛ وأجل من ذلك وأعجب أنه انكفأ إلى نفسه ليدرس الإنسان ويصل إلى معرفة فطرته وواجباته وهدفه . كل هذه المعجزات رأيناها تجدد خلال الأجيال القليلة الأخيره (٦٧) .

ولابد أن فولتير جاد بابتسامة الرضى عن فرحة هذا الاستهلال ، فها هنا تلميذ جديد لجماعة « الفلاسفة » ؛ وللرفاق الطيبين الذين سيقضون على الخرافة « والعار » ؛ ثم ألم يكن لوشنغار الفتى هذا مساهما في الموسوعة فعلا ؟ ولكن ما إن جاءت الصفحة التالية حتى إتخذت المناقشة وجهة مؤسفة . فقال روسو أن تقدم المعرفة هذا كله جعل الحكومات أعظم سطوة ، فسحقت حرية الفرد وإستبدلت بالفضائل البسيطة والكلام الصريح لعهد أكثر خشونه وبدائية ، نفاق اللباقة الاجتماعية .

« لقد أقصيت من بين الناس الصداقة المخلصة ، والاحترام الحقيقي ، والثقة الكاملة وتسترت الغيرة والريية ، والخوف ، وبرودة العاطفة ، والتحفظ والكراهية ، والغش ، دائماً وراء ذلك القناع الواحد الخلداع ، قناع التأدب ، والصرامة والكياسة اللتين يتباهى بها الناس ، ذلك القناع الذى ندين به لنور عصرنا وقيادته . فلتطالب الآداب والفنون والعلوم بنصيبها الذى أسهمت به فى هذا العمل المفيد » (٦٨) .

ويكاد فساد الفضائل والأخلاق نتيجة لتقدم المعرفة والفن أن يكون قانونا من قوانين التاريخ « لقد غدت مصرأم الفلسفة والفنون الجميلة ، وسرعان ما غزاها الغزاة » . (٦٩) أما اليونان التى كان يسكنها الأبطال يوما ما فقد قهرت آسيا مرتين ، وكانت « الآداب » يومها فى المهد ، ولم تكن فضائل اسبرطة قد حلت محلها — مثلا إغريقيا أعلى — تلك الثقافة الأثينية المهذبة ، وسفسطة السفطائين ، وتمائل براكستيليس الشموانية ؛ فلما بلغت تلك « الحضارة » أوجها ، أطاح بها قليب المقدونى بضربة واحدة ، ثم قبلت نير روما فى استكانة . أما روما فقد غزت عالم البحر المتوسط كله يوم كانت أمة من الفلاحين

والجند ، متمرسه بنظام صارم ، فلما أسلمت نفسها للذات الأيقورية ، وأشادت ببذات أوفيد وكاتلوس ، ومارتيال ، باتت مرتعاً للرديلة « وهزوا بين الأمم ، وهدفاً لاحتقار الشعوب حتى المميج منها ^(٧٠) . وحين عادت روما إلى الحياة في حركة النهضة الأوربية ، عادت الفنون والآداب تنخر في عافية المحكومين والحاكمين ، وخلفت إيطاليا أوهى من أن تثبت للهجوم . فأخضع شارل الثامن ملك فرنسا توسكانيا ونابلي دون أن يمتشق حساماً تقريباً ، وعزت حاشيته كلها هذا النجاح غير المتوقع إلى انصراف أمراء إيطاليا ونبلاتها باهتمام أعظم إلى تثقيف عقولهم دون الاهتمامات النشيطة والأعمال العسكرية ^(٧١) » .

والأدب ذاته عنصر من عناصر الفناء :

« يحكى أن الخليفة عمر حين سئل في أمر مكتبة الاسكندرية وما يفعله بها أجاب : « وأما الكتب التي ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله فليكن كتاب الله عنه غنى ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليها فتقدم بإعدامها » وقد ساق أدباؤنا هذا الأسلوب في التفكير على أنه بلغ غاية السخف ، ولكن لو أن البابا جريجورى الأكبر كان في مكان عمر ، والإنجيل في مكان القرآن ، لأحرقت المكتبة رغم ذلك ، ولربما عد هذا أروع عمل قام به في حياته ^(٧٢) .

أنظر إلى تأثير الفلسفة الممزقة فبعض « محبي الحكمة » هؤلاء يخبروننا بأنه ليس هناك شيء اسمه المادة ، وغيرهم يؤكدون لنا أنه لا وجود لشيء إلا للمادة وليس إله آخر غير الكون ذاته ، وفريق ثالث يعلن أن الفضيلة والرديلة ليستا سوى اسمين ، وأنه لا اعتبار لشيء إلا للقوة والمهارة فهؤلاء الفلاسفة « يقوضون أسس إيماننا ويحطمون الفضيلة . إنهم يسخرون من الكلمات القديمة التي نستعملها مثل « الوطنية » و « الدين » ويكرسون مواهبهم لهدم وتشوية كل ما نقدسه غاية التقديس ^(٧٣) . ومثل هذا الهراء ما كان ليعمر في العصور القديمة بعد موت صاحبه ، أما الآن فبفضل الطباعة « ستبقى إلى الأبد . تأملات هوبز وسينوزا المؤذية . إذن فاختراع الطباعة كان من أفدح

الكوارث في تاريخ الإنسانية ، ومن السهل أن نرى أن الملوك في المستقبل سيحرصون على اقضاء هذا الفن الرهيب عن ممالكهم حرصهم من قبل على تشجيعه » (٧٤).

ولنلاحظ ما أوتيت الشعوب التي لم تعرف قط الفلسفة أو العلم أو الأدب من قوة وتغوق؛ الفرس في عصر كورشن أو الألمان كما وصفهم تاسيتوس ، أو « في زماننا هذا الأمة البسيطة (سويسرة) التي لم تقو حتى الشدائد والكوارث على قهر بسالتها المشهورة ، والتي لم يستطع أى مثال أن يفسد أمانتها » وأضاف الجيني الفخور إلى هذه الشعوب « تلك الأمم السعيدة التي لم تعرف حتى أنباء الكثير من الرزائل التي يصعب القضاء عليها ، متوحشى أمريكا الذين لم يتردد مونتين في تنضيل طريقة حكمهم البسيطة الفطرية ، لا على قوانين أفلاطون فحسب ، بل على أكمل الرؤى التي تستطيع الفلسفة أن تستشرفها » (٧٥).

إذن فأى نتيجة ينبغى أن نخلص إليها ؟ هي أن « الترف والإسراف ، والرق ، كانت في جميع الأجيال سوط عذاب سلط على جهود كبرائنا للخروج من حالة الجهالة السعيدة تلك التي وضعنا فيها حكمة العناية الإلهية . فليتعلم البشر ولو مرة أن الطبيعة كانت تحميمهم من العلم ، تماماً كما تحطف الأم سلاحاً خطراً من يدي ولدها » (٧٦) .

والجواب عن سؤال الأكاديمية العالمية هو أن العلم إذا تجرد من الفضيلة كان فمخاً ، وإن التقدم الحقيقي الوحيد هو التقدم الخلقى ، وإن رقى العلم قد أفسد أخلاق البشر أكثر مما طهرها ، وإن الحضارة ليست ارتقاء الإنسان إلى وضع أسمى ، بل سقوطه من بساطة ريفية كانت فردوس البراءة والسعادة .

وقبل ختام المقال كبج روسو جراح قلمه وألقى ببصره في شيء من الخوف على أشلاء العلم ، والفن ، والأدب ، والفلسفة ، التي خلفها في إثره وتذكر أن صديقه ديدرو يعد موسوعة كرسها لتقدم العلم . فاكشف فجأة أن بعض الفلاسفة - كبيكن وديكارت - كانوا « معامين عظاما » ورأى أن النماذج الحية من هذه السلالة ينبغى أن يرحب بهم حكام الدول مشيرين لهم . ألم يعين

شيشيرون قنصلا لروما ، وأعظم الفلاسفة المحدثين قاضياً لقضاة انجلترا^(٧٧) ، ولعل ديدرو حشر تلك السطور في المقال ، ولكن جان جاك كان صاحب الكلمة الأخيرة :

« أما نحن البشر العاديين الذين لم تشأ السماء أن تحبونا مواهب عظيمة فانظر في جهالتنا . ولنترك لغيرنا مهمة تعليم الناس واجباتهم ، ولننصرف إلى القيام بواجباتنا . أيتها الفضيلة أيتها المعرفة السامية للعقول البسيطة أليست مبادئك منقوشة على كل قلب ؟ وهل نحن في حاجة ، لكي نتعلم نواميسك إلى أكثر من . . الإصغاء لصوت الضمير ؟ هذه هي الفلسفة الصادقة التي يجب أن نتعلم القناعة بها^(٧٨) .

ولم تدر باريس أننا أخذ هذا المقال مأخذ الجد ، أم تفسره على أنه محاولة مأكرة في المبالغة والمفارقة كتبها المؤلف بحث . وقال بعضهم (فيما روى روسو)^(٧٩) أنه لم يصدق كلمة واحدة مما كتب . أما ديدرو الذي آمن بالعلم وضاق بقيود العرف والأخلاق فيبدو أنه استحسن مبالغات روسو باعتبارها عقاباً افتقر إليه المجتمع الباريسي . وأما حاشية الملك فقد حبذت المقال باعتباره توبيخاً للفلاسفة السفهاء الهدامين كانوا يستحقونه منذ أمد بعيد^(٨٠) . ولا بد أن نفوساً حساسة كثيرة ضاقت كهذا الكاتب البليغ بما في باريس من ثروة حمقاء وبريق كاذب . وقد عبر روسو عن مشكلة تظهر في كل مجتمع متقدم . فهل ثمرات التكنولوجيا تستأهل مافي الحياة المصنعة من عجلة ، وتوترات ، ومناظر . وضحيج ، وروائح ؟ وهل التوتر يقوض الأخلاق ؟ وهل من الحكمة أن نمضي وراء العلم إلى خراب شامل ، ووراء الفلسفة إلى اليأس من كل رجاء مشدد للعزائم ؟ .

وانبرى العديد من النقاد للدفاع عن الحضارة منهم بورد عضو أكاديمية ليون ، ولا ا عضو أكاديمية روان ، وفورمييه عضو أكاديمية برلين ، ولا .س ستانسلاس لسكفنسكى ، الطيب القلب ملك بولندا السابق ودوق اللورين اللاحق . وأشار الأدباء إلى أن هذا الهجاء لم يزد على أن توسع

فى الشكوك التى أعرب عنها مونتيني فى مقاله « عن أكلة لحوم البشر » . وسمع غيرهم فيه صوت بسكال. يرتد من العلم إلى الدين ، وبالطبع كان مثات من « اللاهوتيين والقديسين » قد أدانوا الحضارة منذ زمن بعيد باعتبارها مرضاً أو خطيئة . وكان فى وسع اللاهوتيين أن يزعموا أن « براءة » الحالة الطبيعية وسعادتها التى قال بها روسو ، والتى سقط منها الإنسان ، ليست إلا قصة جنة عدن معادة ، فحلت « الحضارة » محل « الخطيئة الأصلية » علة فى سقوط الإنسان ، وفى كلتا الحالتين قضت الرغبة فى المعرفة على سعادة الإنسان . أما المفكرون المعززون بعلمهم مثل فولتير فقد عجبوا لرحل فى السابعة والثلاثين يكتب هذه المراثية الصببانية لهاجم منجزات العلم ، ونعمة السلوك المهذب ، وإلهامات الفن . وإما الفنانون أمثال بوشيه فلعلمهم كانوا يعللون الماتحت سوط روسو ، ولكن فنانين آخرين مثل شاردان ولا توركان فى وسعهم أن يرموه بالتعميم العشوائى ، وأما الجنود فقد سخرؤا من إشادة هذا الموسيقار الرقيق بالصنمات العسكرية وبالتأهب الدائم للحرب .

واعترض جريم ، صديق روسو ، على أى رجوع إلى « الطبيعة » فقال متعجباً « يا له من هراء شيطانى ! : ثم سأل سؤالاً شائكاً ، ما الطبيعة^(٨١) ؟ فلقد لاحظ بيل أنه لا تكاد توجد كلمة تستعمل استعمالاً أكثر غموضاً من كلمة ... الطبيعة وليس من المؤكد « أنه لأن شيئاً ما مصدره الطبيعة فهو إذن خير وصواب : فنحن نرى فى النوع البشرى أشياء سيئة جداً مع أنه لا يتطرق إلينا شك فى انها من عمل الطبيعة » .^(٨٢) ولا ريب أن مفهوم روسو عن الطبيعة البدائية كان تصويراً رومانسياً للطبيعة فى حالتها المثالية ، فالطبيعة (أى الحياة دون تنظيم وحماية اجتماعيين) « حمراء فى الناب والمخالب » وناموسها الأساسى هو : اقتل وإلا قتلت . والطبيعة التى أحبا جان ... جاك ؛ كما يتجلى حبه فى قيقه أو كلارنس كان ضرباً متحضراً من الطبيعة ، روضها وهذبها الإنسان . والحق أنه لم يرد أن يرتد إلى الأحوال البدائية بكل ما انطوت عليه من قذارة ، وخطر ، وعنف بدنى ، إنما أراد أن يعرد إلى الأسرة الأبوية التى تفلح الأرض وتعيش على ثمارها ، وهفت

نفسه إلى التحرر من قواعد المجتمع المهذب وقيوده — ومن الأسلوب الكلاسيكى ، أسلوب الاعتدال والعقل . وقد أبغض باريس وحن إلى شارميت وقبيل ختام حياته ، فى كتابه « أحلام جوال وحيد » صور هذه الفكرة القاصرة تصويراً مثالياً فقال :

ولدت أكثر الناس ثقة بالناس ، ولم تخلد هذه الثقة ولو مرة واحدة طوال أربعين سنة . فلما وقعت فجأة بين صنف آخر من الأشخاص والأشياء انزلت إلى مئات الفخاخ .. واقتنعت أنه ليس فى مظهر الابتسامات المتكلفة التى أغدقت على غير الغش والكذب ، فانتقلت بسرعة من النقيض إلى النقيض وأصبحت أشمئز من الناس ... وأنا لم أعتد قط اعتياداً حقيقياً على المجتمع الحضري الذى كل ما فيه هم وإكراه والتزام ، والذى يجعلنى استقلالى الفطرى عاجزاً فيه على الدوام عن ألوان الخضوع التى لا مندوحة عنها لكل من يريد العيش بين الناس ^(٨٣) .

وفى « الاعترافات » سلم فى شجاعة بأن هذا « المقال » الأول (كان مفتقراً الافتقار كله إلى المنطق والنظام وإن زخر بالقوة والحرارة ؛ فهو أضعف ما كتبت إطلاقاً من حيث الحجج ، وأخلاه من الإيقاع والانسجام » ^(٨٤)

ومع ذلك فقد رد على نقاده بقوة ، وأكد مفارقاته من جديد . ومجاملة لستانسلاس استثنى شيئاً واحداً : فقال أنه بعد الروية قرر ألا تحرق المكتبات أو تغلق الجامعات والأكاديميات . « لأننا لن نجنى من وراء هذا إلا إغراق أوربامرة أخرى فى دياجير الهمجية ^(٨٥) » ؛ و « حين يفسد البشر فإن من الخير لهم أن يكونوا متعلمين عن أن يكونوا جهلة » ^(٨٦) . ولكنه لم يعدل عن أى فقرة من اتهامه للمجتمع الباريسى . ودليلاً على انسحابه منه ألقع عن لبس السيف والصفيرة الذهبية والجوارب البيضاء ، وارتدى ما يرتديه رجال الطبقة الوسطى من رداء بسيط وباروكة أصغر . قال مارمونتيل « وهكذا منذ تلك اللحظة اختار الدور الذى سيلعبه ، والقناع الذى سيلبسه . » فإن كان هذا قناعاً فإنه أحسن لبسه ، وأصر عليه إصراراً شديداً ، حتى لقد أصبح جزءاً من صميم الرجل وغير وجه التاريخ .

٦ - باريس وجنيف ١٧٥٠ - ٥٤

فى ديسمبر ١٧٥٠ اشتد على روسو مرض المثانة حتى ألزمه الفراش ستة أسابيع وزادته هذه المحنة نزوعا إلى الاكتئاب والعزلة ، وأرسل إليه معارفه الأغنياء اطباءهم ليعودوه ، ولكن تطيب ذلك الزمان لم يؤهلهم لمساعدته « فكلما امتثلت لأوامرهم ازدادت شحوبا ونحولا وهزالا . ولم يوح لى خيالى ... على هذا الجانب من القبر ، بغير الآلام المتصلة كابرتها من الرمل والحصاة وحصر البول ، وكان كل ما يخفف من آلام غيرى من المرضى كتنقيع الشعير ، والحمامات والفصد - يضاعف من عذابى »^(٨٨).

وفى مطلع عام ١٧٥١ انجبت له تيريز طفلا ثالثا تبع أخويه إلى ملجأ اللقطاء . وقد علل هذا فى فترة لاحقة بأنه كان أفقر من أن يربى أطفالا ، وأنه لو وكلهم إلى آل لقاسير لكان فى ذلك بوارهم ، وأنهم كانوا سيعبثون عبثا منكرا بعمله كاتبا وموسيقيا وأكرهه المرض على الاستقالة من وظيفته صرافا لدويان دفرانكوى والتخلى عن دخله منها ، وراح منذ الآن يكسب معظم قوته بنسخ كراسات الموسيقى بواقع عشرة سنوات للصفحة . ولم يتلق روسو أى دخل من بيع « المقال » سواء كان السبب اهمال ديدرو أو شح الناشرين وتبين أن موسيقاه اكسب له من فلسفته .

وفى ١٨ اكتوبر ١٧٥٢ ، ويفضل نفوذ دوكلو ، مثلت أوبريت روسو « عراف القرية » أمام الملك والبلاط فى فونتينبلو ، ولقيت من النجاح ما أتاح لها عرضا ثانيا بعد أسبوع وظفرت حفلة للجمهور فى باريس (أول مارس ١٧٥٣) باستحسان أشمل ، ووجد المؤلف المعتكف نفسه مرة أخرى رجلا يشار اليه بالبنان . وكان هذا « الفاصل » الصغير ، الذى ألف روسو كلماته وموسيقاه ، أشبه باللحن المصاحب « المقال » : فالراعية كولييت ، التى احزنتها مغازلات كولان لفنيات المدينة ، يرشدها عراف القرية إلى استمالته ثانية بمغازلة غيره من الرجال ، فيغار عليها كولان ويعود

اليها ، ثم ينشدان معا أغاني راقصة تشيد بحياة الريف وتذم حياة المدينة .
وحضر روسو الحلقة الافتتاحية وكاد يرضى عن المجتمع بعد خصام .

« غير مسموح بالتصفيق أمام الملك ، وعليه فقد كان كل شيء مسموعا ،
وهذا يخدم المؤلف والتمثيلية . وسمعت من حولي همس النساء اللاتي بدون في
حسن الملائكة . وكانت الواحدة تقول للأخرى في صوت خافت : « هذا
رائع ، هذا خللاب ، ليس هناك لحن واحد لا يتفد الى الفؤاد » وقد أثار
دموعى سرورى بأفنى أشعرت هذا العدد الكبير من الأشخاص اللطفاء بهذه
العاطفة ، ولم استطع أن أمسكها في اللحن الثانى الأول حين لاحظت أننى لم
أكن الوحيد الذى يبكى » .^(٩٩)

في ذلك المساء بعث اليه الدوق دومون كلمة يطلب اليه الحضور الى
القصر في الساعة الحادية عشرة من صباح الغد ليقدم الى الملك ، وأضاف
الرسول أن من المتوقع أن ينفخ الملك المؤلف معاشا . ولكن مائة روسو
أفسدت الحطة . يقول :

« أصدق أحد أن ليلة هذا النهار الرائع كانت لي ليلة عذاب وحيرة ؟
فقد كان أول خاطر لي إننى بعد أن أقدم للملك سأضططر الى الانسحاب غير
مرة وكانت هذه الضرورة قد سببت لي معاناته شديدة في المسرح : وقد
تعلمنى في الغد وأنا في البهو أو في حجرة الملك ، بين جميع العظماء ، منتظرا
خروج جلالته . لقد كانت علتى هى السبب الأهم في الحيلولة بينى وبين
الاختلاط بالجماعات الراقية والاستمتاع بحديث الحسان ... ولا يستطيع غير
من خبر هذا الموقف أن يحكم بالفزع الذى يوحى به التعرض لخطره »^(١٠٠)

وعليه فقد أرسل كلمة يعتذر من الحضور . وبعد يومين وبخه ديدرو على
تضييعه فرصة كهذه تتيح رزقا أنسب له ولتريز « وتحدث عن المعاش
بحرارة أكثر مما كنت أتوقع في موضوع كهذا من فيلسوف ومع أننى
شكرت له تمنياته الطيبة ، فإننى لم استطع أن أسيع مبادئه ، الأمر الذى أثار
بيننا نقاشا حاميا هو أول ما وقع بيننا من نزاع »^(١٠١) على أنه لم يحرم كل

ربيع من وراء تمثيليته . فقد أعجبت بها مدام ديومبادور إعجابا حملها على أن تمثل هي نفسها دور كوليت في عرضها الثانى فى البلاط ، وأرسلت له خمسين جنيهًا ذهبيًا ، وأرسل له لويس مائة. ^(٩١) وراح الملك نفسه ، « بأنكر صوت فى مملكته يتغنى بلحن كوليت الحزين » « لقد فقدت خادى » — وكان هذا إرهابا بظهور جلوك .

وكان روسو خلال ذلك يعد مقالات عن الموسيقى للموسوعة « وقد كتبها فى عجلة شديدة ، وكتابة سيئة لهذا السبب ، فى الشهور الثلاثة التى أتاحتها لى ديدرو . وقسا رامو فى نقد هذه المقالات فى كتيب سماه « أخطاء حول الموسيقى فى الموسوعة » (١٧٥٥) وعدل روسو فى المقالات ، وجعلها أساسا لـ « قاموس للموسيقى » (١٧٦٧) واعتبره معاصروه ، باستثناء رامو ، موسيقيا من أعلى طراز ^(٩٢) وينبغى أن نعهده الآن مؤلفا مجيدا فى فرع صغير من فروع الموسيقى ، ولكنه كان ولاشك أكثر من كتب عن الموسيقى طرافة وأمتاعا فى ذلك الجيل .

ولما غزت فرقة من مغنى الأوبرا الإيطالية باريس فى ١٧٥٢ تفجر الجدل حول مزايا كل من الموسيقى الفرنسية والإيطالية . وقفز روسو إلى المعركة بـ « رسالة فى الموسيقى الفرنسية » (١٧٥٣) يقول جريم إنه « يثبت فيها إمكانية تلحين الموسيقى فى الفاظ فرنسية ، وأن اللغة الفرنسية لا تصلح إطلاقا للموسيقى ، ولأنه لم يكن قط للفرنسيين ولن يكون لهم أبدا موسيقى ^(٩٤) » . وكان روسو بكلية فى صف إتساق الألحان (الميلوديا) . كتب فى روايته « أحلام جوال وحيد » « يقول « غنينا أغنية قديمة كانت أفضل كثيرا من النشاز الحديث ^(٩٥) » وأى جيل لم يسمع تلك الشكوى ؟ وفى مقاله « الأوبرا » الذى تضمنه قاموسه الموسيقى أعطانا إلماعا لفاجر ، فعرف الأوبرا بأنها « مشهد درامى غنائى يحاول الجمع من جديد بين جميع مفاتن الفنون الجميلة فى تمثيل حركة عاطفية مشبوبة . . . ومقومات الأوبرا هى القصة الشعرية ، والموسيقى ، والزخرفة : فالشعر يتحدث إلى الروح ،

والموسيقى إلى الأذن ، والصورة إلى العين . . . والدرامات اليونانية كان يمكن أن تسمى أوبرات (٩٦) .

وحوالى تلك الفترة (١٧٥٢) رسم موريس كنتان دلاتور صورة لروسو بالبأسطل (٩٧) ، التقط فيها ملامح جان - جاك مبتسماً : وسياً ، أنيقاً ، وقد أُنكر ديدرو الصورة لأنها لا تتفق والحقيقة (٩٨) . ووصف مارمونتيل روسو كما رآه في تلك السنوات في حفلات عشاء دولباخ فقال « كان قد ربح لنوه الجائزة . . . في ديجون . . . فيه تأدب يشوبه الإحجام ، قد . . . يبلغ من التواضع مبلغاً يقرب من التذلل . ترى عدم الثقة واضحة من خلال تحفظ المشوب بالخوف . وكانت عيناه المطرقتان ترقبان كل شيء بنظرة ملؤها الإرتياب الحزين . وقل أن شارك في حديث ، وندر أن كشف لنا عن دخيلة نفسه (٩٩) » .

وغدا مركز روسو بعد تنديده بالعلم والفلسفه بهذا العنف خرجا بين جماعة الفلاسفة الذين سيطروا على الصالونات . وكان مقاله قد ألزمه بالدفاع عن الدين . وتروى مدام دينيه أنه في عشاء دعت إليه مدام كينو ، وجدت المضيفة أن الحديث عن الدين أصبح نابياً ، فرجت ضيوفها « أن يحترموا على الأقل الدين الطبيعي » وبادر بالرد المركزي دسان - لامير ، الذى كان مؤخراً مزاحماً لفولتير على حب مدام دوشاتايه ، وسيكون عما قليل مزاحماً لروسو على حب مدام دوديتو فقال « أنه لا يستحق من الاحترام أكثر من أى دين آخر . » وتواصل مدام دينيه كلامها فتقول : « فلما سمع روسو هذا الرد غضب وتتم بكلام أضحك الجماعة عليه . قال « إذا كان من الجبن أن يسمح الإنسان لآخر أن يغتاب صديقاً فإن من الاجرام أن يسمح لأحد بأن يتحدث بسوء عن إله الذى هو حاضراً ، وأنا أومن بالله يأساده . . . وإنجهت إلى سان لامير وقالت له « أنك ياسيدى وأنت شاعر ، ستوافقنى على أن وجود كائن خالد ، كلى السلطان ، عظيم الدكاء ، هو البذرة لأروع ضروب الحماسة » . فأجاب « اعترف بأنه جميل أن نرى هذا إلاله يوجه وجهه إلى الأرض ، . . . ولكنها بذرة

الحجقات » ، وقاطعه روسو قائلا « سيدى ، سأبرح الحجرة أن زدت كلمة واحدة » . والواقع أنه كان قد قام عن كرسيه وكان يفكر جدياً في الهروب لولا أن أعلن عن قدوم الأمير^(١٠٠) .

ونسى الجميع موضوع الجدل . وفي رواية وردت في مذكرات مدام دينيه ، أن روسو قال لها أن هؤلاء الكفرة يستحقون النار الابدية^(١٠١) .

وجدد رسو الحرب على الحضارة في مقدمة مسرحيته الهزلية « نارسيس » ، التي مثلتها فرقة الكوميدي فرانسيز في ١٨ ديسمبر ١٧٥٢ « أن الميل إلى الآداب يكون دائماً إيذانا في الشعب ببداية فساد سرعان ما يجعل به هذا الميل . ولا ينبعث هذا الميل في أمة إلا من متبعين خبيثين . . . التبطل ، وشهوة الامتياز^(١٠٢) » . ومع ذلك استمر حتى عام ١٧٥٤ يختلف إلى « مجمع » دولباخ المؤلف من أحرار الفكر . هناك استمع مارمونتيل ، وجريم ، وسان - لامبير ، وغيرهم إلى الابيه بتي يقرأ مأساة من تأليفه ، فوجدوها عملاً تافها يدعو للثناء ، ولكنهم أطروها اطراء جميلا ، وكان الابيه قد ثمل بالخمير إلى حد أعماه عن إدراك ما في ثنائهم من تهكم ، فأنتفخت أوداجه رضى وغبطة ، أما روسو الذى غاظه نفاق أصحابه فقد انقض على الأب بتقريع لا هوادة فيه ، فقال له « أن تمثليتك لا قيمة لها . . . وكل هؤلاء السادة يسخرون منك ، فانصرف وعد لتكون قسيساً في قريتك^(١٠٣) » . ووبخ دولباخ روسو على نظائمه ، فانصرف غاضباً وانقطع عن الجماعة عاماً .

لقد دمر رفاقه كثلكته ، ولكنهم لم يدمروا إيمانه بمقومات المسيحية . وعادت بروتستنتية صباه تطفو في الوقت الذى تغوص فيه كثلكته . فنصور جنيف صباه كاملة مبرأة من العيوب ، وخيل إليه أنه سيكون فيها أكثر راحة واطمئناناً منه في بلد أضنى روحه كباريس . ولو عاد إلى جنيف لاكتسب من جديد لقباً يبعث على الفخر ، هو لقب المواطن ، ومعه الامتيازات الخاصة التى ينطوى عليها هذا اللقب . وعليه ففى يونيو سنة ١٧٥٤ استقل مركبة البريد إلى شامبرى وهناك وجد مدام دفاران

فقيرة تعسة ، ففتح لها كيس نقوده ، ثم وأصل رحلته إلى جنيف :
هناك رحب به القوم أبنا ضلّالا قد ثاب إلى رشده : ويبدو أنه وقع لإقراراً
يؤكد فيه من جديد عقيدته الكلفنية^(١٠٤) ؛ واغتبط رجال الدين الجينيون
باستعادتهم « موسوعيا » إلى حظيرة إيمانهم الانجيلي ورد إليه اعتباره
مواطناً ، وراح بعدها يوقّع في فخر « جان .. جاك روسو ،
المواطن » : قال :

« تأثرت تأثراً بالغاً بما لقيت من عطف . . . المجلس (المدني)
والجمعية (الكنسي) وعظيم احترام القضاة ، والوزراء ، والمواطنين ،
وحفاوتهم بي . . . حتى إنني أقلعت عن فكرة العودة إلى باريس
إلا لفض إدارة البيت ، والعثور على عمل للسيد لفاسير وزوجته ،
أو تدبير أمر معاشهما ، ثم العودة مع تريز إلى جنيف لاستقر فيها
ما بقي لي من عمر^(١٠٥) » .

ولاستطاع الآن أن يتذوق جمال البحيرة وشواطئها تذوقاً أكمل مما فعل
في صباه « لقد احتفظت بذكرى حية . . . لطرف البحيرة الأبعد ،
وكتبت له وصفاً بعد سنوات في هلويز الجديدة » ودخل الفلاحون
السويسريون في حلم الفردوس الريفي الذي سيصفه في تلك الرواية : فهم
ملاك لمزارعهم لا يخضعون لضريبة رؤس أو سخرة ، يشغلون أنفسهم
بالحرف المنزلية في الشتاء ، ويقفون في قناعة بمنأى عن ضجيج العالم
وصراعه . وكانت ذكرى دويلات المدن السويسرية عالقة بذهنه وهـر
يصف مثله السياسي الأعلى في كتاب « العقد الاجتماعي » .

وفي أكتوبر ١٧٥٤ قصد باريس على وعد بالعودة منها سريعاً .
ووصل فولنير إلى جنيف بعد رحيل روسو عنها بشهرين ، واستقر به
المقام في فيلا ديليس . واستأنف جان — جاك في باريس صداقته لديدرو
وجريم ، دون أن تبلغ من الثقة ما بلغته من قبل . ولما نعى إليه نبأ موت
مدام دولباخ كتب إلى البارون خطاب تعزية رقيقاً ، وتصلح الرجلان ،
وعاد روسو يأكل الزنادقة ، وظل ثلاثة أعوام آخر يبدو من جميع

الوجوه واحداً من جماعة الفلاسفة . ولم يبعث كثيراً في عقيدته الكلفيه الجديدة . واستغرقه الآن الإشراف على طبع « مقالته » الثاني الذي قدر له أن يهر الدنيا أكثر مما هزها سابقه .

٧ - جرائم الحضارة

في نوفمبر ١٧٥٣ أعلنت أكاديمية ديجون عن مسابقة أخرى ، أما السؤال الجديد فكان « ما الأصل في عدم المساواة بين البشر ، وهل يقره قانون الطبيعة ؟ » يقول روسو « استرعى أنتباهي هذا السؤال الخطير ، وأدهشني أن الأكاديمية اجترأت على طرحه للنقاش ، ولكن مادامت قد أظهرت شجاعتها . . . فقد عكفت فوراً على مناقشته ^(١٠٦) » . واختار لبحثه هذا العنوان « مقال في أصل وأسس عدم المساواة بين البشر » . وفي شامبري في ١٢ يونيو ١٧٥٤ أهدى هذا المقال الثاني « إلى جمهورية جنيف » وإضاف خطاباً موجهاً إلى « سادتها الحاكمين » الرفيعة الشرف والمجد . « يعرب عن بعض الآراء الفذة في السياسة :

« في بحوثي عن خير القواعد التي يمكن أن يرسبها الإدراك السليم عن تكوين الحكومة أدهشني أن أجدها كلها تحققت فعلاً في حكومتكم ، بحيث أني لو لم أولد بين أسوار مدينتكم لرأيتكم لزاماً على أن أقدم هذه الصورة عن المجتمع الإنساني إلى ذلك الشعب الذي يبدو أنه انفرد دون سائر الشعوب بحيازته لا عظم مزاياها ، ووفر لنفسه أفضل وقاية من مساوئها ^(١٠٧) » .

ثم هنا جنيف ببارات تصدق تماماً على سويسرة اليوم :

« بلد انصرف عن شهوة الغزو الممجي لا فتقاره السعيد للقوة ، وأمن بفضل موقعه الأسعد حظاً من خوف الوقوع غنيمة في يد غيره من الدول : مدينة حرة تتوسط عدة أمم ، لا مصلحة لواحدة منها في العدوان عليها ، ومصلحة كل منها في منع غيرها من هذا العدوان ^(١٠٨) » .

وبارك محبوب الثورة الفرنسية المستقبل تلك القيود المفروضة على الديمقراطية في جينيف ، حيث لاحق في التصويت إلا لثمانية في المائة من السكان :

« لكي نتقى خدمة المصالح الخاصة والمشروعات الطائشة وجميع البدع الخطرة التي انتهت بالقضاء على الأثنيين ، ينبغي ألا تطلق الحرية لكل رجل في اقتراح القوانين الجديدة على هواه ، بل يقصر هذا الحق على القضاة دون غيرهم . . . فقدم القوانين هو أهم عامل في إضفاء القدسية والاحترام عليها ، والناس سرعان ما يتعلمون الاستهانة بالقوانين التي يرونها تبدل وتغير كل يوم ، ولو اعتادت الدول أن تهمل تقاليدنا القديمة بحجة التحسين والإصلاح ، جلبت من الشرور في الغالب ما هو أسوأ مما تحاول أن تقضى عليه^(١١٩) » .

أكان هذا مجرد ذريعة ياتمس بها العودة إلى المواطنة الجينية ؟

أما وقد تحقق لروسو هذا الهدف فإنه قدم مقاله لأكاديمية ديجون . ولم يمنح الجائزة ، ولكن حين نشر المقال في يونيو ١٧٥٥ ، سره أن يصبح من جديد الحديث المثير لصالونات باريس . ذلك أنه لم يترك مفارقة إلا تناولها ليثير الجدل حولها . فهو لم ينكر عدم المساواة « الطبيعي » أو الانزائي ، وسلم بأن هناك أفرادا هم بحكم مولدهم أصبح أو أقوى من غيرهم في البدن أو الخلق أو الذهن . ولكنه زعم أن كل ضروب عدم المساواة الأخرى — الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والخلقية ، غير طبيعية ، نشأت حين ترك البشر « الحالة الطبيعية » . وأقاموا الملكية الخاصة وأسسوا دولا تحمي الثروة والامتياز .

« فالإنسان بطبيعته طيب^(١٢٠) » ، وأكثر ما يجعله شريرا تلك النظم الاجتماعية التي تقيد أو تفسد ميوله للسلوك الطبيعي . وقد صور روسو حالة فطرية مثالية كان معظم الناس فيها أقوياء الأطراف ، خفاف الأقدام ،

حديدي البصر(*) ، يعيشون حياة الحركة والعمل ، حياة كان الفكر فيها دائماً أداة للعمل وتابعا له ، لا بديلا مضعفا عنه . ثم قارن بين هذه الصحة الفطرية وبين الأمراض المتكاثرة التي تنجم في الحضارة عن الثروة والأعمال التي تتطلب القعود الكثير :

« أن أغلب عللنا من صنعنا ، وكان يسيراً علينا أن نتجنبها ، كلها تقريباً ، بالتزام أسلوب الحياة البسيط ، المماثل ، المنزلي ، الذي قررته الطبيعة . فإذا كانت الطبيعة قد قضت بأن يكون الإنسان سليماً صحيحاً ، فأني أجرو على الزعم بأن حالة التفكير والتأمل حالة تناقض الطبيعة ، وأن (l'homme qui médite est un animal dépraré.)

وحين نفكر في بنية المتوحشين القوية — على الأقل أولئك الذين لم ندمرهم بمشروباتنا الروحية — وفي أنهم لا يكادون يعانون من أى علة غير الجروح والشيخوخة ، يغرينا هذا بالاعتقاد بأننا في تبعدنا لتاريخ المجتمع المدني ؛ إنما نحن نروى تاريخ أمراض البشر^(١١٢) .

ويسلم روسو بأن هذه الحالة المثالية « الحالة الطبيعية ... ربما لم توجد قط ؛ وأغلب الظن أنها لن توجد أبداً^(١١٣) » . فهو لا يعرضها بوصفها حقيقة واقعة من حقائق التاريخ بل مقياساً للمقارنة . وهذا ما عناه بهذا الاقتراح المفزع « فلنبداً إذن بتنحية الحقائق جانباً لأنها لاتمس السؤال . والتحقيقات التي يصح أن نخوض فيها ... يجب ألا تعالج على أنها حقائق تاريخية ، بل حجج مشروطة وفرضية^(١١٤) » : على أننا قد نكون فكرة عن حياة الإنسان قبل قيام النظام الاجتماعي ، بملاحظة حال الدول الحديثة وسلوكها ، لأن « الدول اليوم مازلت في حالة طبيعية^(١١٥) » . فكل منها ذات سيادة فردية ، لا تعرف فعلاً أى قانون إلا قوانين المكر والقوة ، ويجوز أن نفرض أن الإنسان الذي سبق تكوين المجتمعات كان يحمياً في حالة مشابهة من السيادة الفردية ، وعدم الأمان ، والفوضى

(*) « مالست أياه ، فإنه عندى الله والفضيلة » نيتشه^(١١٦) الإنسان الذي يتأمل هو حيوان فاسد :

الجماعية ، والعنف بين الحين والحين . ولم يكن مثل روسو الأعلى هو هذه الحياة المتخيلة التي سبقت المجتمعات [لأن المجتمع قد يكون قديما قدم الإنسان] . بل مرحلة لاحقة من التطور عاش فيها الناس في أسر أبوية النظام وجاعات قبلية ، ولم ينشئوا بعد نظام الملكية الخاصة « إن أقدم المجتمعات قاطبة ، والمجتمع الطبيعي الوحيد ، هو الأسرة » (١١٦) .

ذلك كان العصر الذى بلغت فيه سعادة البشر أقصاها . حقاً أنه لم يخل من عيوب ، وآلام ، وعقوبات . ولكنه خلا من القوانين . اللهم إلا السلطة الأبوية والنظام الأسرى ؛ « لقد كانت هذه الحالة في جملتها أفضل حالة يستطيع الإنسان ممارستها ، فلم يكن ليعدل عنها لولا أن أصابه خطب فادح » (١١٧) . وهذا الخطب هو إقامة الملكية الفردية ، وما نجم عن ذلك من تفرقة اقتصادية ، وسياسية ، واجتماعية . ومعظم شروخ الحياة الحديثة .

« أن أول رجل سور قطعة من الأرض ثم خطر له أن يقول « هذه ملكي » ووجد الناس من البساطة بحيث يصدقونه ؛ هذا الرجل كان المؤسس الحقيقي للمجتمع المتمدن . ليت شعري كم من الجرائم ، والحروب ، والاعتقالات ، كم من الفظائع والكوارث ، لم يكن في استطاعة أى إنسان أن ينقذ البشرية منها باقتلاع الأوتاد المحددة للأرض أو ردم القناة المحيطة بها والصباح بإخوانه أن احذروا الاستماع إلى هذا النصاب ، إنكم إن نسيتم أن ثمرات الأرض ملك لنا جميعاً ، وأن الأرض ذاتها ليست ملكاً لأحد ، كان في ذلك هلاككم » (١١٨) .

ومن هذا الأغتصاب الذى سمح به الناس انبعثت لعنات الحضارة : كالأنقسامات الطبيعية ، والعبودية ، ورق الأرض ، والحسد ، والسرقه ، والحرب ، والظلم القانوني ، والفساد السياسى ، والغش التجارى ، والاختراعات ، والعلم والأدب ، والفن ، و « التقدم » . وبكلمة واحدة ، الانحطاط . فلحماية الملكية الخاصة نظمت القوة ثم أصبحت هى الدولة ، ولتيسير الحكم طور القانون لتعويد الضعفاء الإذعان للاقوياء

بأقل قدر من الإكراه والتكلفة^(١١٩) . وهكذا نشأ هذا الوضع الذى نرى فيه « القلة المميزة تكتظ بالكماليات ، على حين تفتقر الجماهير الجامعة إلى أبسط ضروريات الحياة^(١٢٠) » . يضاف إلى هذه المظالم الأساسية طائفة أخرى متفرعة عنها « كالوسائل المخزية التى يمارسها الناس أحيانا لمنع ولادة البشر ، والأجهاض ، وقتل الأطفال ، وخصى الذكور ، والانحرافات الجنسية ، وترك الكثيرين من الأطفال الذين يقعون فريسة لإملاق أبويهم فى العراء أو قتلهم^(١٢١) » . هذه الكوارث كلها مفسدة مضعفة ، والحيوانات لا تعرفها ؛ وهى تجعل « الحضارة » سرطانا ينهش جسد البشرية . وعلى نقبض هذا الفساد والانحراف المتعدد الأشكال ، نجد حياة المتوحشين صحيحة ، سليمة ، رحيمة . أينبغى أن نعود إذن إلى الهمجية ؟ « لا يجب أن تلغى المجتمعات إطلاقا ؟ وتبطل عبارة « ملكى » و « ملكك » ، ونعود إلى الغابة لنحيا بين السباع ؟ » لم يعد هذا فى وسعنا ، قسم الحضارة يسرى فى دمائنا ، ولن ننتزعه بالهروب إلى الغابات ، والقضاء على الملكية الخاصة ، والحكومة ؛ والقانون ، معناه الزج بالناس فى فوضى هى شر من الحضارة . « لن يستطيع الإنسان العودة أبدا إلى زمان البراءة والمساواة متى تركه^(١٢٢) » . وقد تبرر الثورة ، لأن القوة قد تطيح عدلا بما إقامته القوة وساندته^(١٢٣) ، ولكن الثورة ليست مستحبة الآن . وخير ما نستطيعه هو أن ندرس الأناجيل من جديد ، ونحاول تطهير دوافعنا الشريرة بممارسة أخلاق المسيحية^(١٢٤) . وفى استطاعتنا أن نجعل من العطف الفطرى على أخواننا البشر أساسا للأخلاق والنظام الاجتماعى . ونستطيع العزم على أن نحيا حياة أقل تعقيدا ، نقنع فيها بالضروريات ، ونختقر أسباب البذخ والترف ، ونجتنب سباق « التقدم » وحماه . نستطيع أن ننذم ما فى الحضارة من ضروب الزيف ، والنفاق ، والفساد ، واحداً بعد الآخر ، ونعيد تشكيل أنفسنا على الأمانة والطبيعية ، والاخلاص . نستطيع أن نترك ضوضاء مدننا وصخبها ، وأحقادها ، وفسقها ، وجرائمها ، ونذهب لنعيش فى بساطة الريف ومسئوليات

الأسرة وقتاعتها . نستطيع أن نطلق دعاوى الفلسفة ومساكنها المسدودة .
ونعود إلى إيمان ديني يشد أزرنا حين نواجه الألم والموت » .

ونحن نحس اليوم شيئاً من التكلف في هذا السخط البار بعد أن سمعنا هذا كله مائة مرة . فلنسا على ثقته من أن الشرور التي وصفها روسو تنجم عن الأنظمة الفاسدة أكثر مما تنجم عن طبيعة البشر ؛ وعلى أية حال فالطبيعة البشرية هي التي صنعت الأنظمة . ويوم كتب جان . جاك «مقاله» الثاني كانت الأشادة بذلك «الهمجي اللطيف المعشر . المتأفق العاطفة» قد بلغت ذروتها . ففي ١٦٤٠ كان ولتر هاموند قد نشر كتاباً «يثبت أن أهل مدغشقر أسعد شعوب الأرض» (١٢٥) . وبدا أن القصص التي رواها اليسوعيون عن هنود هورون وإيروكوا مصداق للصورة التي رسمها الروائي ديفو لحادم روينصن كروزو اللطيف «فرايداي» . أما فولتير فكان يسخر عموماً من أسطورة الهمجي الشريف ؛ ولكنه إستخدمها بمرح في قصته «السادج» وداعها ديدرو في قصته «تذليل لإرجلة بوجانفيل» ولكن هلفينيوس هزأ بأشادة روسو بالهمجي مثلاً أعلى (١٢٦) ، وزعم دوكلو . رغم أنه كان صديقاً وفياً لجان — جاك — أن «الهمج هم الذين تستشرى بينهم الجريمة ، وطفولة أمة ما ليست عصر براءتها» (١٢٧) . ويمكن القول على الجملة أن المناخ الفكري كان مواتياً لنظرية روسو .

أما ضحايا مطاعن روسو فقد هادأوا ضمائرهم بالزعم بأن هذا المقال الثاني متكاف كسابقه . ووصفته مدام دود فان صراحة بأنه دجال (١٢٨) . وسخر الشكالك من إدعاءاته بسلامة عقيدته المسيحية . وبتفسيره الحرفي لسفر التكوين (١٢٩) وبدأ جماعة الفلاسفة يرتابون فيه لأنه يقلب خططهم الرامية إلى إستمالة الحكومة إلى أفكارهم في الإصلاح الاجتماعي ؛ ولم يجذبوا إستثارة كراهيات الفقراء . وسلموا بحقيقة الاستغلال ، ولكنهم لم يروا أى مبدأ بناء في أحلال الغوغاء محل القضاة . أما الحكومة فلم تحتج على إتهامات روسو . والراجح أن القصر لم ير في المقال إلا تدريجاً على الخطابة . وكان روسو فخور ببلاغته . فأرسل نسخة من المقال إلى فولتير . وترقب

في شوق كلمة ثناء منه . وجواب فولتير درة من درر الأدب والحكمة
وآداب السلوك الفرنسية . قال :

« تلقيت ياسيدى كتابك الجديد الذى يهاجم النوع الإنسانى . وأنى
أشكرك عليه . وأنتك لتسر الناس الذين تخبرهم بحقائق مهمهم ، ولكنك لن
تقوم بذلك أعوجاجهم . إنك ترسم بألوان صادقة جداً فظائع المجتمع
الإنسانى ، . . . وأن احداً لم يبذل قط مثل هذا الذكاء الكثير ليقنع الناس
بأن يكونوا وحوشاً . والمرء حين يقرأ كتابك تتملكه الرغبة فى أن يمشى
على أربع [marcher à quatre pattes] ولكن بما أنى فقدت تلك
العادة منذ أكثر من ستين عاماً ، فأنى لسوء الحظ أشعر أنه يستحيل
على استئنافها . . . »

« وإنى متفق معك على أن الآداب والعلوم كانت أحياناً علة الكثير من
الشرور . . . [ولكنى] إقرر أنه لا شيشرون ، ولا قارو ،
ولا لوكريتيوس ، ولا فرجيل ، ولا هوراس ، كان لهم أقل نصيب
فى تحريكات ومصادرات ماريوس ، وصلا ، وانطونيوس ، وليبدوس ،
وأوكتافىوس . . . وعليك أن تعترف بأن بترارك وبوكاشيو لم يكونا
السبب فيما عانته إيطاليا من متاعب داخلية ، وأن مزاح مارو لم يكن
السبب فى مذبحه القديس برتولوى ، وأن مسرحية كورني « السيد » لم تثر
حروب الفروندي . إن الجرائم الكبرى قد إقترفها رجال مشهورون ولكنهم
جهلة . والذى جعل هذه الدنيا ، وسوف يجعلها على الدوام . واديا
للمدح هو جشع الناس الذى لا يشبع وغرورهم الذى لا يفتر . . أن الأدب
يغذى الروح ، ويقومها ، ويعزىها . أنه يخلق مجدك فى ذات الوقت
الذى تهاجمه فيه . . . »

« لقد انبأنى السد شاوى أن صحتك سيئة للغاية . فعليك أن تحضر
وتستردّها فى جو وطنك ، وتستمتع بالحرية . وتشرب معى لبن أبقارنا ،
وتعيش على أعشابنا . وأنى ياسيدى بكل ، الفلسفة وكل التقدير المشرب
بالحبة ، خادمتك المتواضع جداً ، المطيع جداً (١٣٠) . »

ورد روسو التحية بمثلها ، ووعد بأن يزور فيللا المباهج عند عودته إلى سويسرة (١٣١) . ولكن حز في نفسه كثيراً ذلك الاستقبال الذي استقبل به مقاله في جنيف التي أهدها آياه بمثل هذا المديح السار . والظاهر أن الاوليجاركيه الصغيره المحكمه التي تسلطت على الجمهوريه أوجعتها بعض تعليقات ذلك المقال اللاذعه . ولم تسخ تنديد روسو الشامل بالملكيه ، والحكومه ، والقانون ، لم أحس أن جنيفياً واحداً سر بما حواه المقال من حماسه قلبية (١٣٢) . وعليه فقد قرر أن الوقت لم يحن بعد لعودته إلى جنيف .

٨ - المحافظ

شهد عام ١٧٥٥ ، الذي نشر فيه المقال الثاني ، ظهور مقال طويل بقلم روسو في المجلد الخامس من الموسوعة عنوانه ، مقال في الاقتصاد السياسي . وهو جدير بالملاحظة لأنه خالف المقالين السابقين عليه في بعض تفاصيله الهامة . ففي هذا المقال نرى الكاتب يحل المجتمع ، والحكومه ، والقانون ، باعتبارها نتائج طبيعيه لفطره الإنسان وحاجاته ، ويصف الملكيه الخاصه بأنها عطية اجتماعيه وحق أساسى . من المؤكد أن حق الملكيه أقدس حقوق المواطنه ، بل أنه من بعض الوجوه أهم من الحرية ذاتها . فالملكيه هى الأساس الصحيح للمجتمع المدني . والضمان الحقيقى لامتهدات المواطنين (١٣٣) بمعنى أن الناس لن يعموا فوق ما تتطلب أبسط حاجاتهم ما لم يحتفظوا بالنتائج الفائض لأنفسهم ، ليستهلكوه أو ينقلوه لغيرهم كما يشاءون . ويوافق روسو الآن على أن يورث الآباء ثروتهم لأبنائهم . ويقبل في اغتباط ما يتمخض عنه هذا من انقسامات طبقية . « ما من شيء أضر بالفضيلة وبالجمهوريه من انتقال المراتب والثروات باستمرار بين المواطنين : ومثل هذه التغيرات هى الدليل على وجود منات من ضروب الخلل والاضطراب ، وهى مصدرها فى الوقت نفسه ، ومن شأنها أن تقلب كل شيء رأساً على عقب وتفسده (١٣٤) .

ولكنه يواصل التنديد بالظلم الاجتماعى وبما فى القانون من عباة طبقية . فكما أن من واجب الدولة أن تحمى الملكيه الخاصه ووراثتها القانونيه ، كذلك

ينبغي أن يسهم أعضاء المجتمع ببعض ثروتهم لإعالة الدولة . وينبغي أن تفرض ضريبة صارمة على جميع الأشخاص بنسبة تصاعدية مع ثروتهم و « فائض ممتلكاتهم »^(١٣٥) ، وألا تفرض ضريبة على الضروريات ، وأن تفرض ضريبة مرتفعة على الكماليات ، وينبغي أن تمول الدولة نظاماً قومياً للتعليم . « أن الأطفال إذا نشئوا معاً (في مدارس قومية) في حضن المساواة وإذا أشربوا قوانين الدولة ومبادئ الإدارة العامة . . فلن نشك في أنهم سيحبون بعضهم بعضاً كما يفعل الإخوة . ليصبحوا في الوقت المناسب مدافعين وآباء الوطن الذي كانوا أبناؤه »^(١٣٦) . والوطنية خير من العالمية أو التظاهر الهزيل بالعطف العالمي^(١٣٧) .

وكما طغت النزعة الفردية على المقالين الأولين ، طغت النزعة الاجتماعية على مقال الاقتصاد السياسي . وهنا يصرح روسو لأول مرة بعقيدته الغريبة وهي أن في كل مجتمع « إرادة عامة » فوق المجموع العسدي لما يحبه الأفراد الذين يؤلفونه ومايكرهون . فالمجتمع ، في فلسفة روسو المقطورة ، كائن اجتماعي له روحه الخاصة ؛

« أن الدولة هي أيضاً كائن معنوي ، يملك الإرادة ، وهذه الإرادة العامة التي تنحو دائماً إلى صيانة ورفاهية الدولة كلها وكل جزء فيها ، هي مصدر القوانين ، وهي التي تشكل لجميع أعضاء الدولة ، في علاقاتهم بعضهم ببعض القاعدة التي تفرق بين العدل والظلم »^(١٣٨) .

وحول هذا المفهوم يقيم روسو الأخلاق والسياسة التي ستغلب منذ الآن على آرائه في الشؤون العامة . فترى الناثر الذي اعتبر الفضيلة تعبير الإنسان الحر الطبيعي يعرفها الآن بأنها « ليست سوى مطابقة الإرادات الفردية للإرادة العامة »^(١٣٩) . ونرى الرجل الذي كان ينظر إلى القانون مؤخراً جداً على أنه لا ثم من آثام الحضارة ، وأنه أداة مريحة لفرض النظام الطبع على الجماهير المستغلة ، يصرح الآن بأن القانون وحده هو الذي يدين له الناس بالعدل والحرية ، وهذا الجهاز النافع من أجهزة الإرادة الجماعية هو الذي يرسى ،

في الحق المدني ، المساواة الطبيعية بين البشر ، أنه الصورت السماوي الذي يملئ على كل مواطن مبادئ العقل العام» (١٤٠) .

ولعل محرري الموسوعة المطاردين كانوا قد نهوا روسو إلى التخفيف في هذا المقال من هجومه على الحضارة . وسنجد بعد سبع سنوات ، في كتابه « العقد الاجتماعي » يدافع عن الجماعة ضد الفرد ، ويقيم فلسفته السياسية على فكرة الإرادة العامة المقدسة السامية . على أنه لم يزل خلال ذلك فردياً وثائراً يبغض باريس ، ويؤكد ذاته ضد أصدقائه ، ويصنع كل يوم أعداء جدد .

٩ — الهروب من باريس ١٧٥٦

كان أصدقائه الحميمون الآن هم جريم ، وديدرو ، ومدام دينيه . أما جريم فقد ولد في راتربون عام ١٧٢٣ ، فكان بذلك يصغر روسو بأحد عشر عاماً . وقد تعلم في ليزرج في العقد الأخير من حياة باخ ، وتلقى عن يوهان أوجست لرنشقي أساساً مكيناً في لغتي اليونان والرومان وأداهما . فلما وفد على باريس في ١٧٤٩ تعلم الفرنسية بما عرف عن الألمان من اتقان ودقة ، ومالبت أن وافي مجلة المركز بمقالاته . وفي ١٧٥٠ أصبح السكرتير الخاص للكونت فون فريزن . وأغراه حبه للموسيقى بالتعلق بروسو ، كما رماه جوع أكثر عمقاً تحت قدمي الآنسة فل المغنية بالأوبرا ، فلما آثرت عليه المسبو كاهوزاك ، يقول روسو أن جريم :

«حز هذا في نفسه حتى أصبحت أمارات خطبه مأساوية — فكان ينفق الأيام والليالي في تراخ وتبلد . ويرقد وعيناه مفتوحتان . لا يتكلم ، ولا يأكل ، ولا يتحرك . . . وكنت والابيه رينال نرعاه ، فالابيه — وكان أشد مني وأصح — يسهر عليه ليلاً ، وأنا أرعاه نهاراً ، فلا نغيب عنه معاً في وقت واحد» (١٤١) .

واستدعى فون فريزن طبيباً يعوده ، فأبى أن يصف له دواء غير الزمن . وأخيراً ذات صباح ، قام جريم ، وارثدي ثيابه ، واستأنف نظام حياته العادي ، دون أن يذكر يومها أو بعدها . . هذا التبلد الشاذ (١٤٢) .

وقدم روسو جريم الى ديدرو ، وراح ثلاثهم يحلمون بالذهاب معاً الى إيطاليا . واستوعب جريم في نهم سيل الأفكار المتدفق من معين عقل ديدرو وتعلم لغة « الفلاسفة » الحالية من التوقير ؛ وألف كتاباً لا أدرياً « في التعليم الديني للأطفال » وأشار على فون فريزن بأن يتخذ ثلاث خليلات في وقت واحد « تذكراً للثالث الأقدس » ^(١٤٣) وأفلقت روسو تلك الألفة النامية بين جريم ، الذي سيصفه سانت بوف بأنه « أكثر الألمان فرنسية » ، وبين ديدرو « أكثر الفرنسيين ألمانية » ^(١٤٤) وقال روسو شاكياً « إنك تهملني يا جريم ، وأنا أغفر لك هذا » وأخذ جريم عند كلمته . فقال لي إنني مصيب . . . ثم حطم كل قيد ، فلم أعد أراه إلا في صحبة أصدقائنا المشتركين ^(١٤٥) .

وفي سنة ١٧٤٧ كان الابيه رينال قد بدأ يرسل للمكتتبين الفرنسيين والأجانب خطاب أتباء نصف شهرى سماه « الأنباء الأدبية » يورد فيه الوقائع في دنيا الأدب والعلوم والفلسفة والفنون الفرنسية — وفي ١٧٥٣ عهد بالمشروع الى جريم الذى — واصله بمعونة من ديدرو وآخرين حتى ١٧٩٠ . وأثناء اضطلاع جريم بالرحلة كان من بين من وافوها بمقالاتهم أفراد بارزون . كملكة السويد لويزا أوريلكا وملك بولندة السابق ستانلاس لسكيزنسكى ، وكاترين الثانية قيصرة روسيا ، وأميرة ساكس — جوتا ، وأمير وأميرة هيسى — دارمشتات ، ودوقة ساكس — كوبورج ودوق تسكانيا الكبير ، والدوق كارل أوجست أمير ساكس — فيمار . أما فردريك الأكبر فقد احجم حيناً عن المشاركة فيها لكثرة عدد من يبادلهم الرسائل في فرنسا وأخيراً وافق على أن يتسلم الرحلة ، ولكنه لم يدفع لها مالا قط . وقد أذاع جريم العدد الأول من الرحلة عقب لإضطلاعها بأصدارها (مايو ١٧٥٣) :

في الصفحات المطلوبة منا لن نضيع وقتاً على النشرات التى تفرق باريس كل يوم : . . . بل سنحاول أن نعطي تقريراً دقيقاً ، وتحليلاً منطقياً (critique raisonnée) للكتب التى تستحق أن يهتم بها الجمهور ،

وستكون الدراما جزءاً هاماً من تقريرنا لأنها فرع رائع من فروع الأدب الفرنسي وعلى العموم لن نغفل شيئاً جديراً بفضول غيرنا من الشعوب^(١٤٦).

وهذه الرسائل الأدبية المشهورة هي الآن سجل رئيسي نفيس لتاريخ فرنسا الفكرى فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، وقد استطاع جريم أن يكون صريحاً فى مقالاته النقدية ، لأنها لم تكن معروفة للجمهور الفرنسى أو للمؤلف الذى تتناوله . وكان يتوخى الإنصاف عادة ، إلا مع روسو فى فترة لاحقة . وقد أصدر الكثير من الأحكام الصائبة ، ولكنه أساء الحكم على « كانديد » فزعم أنها لا تثبت — للنقد الجاد ، على أن هذا رأى لم يوفق إليه تحامل على فولتير ، فقد وصفه بأنه : « أعظم الرجال فى أوربا جاذبية وأكثرهم لطفاً ، وأبعدهم صلياً »^(١٤٧).

ورد فولتير التحية بطريقته الشيطانية فقال : « ما الذى يترأى لهذا الروهيمى أن يزننا ذكاء وفطنة ؟ »^(١٤٨) ورسائل جريم هذه هى التى أذاعت فى أرجاء أوربا أفكار التنوير الفرنسى أكثر من أى كتابات أخرى باستثناء مؤلفات فولتير . ومع ذلك خامرته الشكوك فى جماعة الفلاسفة وفى إيمانهم بالتقدم ، فقال : « إنما العالم مركب من : شرور لا يحاول إصلاحها غير إنسان معنوه »^(١٤٩) وفى ١٧٥٧ كتب يقول :

« يبدو أن القرن الثامن عشر فاق كل القرون فى المداخل التى كالمها لنفسه ولو تمادى فى هذا قليلاً لأقنع خيرة المفكرين أنفسهم بأن دولة الفلسفة ، المبادئ المسالمة ، أوشكت أن تسود بعد عواصف الجنون الطويلة ، وأن ترسى إلى الأبد سلام البشر وهدوئهم وسعادتهم ولكن الفيلسوف الصادق ، لسوء الحظ ، لديه أفكار أقل تعزية ولكنها أصبح وأدق وهيات أن أصدق أننا مقربون من عصر العقل ، وأكاد أعتقد أن أوربا تهددها ثورة مدمرة »^(١٥٠).

ونلمح هنا أثراً من الكبرياء والغرور اللذين كانا يغيطان إصديقاً جريماً أحياناً . فلقد كان هذا المتفرنس أكثر من الفرنسيين ، ينفق الساعات فى

التزين ، وذو المساحيق على وجهه وشعره ، والأسراف في التعطر لإسرافاً لقب من أجله بدب الماسك^(١٥١) . وهو يبدو في رسائله ينثر التحيات بمنة وبسرة بيد تتوقع الرد عليها . وقد اشترط فردريك للأشراك في الرسائل أن « يعفى جريم من تحياته^(١٥٢) » . ومثل هذا التملق كان بالطبع جزءاً من أسلوب الرسائل في ظل « النظام القديم » .

واسترعى جريم أنباه باريس ، وهو الرجل البارد المتزن عادة ، بإشرافه على الموت هيأها بالأنسة فل ، وبدخوله في مبارزة من أجل مدام ديبينيه . وكانت هذه الأخيرة — لويز — فلورانس تارديوديسكلافيل — أبنة بارون من فالنسين مات في خدمة الملك عام ١٧٣٧ . وبعد ثمانية أعوام حين بلغت لويز العشرين ، تزوجت من دينيس — جوزف لاليف ديبينيه وكان ابن جاب غنى . وذهبا للعيش في قصر ريفي جميل يدعى الشاتو دلاشيفريت ، على تسعة أميال من باريس ، بقرب غابة مونمورنسى . وفاضت حياتها سعادة ، فتساءلت « أيستطيع قلبي أن يحتمل هذه السعادة؟ وكتبت إلى أبنة عم لها تقول « كان يعزف على البيان القيثاري ، وأنا جالسة على مسند كرسية ويسراى على كتفه ، وممناى تقلب الأوراق ، فلم يفتنه قط أن يقبلها في كل مرة تمر أمام شفتيه^(١٥٣) » .

ولم تكن جميلة ، بل صغيرة الجسم أنيقة على نحو ساحر ، بديعة التكوين très bien faite (كما ننبئنا)^(١٥٤) ؛ وستفتن عيناها السودا وان النجلوان فولتير بعد حين . ولكن « الأحساس دائماً بنفس الشيء يصبح بعد قليل » تماماً كالأحساس بلا شيء^(١٥٥) ، فلم يمض غير عام حتى كف ديبينيه عن ملاحظة هاتين العينين . لقد كان قبل الزواج فاسقاً عربيداً فعاد الآن كما كان ، يسرف في الشراب ، ويسرف في القمار ، وينفق المال الطائل على الأختين فريير ، اللتين أسكنهما كوخاً على مقربة من لاشيفريت وولدت له زوجته خلال ذلك طفليين . وفي ١٧٤٨ عاد من رحلة في الإقليم ، وضاجع امرأته ، فنقل إليها عدوى الزهري . وحصلت على انفصال شرعى عن زوجها بعد أن أعتلت صحتها وتحطمت

روحها . ووافق على تسوية سخية ؛ وورثت هي ثروة عمها ، فاحتفظت بلاشيفريت ، وحاولت أن تنسى تعاسها في الحذب على طفلها ورعاية صديقاتها . فلما أصيبت احدها - وهي مدام دجوللى - بالجدري إصابتها حمية ذهب لوزير لتمرصها ، ومكثت معها إلى النهاية ، معرضة نفسها لعدوى قد تودى بها أو تشوهها مدى الحياة .

وأجمعت صديقاتها على أنه يحسن بها أن تتخذ عشيقا . وجاء عشيق (١٧٤٦) وهو دوبان دفرانكوى ، الرجل الذى وظف روسو عنده . وقد بدأ بالموسيقى ، وإنهى بالزهرى ، ولم يلبث أن شفى من هذا الداء في حين ظلت هي تعاني منه^(١٥٦) . ولانضم إلى زوجها في إقتسام الآنتين دفيرير . وقال لها دوكلو في صراحة جافية « أن فرانكوى وزوجك يقتسمان الأختين فيما بينهما^(١٥٧) » . فأصيبت بحمى وهذيان داما ثلاثين ساعة . وحاول دوكلو الحلول محل دوبان ، ولكنها طردته . ثم كانت مأساة أخرى حين أعطتها مدام دجوللى وهي على فراش الموت حزمة أوراق نفصح غرامياتها وألحت عليها في أن تحرقها ، ففعلت . واتهمها الميسو دجوللى بأنها أحرقت عن عمد شهادات مديونيتها هي له . وأنكرت التهمة ولكن القرائن كانت ضدها ، إذ كان معروفا أنها كانت تعين زوجها بالمال رغم انفصالها عنه .

في هذه الأزمة دخل جريم الدراما ، وكان روسو قد قدمه إلى لويز في ١٧٥١ ، وكثيراً ما إشتراك ثلاثتهم في عزف الموسيقى أو الغناء معا . وذات مساء في حفلة أقامها الكونت فون فريزن أعرب أحد الضيوف عن اعتقاده بأن مدام دينيه مذنبه . . ودافع عنها جريم ، واحتد النقاش إلى حد المساس بالشرف ، وتبارز صاحب الاتهام والمدافع ، فخرج جريم جرحا طفيفا . وبعد حين وجدت الوثائق المفقودة ، وبرئت ساحة السيدة ، فشكرت جريم باعتباره « فارسها الهمام » ونما تقدير الواحد منهما لصاحبه فاكتمل حباً من أبقي وأثبت ما شهد ذلك العصر القلب . وحين أتلّف الحزن همة البارون دولباخ لموت زوجته ، وسافر جريم

العناية به في الريف ، سألته لويز « ولكن من سيكون فارسي ياسيدى إن هاجمتى أحد في غيابك ؟ فأجاب جريم « هو ما كان من قبل — حياتك الماضية^(١٥٨) » . ولم يكن الجواب قاطعاً مانعاً ، ولكنه فاق حدود الثناء .

وكان روسو قد التقى بمدام ديبنيه في ١٧٤٨ في بيت مدام دويان . ودعته إلى لاشيفريت . وفي « مذكراتها » وصف له :

« أنه يقدم التحيات والحاملات ، ولكنه ليس مؤدباً ، أو على الأقل يعوزه مظهر التأدب . والظاهر أنه جاهل بعبادات المجتمع ، ولكن من الواضح أنه مفرط الذكاء . وله بشرة سمراء ، وعينان بيضاوان تتوهجان وتضفيان الحيوية على قسماته ويقال إنه عليل ، ويتجلد لعذاب يحرص على كتمانها وهذا في ظنى هو الذى يفضى عليه أحياناً ، مظهر الأكتئاب^(١٥٩) » .

أما الصورة التى رسمها لها فلم تكن شديدة التألق :

« لم يكن حديثها الخاص ممتعاً ، وأن لم يعوزه اللطف في حضرة الجنسنيين وأسعدنى أن أبدى لها بعض الحاملات ، وقبلتها قبلات أخوية صغيرة ، لم تبد أكثر شهوانية منها هى لقد كانت غاية في النحول ، والشحوب ، ولها صدر كظاھر يدها . وكان هذا العيب وحده كافياً للتخفيف من أحر رغباتي^(١٦٠) » .

وظل سبع سنوات يلقى الترحيب في بيت مدام ديبنيه . فلما رأت مبلغ ضيقه في باريس فكرت في سبل تقديم المعونة له ، ولكنها كانت تعلم أنه سيرفض المال . وبينما كانا ذات يوم يسيران في حديقتهما خلف لاشيفريت ، أرته كوخا يسمى « الارميتاج (الصومعة) » كان من قبل ملكاً لزوجها . وكان مهجوراً متهدماً ، ولكن موقعه على حافة غابة مونتورنسى حمل روسو على أن يقول في انفعال : « يا له من مسكن مبهج ياسيدتى ! كأن هذا الملجأ أعد لي خصيصاً »^(١٦١) . ولم تجب السيدة ، ولكن حين عاودا السير إلى الكوخ في سبتمبر ١٧٥٥ ، أدهش روسو أن يجده قد رُم ، وأُثبت

حجراته الست ، ونظفت الأرض المحيطة به وربت : وينقل عنها أنها قالت « يا عزيزى ، إليك ملجأك ، فأنت الذى اخترته ، أن الصداقة تقدمه لك . وأرجو أن يزيل هذا فكرتك القاسية ، فكرة الانفصال عني » وكانت تعلم أنه فكر من قبل في أن يقيم في سويسرة ، ولعلها لم تعرف ما طرأ من فتور عل تحمسه لجنيف . و « فاضت دموعي على اليد الكريمة » يد صديقه ، ولكنه تردد في قبول عرضها . فأغررت تريز ومدام لفاسير بقول خطتها ، و « أخيراً تغلبت على جميع قراراتي » .

وفي أحد القيامة ، ١٧٥٦ ، ولكي تجمل الهدية باللياقة ، جاءت باريس في مركبتها ، وأخذت « دها » كما كانت تدعوه ، هو وخليلته وحمامته ، إلى الارميتاج . ولم يلد تريز فراقها لباريس ، أما روسو ، فلإن استغشق هواء الخلاء حتى شعر بأنه أسعد منه في أى وقت منذ أيام فردوسه الريفي مع مدام دفاران . « في ٩ إبريل ١٧٥٦ بدأت أحياء » (١٦٢) ، ولكن جريم أفسد الفرحة بتحذير لمدام دينيه :

« إنك تضرين روسو ضرراً بليغاً بإعطائه الارميتاج ، ولكنك تضرين نفسك ضرراً أبلغ . فستكمل العزلة مهمة تسويد خياله ، وسيبدو كل أصدقائه في عينيه ظلمة جاحدين ، وأنت أولهم ، إن رفضت ولو مرة واحدة أن تمتثل لأوامره » (١٦٣) .

وانطلق بعد ذلك جريم ، الذى أصبح الآن مكترثاً للمرشال دستريه ، ليلعب دوره في الحرب التي سترسم خريطة العالم من جديد .



الفصل الثانى

حرب السنين السبع

١٧٥٦ — ١٧٦٣

١ — كيف تشعل نار الحرب

حين وافت سنة ١٧٥٦ كانت أوروبا قد عرفت ثمانية أعوام من السلم . غير أن حرب الوراثة النمساوية لم تحسم شيئا . فقد تركت النمسا قلقة فى بوهيميا وإيطاليا ، وبروسيا قلقة فى سيليزيا ، وبريطانيا قلقة فى هانوفر ، وفرنسا قلقة فى الهند ، وأمريكا ، وعلى الرين . ولم تحقق معاهدة إكس لا شابل (١٧٤٨) تسوية للأراضى يمكن أن تقارن فى ثباتها بالتسوية التى حققها معاهدة وستفاليا قبل قرن من الزمان . وتزعزع توازن القوى القديم نتيجة لنمو الجيش البروسى والبحرية البريطانية ؛ فقد ينطلق ذلك الجيش ليلتهم أقاليم جديدة ، ولا تحتاج تلك البحرية إلا إلى الرقت لتفتنص مستعمرات فرنسا : وهولندة ، وأسبانيا . وتغذت الروح القومية الصاعدة فى إنجلترا على أرباح التجارة وفرصها ، وفى بروسيا على الحرب الظافرة ، وفى فرنسا على تفوق ثقافى يشعر شعورا غير مريح بالاضمحلال العسكرى . وكان الصراع بين الكاثوليكية والبروتستنتية قد انتهى إلى مأزق ، فترقب الطرفان تحولا فى الحظ ليجددا حرب الثلاثين . طمعا فى الاستيلاء على الروح الأوربية .

وكانت النمسا بادئة بالاستعداد لرمية جديدة للفرد البشرى . ذلك أن ماريا تريزا ، التى لم تزل رأس الامبراطورية الرومانية المقدسة الجميل رغم بلوغها التاسعة والثلاثين ، اجتمع لها كل كبرياء أجدادها المابسبروج ، وكل غضب المرأة المهانة ؛ فكيف تحيا بعد أن بترت سيليزيا من ملكها الموروث ، الملك الذى كفلت كل دول أوروبا العظمى وحادة أراضيه ؟ كيف وهى المرأة التى سيئفى بعد حين ، حتى فردريك هذا الذى أذلها من قبل ، على

« بسالتها وكفايتها » ويمتدح الطريقة التي « فطنت بها هذه الحاكمة الأصغر سنا إلى سر الحكم وعدت الروح المسيطرة على مجلسها . . . حين بدا أن الأحداث تأتمر بها لتدمرها. ^(١) لقد جعلت من الصلح هدنة فقط بعد أن هزمت وسلمت سيليزيا ثمنا للسلام . ثم كرست نفسها للنهوض بالحكم : واصلاح جيوشها المخطمة ، واكتساب حلفاء أقوياء . فترددت على المعسكرات التي يتدرب فيها جيشها ؛ ولهذا الغرض سافرت إلى براغ في بوهيميا ، وإلى أولمز في مورافيا ، وشجعت جنودها بالمكافآت والأوسمة ، وأكثر من ذلك بحضرتها ، حضرة الملكة والمرأة معا . ولم يكن هناك داع لأن يقسم قوادها بمن الولاء لها ، فالولاء في دمههم وفروسيتهن ؛ وآية ذلك أن أمير ليشتنشتين أنفق ٢٠٠٠,٠٠٠ ايكو (١,٥٠٠,٠٠٠ دولار ؟) من ماله الخاص ليجند ويجهز لها سلاح المدفعية كاملا . وأنشأت قرب فيينا كلية حربية لصغار النبلاء ، وجلبت لها خيرة معلمى الهندسة . والجغرافيا ، والتحصين والتاريخ . يقول فردريك « في عهدها بلغت العسكرية النسائية درجة من الكمال لم يعرفها أسلافها قط ، وقامت امرأة بتنفيذ خطط جديرة برجل عظيم . » ^(٢)

وكانت الدبلوماسية هي الوجه الآخر لخطتها . فأرسلت مبعوثيها إلى كل بلد لتكتسب أصدقاء للنمسا وتثير العداء لفردريك . لاحتفظت قوة روسيا الصاعدة ، بعد أن نظمها بطرس الأكبر واطاعت بشؤونها الآن القيصرة اليزافيتا بتروفنا ؛ فعملت على أن تحصل تعليقات فردريك الساخرة على غراميات القيصرة إلى أذنيها . وكانت ماريّا تريزا تتمنى لو جددت تحالفها مع إنجلترا ، ولكن ذلك التحالف كدسه الصلح المنقصل الذي أبرمته إنجلترا مع بروسيا (١٧٤٥) والذي اكبره النمسا على التخلي عن سيليزيا . وكانت سياسة إنجلترا الخارجية تتجه الآن إلى حماية تجارتها في البحر البطلى من سطوة روسيا ، وإحكام قبضتها على هانوفر لتقيها أى خطر يتهددها من بروسيا أو فرنسا . وقد اعتمدت على روسيا في تزويدها بما يلزم بحريتها من أخشاب ، واعتمدت على بحريتها في احراز النصر في الحرب . ومن ثم وقعت إنجلترا في ٣٠ سبتمبر ١٧٥٥ معاهدة تعهدت فيها روسيا ،

نظير معونات مالية من إنجلترا ، بأن تحتفظ بجيش من ٥٥,٠٠٠ مقاتل في ليفونيا ، وعلى الانجليز أنفسهم بأن هذا الجيش سيعوق فردريك عن أى مغامرات توسعية صوب الغرب .

ولكن كيف، تنصرف إنجلترا مع فرنسا ؟ لقد ظلت فرنسا عدوا لها مئات السنين ، وما أكثر ما أثارت فرنسا أو مولت الأعمال العدائية التى قامت بها اسكتلندة ضد إنجلترا ؛ وكم من مرة تأهبت لغزو الجزر البريطانية أو هددت بهذا الغزو . وقد أصبحت فرنسا الآن الدولة الوحيدة التى تتحدى بريطانيا فى البحار أو المستعمرات ؛ فلو أن بريطانيا ألحقت بفرنسا هزيمة فاصلة لظفرت بمستعمراتها فى أمريكا والهند ، ودمرت بحريتها أو شلت حركتها ، وعندها لن تكون الإمبراطورية البريطانية آمنة من الخطر فحسب ، بل سيدا غير منازع . كذلك كان ولیم بت الأب يجادل البرلمان يوما بعد يوم ، بأبلغ ما سمع ذلك المحفل طوال عمره من خطب الخطباء ولكن أيمكن أن تهزم فرنسا ؟ وقال بت ، أجل ، وذلك بحلف بين بروسيا وإنجلترا . وأليس خطراً كبيراً أن يسمح لروسيا بأن تزداد قوة على قوة ؟ وأجاب بت : لا ، فإن لروسيا جيشاً عظيماً سيساعد إنجلترا ، بناء على هذه الخطة ، على حماية هانوفر ، ولكن ليس لها بحرية ، ومن ثم لن تقوى على منافسة بريطانيا فى البحر ، وبدا أن من الأحكم أن يسمح لروسيا البروستنتية بالحلول محل فرنسا الكاثوليكية ، لها أو النمسا الكاثوليكية ، قوة « غالبية فى القارة » ، أن كان فى هذا تمكيناً لبريطانيا من « أن تسود البحار » وتستولى على المستعمرات . وأى انتصارات يحرزها فردريك فى أوروبا من شأنها أن تدعم قوة إنجلترا وراء البحار ، ومن هنا تفاخر بت بأنه سيكسب أمريكا والهند على ساحات القتال فى القارة . فستقدم إنجلترا المال ، ويتغوص فردريك معارك اليابس ، وتكسب إنجلترا نصف العالم . ووافق البرلمان ، وعرضت بريطانيا على بروسيا ميثاقاً للدفاع المشترك .

واضطر فردريك لقبول هذه الخطة ، لأن تطور الأحداث حجب

بهاء انتصاراته . كان يعلم أن فرنسا تحاول التقرب من النمسا ، فلو أن فرنسا والنمسا ومعهما روسيا أيضاً ؛ وهو وضع أسوأ - اتحدت ضده لما استطاع أن يقاومها كلها ، وفي مأزق كهذا لن يقوى على نجاته غير إنجلترا . ولو أبرم الميثاق الذي عرضته عليه إنجلترا لاستطاع أن يطالبها بمنع روسيا من مهاجمته ولو كفت روسيا لجاز ثنى النمسا عن الحرب . وهكذا وقع فردريك في ١٦ يناير ١٧٥٦ معاهدة وستمنستر ، التي تعهدت فيها إنجلترا وبروسيا بمعارضة دخول الجيوش الأجنبية إلى ألمانيا ، وكان الحليفان يأملان أن تحمي هذه المادة الوحيدة بروسيا من روسيا ، وهانوفر من فرنسا .

وشعرت فرنسا ، والنمسا ، وروسيا جميعاً أن هذه المعاهدة خيانة من حليفتيهم . صحيح إنه لم يحدث لإنهاء رسمي للحلفين اللذين ربطا إنجلترا بالنمسا ، وفرنسا وبروسيا ، في حرب الوراثة النمساوية . وصعقت ماريا تريزا - كما قالت للسفير البريطاني - حين علمت أن أصدقاءها الانجليز أبرموا ميثاقاً مع « الخصم اللدود المقيم لشخصي ولأسرتي^(٣) » . وشكا لويس الخامس عشر من أن فردريك خدعه . ورد فردريك بأن المعاهدة دفاعية بحتة وينبغي ألا تسيء إلى أى قوة لا تنوى الإساءة . أما مدام دېومبادور ، التي كانت تختار الوزراء الفرنسيين وتهيمن عليهم ، فقد تذكرت أن فردريك كان قد اتهمها بإيداع المبالغ الطائلة في المصارف البريطانية ، وسماها « الآنسة سمكة la demoiselle Poisson و Cotillon IV (الجولنة الرابعة - أى) أربعة خليلات لويس الخامس عشر) » . وأما لويس فقد تذكر أن فردريك سخر من أخلاق ملك فرنسا السوقية . ووقع هذا الخذلان لفرنسا على رأسها في وقت كانت فيه جيوشها مرهقة ، وخزائنها خاوية ، وبحريتها بادئة فقط بالإفاقة من الإهمال الذي لقيته في وزاره الكردينال فلورى المسالمة . ففي ١٧٥٦ كان لفرنسا خمس وأربعون بارجة ، وإنجلترا مائة وثلاثون بارجة^(٤) ، وكان تموين البحرية تعوقه الرشوة والسرقة ، ونظامها تفسده ترقية غير الأكفاء من ذوى الألقاب ترقية مثيرة للسخط كما يفسده

تعدد الهزائم . فالى من تمنحه فرنسا الآن حايها لها ؟ إلى روسيا ؟ ولكن إنجلترا سبقها إلى النمسا ؟ — ولكن في الحرب الأخيرة خرقت فرنسا تعهداتها بضمن ميراث مازيا تريزا ، وانضمت إلى بروسيا في مهاجمتها ، وواصلت الهجوم عليها حتى بعد أن عقد فردريك الصلح معها . لقد كانت النمسا تحت حكم الهابسبورج ، وفرنسا تحت حكم البوربون ، عدوين قرونا عدة ، فكيف يمكن أن تصبحا صديقين هما وشعباهما بعد طول ما ألفا من كراهية متبادلة ؟

ومع ذلك كان هذا بالضبط « قلب الاحلاف » الذى إقترحته حكومة النمسا الآن على فرنسا . وقد ولدت هذه الخطة أول ما ولدت — على قدر ما تستطيع الآن تتبع تاريخها — في ذهن الكونت فنتزل أنطون فون كاونتز ، أقدر من أنجيته القسارة الأوربية في القرن الثامن عشر من الدبلوماسيين وأثقفهم بصيرة وأشدهم إصرارا . وقد قدر لحرب السنين السبع أن تكون صراعاً في السلاح بين فردريك الأكبر والمارشال داون ، وصراعاً في الذكاء بين كاونتز . بت . يقول فردريك « إن للأمبر كاونتز أحكم رأس في أوربا^(٥) » .

كانت أسرة كاونتز قد طلبت إليه أن يعد نفسه للقسوسية لأنه الأبن الثانى ، أما هو فأصبح في دخيلة نفسه تلميذا لفولتير^(٦) . ولما كان أبوه سفيراً لدى الفاتيكان وحاكماً لمورافيا ، فقد ورث أبنه الدبلوماسية في دمه . وهكذا أصبح وهو في الحادية والثلاثين مبعوث النمسا في تورين . وكانت أول رسالة منه إلى حكومته مبنية منطقياً على ملاحظة للحقائق السياسية بلغت من الدقة مبلغاً حمل الكونت فون أولفلد على أن يقول لماريا تريزا وهو يعرضها : « هالك وزيرك الأول^(٧) » . وفي عامه السابع والثلاثين كان المفوض النمساوى في مؤتمر أكس لا شابل . وهناك دافع عن مصالح مارياتريزا بأصرار وبراعة جعلاً الإمبراطورة حتى في هزيمتها تشكر له خدماته وإخلاصه . ولما فاتحها في تاريخ مبكر (١٧٤٩) بخطة التحالف مع فرنسا ، تقبلت بذهن مفتوح فكرة معانقة العدو التقليدى لبيتها . لقد كانت

مصممة على هزيمة فردريك واستعادة سيليزيا ، ولكن كاوتز بين لها أن هذا محال بالتحالف مع إنجلترا التي ركزت قوتها في البحار ، إنما هو يتطلب التحالف مع فرنسا وروسيا اللتين تركزان قوتيهما في اليابس . وبين شقي الرحي هذين - فرنسا وروسيا من ناحية ، والنمسا من ناحية - يمكن أن يسحق فردريك . وأمرت الإمبراطورة كاوتز بأن يسعى لتحقيق هذا الهدف المنشود .

وفي ١٧٥١ بعث سفيراً إلى باريس . وأدهش جماعة النبلاء بهاء مقدمه الرسمي على المدينة ، وأبهج عامة الشعب بإحساناته ، ورفه عن الصالونات بثيابه الفاخرة ، وتنوع عطوره وأسباب تجملته ، وخصه شعره المبذرة بعناية^(٨) . قال عنه كارليل « رجل شديد الخيلاء ، غريب الأطوار ، وقع بعض الشيء »^(٩) . ولكنه وقع في نفس الملك ، وخلقته ، ووزرائهما ؛ موقعا طيباً بفضل اطلاعه على بواطن الأمور وحسن تقديره لشئون السياسة . وراح يعد أذهانهم بالتدريج للتحالف مع النمسا . فصور لهم إمكان اقناع روسيا ، وبولندا ، وسكسونيا ، بالإسهام في تأديب فردريك . وتساءل ما الذي جنته فرنسا من وراء تحالفها مع بروسيا - اللهم إلا تضخم قوة دولة برية تتحدى زعامة فرنسا على القارة ، ثم ألم يحنث فردريك المرة بعد المرة بعهدده حين وجد الحنث في صالحه ؟

وكان كاوتز يحرز تقدماً طيباً حين استدعته ماريا تريزا إلى فيينا ليكون مستشاراً لها ، وحولت له كامل الساطة في الشؤون الداخلية والخارجية (١٧٥٣) وعارض النبلاء الشيوخ في بلاط فيينا خطته طويلاً ، فشرحها ودافع عنها في صير ، وأيدته الإمبراطورة ؛ وفي ٢١ أغسطس ١٧٥٥ نال اقتراح التحالف مع فرنسا الموافقة الرسمية للوزارة الإمبراطورية . وصدرت التعليمات للكونت جيورج فون شتارهمبرج ، الذي خلف كاوتز سفيراً في باريس ، بأن يروج للخطة الكبرى في كل فرصة تتاح له لدى لويس الخامس عشر ومندم ديومبادور . وأرسل كاوتز خطاباً كلسه لإطراء إلى « الخليفة الرسمية » (٣٠ أغسطس ١٧٥٥) أرفق به مذكرة رجاها أن

تسلمها للملك سرّاً . ففعلت . وكانت المذكرة من هاريا تيزيزا ، وهذا نصها .

« إننى بصفتى إمبراطورة وملكة ، أعد بالأبداً شئاً على الإطلاق من كل ما سيعرضه الكونت شتارهمبرج باسمى على الملك المسيحى جداً ، وبأن يحتفظ دائماً بأعمق السرية فى هذا الأمر ؛ سواء نجحت المفاوضات أو فشلت . ومن المفهوم بالطبع أن الملك سيعطى لإقراراً ووعداً مماثلين .
فيينا ، ٢١ يونيو ١٧٥٥^(١) .

وعين لويس الأبيه دبزنيس والمركيزة دبومبادور . للاجتماع سرا بشتارهمبرج فى جناحها « باببول » . هناك إقترح السفير باسم الإمبراطورة أن تتخلى فرنسا عن تحالفها مع بروسيا ، وأن تتعهد بأن تقدم للنمسا على الأقل معونة مالية فى حالة نشوب الحرب . وقال إن فردريك حليف عديم الفائدة ، لا يركن إليه . ولمح بأن فردريك ، حتى فى تلك اللحظة ، مشغول باتصالات سرية مع الوزارة البريطانية . وتعد النمسا من جانبها بأن تمتنع عن أى عمل عدائى ضد فرنسا إذا دخلت فرنسا فى حرب مع إنجلترا ، وفى حالة نشوب هذه الحرب تسمح النمسا لفرنسا باحتلال أوستند ونيويورت ، وقد تسمح نهائياً بأن تكون الأراضى المنخفضة النمساوية من نصيب فرنسا .

ولاحظ لويس أن هذا الميثاق سيورطه فى حرب نمساوية ضد بروسيا ، ولكنه لا يلزم النمسا بأن تعين فرنسا على إنجلترا . وكان له عذر فى أن يخشى جيش فردريك أكثر من الجيش النمساوى — الذى طالما هزم ، والذى كانت قيادته فى الحرب الأخيرة غاية فى السوء . فأمر لويس أن يرد بأن فرنسا لن تغير تحالفها مع بروسيا ما لم تقدم لها البراهين على اتصالات فردريك بإنجلترا . ولم يستطع كاونتز حتى ذلك التاريخ أن يقدم هذه البراهين ، فتوقف سير خطته مؤقتاً . ولكن حين تلقى لويس اعتراف فردريك بمعاهدة وستمنستر الانجليزية البروسية ، رأى أن تحالفه مع بروسيا مات فى الحقيقة والواقع . وربما خطر له ، وهو غارق فى آثامه ، أنه قد

يسترضى الله بتوحيد الدول الكاثوليكية — فرنسا ، النمسا ، وبولندا ، واسبانيا — في مخطط يهيمن به على مصائر أوروبا^(١١) . وعليه ففي أول مايو ١٧٥٦ أتمت معاهدة فرساي قلب الاحلاف رأسا على عقب . وأعلنت ديباجة المعاهدة أن هدفها الوحيد هو المحافظة على سلام أوروبا وتوازن القوى . فإذا تعرض أحد الطرفين المتعاقدين لتهديد في ممتلكاته الأوربية من أى دولة غير إنجلترا ، خف الطرف الآخر لنجدته بالوساطة الدبلوماسية ، وبالمعونات المالية أو الجيوش إذا اقتضى الأمر . ولا تعد النمسا بمساعدة فرنسا ضد إنجلترا ، ولا تعين فرنسا النمسا على بروسيا مالم تكن بروسيا هى المعتدية على نحو واضح . وإذ لم ير لويس أى احتمال لأن تعرض بروسيا مكاسبها للخطر بعودتها إلى مهاجمة النمسا ، فقد استطاع هسو وخليته أن يوهما نفسيهما بأن الحلف الجديد يعين على السلام فى القارة .

لم يحقق كاوتز إلى الآن كل هدفه فى الحصول على المعونة الفرنسية ضد بروسيا . ولكنه تزرع بالصبر ، فلعله يستطيع إثارة فردريك ليهاجم النمسا ولم يجد أثناء ذلك صعوبة تذكر فى إقناع القيصرة بالانضمام إلى الحلف الجديد ، فقد كانت اليزافينا تتوق إلى إزالة العقبة البروسية من طريق توسع روسيا غربا . وعرضت أن تهاجم بروسيا قبل نهاية عام ١٧٥٦ إن وعدت النمسا بأن تهاجمها هى أيضاً ، ووعدت بأنها فى هذه الحالة لن تعقد صلحا مع بروسيا إلا إذا ردت سيليزيا كاملة إلى النمسا . وأبهجها أن تعلم بأن فرنسا أبرمت معاهدة فرساي . واضطر كاوتز إلى كبح حماسها ، فهو يعلم أن جيوشها لن تكون مهيأة لخوض حملة كبرى قبل ١٧٥٧ . فترث حتى ٣١ ديسمبر ١٧٥٦ ، ثم وقع الاتفاقية التى أنضمت روسيا بمقتضاها إلى الحلف الفرنسى النمساوى .

وخلال ذلك كانت إنجلترا ؛ الواثقة من أن تحالفها مع فردريك سيشل حركة النمسا ، قد بدأت فعلا عملياتها البحرية ضد فرنسا دون أى إعلان للحرب . وراحت السفن الحربية الانجليزية من يونيو ١٧٥٥ تستولى على السفن الفرنسية كلما استطاعت . وردت فرنسا بالاستعداد لغزو إنجلترا ،

وبتجريد أسطول من خمس عشرة سفينة تحت إمرة الدوق دريشليو ليهاجم جزيرة مينورقة التي كان البريطانيون قد أستولوا عليها في حرب الوراثة الاسبانية (١٧٠٩) . وتعززا للحامية البريطانية الصغيرة في الجزيرة أرسلت بريطانيا عشر سفن يقودها الأميرال جون بينج ، وأنضمت إليها ثلاث سفن إضافية في جبل طارق . وفي ٢٠ مايو ١٧٥٦ أشتبك الأسطولان العدوان قرب مينورقة . فهزم الفرنسيون ، ولكن الأسطول الانجليزي أصيب بأضرار حملت بينج على العودة به إلى جبل طارق دون محاولة لانزال تعزيزات على بر مينورقة . وسلمت الحامية العاجزة ، وأصبح لفرنسا الآن موقع استراتيجي في البحر المتوسط . وأشاد القوم بريشليو بطلا في باريس وفرساي ، وإعدم بينج على سطح سفينته في ميناء بورتسموث (١٤ مارس ١٧٥٧) بتهمة عدم بذله قصارى جهده للأنتصار . وعبنا تشفع له فولتير وريشليو ، وقال فولتير إن هذا هو الأسلوب الذي تتبعه إنجلترا في « تشجيع الآخرين » الذين يتولون القيادات البريطانية . وفي ١٧ مايو ١٧٥٦ أعلنت إنجلترا الحرب على فرنسا ، ولكن البداية الرسمية لحرب السنين السبع تركت لفردريك .

وكان عالميا بأن فتحه لسيليزيا عرضه لمحاولة أستردادها في أى وقت تجد فيه ماريا تريزا موارد وحلفاء جددا . وكانت موارده هـو محدودة بشكل خطر ، ومملكته اخلاطا من الأوصال المقطعة ؛ فروسيا الشرقية تفصلها بولندة عن بروسيا ، والإقاليم البروسية في وستفاليا وفرزيا الشرقية تفصلها الدويلات الإلمانية المستقلة عن براندنبورج . وكان سكان بروسيا بما فيها هذه الاجزاء التمتاثرة وسيليزيا يبلغون نحو أربعة ملايين نسمة عام ١٧٥٦ ، وسكان إنجلترا ثمانية ملايين ، وسكان فرنسا عشرين مليونا . وكان شطر كبير من سكان بروسيا في سيليزيا ، التي ظل نصفها كاثوليكية متعاطفا مع النمسا . وعلى سبعة أميال فقط من برلين كانت حدود سكسونيا المعادية ، التي كان أميرها : الناخب ، أوغسطس الثالث ملك

بولندة الكاثوليكي ، ينظر إلى فردريك نظره إلى زنديق وقح جشع ؟
فكيف السبيل إلى البقاء وسط هذا الرجل الذى يغلى بالعداء له ؟

ليس إلا بالعقل الراجح ، والاقتصاد ، والجيش القوى ، والقواد
الأكفاء ، أما عقله فقريع فى حدة ذكائه لأى عقل آخر ، وهو أفضل
حكام عصره تعليا ، وقد أثبت جدارته فى رسائله وأحاديثه ، وجدله مع
فولتير . ولكن لسانه كان أحد من أن يسمح العقل باطلاقه على الناس ،
ولعل أموره كانت تجرى بأيسر مما جرت لو أنه لم يصنف الزافيتا بروفنا ،
وماريا تريزا ، ومدام دبوباهور ، بأنهن « ثلاثة من كبار عاهرات
أوروبا » (١٢) ؛ ومن بواعث الغزاء لنا أن نرى أنه حتى عظماء الرجال قد
يسلكون مسلك الحمقى بين الحين والحين . أما عن اقتصاد بروسيا ، فإن
فردريك أنضعه لسيطرة الدولة ولما رآه ضرورات لاغنى عنها لحرب
ممكنة . فى هذه الظروف لم يجرؤ على تغيير الهيكل الإقطاعى للحياة
البروسية مخافة أن يخلل التنظيم الإقطاعى لجيشه . فلقد كان الجيش خلاصه
ودينه . أنفق على صيانه تسعين فى المائة من موارده (١٣) وسماه « أطلس »
الذى حملت كتفاه القويتان الدولة (١٤) . وزاده من ١٠٠,٠٠٠ مقاتل
خلفهم له أبوه حتى بلغ به ١٥٠,٠٠٠ فى ١٧٥٦ . ودربه بالعقوبات
الصارمة على الطاعة الفورية الصارمة ؛ وعلى السير فى ثبات صوب
الخط المواجه له دون أن يطلق طلقة حتى يصدر إليه الأمر ، وعلى تغيير
إتجاهه ، والمناورة بكتله كلها ، وهو تحت نيران العدو . وكان على رأس
الجيش فى بداية الحرب خيرة القواد فى أوروبا بعد فردريك نفسه —
شفيرين ، وسيدلتز ، وجيمس كيث .

ولم يكن أقل من قواده أهمية أولئك الجواسيس الذين بثهم بين أعدائه
ولم يترك له جواسيسه شكاً فى أن ماريا تريزا تؤلف حوله نطاقاً من القوى
المعاداة . وفى ١٧٥٣ — ١٧٥٥ حصل جواسيسه فى درسدن ووارسو على
نسخ من رسائل سرية تبادلها الوزارتان السكسونية والتساوية ، أقنعتهم بأن
هذين البلاطين يأتمران للهجوم على بروسيا وتقطع أوصالها أن حالتهما الخط ،

وأن فرنسا تستر على المؤامرة^(١٥). وفي ٢٣ يونيو ١٧٥٦ أصدر أمره للقائد البروسي في كونيغزبرج بأن يستعد لمقابلة هجوم عليه من روسيا . وأبلغ الحكومة البريطانية بأن « لدى بلاط فيينا ثلاث خطط تشير إليها خطاه الحالية : أن يوطد حكمه الاستبدادي في الإمبراطورية ، وأن يقضى على البروتستنتية ، وأن يعيد فتح سيليزيا^(١٦) » . وعلم أن سكسونيا تدبر زيادة جيشها من سبعة عشر ألف مقاتل إلى أربعين ألفا خلال الشتاء^(١٧) . وخن أن الحلفاء يتربصون ربيع ١٧٥٧ لنزحفوا عليه من ثلاث جهات ، فصمم على أن يضرب ضربته قبل أن تكتمل تعبئة قواتهم .

وقد شعر أن فرصته الوحيدة للنجاة من الخطر الذي يهدده هي شل حركة عدو واحد على الأقل من أعدائه قبل أن يستطيعوا توحيد صفوفهم في مقاتلته . ووافق شقرين ، ولكن أحد وزرائه المسمى الكونت فون بوديفيلس رجاءه إلا يعطى أعداءه ذريعة لاتهامه بأنه المعتدى . ولقبه فردريك « السيد صاحب السياسة الجبابة^(١٨) » وكان قبل ذلك بزمان طويل ، في « ميثاق سياسى » سرى (١٧٥٢) قد نصح خليفته بأن يفتح سكسونيا فيتيح بفتحها لبروسيا الوحدة الجغرافية ، والموارد الاقتصادية ، والقوة السياسية التي لاغنى عنها لمن يريد البقاء^(١٩) . ولكنه نحى الفكرة جانبا باعتبارها فكرة لا يقوى على تحقيقها . أما الآن فقد رآها ضرورة حربية فلا بد له من حماية حدوده الغربية بتجريد سكسونيا من السلاح .

وكان حتى في كتابه القريب من المثالية . « المعارض لمسكيافلى » (١٧٤٠) قد وافق على الحرب الهجومية إذا أريد بها الحيلولة دون هجوم داهم من العدو^(٢٠) . وأخبره منشئ ، الوزير البروسى فى إنجلترا ، أنه رغم رغبة الحكومة البريطانية القوية فى الحفاظ على السلام فى القارة ، فهى تدرك الضرورة القاهرة التى يواجهها فردريك ولن تعتبره « ملوما » على الإطلاق إذا هو حاول أن يسبق أعداءه بالهجوم بدلا من الإنتظار حتى ينفذوا فيه نياتهم العدائية^(٢١) .

وفى يوليو ١٧٥٦ أوفد مبعوثا إلى ماريا تريزا يطلب تأكيدا بأن النمسا

لا تنوى القيام بأى هجوم على بروسيا لا فى تلك السنة ولا فى السنة التالية. ورأى عضو فى الوزارة النمساوية أن الواجب إعطاء هذا التأكيد ؛ ولكن كاوثنز رفض لإرساله ؛ فكل ما تود ماريا تريزا أن تقول هو أنه « فى الأزمة الراهنة أراه ضروريا أن أأخذ تدابير لتأمين نفسى وحلفائى ، وليس من شأن هذه التدابير الإضرار بأحد^(٢٢) » . وأرسل فردريك رسالة ثانية للإمبراطورة يسألها جواباً صريحاً على طلب التأكيد ؛ فأجابت بأنها « لم تبرم حلفاً هجومياً ، ومع أن موقف أوروبا الدقيق يضطرها إلى التسليح ، فإنها لا تنوى خرق معاهدة درسدن (التى تعهدت فيها بمسألة فردريك) ، ولكنها إن تربط نفسها بأى وعد يمنعها من التصرف وفقاً لمقتضيات الظروف^(٢٣) » . وكان فردريك يتوقع هذا الجواب ، وقبل أن يصله قاد جيشه إلى سكسونيا (٢٩ أغسطس ١٧٥٦) . وهكذا بدأت حرب السنين السبع .

٢ ... طريق المانون

١٧٥٦ - ١٧٥٧

وبذل فردريك محاولة فائرة ليجند ناخب سكسونيا حايفا له ، فعرض عليه بوهيميا رشوة . . وكانت ملكا لماريا تريزا . ولكن أغسطس احتقر هذا التصديق بمال الغير ، وأمر قواده بوقف زحف فردريك ، ثم فر إلى وارسو . وكانت القوة السكسونية أصغر من أن تقاوم أعظم جيش فى أوروبا ، فانسحبت إلى القلعة فى بيرنا ، ودخل فردريك درسدن دون مقاومة (٩ سبتمبر ١٧٥٦) وأمر عملاءه للفور بأن يفتحوا المحفوظات للسكسونية ويأتوه بأصول تلك الوثائق التى كشفت من قبل عن اشتراك سكسونيا فى الخطة المرسومة لتأديب بروسيا وربما لتقطيع أوصالها . ووقفت الملكة الناجبة العجوز بشخصها لتحول دون الوصول إلى المحفوظات ، وطالبت فردريك بأن يحترم حقها فى عدم العدوان عليها . أما هو فأمر بازالتها من الطريق ، ففرت ، ووضع يده على الوثائق ؟

وأرسلت ماريا تريزا جيشا من بوهيميا لازاحة الغازى من مكانه ،
فالتقى به فردريك وهزمه فى لوبوزيتس ، على الطريق من براغ إلى درسدن
(أول أكتوبر) وعاد ليحاصر بيرنا ، فسلمت له (١٥ أكتوبر) ،
وحشد الأربعة عشر ألف جندى من أسرى السكسونيين فى فرقه ، وحجته
أن هذا أرخص له من اطعامهم وهم أسرى حرب ، فلقد كان شره
الألمان للطعام أمرا مشهورا ولا فخر . وأعلن أنه فتح سكسونيا ، واستخدم
مواردها لتلبية حاجاته . ونشر على الملأ خلال الشتاء الوثائق السكسونية .
فزعمت ماريا تريزا أنها مزيفة ، واستنجدت بفرنسا وروسيا وكل
المسيحيين الذين يخافون الله واستعدتهم على ذلك الرجل الذى زج بعدوانه
الصارخ أوروبا فى خضم الحرب من جديد .

واتفقت أوربا عموما على ادانة فردريك . وأعلنت الإمارات الألمانية الحرب
على بروسيا (١٧ يناير ١٧٥٧) مخافة أن يحقق بها ما حاق بسكسونيا إذا
انتصر فردريك ، وجمعت جيشا امبراطوريا لقتال ملك بروسيا . ولم يضيع
كاونتز وقتا فى تذكير لويس الخامس عشر أن فرنسا قد وعدت النمسا
بالمعونة إذا تعرضت للخطر . وألحت الدوقينة ، ابنة ناخب سكسونيا ، على
حميها فى أن ينقذ أباهما . أما مدام دهبومبادور ، التى عللت نفسها من قبل
بأمل الاستمتاع بملكها فى سلام ، فقد مالت الآن إلى الحرب . وتفديرا
لمعوناتهما أهدتها ماريا تريزا صورة ملكية رصعت بالجواهر وقدرت بمبلغ
٢٧٨ و ٧٧ جنيه (١٤) وانقلبت دهبومبادور امرأة حربية . أما لويس
الذى كان عادة بطيء الحسم ، فقد اتخذ قراره بعزيمة لاتلثنى . والتزمت
فرنسا الآن بمقتضى معاهدة فرساي الثانية (أول مايو ١٧٥٧) بتحالف
دفاعى هجوى مع النمسا ، وتعهدت لها بمعونة سنوية قدرها اثني عشر
مليون فلورين ، ووافقت على تجهيز جيشين ألمانيين ، وعرضت تخصيص
قوة فرنسية قوامها ١٠٥,٠٠٠ مقاتل لتدمير بروسيا تدميرا تاما . «
ووعدت ألا تعقد صلحا على الاطلاق مع بروسيا حتى ترد سيليزيا إلى
النمسا . فإذا ردت حصلت فرنسا على خمس مدن حدود فى الأراضي الواطئة
(م ٦ - قصة الحضارة ج ٣٩)

التمساوية ، ونقلت ملكية هذه الأراضي الواطئة الجنوبية إلى ولية عهد أسبانيا البوربونيه لقاء دوقيات أسبانية في إيطاليا . ولعل فرنسا كانت تتخلى على وعى منها عن مستعمراتها للفتح البريطانى بتكريس مواردها كلها تقريبا لالتهام « بلجيكا » . واستطاع كاونتز أن يحس بأنه أحرز نصرا دبلوماسيا عزيزا .

ولم يجد الآن مشقة في أن يستميل روسيا إلى مديد العون النشيط إلى النمسا . وتعهدت روسيا والنمسا بمقتضى اتفاقية سانت بطرسبورج (٢ فبراير ١٧٥٧) بأن تضع كل منها ثمانين ألف جندي في الميدان ، وأن تخوض الحرب إلى أن توحد سليزيا مع النمسا من جديد وتختزل بروسيا إلى دولة صغيرة . ثم اتجه كاونتز إلى السويد فأدخلها الحلف بأن كفل لها في حالة الانتصار كل الشطر البومرانى الذى سلم لها في معاهدة وستفاليا . وفرض على السويد أن تقدم ٢٥٠٠٠ مقاتل ، وعلى النمسا وفرنسا أن تمولا هذا الجيش . وتعهدت بولنده التى كان يحكمها الملك اللاجئ أوغسطس الثالث بتقديم مواردها المتواضعة إلى الحلف الفرنسى التماسوى ، وهكذا تكثفت ضد فردريك كل أوروبا باستثناء إنجلترا ، وهانوفر ، والدنمرك ، وهولنده ، وسويسرة ، وتركيا ، وهسنى - كاسل .

ووجدت إنجلترا من الأسباب ما يغريها بترك فردريك لمصيره . ذلك أن جورج الثانى رأى في فزع أن موطنه الم محبوب هانوفر الإمارة الناجية التى قدم منها أبوه ليحكم بريطانيا ، وقفت عاجزة عن الدفاع عن نفسها في طريق جيش عرمرم ، بينما كان فردريك أعجز من أن يقدم لها عوناً ذا بال وبينه وبينها هذه الشقة والأعداء بشددون عليه النكير . وأصبح هذا الاغراء أمراً لا يكاد يقاوم حين عرض كاونتز عدم المساس بهانوفر إذا ظلت إنجلترا بمعزل عن الحرب القارية ، في تلك اللحظة كان مصير فردريك في خطر . وكان بت ، الذى عين وزيراً للخارجية في ١٩ نوفمبر ١٧٥٦ ميالا أول الأمر لترك بروسيا وهانوفر تزدودان عن نفسيهما دون عون من الخارج ، بينما تركز إنجلترا كل مواردها الحربية على

الصراع على المستعمرات ، لا عجب إذن أن يبغض جورج الثاني المتعلق بهانوفر وزيره بت ولكن بت لم يلبث أن غيّر رأيه . وصرح أن فرنسا المنتصرة على فردريك ستغدو سيدة على أوروبا ، وعلى إنجلترا أيضاً بعد قليل ، فعلى البرلمان إذن أن يوافق على إرسال المال لفردريك والجنود لهانوفر ، ولابد من أكرام فرنسا على استنزاف قوتها في أوروبا ، بينما تنزع إنجلترا المستعمرات والأسواق من البحار التي تفتحها .

وعاين في يناير ١٧٥٧ ، أبرمت بريطانيا حلفاً ثانياً مع بروسيا ، تعهدت فيه بالعون المالي لفردريك ، وبالجنود لهانوفر . ولكن حدث أن أقيل بت فجأة (٥ أبريل) وأربكت أهواء السياسة حكمتها ، وتعطل إرسال العون لفردريك ، وظل عاماً تقريباً يقف وحيداً ، ومعه ١٤٥,٠٠٠ مقاتل ، أمام جيوش تحديق به من كل صوب ، ففي القرب ١٠٥,٠٠٠ مقاتل من فرنسا ، ٢٠,٠٠٠ من الدويلات الألمانية ، وفي الجنوب ١٣٣,٠٠٠ من النمسا ، وفي الشرق ٦٠,٠٠٠ من روسيا ، وفي الشمال ١٦,٠٠٠ من السويد . في ذلك اليوم الذي شهد سقوط بت ، وسم الإمبراطور فرانسيس الأول - زوج ماريا تريزا ، اللطيف الوديع عادة - فردريك رسمياً بأنه خارج على القانون ، ودعا كل الرجال الصالحين إلى تعقبه وتصيده لأنه عدو للنوع الإنساني عاص فاجر .

من براغ إلى روسباخ (١٧٥٧)

في ١٠ يناير أرسل فردريك إلى وزرائه في برلين تعليمات سرية : « يجب أن تجري الأمور مجراها دون أدنى تغيير إن قتلت ، وإن تعثر حظي فأسرت ، فلنأمن أقل اعتبار لشخصي ، أو أدنى التفات لأى شيء قد أكتبه وأنا في الأسر . (٢٥)

وكانت لفئة عديمة الجدوى ، لأن بروسيا كانت ضائعة لا محالة بدون عبقرية الحربية . وكان أمله الوحيد في ملاقات أعدائه كل على حدة قبل أن يستطيعوا التجمع عليه . ولم يكن الفرنسيون مستعدين للمعركة ، وربما

استطاعت الفرق التي ترسلها انجلترا لمانوفر اعاقهم برهة . أما النمساويون فيحشدون في بوهيميا ومورافيا القريبتين مخازن هائلة من الأسلحة والمؤن لتجهيز جيوشهما لغزو سيليزيا . وقرر فردريك أن يبدأ بالاستيلاء على هذه المخازن الثمينة ، ومقاتلة النمساويين ، ثم العودة للملاقاة الفرنسيين . فقاد قوته من سكسونيا ، وأمر دوق برنزويك — بيفرن من المانيا الشرقية ، والمرشال شيفرين من سيليزيا ، بالزحف في بوهيميا وملاقاته في التلال المشرفة على براغ من الغرب . وقد تم هذا ، واستولى فردريك على المخازن ، وفي ٦ مايو على مقربة من براغ ، التقى ٦٤,٠٠٠ بروسي بجيش نمساوي عدته ٦١,٠٠٠ مقاتل تحت إمرة شارل أمير اللورين في فاتحة المعارك الكبرى في هذه الحرب .

ولم يكن الفاصل في المعركة هو الكثرة ، ولا الاستراتيجية ، بل الشجاعة . ذلك أن فرق شيفرين زحفت تحت نيران النمساويين مخترة المستنقعات والماء يغطي خصور الجند ثم اكتافهم . وأدركهم اليأس حيناً وهموا بالفرار ، فجمع شملهم شيقرين البالغ من العمر ثلاثة وسبعين عاماً ولف العلم حول بدنه ، وركب رأساً في مواجهة العدو ، فضرب بخمس رصاصات في وقت واحد ، وخر صريعاً ، أما رجاله الذين كاد جبههم له يفوق خوفهم من الموت ، فقد حملوا على العدو في غضبة مضرية ، وحولوا الهزيمة نصراً . وكان التقتيل في الجانبين رهيباً ، وشملت خسائر فردريك أربعمائة ضابط وخير قائد عنده ، في هذه الحرب لم يكن القواد يموتون حتف أنوفهم ، وتقهر من بقي من النمساويون وعددهم ٤٦,٠٠٠ إلى القلعة في براغ ، وتهاؤوا لمقاومة الحصار .

ولكن فردريك وجد الحصار عسيراً ، لأن المرشال ليوبولد فون داو ، أكفأ القواد النمساويين ، كان قادماً من مورافيا على رأس ٦٤,٠٠٠ مقاتل آخرين . فسار فردريك شرقاً يقود ٣٢,٠٠٠ مقاتل بعد أن ترك جزءاً من جيشه ليحاصر القلعة ، والتقى بالجماحل الزاحفة

عند كولن (١٦ يونيو) ، وكانت ميزة العدو عليه كبيرة جدا وبراعة داون الحرية في هذه الحالة تفوق براعته . وعصى اثنان من قواد فردريك أوامره فأحدثوا خللا في الجيش ، وفقد فردريك أعصابه وصاح بفرسانه المتقهقرين « هل أنتم متخلدون ؟ » (٢٦) . أما المشاه فرفضوا الزحف وقد هالهم التقتيل . وانسحب فردريك من ساحة القتال جزعا ، بعد أن ترك عليها ١٤٠٠٠ بروسى ما بين قتيل وجريح وأسير . وعاد بالأحياء وعددهم ١٨٠٠٠ إلى براغ ؛ وأقلع عن الحصار ورجع بما بقى له من جيشه صوب سكسونيا .

وفي لايميريتس أراح جيشه ثلاثة أسابيع . وفي ٢ يوليو تلقى هناك نبأ موت أمه صوفيا دوروتيا . وانهار رجل الحرب الفولاذى ، وبكى ، واعتزل الناس يوما ، ولعله ساءل نفسه الآن ألم يكن هجومه على سيليزيا قبل سبعة عشر عاما لإغراء أحق زينته له ربة الانتقام . وشاطرته الحزن شقيقته فلهلميني ، أميرة بايروت ، التى أحبا أكثر من أى مخلوق آخر ، ففى ٧ يوليو أرسل إليها نداء يائسا بعد أن أوشكت كبرياؤه على النضوب :

ما دمت يا شقيقتي العزيزة تصرين على الاضطلاع بمهمة السلام العظمى فأرجوك أن تنفضلى بالكتابة الى المسيو ديمرابو . . . ليعرض على السيدة المقربة (مدام دبومبادور سابقا كوتيون الرابعة) مبلغا يصل إلى ٥٠٠,٠٠٠ كراون ثمنا للصلح . . . إلى أترك الأمر كله لك . . . أنت التى أعبدتها ، والتى هى ذاتى الثانية ، وأن كنت أكثر منى كياسة بما لا يقاس (٢٧) .

ولكن المحاولة لم تأت بنتيجة . فجربت فلهلميني طريقة أخرى: كتبت إلى فولتير الذى كان يقيم فى سويسرا ورجته أن يستعمل نفوذه . ونقل فولتير اقتراحها الى الكردينال دتانسان ، الذى كان قد عارض فى الحلف

الفرنسى - النمساوى ، وحاول تانسان ولكنه أخفق (٢٨)، فقد كان الحلفاء يشمون ريح النصر وراحت ماريا تريزا تتحدث عن تمزق أوصال ملك فردريك لأربا ، فلا يكفى أن ترد لها سيليزيا وجلاتز ، بل يجب أن تعطى مجدهورج وهالبرشتات إلى أوغسطس الثالث وتعود بومرانيا إلى السويد ويكافأ ناخب البالاتين بـكليفز ورافنسبورج .

وقد بدت آمالها معقولة . ذلك أن « جيش الدوفينة » الفرنسى كان قد دخل ألمانيا ، وكان شطر منه بقيادة أمير سويس ، القائد الأثير لدى بومبادور ، فى الطريق للانضمام إلى الجيش الأمبراطورى عند إوفورت ، وزحف شطر آخر بقيادة المرشال دستربه ليلتقى بقوة هانوفرية يقودها الدوق كمبرلاند ، وهو ابن جورج الثانى . وعلى مقربة من قرية هاشتنبيك هزم الفرنسيون هذه القوة هزيمة منكرة (٢٦ يوليو) أكرهت الدوق على أن يهرم فى كلوستر - تسيفين (٨ سبتمبر) « اتفاقاً » تعهد بمقتضاه أن يمنع جنوده الهانوفرين من أى اشتباك مع فرنسا .

وربما بلغ فردريك نبأ هذا التسليم المذل تقريباً فى نفس الوقت الذى بلغته فيه الأنباء بأن جيشاً سويدياً نزل أرض بومرانيا ، وجيشاً روسيا عدته ١٠٠,٠٠٠ مقاتل بقيادة المرشال ستينيان أبراكسين غزا بروسيا الشرقية وسحق قوة من ٣٠,٠٠٠ بروسى عند جروس - ييجرزدورف (٣٠ يوليو) وكادت هذه الهزائم بالإضافة إلى الكارثة التى أصابته فى يوهيميا تقضى على أمل فردريك فى قهر أعداء بهذه الكثرة وهذا التعزيز باحتياطيات من العتاد والرجال . أما وقد كفر بفضائل المسيحية كما كفر بلا هوتها ، فإنه لجأ إلى أخلاقيات الرواقين وفكر فى الانتحار . وظل إلى نهاية الحرب يحمل معه قنينة سم اذ عقد النية على ألا يضع أعداؤه أيديهم عليه إلا جثة هامدة . وفى ٢٤ أغسطس أرسل إلى فلهلمينى خطاباً يسبح فيه بـمحمد الموت فيما يشبه الهستيريا :

« والآن يا مروجى الأكاذيب المقدسة ، امضوا فى سحب الجبناء من أنوفهم . . . أما أنا فقد انتهى فى نظرى سحر الحياة واختفت تعويدها . ولست أرى فى الخلق جميعاً غير العوبة فى يد القدر ، فإن كان هناك حقاً كائن عابس لا يرحم ، يسمح لقطيع محتقر من المخلوقات بأن يتكاثروا هنا ، فهو لا يرى لهم وزناً ، وهو ينظر من عليائه إلى مخلوق مثل فالارييس متوجاً ، أو مثل سقراط مكبلاً بالأغلال ، إلى فضائلنا وذرائلنا ، إلى أهوال الحرب والأوبئة الرهيبة التى تدمر الأرض ، وكأنها أشياء لا تهمه . لذلك كان ملجأى الوحيد وملاذى الذى لا ملاذ غيره يا شقيقى العزيزة ، إنما هو فى حضن الموت » . (٢٩)

وردت على خطابه (١٥ سبتمبر) بأن أقسمت أن تنتحر مثله :

يا شقيقى العزيز ، لقد كاد يقتلنى خطابك ، والخطاب الذى بعثت به إلى فولتير . يا إلهى القدير ، أى قرارات رهيبة ! أواه يا أخى العزيز ، تقول إنك تحبى ، ومع ذلك فأنت تغمد خنجرأ فى قلبى . إن خطابك جعلنى أذرف أنهارأ من الدموع . وأنا الآن خجلة من هذا الضعف . . . ومصيرك سيكون مصيرى . فلن أعيش بعد عشرات حظك وحظ البيت الذى أنتمى إليه ، ولك أن تعتبر هذا قرأى الذى لن أحميد عنه .

« ولكن بعد هذا العهد دعى أتوسل إليك أن تعود بفكرك إلى ماكان عليه العدو من حال سيئة وأنت مرابط أمام براغ . إنها دورة الحظ الفعائية تصيب الفريقين . لقد كان قيصر مرة عبداً للقراصنة ، ثم أصبح سيداً على العالم . وإن عبقرية هائلة كعبقريةك لتجد لها المنافذ حتى حين يبدو أن كل شىء ضاع . إننى أقاسى أكثر ألف مرة مما أستطيع ذكره لك ، ومع ذلك لا يفارقنى الأمل . . . على أن أختم الآن ، ولكنى سأظل دائماً ، مع أعمق الاحترام ، أختك فلهمينى » . (٣٠)

ولجأت إلى فولتير ليعزز رجاءها ، فأمن على حبجها فى مطلع أكتوبر فى أول خطاب كتبه لفردريك مند ١٧٥٣ . وقال :

« ان المقاتلين من أمثال كانوا وأوتو ، الذين ترى جلالتم أن موتهم كان شرفاً لهم ، ما كان في استطاعتهم أن يفعلوا شيئاً آخر غير القتال أو الموت . » . يجب أن تذكركم من بلاط يرى في غزوك لسكسونيا انتهاكا للقانون الدولي . . . وأن أخلاقنا ومركزك في غير حاجه اطلاقاً لهذه الفعلة (الانتحار) وحياتك ضرورية وأنت تعلم كم هي غالية في نظر أسرة كثيرة العدد . . . وأحوال أوروبا لا تستقر طويلاً على أساس واحد ، والواجب على رجل مثلك أن يتماشى استعداداً للأحداث . . . ولو أن بسالتك أفضت بك إلى ذلك التطرف البطولى لما استحسنها الناس فانصارك سيدينونها ، وخصوصك سينتصرون (٣١) » .

وأجاب فردريك ثيرا وشعراً وقال :

« أما أنا المهدد بالغرق ، فعلى وأنا أتصدى للعاصفة أن أفكر ، وأحيا وأموت ملكاً (٣٢) » .

وبين قصائد الشعر (التى نظمها دائماً بالفرنسية) راح يبحث عن الجيش الفرنسى ، وتاقت نفسه الآن إلى معركة تحسم له مشكلة الحياة أو الموت . وحين كان فى ايزج ، فى ١٥ اكتوبر أرسل فى طلب يوهان كرسstof جوتشيد (الذى كان يقرض الشعر بالألمانية) وحاول اقناعه بأن الشعر الألمانى ضرب من المحال . ففيه فرقعات كثيرة جداً - وحتى فى اسم الأستاذ هناك خمسة فى صف واحد ، فكيف تحدث اتساقاً فى الأصوات من لغة كهذه ؟ واحتج جوتشيد . وكان على فردريك أن يعدل لرحف جديد ، ولكن بعد عشرة أيام ، حين عاد إلى ليزج ، استقبل الشاعر الشيخ ثانية ، ووجد متسعاً من وقته ليستمع إلى قصيدة غنائية بالألمانية من نظم جوتشيد ، وأهداه علبة نشوق ذهبية عربون الرضى وهو يودعه .

وخلال ذلك الفاصل الأدبى جاءته أنباء أسوأ : فقوة من الكروات يقودها الكونت هاديك تزحف على برلين ، والشائعات ترجف بأن الكتائب السويدية والفرنسية تزحف لتطبق على العاصمة الروسية . وكان

فردريك قد ترك فيها حامية ولكنها أصغر كثيرا من أن تصد هذا السيل العارم : ولو سقطت برلين لوقع في يد العدو أهم مصدر لامداداته من السلاح ، والبارود ، والملابس ، وهرع بجيشه لينقذ المدينة وأسرته . وخلال زحفه أنبىء بأن ليس هناك قوات فرنسية ولا سويدية تزحف على برلين ، وأن هادريك توقف في ضواحي العاصمة واقتضى فدية قدرها ٢٧٠٠٠ جنيه من برلين ، ثم رحل بجنده الكروات راضيا (١٦ أكتوبر) . وجاءه نبأ آخر سرى عنه ، هو أن الروس بقيادة أبراكسين انسحبوا من بروسيا الشرقية إلى بولندا بعد أن نال منهم المرض والجوع .

وأنته رسائل لم تشرح صدره ، تقول إن الجيش الفرنسي بقيادة سويسر دخل سكسونيا ، ونهب المدن الغربية ، وانضم إلى الجيش الإمبراطوري الذى يقوده دوق ساكس — هيلدبورجهاوزن . وعاد الملك المرهق ادراجه ، وقاد جنسده إلى قرب روسباخ ، على نحو ثلاثين ميلا غرب ليبيج .

هناك التقى جيشه المتعب الذى تقلص إلى ٢١٠٠٠ مقاتل في خاتمة المطاف وجها لوجه بجيوش فرنسا والرايش وعدتها ٤١٠٠٠ مقاتل . ورغم هذا أشار سويسر بعدم المحازفة بخوض المعركة ، وقال أنه خير منها المضى في تجنب الإلتحام بفردريك وإرهاقه بمسيرات عقيمة حتى يكرهه تفوق الحلفاء عددا وعدة على التسليم . وكان سويسر عليما بأنهمار النظام في صفوف جيشه ، وافتقار جنود الرايش ومعظمهم من البروتستنت إلى الحاسة في مقاتلة فردريك (٢٣) . غير أن هيلدبورجهاوزن ألح في طلب القتال ، فأذعن سويسر . وقاد القائد الألماني جيشه على منعطف طويل ليهاجم البروسيين على ميسرته . فما كان من فردريك وهو يرقب العدو من سطح بيت في روسباخ إلا أن أمر فرسانه بقيادة سيدلتز أن يقوموا بحركة مضادة على ميمنة العدو . وحمل الفرسان البروسيون ، وعدتهم ٨٠٠ و٣٠٠ مقاتل ، تمججهم التلال وهم يسرون بسرعة مدربة ، على وجود الحلفاء من تحتهم وهزمهم قبل أن يستطيعوا إعادة تشكيل صفوفهم .

وأقبل الفرنسيون بعد الألوان ، فمزقتهم المدفعية البروسية أشد تمزق ، وما مضت تسعون دقيقة حتى انتهت معركة روسباخ الفاصلة (٥ نوفمبر ١٧٥٧) . وتمهقر الحلفاء في فوضى تاركين ٧٧٠٠ قتيل في ساحة القتال ، أما اليروسيون فلم يفقدوا غير ٥٥٠ رجلا . وأمر فردريك بالرفق بالأسرى : ودعا الضباط المأسورين إلى مائدته : وفي كياسه وظرف فرنسيين اعتذر عن قلة الطعام قائلا :

Mais, messieurs, Je ne vous attendais pas si tot, en si grand nombre.

« ولكنى أيتها السادة لم أتوقع مجيئكم بهذه السرعة ، وهذه الكثرة (٣٤) »

وتعجب العسكريون من جميع الأطراف من ذلك البون الشاسع في الحسائر ، ومن براعة القيادة التي أتاحت هذه النتيجة : وحتى فرنسا اعترفت باعجابها ، ولم يستطيع الشعب الفرنسى الذى كان حليفا لبروسيا حتى الأمس القريب أن ينظر بعد إلى فردريك نظرتة إلى عدو لهم : ألم يكن يجيد الحديث والكتابة بالفرنسية ؟ دهشت جماعة الفلاسفة لانتصاراته وأشادوا به . مكافحا عن حرية الفكر أمام الظلامية الدينية التي يحاربونها في وطنهم (٣٥) واستجاب فردريك لعواطف الفرنسيين النبيلة فقال : (لم أعتبر الفرنسيين أعداء لى) (٣٦) ولكنه كتب سرا — بالفرنسية — قصيدة أعرب فيها عن اغتباطه بأن ركل الفرنسيون في (إستمهم) وهى كلمة ترفق كارليل فترجمها (مقعدة الشرف) (٣٧) .

واغتبطت إنجلترا معه ، وجددت إيمانها بحليفها . واحتفلت لنسبدن بعيد ميلاده بالصواريخ في شوارعها ، وأشاد الموثديون الأتقياء بهذا الزنديق منقذا للمذهب الحق الوحيد . وكان بت قد أعيد ليرأس الحكومة (٢٩ يوليو ١٧٥٧) ، فغدا منذ الآن النصير الثابت الوفي للملك البروسى . وقال فردريك (لقد أنفقت إنجلترا وقتا طويلا لتنجب رجلا عظيما كفتنا لهذا الصراع ، ولكن هاهو قد جاء في النهاية (٣٨)) ، وندد بت بانفاقية كلوستر — تسفين لأنها ليست إلا جينا وخيانة — وذلك رغم

أن ابن الملك وقعها ، ثم أقنع البرلمان بأن يرسل جيشاً أفضل لحماية هانوفر ومعاونته فردريك (أكتوبر) ، وبينما كان المبلغ الذى أقره البرلمان من قبل لجيش كمبرلاند (جيش المراقبة) لايزيد عن ١٦٤ر١٠٠ جنيه ، وافق الآن على ١٢٠٠ر١٠٠ جنيه لتمويل (جيش عمليات) ، واتفق بت وفردريك على أن يختار لقيادة هذه القوة الجديدة صهر فردريك وتلميذه الحربى ، الدوق فرديناند البرنزويكى ، البالغ من العمر ستة وثلاثين عاماً ، الرجل الوسيم ، المثقف ، الشجاع ، الذى قال عنه يرفى أنه يجيد العزف على الكمان إجادة كان يمكن أن يجمع من رائها ثروة طائلة (٣٩) . هاهنا أداة صالحة صلاحية رفيعة لمصاحبة ناي فردريك .

٤ - الثعلب يكره على الدفاع

١٧٥٧ - ١٧٦٠

لم يتح لفردريك متسع من الوقت للاتباع ، فما زال جيش فرنسى بقيادة ريشليو واضعاً يده على جزء كبير من هانوفر . وفى اليوم الذى وقعت فيه معركة روسباخ ضرب ٤٣,٠٠٠ نمساوى الحصار على شفايدنتر ، أهم معقل ومستودع للبروسيين فى سيليزيا . وكان فردريك قد ترك بها ٤١,٠٠٠ رجل ولكن عددهم تناقص إلى ٢٨,٠٠٠ نتيجة الهروب أو الموت ، وكان على رأسهم قائد غير كفء هو دوق برنزويك - بيفرن ، الذى تجاهل أمر الملك بمهاجمة المحاصرين ، وفى ١١ نوفمبر سلم الحصن ، وسلم للنمساويين ٧,٠٠٠ أسير ، و ٣٣٠,٠٠٠ طالر ، ومؤناً تكفى لإعاشة ٨٨,٠٠٠ رجل مدى شهرين . وواصل المنتصرون السير إلى برزلاو ، بعد أن زاد ، عددهم إلى ٨٣,٠٠٠ بفضل انضمامهم إلى قوات يقودها الأمير شارل والمارشال داون ؛ وفى ٢٢ نوفمبر قهروا قوة صغيرة من البروسيين ، وسقطت برزلاو ورد معظم سيليزيا الآن إلى ماريا تريزا الظافرة . وحق لفردريك أن يشعر أن انتصاره فى روسباخ قد بطل مفعوله .

ولكن ذلك الانتصار كان قد جدد شجاعته ، فلم يعد يتحدث عن الانتحار . كذلك كان جيشه قد أفاق من مسيراته ومعاركه ، وبدا ساخطاً على الغارات التي دنس بها الجنود الفرنسيون الكنائس الكاثوليكية في سكسونيا وتاشد فردريك رجاله أن يعينوه على استرداد سيليزيا . فساروا ١٧٠ ميلاً في اثني عشر يوماً قارسة البرد ، مخترقين أرضاً وعرة . وانضم إليهم في الطريق غلول القوات الروسية التي هزمت في شفايدنتز وبرزلاو . وفي ٣ ديسمبر لمح فردريك ومعه ٤٣ ألف مقاتل نمساوياً من ٧٢,٠٠٠ مقاتل يعسكر قرب لويتن على الطريق إلى برزلاو . في ذلك المساء خطب فردريك في كبار ضباطه سبق به خطب نابليون الحربية الرنانة ، قال :

« أيها السادة ، أنكم لاتبطلون أي نكبات حلت بنا هنا بينما كنا مشتبكين مع الجيوش الفرنسية والامبراطورية . فلقد ضاعت شفايدنتز .. وضاعت برزلاو ومعها كل مستوعاداتنا الحربية ، وضاع أكثر سيليزيا . ولولا ثقتي التي لاحد لها بشجاعتكم وولائكم وحبكم لوطنكم ، لما أفقت من عوامل ضيقي وارتباكى .. فليس بينكم رجل لم يبرز بعمل ممتاز من أعمال البطولة لذلك أعال نفسي بأنكم في الفرصة القادمة لن تضنوا بأى تضحية يطالبكم بها الوطن .

والفرصة سانحة الآن . وإننى لأشعر أننى لم أحقق شيئاً أو تركت سيليزيا في قبضة النسا . فدعوني إذن أخبركم إننى أنوى مهاجمة جيش الأمير شارل — وهو ثلاثة أضعاف جيشنا — أينما لقيته ، متحدياً في ذلك جميع قواعد فن الحرب . فليست العبرة بكثرة جنده أو قوة موقعه ، فأنا آمل — بفضل بسالة جنودنا ، وتنفيذ خططنا بعناية — أن أذل هذا كله . ولا مندوحة لى عن اتخاذ هذه الخطوة ، وإلا دفنا تحت مدافعه . كذلك أرى الموقف ، وكذلك سأصرف .

فأبلغوا تصميمى إلى جميع ضباط الجيش ، وأعدوا الجنود للعمل الذى لا بد آت ، وأخبروهم أننى أشعر بأن لدى من الأسباب ما يبرر مطالبتى لإياهم بتنفيذ الأوامر بكل دقة . أما أنتم ، فهل بخطر ببالى — وأنا أذكر

أنكم بروسيون — أنكم ستصرفون تصرفاً غير نبيل ، ولكن إذا كان بينكم رجل يخاف أن يشاطرني جميع المخاطر (وهنا تفرس فردريك في كل وجه بدوره) ففي استطاعته أن يسرح هذا المساء ، دون أدنى لوم مني

كنت علياً بأن أحداً منكم لن يتركني . وعليه فأنا معتمد كل الاعتماد على معونتكم الصادقة ، وعلى النصر الأكيد . فلن مت قبل أن أجزيكم على إخلاصكم فلا بد أن الوطن فاعل . عودوا الآن إلى معسكركم وانقلوا إلى جنودكم ما سمعتموه مني .

وسأجرد فرقة الفرسان التي لا تلقى بنفسها فور سماع الأمر على العدو بمجرد انتهاء المعركة ، وأحيلها إلى فرقة حامية . أما كتيبة المشاة ، حتى أن بدأت تردد ، أياً كان الخطر الذي تواجهه ، فلأنها ستفقد رايتها ، وسيوفها ، والنوط الذهبي من ستراتھا .

« الآن طابت ليلتكم أيها السادة . عما قليل سنكون قد هزمنا العدو ، وإلا فلن يرى بعضنا البعض بعد اليوم » ^(٤١) .

وكان النمساويون إلى الآن يتحاشون الالتحام في معركة مع فردريك متبعين في ذلك سياسة فابوس الروماني ، وترددوا في وضع جنودهم وقوادهم أمام انضباط الجيش البروسي وعقبرية فردريك التكتيكية ، أما الآن بعد أن شجعهم كثرة جيوشهم وانتصاراتهم الأخيرة ، فقد قرروا مواجهة الملك في المعركة مخالفين في ذلك نصيحة المرشال داو. وعليه . ففي ٥ ديسمبر ١٧٥٧ . زحفت هذه اليبادق في لعبة المنافسة بين الأسر المالكة — ٤٣,٠٠٠ مقابل ٧٣,٠٠٠ — على سيوف بعضهم بعض ومدافعهم في أعظم معارك هذه الحرب . يقول نابليون : « كانت تلك المعركة آية من الآيات وهي وحدها تبوء فردريك مكاناً في الطليعة بين القواد » ^(٤٢) وقد استهلها بمحاولة الوصول إلى التلال تمكيناً للدفعيته من إطلاق نيرانها فوق رؤس مشاته لتصيب صفوف العدو . ووزع جنوده بنظام منحرف استعمله قديماً إهامينونداس الطيبي ، بحيث تتحرك طوابير منفصلة بزاوية ٤٥ درجة تقريباً

لتضرب العدو من الجنب فتشيع الخلل في خط دفاعه . وتظاهر فردريك بأنه يوجه أقوى ضغوطه إلى الميمنة النمساوية ، فأضعف الأمير شارل ميسرته تعزيزا للميمنة ، وهنا صب فردريك خيرة رجاله فوق اليسرة التي تناقصت ، فدمرها ، ثم انقلب ليهاجم الجناح الأيمن في جيشه ، بينما هبط الفرسان البروسيون على الجناح ذاته من مخبئهم في التلال . وانتصر النظام على الفوضى ، فسلم النمساويون أو لازوا بالفرار ، وأسر منهم ٢٠,٠٠٠ - وهو صيد لم يسبق له نظير في تاريخ الحرب (٤٢) ، وترك ٣٠,٠٠٠ آخرون قتلى ، ووقعت ١١٦ قطعة من قطع المدفعية في أيدي البروسيين . كذلك كانت خسائر البروسيين كبيرة - ١١,٤١٠ قتلى ، و١١,٨٠٥ جرحى ، و٨,٥٠٠ أسرى . فلما انتهت المذبحة شكر فردريك قواده قائلا : (هذا اليوم سيذيع أسمكم واسم أمتكم إلى آخر الدهر (٤٣)) .

وواصل المنتصر انتصاره في عزيمة صادقة ليسترد سيليزيا : فلم يمضى يوم على المعركة حتى حاصر جيشه الحامية النمساوية في برزلاو . وأقام قائدها شبريشر اللافئات في أرجاء المدينة ينذر فيها بالموت الناجز كل من يهمس بكلمة تسليم ، ولكن لم ينقض اثنا عشر يوما حتى سلم (١٨ ديسمبر) واستولى فردريك هناك على ١٧,٠٠٠ أسيرا وعلى مخازن حربية ثمينة . وما لبثت سيليزيا كلها أن عادت إلى قبضة البروسيين باستثناء شقايدنر ذات الحامية الكبيرة والحصون المنيعة . واعتكف الأمير شارل في ضيعته بالنمسا بعد أن وجد نفسه ذليلا أمام لوم داون الصامت ، ونصح برنيس وغيره من الزعماء الفرنسيين لويس الخامس عشر بعقد الصلح ولكن دبلوماسيا لم يتغلب عليهم ، وأحلت الدوق دشوازيل وزيرا للشئون الخارجية محل برنيس (١٧٥٨) ، بيد أن فرنسا فقدت حماسها للحرب إذ خامرها الشعور بأنها تحارب دفاعاً عن النمسا بينما تضحى بمستعمراتها . أما ريشليو فلم يبد حماساً تذكر ، ولا رغبة صادقة في مواصلة الافادة من ميزته في هانوفر ، بحيث استدعى من قيادته للجيش (فبراير ١٧٥٨) وعين بدلا منه الكونت دكليرمون ، وهو رئيس دير صرح له البابا بأن

يحتفظ بدخل منصبه الدينى وهو يلعب دور القائد^(٤٤) : وأخلى الفرنسيون هانوفر أمام خطى الزحف المصممة التى تقدم بها الدوق فريناند البرنزويكى ، فسلموا له ميندن فى مارس ، وما لبثت وستفاليا كلها أن حررت من قبضة الفرنسيين الذين بغضوا الشعب فيهم هنا أيضاً بأعمال النهب والتدمير^(٤٥) . وزحف فرديناند غربا وهزم قوة كليرمون الرئيسية بقوة لا تزيد على نصف رجال العدو فى كريفيلىد على الرين (٢٣ يونيو) ، وسلم كليرمون موقعه للدوق ذكونتا ، وانضم سوييز إلى الجيش المهزوم بامداد فرنسية جديدة وفلول من مقاتلى معركة روسباخ ، وأمام هذه القوة المتحدة تقهقر فرديناند إلى مونستر وبادربورن .

وتشجعت انجلترا بموسم الانتصارات هذا ، فأبرمت (١١ أبريل) معاهدة ثالثة مع فردريك ، ووعده فيها بمعونة قدرها ٦٧٠,٠٠٠ جنيه قبيل أكتوبر ، وتعهدت بعدم إبرام صلح منفرد^(٤٦) . وفرض فردريك أثناء ذلك ضرائب على سكسونيا وغيرها من الأقاليم التى فتحها ، مسويا فى ذلك بينهما وبين بروسيا التى أرهقت بالضرائب : وأصدر عملات مغشوشة ، واستأجر (كقولتير) المالىين اليهود ليعقدوا له صفقات رابحة بالعملة الأجنبية^(٤٧) ، فما حل ربيع ١٧٥٨ حتى كان قد أعاد بناء جيشه فأبلغه ١٤٥,٠٠٠ مقاتل . وفى أبريل هاجم شقايدنتز واستردها ، وتحرك صوب الجنوب على رأس ٧٠,٠٠٠ مقاتل إلى أولموتز فى موافيا متحاشيا الإلتقاء بالجيش النمساوى الرئيسى (الذى نظم من جديد تحت قيادة داون) وعلل نفسه بالزحف على فيينا ذاتها إذا استطاع الإستيلاء على هذا الحصن النمساوى .

ولكن فى نحو هذا الوقت ذاته اكتسح ٥٠,٠٠٠ روسى بقودهم كونت فيرمور بروسيا الشرقية وهاجوا كوسترين ، التى لا تبعد عن برلين شرقا سوى خمسين ميلا ، وترك فردريك حصارا أولموتز وهرع الى الشمال على رأس ١٥,٠٠٠ مقاتل . وفى الطريق نعى إليه بناء مرضى

فلهمينى الذى بلغ مرحلة التأزم ، فتوقف فى جروساو ليرسل لها رسالة قلقة قال فيها « يا أعز أهلى ، يا أقرب إلى قلبى فى هذه الدنيا — لأجل كل ما هو غال عزيز لديك ، احتفظى بحياتك ، ودعبنى اتعزى بزرف الدموع على صبرك » (٤٨) .

وبعد أن واصل السير أياماً وليالى انضم إلى قوة بروسية يقودها الكونت تسودولا قرب كوسترين . وفى ٢٥ أغسطس ١٧٥٨ ، وبقوة قوامها ٣٦,٠٠٠ رجل التقي بجيش فيرمور وعدته ٤٢,٠٠٠ روسى عند تسورندورف . واستحال عليه هنا استعمال تكتيكة المفضل ، وهو الهجوم على الجناح ، بسبب الأرض المليئة بالمنافع ، وتبين أن فيرمور لا يقل عن فردريك براعة فى القيادة وقاتل الروس ببسالة وإصرار ندر أن عرفها البروسيون فى النمساوين أو الفرنسيين وكسب سيدلتزوفرسانه ما أمكن أن يقع لهم من أعجاد يوم تنافس فيه العدوان فى الثقيل . وتقهقر الروس فى نظام حسن تاركين ٢١,٠٠٠ بين قتيل وحريح وأسير ، وخسر البروسيون ١٢,٥٠٠ بين قتيل وحريح و ١٠,٠٠٠ أسير .

ولكن منذ الذى يستطيع مواصلة القتال على كل هذه الجبهات فى وقت واحد ؟ بينما كان فردريك فى الشمال قاد داون جيشه إلى نقطة اتصل فيها بالفرق الإمبراطورية ، وشرع الآن فى حصار درسدن التى كان فردريك قد ترك فيها حامية بقيادة الأمير هنرى . وزحفت قوة من ١٦,٠٠٠ سويدي مخترقة بومرانيا ، وانضمت إلى الروس فى تدمير شطر كبير من إمارة برندنبورج ، وربما استطاعت معهم تهديد برلين ثانية . ودخل جيش جديد من ٣٠,٠٠٠ نمساوى ومجرى ، يقودهم الجنرال هارش ، سيليزيا واتجه إلى برزلاو . فأى هذه العواصم الثلاث يجب الدفاع عنها أولاً ؟ وزحف فردريك بجيشه بسرعة اثنين وعشرين ميلا فى اليوم مخترقاً بروسيا إلى سكسونيا ، بعد أن أعاد تنظيم جنوده الذين ثبطل همهم وأخذوا الآن يتمردون ، فوصل إلى صهره المحاصر فى الوقت المناسب لثنى داون عن الهجوم وبعد أن أراح رجاله أسبوعين ، انطلق ليطرده هارش من سيليزيا وعند هوخكيرش بسيليزيا سد عليه داون الطريق . فضرب فردريك خيامه قرب العدو ، وانتظر

أربعة أيام وصول المؤن من درسدن . وفجأة ، فى الخامسة من صباح ١٤ أكتوبر ١٧٥٨ ، هاجم داون جناح البروسيين الأيمن ، وكان فردريك قد اطمأن إلى أنه سيتجنب المبادأة . وتخفت حركة النمساويين وراء ضباب كثيف ، وأخذ البروسيون على غرة وهم نيام فعلا ، فلم يتسع الوقت لتكوين الخطوط التكتيكية التى رسمها فردريك . وعرض فردريك نفسه للخطر فى تهور وهو يحاول استعادة النظام ، فوفى فى ذلك ، ولكن بعد أن فات أوان إصلاح الموقف . وبعد خمس ساعات من قتال اشتبك فيه ٣٧,٠٠٠ بيدق مع ٩٠,٠٠٠ ، أعطى الإشارة للتقهقر ، تاركا ٩,٤٥٠ رجلا على ساحة المعركة مقابل ٧,٥٩٠ خسرهم النمساويون .

وعاد يفكر فى الانتحار . فأمام قائد كفء كداون يقود النمساويين ، وأمام قائد كفء كسالتيكوف يحشد جيشاً روسياً جديداً ، وأمام قواته المضمحلة عدداً ، ونوعاً ونظاماً ، فى الوقت الذى يستطيع فيه أعداؤه تعويض أى خسارة ، أمام هذا كله وضح أن لا أمل فى انتصار البروسيين إلا بمعجزة ، وفردريك لا يؤمن بالمعجزات ، فى غداة هو خكيرش اطلع قارئه ديكات على « دفاع عن الانتحار » كان قد كتبه ، وقال له « فى استطاعتى أن أختم المأساة حين أشاء »^(٤٩) . فى ذلك اليوم (١٥ أكتوبر ١٧٥٨) ماتت فلهميني تاركة تعليقات بأن توضع خطابات أخيها على صدرها فى قبرها^(٥٠) . وناشد فردريك فولتير أن يكتب شيئاً فى ذكرها ، فاستجاب فولتير ، ولكن قصيدته « للنفس الباسلة النقية »^(٥١) لم تستطع أن ترقى إلى مستوى الحرارة والبساطة اللتين نجدهما فى رثاء الملك الذى ضمنه « تاريخ حرب السنين السبع » قال :

« إن طيبة قلبها ، وأريحتها وسماحتها ، ونبل روحها وسموها ، وحلاوة طبعها ، جمعت فيها مواهب العقل اللامعة مع أساس من الفضيلة المكيّنة . وكان يربط الملك (وقد استعمل فردريك لفظ الغائب) بهذه الشقيقة الفاضلة أرق صداقة وأثبتها وقد تكونت هذه الروابط فى بواكير صباهما ، ثم وثق بينهما اشتراكهما فى تربية واحدة وعواطف واحدة ، وأصبحت هذه الروابط لا تقبل الانقسام بفضل وفائهما المتبادل فى كل امتحان يبتليان به »^(٥٢) .

(م ٧ - قصة الحضارة ج ٣٩)

وأتى الربيع بمزيد من الجيوش الفرنسية في ساحة القتال. ففي ١٣ أبريل ١٧٥٩ في بيرجن (قرب فرانكفوت على المين) أذاقت قوة يقودها دبرولى بكفاية فرديناند البرنزويكي طعم الهزيمة . ولكن فرديناند كفر عن هزيمته في مندن ، فهناك (أول أغسطس) بجيش قوامه ٤٣,٠٠٠ ألماني ، وإنجليزى ، واسكتلندى هزم ٦٠,٠٠٠ فرنسى يقودهم برولى وكونتار هزيمة منكرة ، وبخسارة قليلة جداً نسبياً ، بحيث استطاع أن يرسل ١٢,٠٠٠ جندى إلى فردريك ليعوض عما حل بجيش الملك من ضعف إثر حملة مشومة في الشرق .

ذلك أنه في ٢٣ يوليو قهر جيش سالتيكوف المؤلف من ٥٠,٠٠٠ روسى وكرواقي وقوازي ، عند تسوليشاو ، جيشاً بروسيا قوامه ٢٦,٠٠٠ مقاتل كان فردريك قد تركهم لحراسة مداخل البلاد من بولندة إلى برلين ، ولم يقف الآن شىء في طريق سيل روسى عرم قد يتدفق على العاصمة البروسية . ولم يكن أمام الملك إلا سبيل إلا الاعتماد على صهره ليدافع عن درسدن أمام داو ، بينما سار هو بنفسه للقاء الروس ، ووصلته التعزيزات في الطريق ، فاستطاع أن يحشد ٤٨,٠٠٠ مقاتل ، ولكن ١٨,٠٠٠ تمساوى يقودهم الجنرال لاودون كانوا أثناء ذلك قد انضموا إلى الروس ، فبلغ مجموع جيش سالتيكوف ٦٨,٠٠٠ . وفي ١٢ أغسطس ١٧٥٩ التحم هذان الجيشان — اللذان كانا أضخم كتلتين من اللحم البشرى القابل للاستهلاك منذ المذابح التى تبارى فيها الأعداء في حرب الوراثة الاسبانية — وخاضا عند كونرزدوف (٢ على ستين ميلا شرقى برلين) أقسى معارك هذه الحرب — وأنجمها على فردريك . فبعد قتال دام اثنتى عشرة ساعة لاح أن الحظ في جانبه ، وهنا هجم رجال لاودون الاحتياطيون — وعددهم ١٨,٠٠٠ — على البروسيين المهوكى القوى وطاردوهم في هزيمة نكراء . واقتحم فردريك كل خطر ليلم شعث جنوده ، وقادهم بشخصه ثلاث مرات في الهجوم ، وضربت بالنار ثلاثة جياد من تحته ، وأوقفت علبة ذهبية صغيرة في جيبه رصاصة كان يمكن أن تودى بحياته . ولم يكن سعيداً بفكرة الهروب ، فصاح « هلا أصابتنى طلقة لعينة ؟ » (٥٣) وتوسل إليه جنوده أن ينجو بنفسه ،

ولم يلبثوا أن ضربوا له المثل بأنفسهم فناشدهم قائلاً : « ياأبنائي لا تتركوني الآن ، أنا ملككم ، وأبوكم ! » ولكن مامن حض كان قادراً على اقناعهم بالتقدم مرة أخرى . فلقد حارب الكثيرون منهم ست ساعات تحت شمس محرقة ، دون وقت أو فرصة يتناولون فيها قديحاً من الماء . فلاذوا بالفرار وأخيراً لجئ هو بهم ، مخلفاً وراءه ٢٠,٠٠٠ مابين أسير ، وجريح ، وقتيل مقابل خسارة للأعداء قدرها ١٥,٧٠٠ . وبين الذين جرحوا جروحاً مميتة إيفالد فون كلايست ، أعظم شعراء العصر الألماني .

وحالماً وجد فردريك مكاناً يستريح فيه أرسل إلى الأمير هنري رسالة يقول فيها « لم يبق لي في هذه اللحظة سوى ٣,٠٠٠ من جيش بلغ ٤٨,٠٠٠ مقاتل ، ولم أعد السيد المسيطر على قواتي .. أنها لكارثة فادحة ، ولن أعيش بعدها » . وأبلغ قواده أنه يوصى بالقيادة للأمير هنري . ثم أرتدى على بعض القش واستغرق في النوم .

وفي الغد وجد أن ٢٣,٠٠٠ من الهاربين من المعركة عادوا إلى فرقهم نخجلين من هروبهم ، مستعدين للعودة إلى خدمته إن لم يكن شيء فلاخهم يتوقون إلى الطعام . ونسى فردريك أن يقتل نفسه ، وبدلاً من هذا أعادتنظيم هؤلاء وغيرهم من الجنود المساكين في جيش جديد بلغ رجاله ٣٢,٠٠٠ ، واتخذ له موقعاً على الطريق من كونرزدورف إلى برلين ، متوقفاً أن يبذل آخر محاولة لحماية عاصمته . ولكن سالتيكوف لم يأت . فرجاله أيضاً يجب أن يطعموا ، لأنهم كانوا في أرض العدو ووجدوا الحصول على الطعام محفوفاً بالخطر ، وخط المواصلات مع بولندة طويل وغير مأمون . ورأى سالتيكوف أن قد آن الأوان ليأخذ النمساويون دورهم في قتال فردريك . ومن ثم أصدر أمره بالتقهقر .

ووافق داوون على أن الخطوة التالية يجب أن تكون خطوته وأحس بأن هذا هو وقت الاستيلاء على درسدن . وكان الأمير هنري قد سمع قوة من المدينة لتنجد فردريك ، ولم يترك سوى ٣٠,٠٠٠ مقاتل لحراسة القلعة ، ولكن التحصينات القوية كانت قد أقيمت لصد الهجوم . وكان القائد الجديد

في درسدن ، وهو كورت فون شمتاو ، خادماً وفيماً للملك ، ولكنه حين تلقى كلمة من فردريك ذاته ، بعد كونرزدورف ، بأن كل شيء قد ضاع ، يشس من المقاومة المجدية . وكان جيش امبراطوري عدته ١٥,٠٠٠ مقاتل قادماً على درسدن من الغرب ، وداون ماض بهمة في قذف المدينة بالمدافع من الشرق . وعليه ففي ٤ سبتمبر سلم شمتاو ، وفي ٥ سبتمبر جاءته رسالة من فردريك تأمره بالمقاومة لأن المدد في الطريق إليه ٠٠ وأحال داون ، ومعه ٧٢,٠٠٠ مقاتل ، درسدن مقرأ شتوياً لجيشه الآن . ووصل فردريك إلى فرايبورج القريبة منها وعسكر في الشتاء بنصف هذا العدد .

وكان شتاء ١٧٥٩ - ١٧٦٠ قارس البرد جداً . فظل الثلج يكسوا الأرض إلى الركب أسابيع عديدة . ولم يجد غير الضباط مأوى في البيوت ، أما عامة جنود فردريك فسكنوا أكشاكاً مؤقتة ، وراحوا يحتضنون النيران ليتدفأوا ، ويكدون في قطع الخشب وجلبه وقوداً لها ، ولا يكادون يصيبون من الطعام غير الخبز وكانوا ينامون متلاصقين طلباً للدفء ، واقتضى المرض المعسكين من الأرواح ما كاد يعدل ما اقتضته المعركة من قبل ، ففي ستة عشر يوماً فقد جيش داون على هذا النحو أربعة آلاف رجل^(٥٤) . وفي ١٩ نوفمبر كتب فردريك إلى فولثير يقول : « لو طالت هذه الحرب لارتدت أوروبا إلى دياجير الجهل ، ولأصبح معاصروننا أشبه بالوحوش الضارية »^(٥٥) .

وأشرفت فرنسا على الإفلاس على عظم ثرائها عن بروسيا في المال والرجال ومع ذلك جهز شوازيل أسطولاً ليغزو إنجلترا ، ولكن الإنجليز دمروه في خابج كويبيرون (٢٠ نوفمبر ١٧٥٩) وضوعفت الضرائب بكل ما أوتيت الحكومات ورجال المال من براءة . وفي ٤ مارس ١٧٥٩ كانت المركيزة دمبادور قد وفقت في تعيين إثيين دسلويت مراقباً عاماً للمالية . فاقترح اختزال المعاسات ، وفرض الضرائب على ضياع النبلاء ، وتحويل فضيلاتهم نقوداً ، وحتى فرض ضريبة على الملتزمين العاميين بجمع الضرائب . وشككا الأغنياء من أنهم يحالون إلى مجرد « ظل » لما كانوا عليه من قبل ، ومنذ ذلك الحين أصبحت كلمة Silhouette دليلاً على شكل اختزل إلى أبسط صوره .

وفي ٦ أكتوبر أوقفت الحكومة الفرنسية دفع التزاماتها . وفي ٥ نوفمبر صهر لويس الخامس عشر أطباقه القضية ليكون الأسوة الحسنه لشعبه ، ولكن حين اقترح سلوويت أن يستغنى الملك عن المبالغ التي تخصص عادة لقماره وألعابه ، وافق لويس ولكن في ألم واضح جداً ، مما حمل شوازيل على الاعتراض على الفكرة . وفي ٢١ نوفمبر أقبل سيلوويت .

وأحس الملك كما أحس الفرنسيون جميعاً أنه شيع حرباً ، وكان على استعداد للاستماع إلى مقترحات للصلح . وكان فولتير قد جس نبض فردريك في أمر الصلح في يونيو ، فأجاب فردريك (٢ يوليو) : « أنى أحب الصلح بقدر ما تتمنى ، ولكن أريده حسناً ، متيناً ، شريفاً » ، وفي ٢٢ سبتمبر أضاف في رسالة أخرى لفولتير هناك شرطان للصلح لن أحيد عنهما أبداً : أولاً : أن يبرم مشاركة مع حلفائى الأوفياء . . . ثانياً : أن يكون صلحاً شريفاً مجيداً ^(٥٦) . ونقل فولتير هذه الردود الأبية (التي كتب احدها بعد هزيمة كورنرزدورف الساحقة) إلى شوازيل الذى لم يجد فيها ما يعين على المناقضة . ثم هناك الحليف الوفى بت ، المشغول بالتهام المستعمرات الفرنسية فكيف يبرم الصلح قبل أن يبنى الامبراطورية البريطانية ؟

٥ - بناء الامبراطورية البريطانية

أن أهم طور من أطوار حرب السنين السبع لم يقاثل فيه الحصوم في أوروبا ، ففى أوروبا لم يحدث غير تغييرات صغيرة في خريطة القوة . ولكنهم اقتتلوا على الأطلنطى ، وفي أمريكا الشمالية ، وفي الهند . في تلك المناطق كانت نتائج الحرب هائلة طويلة البقاء .

كانت أول خطوة تكوين الامبراطورية البريطانية قد اتخذت في القرن السابع عشر ، وذلك بانتقال التفوق البحرى من أيدي الهولنديين إلى أيدي الانجليز . أما الثانية فحددها مهادة أوترخت (١٧١٣) التي منحت التجارة احتكار توريد العبيد الأفارقة للمستعمرات الأسبانية والانجليزية

في أمريكا . وكان العبيد ينتجون الأرز والتبغ والسكر ، وكان جزء من السكر يحول إلى شراب الروم ، وشاركت تجارة الروم في إثراء تجار إنجلترا (القديمة والجديدة) ومولت أرباح التجارة التوسع في الأسطول البريطاني . فما حلت سنة ٥٨^(٥٧) حتى كان للانجليز ١٥٦ سمنية حربية ، ولم يكن لفرنسا غير ٥٧٧٧ ومن ثم كانت الخطوة الثالثة في بناء الامبراطورية هي اضعاف القوة الفرنسية في البحار . وقطع هذه العملية انتصار ريشيليو في مينورقة ، ولكنها استؤنفت بتدمير أسطول فرنسي أمام لاجوس ، بالبرتغال (١٣ ابريل ١٧٥٩) ، وأسطول آخر في خليج كويبيرون . ونتيجة لذلك هبطت تجارة فرنسا مع مستعمراتها من ثلاثين مايونا من الجنيهات في ١٧٥٥ إلى أربعة ملايين في ١٧٦٠ .

أما وقد تمت السيادة على الأطلنطي ، فقد انفتح الطريق أمام البريطانيين ليفتحوا أمريكا الفرنسية ، ولم تقتصر هذه على حوض نهر سانت لورنس واقليم البحيرات العظمى ، بل شملت حوض المسيسيبي من البحيرات إلى خليج المكسيك ، لا بل أن وادي نهر أوهايو كان في قبضة الفرنسيين . وسيطرت القلاع الفرنسية على شيكاغو ، وديترويت ، وبتسبرج - التي كان تغيير اسمها من فوردوكين رمزا لنتائج الحرب . وكانت الممتلكات الفرنسية تقف عقبة أمام توسع المستعمرات الانجليزية في أمريكا نحو الغرب . ولولم تنتصر إنجلترا في حرب السنين السبع لانقسمت أمريكا الشمالية إلى إنجلترا جديدة في الشرق ، وفرنسا جديدة في الوسط ، وأسبانيا جديدة في الغرب ، ولتكررت نسخة من انقسامات أوروبا وصراعاتها في أمريكا . وقد حذر بنيامين فرانكلين المسالم المستعمرين الانجليز من أنهم لن يكونوا آمنين في ممتلكاتهم ، ولا أحرارا في نموهم ، الم يوقف الفرنسيين في توسعهم الأمريكي ، وقد دخل جورج واشنطن التاريخ بمحاولته الاستيلاء على فوردوكين .

كانت كندا ولوبيزانا مدخلى أمريكا الفرنسية ، وأقربهما إلى إنجلترا

وفرنسا هي كندا فعن طريق السنت لورنس كانت تصل المئون والخنود إلى « المستوطنين » ؛ وكانت تحرس ذلك الباب قلعة لوبيورج الفرنسية على رأس جزيرة بريتون عند مصب النهر العظيم . وفي ٢ يونيو ١٧٥٨ حاصر لوبيورج اسطول انجليزى صغير من اثنتين وأربعين سفينة تحمل ١٨٠٠٠ جندى يقودهم الأميرال إدورد بوسكاون . ودافع عن الحصن عشر سفن و٦٢٠٠ مقاتل ، واعترض الأسطول البريطانى التعزيزات المرسلة من فرنسا . وقاات الحامية ببسالة ، ولكن سرعان ما حطمت المواقع البريطانية وسائل دفاعها . وكان تسليم الحصن (٢٦ يوليو ١٧٥٨) بداية الفتح البريطانى لكندا .

ولم تفلح استراتيجية المركز دمونكالم وبطولته فى تعطيل سير العملية إلا قليلا . فبعد أن أوفدته فرنسا (١٧٥٦) ليقود الخنود النظاميين فى كندا ، ظهر بالنجاح تلو النجاح إلى أن احبطه ما تفشى فى الإدارة الفرنسية - الكندية من فساد وخلل ، وما تبين من عجز فرنسا عن موافاته بالمدد : وفى ١٧٥٧ حاصر قلعة وليم هنرى واستولى عليها ؛ وهى تقع على رأس بحيرة جورج . وفى ١٧٥٨ هزم ١٥٠٠٠ من جنود بريطانيا والمستعمرات عند تبكوند روجا بقوة قوامها ٣٨٠٠ مقاتل . ولكنه التقى بقريره حين دافع عن كويك بقوة قوامها ١٥٠٠٠ رجل ضد القائد الانجليزى جيمس وولف الذى لم يكن تحت قيادته أكثر من ٩٠٠٠ جندى . وتقدم وولف بنفسه جنوده فى تسلى المرتفعات إلى سهول ابراهام . وجرح مونكالم جرحا مميتا وهو يدير الدفاع ، وجرح وولف جرحا مميتا على ساحة النصر (١٢ - ١٣ سبتمبر ١٧٥٩) . وفى ٨ سبتمبر ١٧٦٠ سلم فودربى - كافانيال ، حاكم كندا الفرنسى ، وبسطت بريطانيا سلطانها على هذا الاقليم الكبير .

وبعد أن وجه الانجليز مراكبهم صوب الجنوب هاجوا الجزر الفرنسية فى البحر الكاريبي . فاستولوا على جودلوب فى ١٧٥٩ ، وعلى المارتنيك فى ١٧٦٢ ، ووقعت كل الممتلكات الفرنسية فى جزر الهند الغربية -

باستثناء سان — دومنج — في قبضة بريطانيا . وطلبنا للمزيد من مكاسب النصر أرسلت الأساطيل إلى أفريقيا للاستيلاء على محطات النقطة الفرنسية على الساحل الغربي ، فاستولت عليها ، واهارت تجارة الرقيق الفرنسية ، واضمحلت ثغرها الرئيسي في فرنسا وهو نانت . وارتفع ثمن العبيد في جزر الهند الغربية ، وحقق تجار الرقيق البريطانيون ثروات جديدة يتلبيه الطلاب على العبيد^(٥٨) . وينبغي أن نضيف هنا أن الانجليز لم يكونوا أكثر قسوة في هذه العملية الأمبريالية من الأسبان أو الفرنسيين ، إنما كانوا أكفأ منهم وفي إنجلترا بدأت حركة مقاومة الرق تتخذ شكلا فاعلا .

وفي غضون ذلك كانت روح المغامرة البريطانية — الحربية والبحرية ، والتجارية — مشغولة بالتهام الهند — فقد أقامت شركة الهند الشرقية الانجليزية معاقل لها في مدراس (١٦٣٩) ، وبمباي (١٦٦٨) وبوندشيري ، جنوبي مدراس (١٦٨٣) ، وفي شندرناجور شمال كالكتا . كل مراكز القوة هذه اتسعت في الوقت الذي اضمحل فيه حكم المغول في الهند ، واستعمل كل فريق الرشوة والقوة العسكرية لمد منطقة نفوذه وكانت فرنسا وإنجلترا قد اشتبكنا معا في الهند ابان حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠ — ٤٨) ولم يفعل صالح لكس لا شابل أكثر من قطع الصراع فترة ، والآن جددته حرب السنين السبع . ففي مارس ١٧٥٧ استطاع أسطول إنجليزي يقوده الأميرال تشارلز واطسن ، ويعاونه جنود شركة الهند الشرقية بقيادة غلام من شرويشير يدعى روبرت كلايف أن ينتزع شندرناجور من الفرنسيين ، وفي ٢٣ يونيو ، وبقوة لاتزيد على ٣٢٠٠ جندي ، هزم كلايف ٥٠٠٠٠ هندي وفرنسي عند بلاسي (على ثمانين ميلا شمال كالكتا) في معركة أكدت السيادة البريطانية على شمال شرق الهند . وفي أغسطس ١٧٥٨ طرد أسطول انجليزي بقيادة الأميرال جورج بوكوك من المياه الهندية الأسطول الفرنسي الذي كان يحمي الممتلكات الفرنسية على طول الساحل . بعد ذلك بفضل ما امتاز به البريطانيون على الفرنسيين من القدرة

على جلب الرجال والمؤن ، لم يكن انتصار إنجلترا إلا مسألة شهور. ففي ١٧٥٩ أحبط وصول المؤن والامداد البريطانية بجرا الحصار الفرنسي الذي فرضه على مدراس الكونت دلالى . وهزم الفرنسيون هزيمة فاصلة في واندويوش في ٢٢ يناير ١٧٦٠ ، وسلمت بوندشيري للبريطانيين في ١٦ يناير ١٧٦١ وقد ردت هذه المحطة الأمامية ، وهى آخر المحطات الفرنسية إلى فرنسا ١٧٦٣ ولكن كان مفهوما للجميع أن بقاء السيادة للفرنسية رهن برضاء بريطانيا .

وظلت الهند وكندا حتى عصرنا هذا معقلين ، فى الشرق والغرب ، لامبراطورية بنيت بالمال والشجاعة ، والقسوة والدكاء ، فى توافق تام مع أخلاقيات القرن الثامن عشر الدولية . ونحن ندرك الآن فى استعراضنا للماضى بعد هذه الفترة الطويلة أن تلك الامبراطورية كانت نتاجا طبيعيا للطبيعة البشرية والأحوال المادية . وأن البديل لها لم يكن استقلال الشعوب العاجزة بل امبراطورية نظيرها تؤسسها فرنسا . ويمكن القول إنه فى المدى الطويل ، برغم رجال من أمثال كلايف وهيستنجز وكبانج ، فإن حكم نصف العالم بواسطة البحرية البريطانية — أى الحفاظ على النظام حفاظا انسانيا وحسما نسبيا وسط الفوضى المهددة أبداً — كان نعمة لا نقمة على البشر .

٦ - الأعباء : ١٧٦٠ - ٦٢

ترى ماذا كان الثعلب الروسى المطارد يفعل فى شتاء ١٧٥٩ - ٦٠ القارس؟ كان يجمع المال ويزيف العملة ، يجند الرجال ويدبرهم ، ويقرض الشعر ويذيعه على الناس . فى يناير أصدر ناشر باريسى لص « أعمال فيلسوف صان - سوسى » وطبع فى اغتباط تلك القصائد المستهجرة التى كان فواتير قد يحملها معه من بوتسدام عام ١٧٥٣ والتى بسببها أوقفت رحلته بأمر فردريك وحبس فى فرانكفورت — على المين . وقدر الناشر أن تلك القصائد ستضحك الرؤوس غير المتوجة ، ولكنها ستجعل الباروكات الملكية ترتعد غضبا ، بما فيها باروكات جورج الثانى حليف فردريك . وأكد فردريك أن المطبوع المسروق

شوهته إضافات مدسوسة خبيثة ، وأمر صديقه المركزي دارجانس (مدير
الفنون الجميلة في أكاديمية برلين) بأن يصدر للفور « طبعة صحيفة » منقاة
بعناية . لما لبثت الطبعة أن صدرت في مارس ، واستطاع فردريك أن يفرغ
للحرب من جديد . وفي ٢٤ فبراير كتب إلى فولتير يقول :

لقد نشر الحديد والموت بيننا الخراب الرهيب والحزن أننا لم نبأخ بعد نهاية
المأساة . ومن السهل أن تتصور أثر هذه الصدمات القاسية في نفسى . وأنا ألوز
بالرواقية ما استطعت . لقد غدت عجوزاً ، معطماً ، أشيب الشعر مجد
البشرة ؛ وأنا أفقد أسنانى ومرحى (٥٩) .

وكانت الحشود الهائلة من الجند تساق للفصل في أى الحكام سيضنى أكثر
الرجال . كان سالتيكوف عائداً من روسيا في إبريل على رأس ١٠٠,٠٠٠
مقاتل ، وكان للأودون ٥٠,٠٠٠ نمرساوى في سليزيا مقابل ٣٤,٠٠٠ يقودهم
الأمير هنرى ؛ وكان داون في درسدن بمقاتليه المائة ألف يأمل أن يشق له
طريقاً وسط رجال فردريك البالغ عددهم ٤٠,٠٠٠ والمعسكرين الآن قرب
مايسن ؛ وكان الفرنسيون وعدتهم ١٢٥,٠٠٠ ينتظرون للزحف على ٧٠,٠٠٠
يقودهم فرديناند ، وبلغت جملة المقاتلين الموجهين إلى برلين ٣٧٥,٠٠٠ رجل .
وفي ٢١ مارس ١٧٦٠ جددت النمسا وروسيا تحالفهما وأضافتا مادة سرية
تعطى بروسيا لروسيا بمجرد رد سيليزيا إلى النمسا (٦٠) .

وكان لاودون البادى بإراقة دماء عام ١٧٦٠ ، إذ سحق ١٣,٠٠٠ روسي
عند لاندشوت (٢٣ يوليو) . وفي ١٠ يوليو شرع فردريك في حصار
درسدن بمدفعية ثقيلة ، فدمر الجزء الأكبر من أجمل مدينة في ألمانيا ، ولكن القصف
لم يجده شيئاً ، فلما نعى إليه أن لاودون يقترب من برزلا وأقنع عن الحصار ، وسير
رجاله مائة ميل في خمسة أيام والتقى بجيش لاودون في ليبرج (١٥ أغسطس
١٧٦٠) وكبده خسارة ١٠,٠٠٠ رجل ، ثم دخل برزلاو . ولكن في ٩ أكتوبر
أستولى جيش قوازي يقوده فرمور على برلين ، ونهب مستودعاتها الحربية ،
وفرض عليها فدية مقدارها مليوناً طالر — وهذا يساوى نصف المعونة المالية
التي كان فردريك يتلقاها سنوياً من بريطانيا . وخف لنجدة عاصمته ، ففر

الروس حال سماعهم بقدمه ، وقفل فردريك إلى سكسونيا ، وفي طريقه كتب إلى فولتير (٣٠ أكتوبر) يقول « إنك محظوظ باتباعك نصيحة كانديد والاكثفاء بزرع حديقتك وماكل إنسان يتاح له أن يفعل مايفعل . فعلى الثور أن يحرق الأرض ، وعلى البلب أن يغنى ، وعلى الدرفيل أن يسبح ، وعلى أن أقاتل » (٦١).

وعند تورجوا على نهر الألب (٣ نوفمبر) التقى رجاله وعددهم ٤,٠٠٠ بجيش نمساوى قوامه ٥٠,٠٠٠ ؛ وأرسل فردريك نصف جيشه بقيادة يوهان تسيتن ليطوق العدو ويهاجمه في المؤخرة ؛ ولكن المناورة أخفقت لأن فصيلة للعدو عطلت تسيتن في الطريق . وقاد فردريك كتائبه بشخصه إلى وطيس المعركة ؛ هنا أيضاً أطلقت النار على ثلاثة جياد من تحتها وأصابته قذيفة في صدره ، ولكنها كانت قد فقدت مفعولها ، وصرع على الأرض فاقد الوعي ولكنه سرعان ماأفاق فقال : « حادث تافه » ثم عاد إلى المعركة . وكان انتصاره غالى الثمن ، فقد ارتد النمساويون بعد أن فقدوا ١١,٢٦٠ رجلا ولكن فردريك ترك ١٣,١٢٠ بروسيا على أرض المعركة ، وانسحب إلى برزلاو التى أصبحت الآن أهم مركز لامداداته . وكان داون لا يزال محفوظاً بروسدن منتظراً في صبر موت فردريك . ثم منح الشتاء الأحياء مهلة ثانية .

وكانت سنة ١٧٦١ سنة دبلوماسية أكثر منها سنة حرب . ففي إنجلترا كان موت جورج الثانى (٥٥ أكتوبر ١٧٦٠) الذى كان عميق الاهتمام بهانوفر ، وإرتقاء جورج الثالث العرش ، وكان اهتمامه بها الأقل بكثير ، بمثابة تصديق ملكي على كراهية الشعب لحرب تكلف المالية الإنجليزية عبثاً باهظاً . وجرب شوازيل أن تجس فرنسا نبض إنجلترا لعقد صلح منفرد ، ولكن بت رفض ، وظل على وفائه المطلق لفردريك ، ولكن القوة البريطانية فى هانوفر خفض عددها ، واضطر فرديناند إلى التخلي برنزويك وفولفنبوتل للفرنسيين . واتجه شوازيل إلى أسبانيا ، وعقد معها « ميثاقاً عائلياً » بين الملكين البوربونيين ؛ أغراها فيه بالانضمام إلى الحلف المعادى لروسيا ، وتضافرت التطورات الحربية مع هذه النكسات الدبلوماسية لدفع فردريك مرة

أخرى إلى شفا الهزيمة النكراء . فقد استطاع لادودون بجيش من ٧٢,٠٠٠ مقاتل أن ينضم إلى ٥٠,٠٠٠ مقاتل ووسى ، فعزلوا فردريك عن بروسيا عزلاً تاماً ، ووضعوا الخطط للاستيلاء على برلين والاحتفاظ بها . وفي أول سبتمبر ١٧٦١ عاد النمساويون للاستيلاء على شقايدنز ومسنودعاتها . وفي ٥ أكتوبر استقال بت . مؤثراً الاستقالة على خيانة فردريك بعد أن غلبته على أمره مطالبة الشعب بالصلح . ورأى خلفه ليرل بيوت أن قضية فردريك ميثوس منها ، وأن المفاوضات للصلح وسيلة لدعم مركز جورج الثالث ضد البرلمان . فآلح على فردريك في أن يسلم بالهزيمة ولو إلى حد التنازل عن جزء من سيليزيا للنمسا . وتردد فردريك ، وقبض عنه بيوت المزيد من العون المالى ودعت أوروبا كلها تقريراً ، بما فيها الكثير من البروسيين ، فردريك إلى بدل التنازلات . وكان جنوده قد فقدوا كل أمل في النصر ، وأندروا ضباطهم بأنهم لن يهاجموا العدو مرة أخرى ، وأنهم يستسلمون إذا هوجموا^(٦٢) وما اختتم عام ١٧٦١ حتى وجد فردريك نفسه يقف وحيداً أمام أكثر من عشرة أعداء . واعترف بأن لا خلاص إلا بمعجزة .

وقد أنقذته معجزة . ففي ٥ يناير ١٧٦٢ ، ماتت القيصرية اليزافيتا التي تمتت فردريك ، وخلفها بطرس الثالث الذي كان يعجب به مثلاً أعلى للفاتح والملك . فلما سمع فردريك النبأ أمر أن يكسى جميع الأسرى الروس ويعطوا نعالاً ويطعموا ويطلق سراحهم . وفي ٢٣ فبراير أعلن بطرس نهاية الحرب مع بروسيا . وفي ٥ مايو وقع معاهدة صلح وضعها فردريك بنفسه بناء على طلبه . وفي ٢٢ مايو حدث السويد حذو روسيا . وفي يونيو دخل بطرس الحرب من جديد ، ولكن حليفاً لبروسيا ، وارتدى حلة عسكرية بروسية وتطوع للخدمة « تحت قيادة مولاي الملك » . فكان هذا من أعجب الانقلابات في التاريخ .

ولقد أدفا صدر فردريك ، ورفع روح جيشه ، ولكنه وافق أعداءه بعض الشيء على أن بطرس رجل شغل العقل ، وأفرعه أن يسمع برغبة بطرس في مهاجمة النمرك ليستعيد هولشتين . فبذل فردريك قصارى

جهده لبثنيه ، ولكن بطرس أصمر ، وأخيرا - في رواية فردريك - « اضطرت لإلزام الصمت ، وترك هذا الملك المسكين إلى هذا الاعتداد بالنفس الذى دمره » (٦٤) .

أما بيوت ، الذى انقلب الآن عدوا نشيطاً لفردريك ، فقد طلب إلى بطرس أن يترك العشرين ألف روسى الموجودين فى الجيش النمساوى حيث هم . وأرسل بطرس نسخة من الخطاب إلى فردريك ، وأصدر أمره للجند الروسى بالانضمام إلى فردريك والخدمة فى صفوفه ، وعرض بيوت على النمسا صلحا منفردا ، واعدادها بتأييد التخلي لها عن أقاليم بروسية ، ولكن اونتر رفض ، وندد فردريك ببيوت لأنه وغد (٦٥) . وسره أن يسمع بأن فرنسا أنهت معونتها المالية للنمسا ، وأن الترك يهاجمون النمساويين فى المجر (مايو ١٧٦٢) .

وفى ٢٨ يونيو عزل بطرس بانقلاب أجلس على العرش كاترين الثانية « امبراطورة للاقاليم الروسية كلها ، وفى ٦ يوليو اعتقل بطرس ، وأصدرت كاترين الأمر لكزنيكيف ، الذى تولى قيادة الروس تحت فردريك ، بأن يعود بهم إلى أرض الوطن فورا . وكان فردريك يتجهز لمجوم على داو . فطلب إلى كزنيكيف أن يخفى نبأ تعليمات القيصرة الثلاثة أيام . وهزم فردريك داو فى بوركرزدورف (٢١ يوليو) دون أن يستخدم هؤلاء الروس الاحتياطيين . وسحب كزنيكيف الآن جنوده ، ولم تعد روسيا تشارك بأى دور فى الحرب . أما وقد خف الخطر عن الملك فى الشمال ، فإنه ساق النمساويين أمامه ، واسنولى من جديد على شفايدنتز وفى ٢٩ اكتوبر هزم الأمير هنرى ، بجيش من ٢٤ر٠٠٠ مقاتل ، ٣٩ر٠٠٠ نمساوى وجندى امبراطورى عند فرايبورج بسكسونيا . وكانت هذه هى العملية الحربية الكبرى الوحيدة التى انتصر فيها البروسيون دون أن يكونوا تحت قيادة فردريك . وكانت أيضا آخر المعارك الهامة فى حرب السنين السبع .

٧ - الصلح

لقد أدرك الأعياء غرب أوروبا كلها ، وأولها بروسيا ، التي جند فيها الصبية ذوو الأربعة عشر ربيعا ، ودمرت المزارع ، وأفلس التجار من جراء خنق التجارة ، أما النمسا فكانت تملك من الرجال أكثر مما تملك من المال ، وقد فقدت المعونة الروسية القيمة . وأما أسبانيا فقدت هافانا ، ومانيلا لاستيلاء الانجليز عليهما ، فضلا عن تدمير بحريتها كلها تقريبا . وأما فرنسا فقد أفلست ، وضاعت مستعمراتها ، وأوشكت تجارتها أن تختفى من البحار . وأما إنجلترا فقد احتاجت إلى السلام لتدعم مغامرها .

وفي ٥ سبتمبر ١٧٦٢ أوفد بيوت دوق بدفورد إلى باريس ليفاوض شوازيل في تسوية للصراع . فاذا نزلت فرنسا عن كندا والهند فان إنجلترا سترد جواديلوب والمارتنيك ، وفرنسا أن تحتفظ ، بموافقة بريطانيا ، بإقليمى فردريك الغربيين ، وهما فيزل وجلدرلاند^(٦٦) . ونددت بهذه المقترحات ببلاغة ملتهبة ، ولكن الرأي العام أيد بيوت ، وفي ٥ نوفمبر وقعت إنجلترا والبرتغال مع فرنسا وأسبانيا صلح فونتينبلو . ونزلت فرنسا عن كندا ، والهند ، ومينورقة ، وردت إنجلترا لفرنسا وأسبانيا فتوحها في البحر الكاريبي . ووعدت فرنسا بأن تلتزم الحياد من بروسيا والنمسا ، وأن تسحب جيوشها من الأراضي البروسية في غرب ألمانيا . وأكد هذه للترتيبات صلح آخر يسمى صلح باريس (١٠ فبراير ١٧٦٣) ، ولكنه ترك لفرنسا حقوق صيدها قرب نيوفوندلند ، وبعض المحطات التجارية في الهند ، ونزلت أسبانيا عن فلوريدا لانجلترا ، ولكنها أخذت لويزيانا من فرنسا . وكانت هذه الترتيبات ، من الناحية القانونية انتهاكا لتعهد بريطانيا بالألا ترم صلحا منفردا ، ولكنها من الناحية العملية كانت نعمة لفردريك . لأنها أسفته من جميع خصومه إلا اثنين ، النمسا والرايش ، وكان على ثقة الآن بأن في استطاعته أن يثبت لهذين العدوين اللذين ثبتت همتما .

وراضت ماريا تريزا نفسها على الصلح مع أعضائها إلى قلبها .
فقد تخلى عنها جميع حلفائها الكبار ، وكان ١٠٠,٠٠٠ تركي يزحفون على
الحجر ، فأوفدت مبعوثا لفردريك يعرض عليه الهدنة ، فقبلها ، وفي
هوبرتوزبرج (قرب لينز) ، في ٥ - ١٥ فبراير ١٧٦٣ ، وقعت
بروسيا ، والنمسا ، وسكسونيا ، والأمراء الألمان ، المعاهدة التي أنهت
حرب السنين السبع . وبعد كل ما أريق من دماء ودواقيت ، وروبلا ،
وطالرات وكرونات ، وفرنكات ، وجنيهات ، أعيد «الوضع السابق للحرب»
في القارة . واحتفظ فردريك بسيليزيا ، وجلاتز ، وفيزل ، وجلدرلاند ،
وأخلى سكسونيا ، ووعد بأن يؤيد ترشيح جوزيف ابن ماريا تريزا ملكا
على الرومان ، وإذن امبراطورا مستقبلا . وعند التوقيع النهائي هنا فردريك
مساعدوه على « أسعد أيام حياتك » ، فأجاب بأن أسعد أيام حياته
سيكون آخرها (٦٧) .

ماذا كانت نتائج الحرب ؟ على النمسا فقد سيليزيا نهائيا مع دين حرب
قدره ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ لايكو . وقضى على هيئة الحكام النمساويين باعتبارهم
الأصحاب التقليديين للقب الامبراطوري ، وقد عامل فردريك ماريا تريزا
معاملته لحاكمة لامبراطورية نمساوية - مجرية ، لا رومانية مقدسة ، وترك
أمراء الامبراطورية الألمان الآن وشأنهم ، وسرعان ما سيخضعون لزعامة
بروسيا في الرايش ، لقد اضمحل سلطان آل هابسبورج وصعد سلطان
آل هوهنتسولرن ، وأصبح الطريق ممهدا لبسمارك . وبدأت النزعتان
الوطنية والقومية تفكران تفكير ألمانيا الموحدة بدلا من تفكير الدولة المعززة
باستقلالها عن غيرها من الدويلات . وحفز الأدب الألماني فأنجب شتورم
ودرانج ، ثم صعد إلى جوته وشيلر .

أما السويد فقدت ٢٥,٠٠٠ رجل ، ولم تغنم غير الديون . وأما
الروسيا فقدت ١٢٠,٠٠٠ رجل بين المعارك ، والشدائد ، والأمراض ،
ولكنها استعوضهم عما قليل ، ولقد فتحت عهدا جديدا في تاريخها الحديث
بزحف جيوشها في الغرب ، وأصبح تقسيم بولندا الآن أمرا لا مناص منه ،
وأما فرنسا فلم تجن غير الخسائر الفادحة في مستعمراتها وتجارها ، وحالة

قريبة من الافلاس دفعتهما خطوة أخرى إلى الأمام . وأما إنجلترا فكانت النتائج بالنسبة لها أعظم حتى مما قدر زعمائها ، السيطرة على البحار ، والسيطرة على عالم المستعمرات ، وتأسيس إمبراطورية عظيمة ، وبداية ١٨٢ سنة من السيادة في العالم . وأما بروسيا فخسرت خراب أراضيها وتدمير ثلاثة عشر ألف منزل فيها ، وإحراق مائة مدينة وقرية سويت بالتراب ، واقتلاع آلاف الأسر من مواطنها ، ومات ١٨,٠٠٠ بروسيا (حسب تقدير فردريك) ^(٦٨) في المعارك أو المعسكرات أو الأسر ، ومات حتى أكثر من هؤلاء لنقص الدواء أو الطعام ، وفي بعض المناطق لم يبق غير النساء والشيوخ . ليزرعوا الحقول ، وهبط السكان من ٤,٥٠٠,٠٠٠ في ١٧٥٦ ، إلى ٤,٠٠٠,٠٠٠ في ١٧٦٣ .

وغدا فردريك الآن يطل ألمانيا بأسرها (عدا سكسونيا ١) فدخل برلين دخول الظافر بعد غياب ستة أعوام . وتوجهت المدينة بالأضواء ترحيبا به ، وأشادت به منقادا لها ، وذلك رغم عوزها وفجعة كل أسرة فيها . ولانت روح هذا المحارب القديم التي قادت من فولاذ فهتف « عاش شعبي العزيز طويلا ! عاش أبنائي طويلا . » ^(٦٩) لقد كان في قدرته أن يتواضع ، وفي الساعة التي تملقه فيها الجميع لم ينسى الأخطاء الكثيرة التي ارتكبها قائداً — مع أنه أعظم القواد الذين أنجبهم العصر الحديث باستثناء نابليون . ولم يغيب عن بصره آلاف الشبان البروسيين الذين بدلوا دماءهم ثمناً لسليليزيا . ولقد بذل هو أيضاً الثمن ، فشاخ قبل أوانه وهو بعد في الحادية والخمسين ، واحلودب ظهره ، وهزل وجهه وجسمه ، وسقطت أسنانه ، وشاب أحد مفرقيه ، واضطربت أحشائه بالمنخص ، والإسهال ، والبواسير ^(٧٠) وقال معقبا « إن أصلح مكان له الآن هو ملجأ للعجائز ذوى العلل المزمنة : وقد عمر ثلاثة وعشرين عاما آخر ، وحاول أن يكفر عن آثامه محكم يتسم بالسلام والنظام .

أما أهم نتائج حرب السنين السبع من الناحية السياسية فهي ظهور الإمبراطورية البريطانية ، وإنبعاث بروسيا دولة من الطراز الأول ، أما من الناحية الاقتصادية فهي التقدم صوب الرأسمالية الصناعية : فقد كانت

تلك الجيوش العملاقة أسواقاً رائعة للاستهلاك الجماعى للسلع المنتجة بمقادير كبيرة ، فأى زبون أفضل من ذلك الذى يعد بتدمير السلع المشتراه فى أقرب فرصة وطلب غيرها ؟ وأما من الناحية الخلاقية فأن الحرب أعانت على التشاؤم ، والكليية ؛ والفوضى الخلاقية ، فالحياة رخصت ، والموت قريب ، والعذاب هو القاعدة ، والنهب مباح ، واللذة تقتنص حيثما وجدت ولو لحظة . قال جريم فى وستفاليا عام ١٧٥٧ « لولا هذه الحملة لما أدركت نعط إلى أى مدى بعيد يمكن أن تبلغ أهوال الفقر وظلم الإنسان ، (٧٢) ولم تكن الحرب إلا فى بدايتها . وقد أعان العذاب الدين كما عوقه . فإذا كانت قلة من الناس تحولت إلى الكفر لواقعية الشر الصارخة ، فأن الكثرة دفعت إلى التقوى لحاجتها إلى الإيمان بانتصار الخير فى النهاية . وعماقليل ستكون عودة إلى الدين فى فرنسا ، وانجلترا ، وألمانيا وقد أنقذت البروتستنتية فى انجلترا من الدمار ، ولو أن فردريك خسر الحرب لحل بروسيا فى أغلب الظن ما حل ببوهيميا بعد عام ١٦٢٠ ، فأكرهت على العودة إلى المذهب والقوة الكاثوليكيين ؛ أن انتصار الخيال على الواقع ثروة من نزوات التاريخ .

الكتاب الثاني

فرنسا قبل الطوفان

١٧٥٧ - ١٧٧٤

الفصل الثالث

حياة الدولة

١ - رحيل الخليفة

كانت مدام دېومبادور إحدى ضحايا الحرب . فقد ظل سمر شخصيتها حينما يسرق لب الملك بينا الأمة تنوح ، ولكن بعد أن حاول داميان اغتياله (٥ يناير ١٧٥٧) أرسل إليها لويس الخامس عشر كلمة يأمرها فيها بالرحيل فوراً ، وكأنه شعر فجأة بوجود الله . ولكنه أرتكب غلطة إنسانية حين أتى ليودعها ، ووجدها تحزم حقائبها هادئة حزينة ، فغلبه بعض ما بقي له من رقة وحنان ، وطلب إليها أن تبقى^(١) . وسرعان ما ردت إليها كل امتيازاتها وسلطاتها السابقة ، فكانت تفاوض الدبلوماسيين والسفراء ، وترفع الوزراء والقواد وتخففهم . وكان مارك بيير دفوايه ، كونت دارجنسون ، قد قاومها في كل خطوة ، وحاولت أن تسترضيه قصدها ، فأفلحت الآن في أن تحصل الابيه دبرنيس محله وزيراً للشئون الخارجية ، ثم شوازيل (١٧٥٨) . واحتفظت بحنانها لأقربائها وللملك فقط ، وواجهت غير هؤلاء بقلب من حديد في هيكل مريض ، وزجت ببعض خصومها في الباستيل وتركهم فيه سنوات^(٢) . وفي غضون ذلك راحت تدخر لغدها ، وزينت قصورها ، وأمرت بتشيد ضريح فخيم لها تحت ميدان فاندوم .

وقد حملت في نظر الشعب ، وفي البرلمان ، وفي القصر ، أكثر التبعة على هزائم فرنسا في الحرب ، ولكنها لم تنل أى ثناء على انتصاراتها ، فاعتبرت مسؤولة عن الحلف البغيض مع النمسا ، وأن لم تكن سوى عامل صغير من عوامل ذلك الزواج ، وأدينّت بسبب الكارثة التي حاقت بالجيش في روسباخ حيث قاد الفرنسيين رجلها سوبيز ، ولم يعرف نقادها - أو رآوه غير ذى صلة بالموضوع - أن سوبيز أشار بعدم خوض المعركة ، وأنه أكره عليها بتهور القائد الألماني . ولو أن الأمر كان بيد سوبيز ، ولو اتبعت خطته التي أشار بها - وهي تدويخ فردريك بالمسيرات وبهروب الجند من جيشه - ، ولو أن القيصرية البرافيتا لم تمت في هذا الظرف غير المواتي ولم تترك روسيا لفتى من عباد فردريك - لو أن هذا حدث فرجما أنهارت مقاومة بروسيا ، ونالت فرنسا الأراضي الواطئة المساوية ، وحملت بومبادور فوق بحر من الدماء لتهتف لها الأمة . ولكنها أخفقت في استرضاء إله الصدفة العظيم .

وأبغضها البرلمان لأنها شجعت الملك على أن يتجاهله ، وأبغضها الأكليروس لأنها صديقة لفولتير ولكتاب الموسوعة ، وقال كرسطوف دبومون ، رئيس أساقفة باريس ، أنه « يتمنى أن يراها تحرق بالنار^(٣) » . وحين عانت الجماهير الباريسية من غلاء الخبز صاحت « أن تلك البغي التي تحكم المملكة تجر عليها الحراب » . وارتفع صوت من الغوغاء في اليون دلاتورنل يقول « لو وقعت في أيدينا هنا لما تخلف منها ما يكفي لأحالتها إلى رفات^(٤) » . ولم تجرؤ على الظهور في شوارع باريس ، وكان الأعداء يحيطون بها في فرساي . وكتبت للمركيزة دفونتناي تقول « أنني وحيدة تماما في وسط هذا الحشد من صغار النبلاء ، الذين يبغضونني والذين احتقرهم . أما أكثر النساء فحديثهن يصيبني بصداع أليم . فغرورهن ، وخيلاؤهن ، وسفالتن ، وخياناتهن ، تجعلني لا أطيعهن^(٥) » .

فلما استطالت الحرب ، ورأت فرنسا كندا والهند تخطفان منها ، وضيق فرديناند البرنزويكي الحناق على الجيش الفرنسي ، وظهر الجنود العائدون ،

جرحى أو مشوهين ، فى شوارع باريس ، وضح للملك أنه ارتكب خطأ
بحزننا بالأصغاء لكاونتز وبومبادور ، وفى ١٧٦١ اتمس الغراء فى أحضان
خليفة جديدة هى الآنسة رومان ، التى ولدت له الولد الذى سيصبح الآيبه
دبوربون . وأرجفت الشائعات أن بومبادور تأرت لنفسها بقبول شوازيل
عشيقة لها^(٦) ، ولكنها كانت أضعف ، وشوازيل كان أذكى ، من أن
يسمح بهذا الغرام ، لقد أسامت لشوازيل قوتها لاجبها ، ولعلها فاهت
الآن بهذه النبوة اليائسة « بعدى الطوفان^(٧) » .

كانت على الدوام واهنة الجسد ، بصقت الدم حتى فى شبابها ، ومع
أننا لسنا واثقين من أنها كانت تشكو السل ، فأنا نعلم أن سعالها ازداد
ازديادا مؤلما وهى تقترب من الأربعين ، واستحال الصوت المرنم الذى كان
يوما ما يأسر قلب الملك وحاشيته صوتا مبجوحا متوترا . وأفزع هزالها
إصداقاتها . وفى فبراير ١٧٦٤ لزمت فراشا بحمى مرتفعة والتهاب دموى
فى الرئتين . وفى إبريل ساءت حالتها حتى أنها إستدعت موثقا لتكتب
وصيتها الأخيرة . فتركت فيها هبات لأقربائها ، وأصدقائها ، وخدمها ،
وأضافت « أن كنت قد نسيت أيا من أقربائى فى هذه الوصية فأنى أرجو
أخى أن يدبر معاشهم » . وأوصت للويس الخامس عشر بقصرها الباريسى ،
الذى يشغله الآن رئيس جمهورية فرنسا باسم قصر الإليزيه . وكان الملك
ينفق الساعات الكثيرة بجوار فراشها ، ونذر أن ترك حجرتها فى أيامها
الأخيرة ، وكتب الدوفين (ولى العهد) الذى كان عدوها دائما إلى أسقف
فردان يقول « إنها تموت بشجاعة ينذر أن توجد بين الرجال أو النساء
ورثتهاا مملوئتان ماء أو صديدا ، وقابها محتقن أو متضخم . إنه موت قاس
مؤلم إلى حد لا يصدق^(٨) » . وكانت - حتى لهذه المعركة الأخيرة ، ترتدى
الثياب الفاخرة وتحمر خديها بالخافين . وظلت تملك حتى النهاية تقريبا .
وأحاط أفراد الحاشية بأريكتها ، وراحت توزع الأنعامات ، وتعين
الأشخاص فى المناصب الكبرى ، وكان الملك ينفذ الكثير من توصياتها .

وأخيرا سلمت بالهزيمة . فى ١٤ إبريل تلقت شاكرة القربان الأخير

الذى حاول التخفيف من الموت بالرجاء . وحاولت الآن ، وهى التى ظلت طويلا صديقة للفلاسفة ، أن تستعيد أيمان طفولتها . فصلت كما يصلى الطفل :

« أستودع الله روحى ، متوسلة إليه أن يرحمها ، وأن يغفر لى آثامى ، وأن يمنحنى نعمة الندم عليها والموت جديرة بمراحمة ، راجية أن أرضى عدله بهاء الدم الثمين ، دم يسوع المسيح مخلصى ، وبشفاعة العذراء مريم وجميع القديسين فى الفردوس^(٩) » .

وهست فى إذن القسيس الذى كان يبرح الحجرة وهى تعالج سكرات الموت : « إنتظر لحظة » سبرح البيت معاً^(١٠) . وماتت فى ١٥ أبريل ١٧٦٤ محتقة باحتقان فى رثتها ، وكانت فى عامها الثانى والأربعين .

وليس صحيحاً أن لويس تقبل موتها فى غير مبالاة ، فهو إنما أخفى حزنه فقط^(١١) قال الدوفين : « أن الملك فى كرب شديد وإن تمالك نفسه أمامنا وأمام جميع الناس^(١٢) » . وفى ١٧ أبريل ، حين حمل جثمان المرأة التى ظلت نصف حياته طوال عشرين عاماً ، من قصر فرساي فى يوم قارس البرد شديد المطر ، خرج إلى الشرفة ليطل عليها وهى تبرح القصر وقال لتابعه شامبلوست « ستلقى المركيزة جواً رديئاً جداً » ولم تكن هذه ملاحظة عابثة ، فقد روى شامبلوست أن فى عينى الملك دموعاً تترقرق ، وأن لويس إضاف قائلاً فى حزن « هذه هى التعزية الوحيدة التى أستطيع تقديمها لها^(١٣) » . ودفنت بناء على رغبها جنباً إلى جنب مسع طفلتها الكسندرين ، وفى كنيسة الكبوشيين التى اختفت الآن — فى ميدان فانلوم . واعتبط البلاط لتحرره من سلطانها ، أما الشعب الذى لم يحس بسحرها فقد لعن إسرافها الشديد ، ولم يلبث أن نسيها ، وأما الفنانون والكتاب الذين ساعدتهم فقد حزنوا لفقد صديقة منعمة متفهمة . على أن ديدرو كان قاسياً فى حديثه عنها إذ قال : « إذن ماذا بقى من هذه المرأة التى كلفتنا هذا الثمن الغالى فى المال والرجال ، وتركتنا دون شرف ولاهمة ، وقلبت نظام أوروبا السياسى بأسره ؟ حفنة من تراب » وأما فولتير فقد كتب من فرنیه يقول :

« يحزننى جداً موت مدام دبومبادور . كنت مدينا لها بالفضل ، وأنا ابكيها عرفانا بصنيعها . ويبدو من السخف أنه في الوقت الذى يظل فيه على قيد الحياة كاتب عجوز لا يكاد يقوى على المشى ، تموت امرأة حسناء في عنفوان مجدها وهى بعد في الأربعين . ولو أنها استطاعت أن تعيش كما أعيش في هدوء ، فربما كانت اليوم حية . . . لقد أوتيت إنصافاً في عقلها وقلها . . . إنها نهاية حلم . . . »^(١٤)

٢ - انتعاش فرنسا

لم تفق فرنسا عن حرب السنين السبع لإفاقة كاملة حتى جاء نابليون . ذلك أن الضرائب الثقيلة كانت قد ثبّطت الزراعة أيام لويس الرابع عشر ، وظلت تثبّطها أيام لويس الخامس عشر ، فتركت آلاف الأفدنة التى كانت تزرع في القرن السابع عشر بوراً في ١٧٦٠ وأخذت تتحول إلى برارى قاحلة .^(١٥) واستنزفت الماشية والأغنام ، وشححت المخصبات ، وجفت التربة . وتشبّث الفلاحون بطرق الفلاحة القديمة الرديئة ، لأن الضرائب كانت تزداد مع كل تحسين يزيد من ثروتهم . وافترق كثير من الفلاحون إلى الدفاء في بيوتهم في الشتاء إلا أن يلتمسوه من الماشية التى تسكن معهم . وأتلفت نوبات شاذة من الصقيع في ١٧٦٠ و ١٧٦٧ المحاصيل والكروم خلال نموها . وكان محصول سيء واحد كفيلاً بأن يقرب قرية من المجاعة ، ومن الخوف من الذئب الجائعة الرابضة حولها .

ومع ذلك بدأ الانتعاش الاقتصادى بمجرد توقيع الصلح . كانت الحكومة عاجزة فاسدة ، لكن إجراءات كثيرة اتخذت لاعانة الفلاحين . فوزع نظار الزراعة المملكون البذار وشقوا الطرق ، ونشرت الجمعيات الزراعية المعلومات الزراعية ، وأقامت المسابقات ، ومنحت الجوائز^(١٦) . واستجاب الكثير من السادة الاقطاعيين لحفز جماعة الفزيوقراطيين فاهتموا بتحسين وسائل الزراعة ومنتجاتها . وازداد عدد الملاك من الفلاحين . ففي عام ١٧٧٤ كان هناك ٦ ٪ فقط من السكان الفرنسيين يزرعون تحت نير القنية .^(١٧) ولكن كل زيادة في الانتاج كانت تجلب معها زيادة في

السكان ، فالأرض غنية ، ولكن متوسط ملكية الفلاح صغير ، وهكذا ظل الفقر جاثماً على الصدور .

ومن أصلا ب الفلاحين جاء الفائض البشرى الذى زود الصناعات فى المدن النامية بالرجال . وكانت الصناعة باستثناءات قليلة لا تزال فى المرحلة البيئية واليدوية . وسيطرت منظمات رأسمالية واسعة النطاق على صناعة المعادن ، والتعدين ، وصناعة الصابون ، والمنسوجات . وكان بمرسليها عام ١٧٦٠ خمسة وثلاثون مصنعاً للصابون تستخدم ألف عامل . (١٨) وكانت ليون معتمدة فى رخائها على السوق المتنقلة لنتائج أنوالها . وقد أدخلت آلات التمشيط الانجليزية حوالى عام ١٧٥٠ ، وحوالى عام ١٧٧٠ بدأ دولاب الغزل الذى يدير ثمانية وأربعون مغزلاً فى وقت واحد يحل محل عجلة الغزل فى فرنسا . وكان الفرنسيون أسرع فى الاختراع منهم فى التطبيق ؛ فقد أعوزهم رأس المال الذى استطاعت إنجلترا بفضل ثرائها من التجارة أن تستخدمه فى تمويل التحسينات الميكانيكية فى الصناعة . وكانت الآلة البخارية قد عرفت فى فرنسا منذ ١٦٨١ . (١٩) واستعملها جوزف كونيو عام ١٧٦٩ لتشغيل أول سيارة معروفة ؛ وبعد عام استعملت هذه السيارة لنقل الاحمال الثقيلة بسرعة أربعة أميال فى الساعة ، ولكن الآلة أفلت زمامها فهدمت جداراً ، وكان يجب وقفها كل خمس عشرة دقيقة لتزويدها بالماء (٢٠) .

وكانت وسيلة النقل ، غير هذه الاستثناءات الغربية ، هى الحصان ، أو عربة الجحر ، أو عربة الركوب ، أو المركب ، وكانت الطرق والترع تفضل نظائرها فى إنجلترا كثيراً ، ولكن الفنادق كانت أسوأ . وقد أسست خدمة بريدية منظمة عام ١٧٦٠ ، ولم تكن سرية تماماً ، فقد أمر لويس الخامس عشر مديرى البريد بأن يفتحوا الخطابات ويبلغوا الحكومة بأى محتوى مريب فيها (٢١) . وتعطلت التجارة الداخلية من جراء المكوس ، والتجارة الخارجية نتيجة للحرب وضياع المستعمرات . وأفلس شركة الهند وحلت (١٧٧٠) . ولكن التجارة مع الدول الأوروبية زادت زيادة كبيرة

خلال القرن هـ فارتفعت من ١٧٦٠ر١٠٠٠٠٠ جنيه في ١٧١٦ إلى ٨٠٤ر٣٠٠٠٠٠ جنيه في ١٧٨٧ ، غير أن بعض هذه الزيادة لم يكن إلا انعكاساً للتضخم ، وازدهرت التجارة مع جزر الهند الغربية الفرنسية في السكر والعبيد .

وكان للتضخم التدريجي ، الراجع بعضه إلى تزيف العملة ، وبعضه إلى إنتاج العالم المتزايد من الذهب والفضة ، أثر مشجع للمغامرة الصناعية والتجارية فكان رجل الأعمال يستطيع عادة أن يتوقع بيع ناتجه بسعر أعلى مما اشترى به عرق العمال ومواد الصناعة . وهكذا تضخمت ثروات الطبقة الوسطى ، في حين بذلت الطبقات الدنيا ما وسعها من جهد لتقرب بين دخولها وبين الأسعار . على أن هذا التضخم الذي مكن الحكومة من غش دائئها هبط بقيمة دخلها ، فارتفعت الضرائب بنزول قيمة الجنيه ، وأصبح الملك معتمداً على كبار الصيارفة أمثال إخوان باري ، لاسيما باري — دوفرنيه ، الذي أبهج بومبادور كثيراً بشعورته المالية حتى استطاع خلال الحرب أن يرفع الوزراء والقواد ويخففهم .

وكان أهم تطور اقتصادي في فرنسة القرن الثامن عشر انتقال معظم الثروة من ملاك الأرض إلى المسيطرين على الصناعة ، أو التجارة ، أو المال ، ولاحظ فولتير في ١٧٥٥ « نظراً إلى مغنم التجارة المتزايدة . . نقصت ثروة كبار القوم عن ذي قبل ، وزادت الثروة في الطبقة الوسطى . وأسفر هذا عن تقريب الفجوة بين الطبقات »^(٢٢) واستطاع رجال أعمال مثل لابو بلنير أن يشيدوا قصوراً يحسدهم عليها الأشراف ، وأن يزينوا موائدهم بأعظم الشعراء والفلاسفة في المملكة ، وغدت البرجوازية راعية الآداب والفنون . وعزت الاستقرائية نفسها بالتشبيث بامتيازاتها والظهور بمظهرها الرفيع . وأصررت على نبيل المولد شرطاً للانخراط في وظائف ضباط الجيش أو الأساقفة ، وتباهت بشعارات نبالتها وأنسابها المتكاثرة ، وكافحت — عبثاً في كثير من الأحيان — لتقصي أفراد الطبقة العامة الأكفاء أو النابهين عن الوظائف الإدارية العليا وعن البلاط . وطالب البورجوازي الغنى بأن يفتح مجال الترقى للموهبة أيضاً كان نسب صاحبها ، فلما أغفل مطلبه راودته فكرة الثورة .

وإذا استثنينا من حرب الطبقات جانب الفلاحين ، فإن جمع الجوانب المشاركة فيها اتخذت لها شكلاً مرفئاً في ضحيج باريس وفخامتها . فنصف تروة فرنسا انسابت إلى عاصمتها ، ونصف فقر فرنسا تقيح فيها ، وقال روسو إن باريس « ربما كانت المدينة الوحيدة في العالم التي تعظم فيها فوارق الثروات ، والتي يسكن فيها الثراء الصارخ والفقر المدقع جنباً إلى جنب » (٢٣) . وكان ستون من الفقراء المعانين جزءاً من الحرس الرسمي المرافق لـجئان ابن الدوفين البكر في ١٧٦١ (٢٤) . وحوالي عام ١٧٧٠ كانت باريس تحوى ٦٠٠,٠٠٠ نفس من بين سكان فرنسا البالغين ٢٢,٠٠٠,٠٠٠ (٢٥) . وتؤوى أكثر أهل أوربا نشاطاً ، وأوسعهم إطلاعاً ، وأشدهم فجوراً . وفيها أفضل الشوارع رصفاً ، وأفخم الطرق المشجرة والمتنزهات ، وأزخم حركات المرور ، وأجمل الحوانيت ، وأفخر القصور ، وأظلم الأكواخ ، وطائفة من أبدع الكنائس في العالم . وقد تعجب منها جولدونى الذى وفد عليها من البندقية في ١٧٦٢ فقال في وصفها :

« ياها من حشود ! وأى تجمع للناس من جميع الأوصاف ! .. وأى منظر مدهش استرعى حواسى وذهى وأنا أدنو من التوبرلى ! رأيت اتساع رقعة تلك الحديقة الهائلة ، التي لا نظير لها في الدنيا ، والتي لم تستطع عيناي أن تقيس طولها . ثم نهراً جليلاً ، وكبارى عديدة مريحة ، وأرصعة شاسعة ، وحشوداً من العربات ، وزحاماً من الناس لا آخر له » (٢٦) .

وكانت مئات المتاجر تغرى الأغنياء والمفلسين ، ومئات الباعة يسرحون ببضائعهم في الشوارع ، ومئات المطاعم (وقد ظهرت الكلمة restaurants أول ما ظهرت في ١٧٦٥) تعد بتعويض الجياح restore عن جوعهم ، ومئات التجار يجمعون التحف القديمة أو يزيفونها أو يبيعونها ، ومئات الحلّاقين يقصون ويبدرون الشعور أو الباروكات حتى لطيفة الحرفيين . وفي الأزقة الضيقة كان الفنانون والحرفيون ينتجون الصور ، والأثاث ، والقياب ، والحلى المبهجة لأثرياء القوم . وهنا كانت عشرات المطابع تطبع الكتب ، متعرضة أحياناً لخطر شديد ، وفي ١٧٧٤ قدرت تجارة الكتب في باريس بمبلغ

٤٥,٠٠٠,٠٠٠ جنيه — وهو أربعة أمثال تجارة لندن فيها . (٢٧) قال جاريك :
« إن لندن تصلح للإنجليز ، أما باريس فتصلح لكل إنسان » (٢٨) وقال
فولتير : في ١٧٦٨ « لدينا أكثر من ثلاثين ألف شخص في باريس يهتمون
بالفن » . (٢٩) هناك كانت عاصمة العالم الثقافية دون منازع .

٣ — الفزيوقراطيون

في شقة بفرساي تحت مسكن مدام ديومبادور وعينها الراحية ، تكونت
تلك النظرية الاقتصادية التي قدر لها أن تحرك الثورة وتصوغها ، وتشكل
رأسمالية القرن التاسع عشر .

وكان الاقتصاد الفرنسي يكافح منذ زمن طويل ليشب عن الطرق
برغم ما قيد به من أقمطة اللوائح والنظم — التي وضعتها طوائف الحرفيين
وكولير ، ومن خرافة كخرافة الملك ميداس ، خرافة « المركنتلية » التي
خالط الذهب هو الثروة . فسعى إلى زيادة الصادرات ، والتقليل من الواردات
وأخذ « الفرق الذي في صالح الدولة فضة وذهباً لدعم القوة السياسية
والحربية ، كانت فرنسا وإنجلترا قد أخضعنا اقتصاديهما القوميين لشرك
من القواعد والقيود أعانت على التنظيم الاقتصادي ولكنهما عطلت الانتاج
بتعطيلها الابتكار والمغامرة والمنافسة . كل هذا — كما قال رجال مثل جورنيه
وكزنيه ، وميرابوالأب ، ودويون دنمور ، وطورجرو — مناقض كل المناقضة للطبيعة ،
فالإنسان بطبيعته يحب للاقتناء ، والتنافس ، فإذا حررت طبيعته من الاغلال
التي لاداعى لها أدهش العالم بمقدار ما ينتج ، وتنوعه ، وجودته . يقول
الفزيوقراطيين « إذن فلنترك الطبيعة (وهي باللاغريقية Physis) تحكم
(Kratein) ولنترك الناس يخترعون ، ويصنعون ، ويتجرون وفق
خرائزم الطبيعة » ، أو كما قال جورنيه فيما روى « اتركهم يفعلون
Laissez faire ما يرونه هم أصوب ما يكون » . وكانت هذه العبارة قديمة
فعلاً ، فحوالي عام ١٦٦٤ ، حين سأل كولير رجل الأعمال لجاندر
« ما الذي يجب أن نفعله نحن (أي الحكومة) لمساعدتك ؟ أجابه
« Nous laisserfaire » اتركونا نفعله . . . اتركونا وشأننا . (٣٠)

وكان صوت جان - كلود فانسان دجورنيه أول صوت واضح للفيزيوقراطيين في فرنسا . ولاشك في أنه كان يعلم بالاحتجاجات التي قدمها بواجلبير وفوبان للويس الرابع عشر على القيود الخانقة التي فرضت على الزراعة في ظل النظام الاقطاعي . وقد أعجب بكتاب السرجوسيا تشايلد « ملاحظات موجزة عن التجارة والفائدة » (١٦٦٨) إعجاباً حملاً على ترجمته إلى الفرنسية (١٧٥٤) ، وأغلب الظن أنه قرأ كتاب رتشرد كانتلون « مقال عن طبيعة التجارة » (حوالى ١٧٣٤) في طبعته الفرنسية (١٧٥٥) . ويؤرخ البعض من هذا الكتاب مولد الاقتصاد بوصفه « علماً » - أى تحليلاً منطقياً لمصادر الثروة ، وانتاجها ، وتوزيعها . قال كانتلون « أن الأرض هي المصدر أو المادة التي تؤخذ منها الثروة ، ولكن الجهد البشرى هو الشكل الذى ينتج الثروة » ، ولم يعرف الثروة بأنها الذهب أو النقود ، بل « صيانة الحياة ، ووسائل الراحة وأسبابها »^(٣١) وكان هذا التعريف في حد ذاته ثورة في النظرية الاقتصادية .

وكان جورنيه تاجراً ميسوراً يعمل أول الأمر (١٧٢٩ - ١٧٤٤) في قادس . وبعد أن اشتغل بمعاملات تجارية واسعة النطاق في إنجلترا ، وألمانيا ، والأقاليم المتحدة ، استقر في باريس ، وعين « ناظرًا للتجارة » (١٧٥١) . وفي رحلاته الفتيشية في أرجاء فرنسا لاحظ بشخصه القيود التي فرضتها اللوائح النقابية والحكومية على المشروعات الحرة والتبادل الاقتصادي ، ولم يخلف لنا صيغة مكتوبة لأرائه ، ولكن لخصها بعد موته (١٧٥٦) تلميذه طورجو . وقد حث على التخفيف من النظم واللوائح الاقتصادية القائمة ، أن لم يكن الغائها . فشكل إنسان يعرف خيراً مما تعرف الحكومة الإجراء الذى يلائم عمله خير ملائمة ، فإذا كان حراً في السعى إلى مصلحته لازداد إنتاج السلع ونمت الثروة^(٣٢) .

« هناك قوانين فريدة أزلية ، مؤسسة على الطبيعة وحدها ، بمقتضاها توازن جميع القيم الموجودة في التجارة بعضها بعضاً وتثبت نفسها عند سعر مقرر ، تماماً كما تنظم الأجسام المتروكة لثقلها نفسها وفق وزنها النوعي »^(٣٣) .

أى أن القيم والأسعار تحددها العلاقات بين العرض والطلب ، وهى علاقات تحددها بدورها طبيعة الإنسان . وخلص جورنيه إلى أن الدولة يجب ألا تتدخل فى الاقتصاد إلا لتحضى الحياة ، والحرية ، والملكية ، ولتشجيع الإنتاج كما وكيفيا بأسباب التشريف والمكافآت . وقد قبل ميسو ترودين رئيس مجلس التجارة هذه المبادئ ، وخلق عليها طوجو قوة بلاغته وإستقامته المعترف بها .

أما فرانسوا كزنيه فقد أتبع خطأ فزيوقراطيا مختلفا إختلافا طفيفا . فهو لم ينس قط إهتمامه بالأرض لأنه مالك للأرض ، ولو أنه أعد ليكون طبيبا ، وقد جمع لنفسه ثروة بحذقه فى الطب والجراحة ، وارتقى حتى أصبح طبيبا لمدام دبوبادور وللملك (١٧٤٩) . وقد جمع فى مسكنه بفرساي لفيفا من الزنادقة - دوكلو ، وديدرو ، وبوفون ، وملفتيوس ، وطورجو . . . هناك كانوا يناقشون كل شىء فى غير تخرج إلا شخص الملك ، الذى كانوا يحملون بأن يجعلوا منه « حاكما مطلقا مستنيرا » يكون أداة للأصلاح السلمى ، وشعر كزنيه الغارق إلى إذنيه فى عصر العقل ، أن قد آن أن أوان إستخدام العقل فى الاقتصاد . ومع أنه كان دجاطبقيا شديدا الإعتداد بنفسه فى كتبه ، فإنه كان فى شخصه إنسانا رقيقا يتميز بالزهادة فى محيط لا يقيم الأخلاق وزنا .

وفى ١٧٥٠ ألتى بجورنيه ، وسرعان ما فاق أهتمامه بالاقتصاد أهتمامه بالطب . وقد شارك بمقالات فى «وسوعة ديدرو تحت أسماء مستورة بعناية . وقد عزا فى مقاله « المزارع » هجر الزراع لهسا إلى الضرائب المرتفعة والتجنيد الإجبارى . ولاحظ مقاله « الغلال » (١٧٥٧) أن المزارع الصغيرة تعجز عن الأفادة من أكثر الوسائل إنتاجا ، وحيد المزارع الكبيرة التى يديرها « المقاولون » - وهذا سبق للشركات الزراعية العملاقة فى عصرنا . وقال إن على الحكومة أن تحسن الطرق ، والأنهار ، والقنوات ، وأن تلغى كل المكوس على النقل ، وتحمر حاصلات الزراعة من جميع قيود التجارة .

وفي عام ١٧٥٨ نشر كزنيه « جدولاً اقتصادياً » أصبح البيان الرسمي الأساسى للفيزوقراطيين . ومع أنه طبع في المطبعة الحكومية بقصر فرساي بأشراف الملك ، فإنه إيدان الترف بأعتباره استعمالاً مبدداً للثروة كان يمكن إستخدامه في إنتاج مزيد من الثروة . وقد قسم المجتمع إلى ثلاث طبقات : « طبقة منتجة من الزراع ، والمعدنيين ، وصيادى الأسماك ؛ وطبقة قابلة للتوجيه (disponibles) من الأشخاص الذين يستخدمون في الوظائف العسكرية أو الإدارية ، وطبقة غير مثمرة Classe stérile من مهرة الصناعات الذين يحولون حاصلات الأرض إلى أشياء نافعة ، والتجار الذين يوصلون الحاصلات إلى المستهلك . وإذا كانت الضرائب المفروضة على الطبقة الثانية أو الثالثة تقع في النهاية (في رأى كزنيه) على ملاك الأرض ، كانت أكثر الضرائب تمشياً مع العلم وانسبها هي ضريبة واحدة (impot unique) تفرض على صافي الربح السنوى لكل قطعة من الأرض . ويجب أن تجمع الضرائب مباشرة بواسطة الدولة ، ولا تجمع أبداً بواسطة المالىين من الأهالى (الملتزمون العموميون) ، ويجب أن تكون الحكومة ملكية مطلقة وراثية .

وتبدو مقترحات كزنيه اليوم وقد أفسدها الغرض من قدر العمل ، والصناعة ، والتجارة ، والفن ، ولكن بعض معاصرة رأوا فيها الهاماً مثيراً . وفي رأى أكثر أتباعه حيوية وهو فسكتور ريكيتى ، مركز ديمرابو ، أن « الجدول الاقتصادى » نافس الكتابة والنقود في كونه من أجل ابتكارات التاريخ . وقد اجتاز هذا المركز عصر فولتير من أوله لآخره بالضبط . لأنه ولد في ١٧١٥ ومات في ١٧٨٩ . ورث ثروة طيبة ، وعاش عيشة الأمراء ، وكتب كما يكتب الديموقراطيون ، وعنون أول كتاب له « صديق الناس » ، أو مقال في السكان (١٧٥٦) وإستحق بذلك الأسم الذى اتخذه « صديق الإنسانية » . وبعد أن نشر رائعته تأثر بكزنيه ، فراجع بناء على ذلك كتابه وزاده ، إلى بحث من ستة مجلدات طبع أربعين طبعة وشارك في إعداد فكر فرنسا لثورة ١٧٨٩ .

ولم يقلق تكاثر البشر المركز كما سيقلق مالتوس في ١٧٩٨ . فقد آمن بأن الأمة تعظم بكثرة سكانها ، وأن هذا يسره « توالد الناس كما تتوالد الفيران في جرن إذا توفرت لها أسباب الحياة^(٣٤) وهو ما زلنا نراه إلى الآن . ونخلص إلى وجوب تشجيع المنتجى الطعام بكل الوسائل . وذهب إلى أن التفرقة في توزيع الثروة تثبط إنتاج الطعام ، لأن ضياع الأغنياء تشغل الأرض التي كان في الأمكان أن تصبح مزارع خصبة . وقالت مقدمة ميرابو للملك أن الفلاحين :

« هم أكثر الطبقات إنتاجا ، الذين لا يرون من تحتهم إلا غير مرضتهم ومرضعتك - الأرض الأم ، والذين يرزحون لبدا تحت ثقل أشق الأعمال والذين ياركونك كل يوم ، ولا يسألونك شيئا غير السلام والحماية . وبفضل عرقهم ، بل ودمهم^{٣٥} ذاته (وهو ما لا تعرفه !) تشبع مطامع ذلك الحشد من البشر غير النافعين الذين لا يفتأون يقولون لك أن عظمة الملك في قيمة وعدد النعم التي يقسمها على أفراد حاشيته . لقد رأيت مساعد جاب للضرائب يقطع يد امرأة فقيرة تشبث بقدرها لتمنع إستيلاءه عليها وفاء للدين ، وكانت آخر ما في بيتها من آنية . فماذا كنت تقول في هذا أيها الملك العظيم^(٣٥) ؟

وقد هاجم المركز الثائر في كتابه « نظرية الضرائب » (١٧٦١) الملتزمين بالعمومين بحماية الضرائب لأنهم طفيليون يفتالون أقوات الأمة . وحرص المالىون الغاضبون لويس الخامس عشر على أن يحبس في الشاتو دفانسين (١٦ ديسمبر ١٧٦١) ولكن كزنيه أقنعه مدام دبوبادور بأن تتشفع له ، وأطلق لويس سراح المركز (٢٥ ديسمبر) ولكنه أمره بأن يلزم ضيعته في لوبنيون . وأحال ميرابو الضرورة إلى فضيلة ، فدرس الزراعة دراسة عملية مباشرة . وفي ١٧٦٣ أصدر كتاب « الفلسفة الريفية » الذى قبل فيه إنه « أشمل بحث في الاقتصاد قبل آدم سميت^(٣٦) » ، ووصفه جريم بأنه « الأسفار الموسوية للمذهب الفزيوقراطى^(٣٧) » . وبلغت جملة مؤلفات

هذا المركيز ، الذى كان نسيج وخده ، أربعين كتابا حتى عام وفاته — وذلك رغم المتاعب التى سببها له أبنه الذى زجه فى السجن حين أعيته الحيل عسى أن يكون فى ذلك سلامة لكليهما . وكان كابنه ذاك عنيفا فاسقا ، تزوج للمال ، وأتهم امرأته بالزنا ، وتركها تعود إلى أبوها ، واتخذ له خليله : وقد ندد بأوامر الاعتقال الملكية باعتبارها ضربا من الظلم لا يطاق ، وبعد ذلك حمل الوزارة على أن تصدر خمسين أمرا منها لتعيينه على تأديب أسرته (٣٨) .

وليس من اليسير علينا أن ندرك اليوم ذلك الهيجان الذى أثارته مطبوعات الفزيوقراطيين ، والحماسة التى اصطبغت بها حملاتهم . وتطلع تلاميذ كزنيه إليه كأنه سقراط الاقتصاد : وعرضوا عليه كتاباتهم قبل طبعها ، وفى كثير من الحالات كان يشارك فى كتبهم . وفى ١٧٦٧ أصدر لومرسييه دلا ريفير ، الذى حكم المارتنيك فترة ، كتابا عده آدم سميث أوضح شرح للمذهب وأفضله ترابطا (٣٩) وأسمه « النظام الطبيعى الأساسى للمجتمعات السياسية » يقول فيه أن فى العلاقات الاقتصادية قوانين تقابل تلك التى وجدها نيوتن فى الكون ، والعلل الاقتصادية منشؤها أغفال تلك القوانين أو انتهاكها :

« أتريدون لمجتمع ما أن يبلغ الغاية فى الثراء ، والسكان ، والقوة ؟ أتركوا مصالحه إذن للحرية ، وليكن هذا قانونا عاما . وبفضل هذه الحرية (التى هى العنصر الأساسى للصناعة) وبفضل الرغبة فى التمتع — التى تحفزها المنافسة وتبهرها الخبرة والقدرة — تضمنون أن يسعى كل إنسان على الدوام لأقصى مصلحة مستطاعة له ، ومن ثم يسهم بكل ما فى مصلحته الخاصة من قدرة فى الخير العام ، سواء للحاكم ولكل فرد فى المجتمع (٤٠) » :

وقد تلخص بيير — صموئيل ديون هذه الدعوة فى كتابه « الفزيوقراطية » (١٧٦٨) الذى خلج على المذهب أسمه التاريخى . كذلك نشر ديون النظرية فى دوريتين كان نفوذهما محسوسا من السويد إلى توسكانيا . وقد عمل مفتشا

عاماً للصناعات تحت رئاسة طورجو ، وستقط بسقوطه (١٧٧٦) . وعاون على المفاوضة مع إنجائره على عقد المعاهدة التي أقرت باستقلال أمريكا (١٧٨٣) . ولانتخب عضواً بمجلس الأعيان (١٧٨٧) والجمعية التأسيسية (١٧٨٩) . وتميزا له في هذه الجمعية عن عضو آخر يدعى ديون ، سمى ديون دنمور ، نسبة للمدينة التي مثلها . وقد عارض اليعاقبة . فتعرض للخطر حين تقلدوا زمام الأمور ، وفي ١٧٩٩ نفى نفسه إلى أمريكا ، ثم عاد إلى فرنسا عام ١٨٠٢ ، ولكن في ١٨١٥ اختار الولايات المتحدة . وطننا نهائيا له ، وهناك أسس أسرة من أشهر الأسر الأمريكية .

وبدا في ظاهر الأمر أن مذهب الفريوقراطيين يناصر الاقطاع ، لأن السادة الاقطاعيين كانوا إلى ذلك الحين يملكون أو يتقاضون الرسوم الاقطاعية من ثلث أرض فرنسا على الأقل . ولكنهم - وهم الذين لم يكونوا يدفعون أي ضرائب تقريبا قبل ١٧٥٦ - هالتهم فكرة تحميل ملاك الأرض جميع الضرائب ، كذلك لم يستطيعوا أن يقبلوا إلغاء المكوس الاقطاعية على نقل البضائع داخل أملاكهم . أما الطبقات الوسطى ، التي كانت تتوق إلى تغييرات جديدة ، فقد ساءها زعم الفريوقراطيين أنها شطر عقيم غير منتج من الأمة ومع أن جماعة الفلاسفة كانوا في الغالب يوافقون الفريوقراطيين على الاعتماد على الملك أداة للاصلاح إلا أنهم لم يستطيعوا موافقتهم على مصالحة الكنيسة^(٤١) . وقد ذهب ديفد هيوم ، الذي زار كزنية في ١٧٦٣ ، إلى أن الفريوقراطيين أكثر ما يوجد اليوم من الجماعات تعلقاً بالأوهام وخيلاء منذ تدمير الصوريون . وسخر منهم فولتير (١٧٦٨) في قصيدته اللاذعة المسماة « الرجل ذو الأربعين أيكوه »^(٤٢) . وفي ١٧٧٠ أصدر فرديناند وجالياني ، وهو ايطالي من المترددين على « مجمع » الملحدون الذين كان يجمعهم دولباخ في بيته كتابا اسمه « حوار حول تجارة الغلال » ترجمه ديدرو إلى الفرنسية في السنة نفسها . وقال فولتير ان أفلاطون ومولير لابد قد شاركا في كتابة هذا المؤلف في الاقتصاد الذي كان « علما يقبض الصدر » . وقد هزأ جالياني بخفة روح باريسية بزعم الفريوقراطيين أن الأرض وحدها مصدر الثروة . وقال أن تحرير تجارة الغلال عن جميع

اللوائح والنظم معناه خراب بيوت مزارعى فرنسا ، وقد نجر إلى المجاعة فى أرض الوطن فى الوقت الذى يصدر فيه التجار الأذكىاء الغلال إلى الدول الأخرى . وهذا ما حدث بالضبط فى ١٧٦٨ و ١٧٧٥ .

ويروى أن لويس الخامس عشر سأل كزنيه ماذا يصنع إن كان ملكاً فأجاب « لاشئ » . « فمن يحكم إذن ؟ » « القوانين » - وكان الفيزيوقراطى يقصد بذلك « القوانين » الملازمة لطبيعة الانسان والتي تتحكم فى العرض والطلب ووافق الملك على أن يجربها . وفى ١٧ سبتمبر ١٧٥٤ ألغى وزارته جميع المكوس والقيود المفروضة على بيع الغلال - القمح ، والجاودار ، والذرة - ونقلها داخل المملكة . وفى ١٧٦٤ شملت هذه الحرية تصدير الغلال إلا إذا بلغت ثمننا مقررًا . وهبط سعر الخبز حينًا نتيجة تركه اعمالية العرض والطلب ، ولكن محصولًا رديثًا فى ١٧٦٥ رفع سعره فوق السعر العادى بكثير جدا . وبلغ نقص الغلال مرحلة المجاعة فى ١٧٦٨ - ٦٩ ، فكان الفلاحون ينهبون عن الطعام فى زرائب الخنازير ، ويأكلون العشب والحشيش . وفى أبرشية تعد ٢٨٠٠ نسمة راح ٢٢٠٠ يستجلبون الخبز . وشكا أفراد الشعب من أن المضاربين يصدرون الغلال بينما هم يواجهون المجاعة . واتهم الناقدون الحكومة بأنها تتكسب من عمليات هؤلاء المحتكرين فى « ميثاق المجاعة » وامتد رنين هذه النقمة المرة التى تعترف على ميثاق المجاعة . هذا الذى وقع عام ١٧٦١ ، خلال السنوات التالية ليتهم - حتى لويس السادس عشر الرحيم بالكسب من غلاء الخبز . وكان بعض الموظفين مدنيين فيما يبدو ، أما لويس الخامس عشر فلم يذنب . فلقد كلف بعض التجار بشراء الغلال فى السنين الطيبة ، وخزنها ، ثم عرضها فى السوق فى السنين العجاف ، ولكن حين بيعت هذه الغلال ارتفعت أسعارها ارتفاعا أعجز فقراء الشعب عن الشراء . واتخذت الحكومة تدابير متأخرة لعلاج الحالة ، فاستوردت القمح وزعته على أفقر الأقاليم . وطالب الشعب برد هيمنة الدولة على تجارة الغلال ، وشارك البرلمان فى هذه المطالبة . فى هذه الأزمة نشر فولتير قصيدته المسماة الإنسان ذو الأربعين

ايكو . وأذعنت الحكومة ، وفي ٢٣ ديسمبر ١٧٧٠ ألغيت المراسيم التي أباحت حرية الاتجار في الغلال .

على أن أفكار الفزيوقراطيين شقت طريقها رغم هذه النكسة ، سواء في فرنسا أو خارجها . وكان مرسوماً قد صدر في ١٧٥٨ وقرر حرية التجارة في الصوف ومنتجاته . وزار آدم سميث كرتية في ١٧٦٥ ، وراعه منه « تواضعه وبساطته » ورسخ مبادئه إلى الحرية الاقتصادية . وكان رأيه « أن أكبر غلطة لهذا النظام . . . في اعتباره طبقة الصناع ، ورجال الصناعة والتجارة طبقة عقيمة غير منتجة على الإطلاق » ، ولكنه خلص إلى « أن النظام ، بكل ما فيه من عيوب ، ربما كان أقرب ما نشر إلى الآن من الحقيقة حول موضوع الاقتصاد السياسي »^(٥٥) . وقد انسجمت أفكار الفزيوقراطيين مع رغبة إنجلترا — التي أصبحت الآن أعظم الأمم المصدرة في خفض رسوم التصدير والاستيراد . ووجد هذا المذهب القائل بأن الثروة تنمو نمواً أسرع في ظل التحرر من القيود الحكومية على الإنتاج والتوزيع ، أذانا صاغية في السويد تحت حكم شارل الثالث . وكان حب جفرسون للحكومة التي تمارس أقل قدر من الحكم ، من بعض النواحي ، صدى للمبادئ الفزيوقراطية . وقد أقر هنري جورج بتأثير الفزيوقراطيين على دعواته لضريبة واحدة تفرض على العقار . واستهوت فلسفة حرية المشاريع والتجارة طبقة رجال الأعمال الأمريكيين ، وأعطت دفعة جديدة للتطور السريع الذي حظيت به الصناعة والثروة في الولايات المتحدة . وفي فرنسا أتاح الفزيوقراطيون أساساً نظرياً لتحرير الطبقات بالوسطى من العقبات الإقطاعية والقانونية التي عرقلت التجارة الداخلية والتقدم السياسي ، وقبل أن يموت كرتيه (١٦ ديسمبر ١٧٧٤) كان عزاء له أن يرى أحسد أصدقائه بعين مراقباً للمائة وأو أفسح له في الأجل خمسة عشر عاماً آخر لشهد انتصار الكثير من الأفكار الفزيوقراطية في الثورة الفرنسية .

٤ - ظهور طورجو ١٧٢٧ - ٧٤

أكان طورجو فزيوقراطيا ؟ إن خلفيته الفنية المتنوعة تمنع كل تخصيص .
يلصق به ، فلقد ولد في أسرة عريقة « من أصل طيب *une bonne race* »
كما قال لويس الخامس عشر - شغل أفرادها المناصب الهامة أجيالا عديدة .
بكل كفاية . وكان أبوه مستشارا للدولة وسر تجار باريس ، وهو أرفع
منصب إداري في باريس ، وأخوه الأكبر امينا للالتباسات والمطالب في
برلمان باريس وعضوا بارزا فيه . وكانت النية توجيه طورجو (آن روبير
- جاك) ، وهو الابن الأصغر إلى وظيفة القسوسية .

واجتاز بتفوق جميع الامتحانات في كلية لوى - لجران ، وفي مدرسة
سان - سوليس اللاهوتية ؛ وفي الصوريون ، وأصبح « الأبيه دبروكور »
وهو بعد في التاسعة عشرة . وتعلم قراءة اللاتينية ، واليونانية ، والعربية ،
والاسبانية ، والإيطالية ، والألمانية ، والانجليزية ، والكلام بثلاثة من هذه
اللغات على الأقل بطلاقة . وفي ١٧٤٩ انتخب رئيسا للصوريون ، وبوصفه
هذا ألقى محاضرات أثارت اثنتان منها ضجه خارج نطاق اللاهوت .

ففى يوليو ١٧٥٠ ألقى محاضرة على الصوريون باللاتينية في « الفوائد
التي أفاد بها توطيد المسيحية الجنس البشرى » ، وقال إنها أنقذت العالم
القديم من سلطان الخرافة ، وصانت الكثير من الآداب والفنون والعلوم ،
وقدمت للبشر المفهوم المحرر لقانون العدالة يسمو فوق كل ألوان التعصب
والأنانية البشرية . « أفيسطيع الإنسان أن يطمع في هذا من أى مصدر
آخر غير الدين ؟ ... إن الدين المسيحى دون غيره هو الذى
أخرج إلى النور حقوق الإنسان . »^(٤٧) وفي هذه التقوى تسمع صدى
الفلسفة ؛ وواضح أن الرئيس الشاب كان قد قرأ مونتسكيو وفولتير ،
وتأثر لاهوته بعض الشيء بما قرأ .

وفي ديسمبر ١٧٥٠ ألقى محاضرة في الصوريون عنوانها « جدول فلسفى
بالتقدم المطرد للعقل البشرى » . وكان هذا التعبير عن دبانة التقدم الجديدة

إنجازا رائعا من فتي في الثالثة والعشرين . وقد سبق كونت - وربما حذا
حلوه فيكو - فقسم تاريخ العقل البشرى إلى ثلاث مراحل : مرحلة
لاهوتية ، وأخرى ميتافيزيقية ، وثالثة علمية . قال : -

« قبل أن يفهم الناس العلاقة العلية بين الظواهر الطبيعية ، كان طيعيا جلدأ
أن يفترضوا أنها صادرة عن كائنات عاقلة ، غير مرئية ، شبيهة بهم
فلما أدرك الفلاسفة سخف هذه الخرافات عن الأبواب دون أن يكتسبوا
بعد بصراً بالتاريخ الطبيعي ، حاولوا تفسير أسباب الظواهر بعبارات تجريدية
مثل الجواهر والقوى . ولم توضع الفروض - التي أمكن تطويرها بالرياضيات
وابتائها بالتجربة ، بملاحظة التفاعل الميكانيكى المتبادل للأجسام - إلا في
فترة متأخرة » (٤٨) .

وقال الشاب الأملئ إن الحيوانات لا تعرف التقدم ، فهي تظل كما هي
جيلا بعد جيل ، أما الإنسان فبفضل تعلمه بجميع المعرفة وتوصيلها يستطيع
تحسين الأدوات التي يستخدمها في التعامل مع بيئته وفي اثناء حياته . مادام
هذا التجميع والتوصيل للمعرفة والتكنولوجيا مستمرا فلانندوحة عن التقدم
وأن عطلة أحيانا الكوارث الطبيعية أو تقلبات الدول . وليس التقدم ممائلا ،
ولا هو عام ، فبعض الأمم يتقدم وبعضها يتقهقر ، وقد يركد الفن في حين
يتحرك العلم قدما ، ولكن الحركة في جملتها حركة إلى الأمام . وفضلا
عن هذه الآراء ، تنبأ طورجو بالثورة الأمريكية فقال « أن المستعمرات
أشبه بالفاكهة التي تنشب بالشجرة إلى أن تنضج ، وحين تغدو مستكنية
بأناتها تفعل ما فعلته قرطاجة ، وما ستفعله أمريكا يوما ما » (٤٩) .

وقد خطط طورجو لكتابة تاريخ للحضارة وهو بعد في الصوريون
مستوحيا في ذاك فكرة التقدم . ولم يبق من مشروعه هذا سوى مذكرات
خطها لبعض فصول الكتاب ، ومنها يتبين أنه قصد أن يضمه تاريخ اللغة ،
والدين ، والعلم ، والاقتصاد ، وعلم الاجتماع ، وعلم النفس ، كما يضمه
قيام الدول وسقوطها (٥٠) . فلما ورث عن أبيه دخلا كافيا قرر أواخر
عام ١٧٥٠ أن ترك الوظيفة الكنسية والح عليه زميل من الآباء الدينيين في

البقاء وأعداياه بالترقى السريع ، وأكن طورجو أجاب على ما روى دبون
دغو « لأستطيع أن أفرض على نفس لبس قناع طوال حياتي » (٥١) .

ولم يكن قد رسم إلا لوظيفة كهنوتية صغيرة ، لذلك كان حرا في
الاشتغال بالسياسة . وفي يناير ١٧٥٢ أصبح نائبا عاما مناوبا ، وفي ديسمبر
أصبح مستشارا في البرلمان ، وفي ١٧٥٣ اشترى منصب « أمين الالتماسات
والمطالب » ، الذي اشتهر فيه بالاجتهاد والعدل . وفي ١٧٥٥-٥٦ رافق
جورنيه في جولات تفتيشية في الأقاليم ، وتعلم الاقتصاد الآن بالاتصال
المباشر مع الزراعة والتجار ، والصناع ، وعن طريق جورنيه التي بكزنيه
وعن طريق كزنيه التي بميراو الأب ، ودبون دغور ، وآدم سمث .
ولم ينخرط قط في زمرة المدرسة الفزيوقراطية ، ولكن ماله وقلعه كانا أهم
سند لمجلة دبون المسماة التقاويم .

وفي غضون هذا (١٧٥١) استطاع بفضل ذكائه وسلوكه المهادب أن ياتي
الترحيب في صالونات مدام جوفران ومدام دجرافيته ، ومدام دوديفان
والآنسة دلسيناس . وهناك التقى بدالامير ، وهافتيوس ، ودولياخ ،
وجريم ، ومن بين الثمرات المبكرة لهذه الاتصالات كتاب (١٧٥٣) من
رسالتين « في التسامح » . وكتب لموسوعة ديدرو مقالات في الوجود ،
والاشتقاق اللغوي ، والمهرجانات ، والأسواق ، ولكن حين أدانت
الحكومة مشروع الموسوعة كلف عن موافقتها مقالاته . وخلال جولاته في
سويسره وفرنسا زار فولتير (١٧٦٠) وبدأ صداقة معه دامت حتى وفاة
فولتير . وكتب حكيم فرنيه إلى دالامير يقول : (قل أن رأيت طوال
حياتي رجلا ألطف منه أو أوسع اطلاعا) (٥٢) . وأدعى جماعة الفلاسفة
أنه واحد منهم ، وراودهم الأمل في أن يؤثروا على الملك عن
طريقه .

وفي ١٧٦٦ كتب لطالبيين صينيين على وشك العودة إلى الصين مجملا
للاقتصاد من مائة صفحة عنوانه « تأملات في نشوء الثروة وتوزيعها » .
فلما نشر في مجلة « التقاويم » (١٧٦٩ - ٧٠) أشاد به الناس شرحاً من أكثر

شروح النظرية الفزيوقراطية لإحكاماً وقوة . قال طورجو أن الأرض مصدر الثروة الوحيد ، وكل الطبقات فيما عدا زراع الأرض يعيشون على الفائض الذى ينتجه الزراع فضلاً عن حاجاتهم : وهذا الفائض يؤلف « صندوق أجور » تدفع منه أجور طبقة مهرة الصناع . ثم يسوق صيغة مبكرة لما أصبح فيما بعد يطلق عليه « قانون الأجور الحديدى » يقول :

إن أجر العامل يحدده مستوى معيشته بالمنافسة بين العمال . والعامل المحرد الذى لا يملك غير ذراعيه وجده ، لا يملك شيئاً إلا بقدر ما يوفق فى بيع كده . لغيره ، وصاحب العمل ينقده أقل مما يستطيع من أجر ، وبما أنه يستطيع الاختيار من بين العديد من العمال ، فإنه يفضل أقلهم أجراً . ومن ثم يضطر العمال إلى خفض سعرهم فى المنافسة فيما بينهم ، وفى كل أنواع العمل لابد أن يحدث هذا ، وهو يحدث فعلاً . وهو أن أجر العامل يحدده ما هو ضرورى لإعاشته » (٥٣) .

ويسترسل طورجو مؤكداً أهمية رأس المال . فلا بد أن يوفر شخص ما ، بمخدراته ، أدوات الإنتاج ومواده قبل أن يتسنى له استخدام العامل ، ولا بد له من إعاشة العامل قبل أن يرد بيع الناتج له رأسماله . وإذا لم يكن هناك ضمان على الإطلاق لنجاح مشروع ما ، فيجب السماح بربح ليوأزن لخطر فقد رأس المال . « فحركة رأس المال هذه انطلاقة ورجوعاً هي قوام دورة النقود ، تلك الدورة النافعة المثمرة التى تشيع الحياة فى جميع جهود المجتمع ، والتى شبت بكل حق بدورة الدم فى الجسم الحيوانى » (٥٤) . ويجب عدم التدخل فى هذه الدورة ، وأن يسمح للأرباح والفائدة : كما يسمح للأجور ، بأن تصل إلى مستواها الطبيعى حسب العرض والطلب . ويجب أن يعفى من الضرائب أصحاب رؤوس الأموال ، وأرباب المصانع ، والتجار ، والعمال ، فلا تفرض إلا على ملاك الأرض الذين سيستردون مادفعوه بتقاضى ثمن أغلى لمحاصيلهم . وينبغي ألا يفرض أى رسم على نقل أو بيع أى سلعة من سلع الاستهلاك .

فى هذه « التأملات » أرسى طورجو الأساس النظرى لرأسمالية القرن التاسع عشر قبل التنظيم الفعال للعمل . فهذا الرجل الذى كان من أرحم وأنبل

رجال زمانه لم يستطيع أن يتطلع إلى مستقبل العمال أفضل من أجرور الكفاف . ومع ذلك أصبح هذا الرجل خادماً للشعب متفانياً في عمله . ففي أغسطس ١٧٦١ عين ناظراً ملكياً لمديرية ليموج ، وهي من أفقر أقاليم فرنسا ، وقد قدر أن ٤٨ ٪ إلى ٥٠ ٪ من دخل الأرض فيها يضيع ضرائب للدولة وعشوراً للكنيسة . وكان في فلاحى الإقليم كتابة وفي نبلائه فظاظة . كتب إلى فولتير يقول : « من سوء حظى أن أكون ناظراً ملكياً . وأقول من سوء حظى لأن السعادة في هذا الزمان الممتلئ بالتناحر واللوم لا تنافر إلا في حياة الفلسفة بين الكتب والأصدقاء » . ورد عليه فولتير قائلاً : « ستكسب أهل ليموج وجيوبهم ؛ وفي اعتقادى أن الناظر الملكى هو الشخص الوحيد الذى يمكنه إفادة الناس . ألا يستطيع إصلاح الطرق ، وزرع الحقول ، ونصريف المستنقعات ، وتشجيع الصناعات ؟ » .

وقد فعل طورجو هذا كله . فكافح بهمة طوال ثلاثة عشر عاماً ، اكتسب فيها محبة الشعب وكرهية النبلاء . فالتمس مراراً ، ودون جدوى ، من مجلس الدولة أن يخفض معدل الضريبة ، وحسن توزيع الضرائب ، ورفع المظالم ، ونظم خدمة موظفى الحكومة ، وحرر تجارة الغلال ، وشق ٤٥٠ ميلاً من الطرق ؛ وكانت هذه الطرق جزءاً من برنامج إنشاء الطرق الذى ينظم البلاد كلها (والذى بدأتها الحكومة الفرنسية في ١٧٣٢) والذى ندين له بالفضل في هذه الطرق الجميلة ذات الأشجار الوارفة الظلال التى تنتشر اليوم في ربوع فرنسا . وكانت الطرق قبل طورجو تشق بالسخرة ، فألغى السخرة في ليموج ، ودفع أجر العمال من ضريبة عامة على الكافة . وأقنع الفلاحين بأن يزرعوا البطاطس غذاء للإنسان لا للحيوان فقط . وقد ظفر بإعجاب الناس جميعاً لما اتخذ من تدابير فعالة لإغاثة الشعب في فترات المجاعة التى امتدت بين سنتي ١٧٦٨ و ١٧٧٢ .

وفي ٢٠ يوليو ١٧٧٤ دعاه الملك الجديد للانضمام إلى الحكومة المركزية واغتبطت فرنسا كلها وتطلعت إليه منقذاً مرجواً للدولة المتداعية .

٥ - الشيوعيون

بينما كان الفريوقراطيون يرسون الأساس النظري للرأسمالية ، كان موريللي ومابلي ، ولانجيه ، يشرحون الاشتراكية والشيوعية . فقد عزت الطبقات المتعلمة نفسها بمتع هذه الأرض بعد أن تخلت عن آمالها في السماء : فتجاهل الأغنياء منهم المحظورات الدينية ، وأطلقوا العنان لرغباتهم في الثروة والقوة والنساء والخمر والفن ؛ ووجد العامة عزاء في عالم مثالي تقسم فيه خيرات الأرض بالقسط بين البسطاء والموهوبين ، وبين الضعفاء والأقوياء .

ولم تقم في القرن الثامن عشر حركة اشتراكية ، ولا جماعة محددة مثل جماعة المسوين في إنجلترا كرومويل ، أو يسوعى براجواي الشيوعيين . واقتصر الأمر على أفراد متفرقين أضافوا أصواتهم إلى صيحة متصاعدة ستصبح في « جراكوس » بابوف عاملاً في الثورة الفرنسية . ونذكر القراء بأن الكاهن الشكوكي جان ميزلييه طالب في كتابه « الميثاق » الذي أصدره عام ١٧٣٣ بمجتمع شيوعى يقسم فيه الناتج القومى بالتساوى بين الناس ويتزوج فيه الرجال والنساء وينفصلون كما يشاءون ، ثم ألمع إلى أنه مما يعين في هذا الباب أن يقتل بعض الملوك .^(٥٥) وبعد سبعة أعوام من طبع هذه الدعوة ندد روسو في « مقالة » الثانية (١٧٥٥) بالملكية الخاصة لأنها أس جميع شُرور الحضارة ، ولكنه حتى في صيحته تلك أنكر أى برنامج اشتراكى . وما وافى عام ١٧٦٢ حتى كان ابطال كتبه أفرادا ينعمون بالثروة .

وفي نفس العام الذى صدر فيه كتاب روسو « مقال في أصل عدم المساواة » ظهر كتاب عنوانه « ناموس الطبيعة لراديكالى مغرور لانكاد نعرف عنه شيئاً غير أسمه الأخير ، إذا استثنينا كتبه ، وهو موريللي Morelly : ولا نخلط بينه وبين أندريه موريلليه Morellet الذى التقينا به مشاركاً في تحرير الموسوعة . وقد بدأ موريللي بإيقاظ الأفهام بكتابه « رسالة في فضائل ملك عظيم » (١٧٥١) الذى صور ملكاً شيوعياً . وفي ١٧٥٣ أضفى على حلمه الشعاعية بقصيدته « غرق الخزر الطافية ، أو الملحمة الملكية » . وهنا نرى الملك الطيب ، ربما بعد أن قرأ الكاتب مقال روسو الأول ، يعود بشعبه

إلى حياة بسيطة فطرية . وكان خير عرض للمثال الشيوعي وأكمّله كتاب موريللى « ناموس الطبيعة » (١٧٥٥ - ٦٠) وقد نسبته الكثيرون إلى ديدرو ، وصرح المركيز دارجانسون بأنه يفوق كتاب مونتسكو « روح الشرائع » (١٧٤٨) . وقد ذهب موريللى ، كما ذهب روسو ، إلى أن الإنسان خير بطبعه وإلى أن غرائزه الاجتماعية تحمله على السلوك الطيب ، وأن القوانين أفسدته بتقرير الملكية الخاصة وحمايتها . وامتدح المسيحية لميلها إلى الشيوعية ، وأسف لأن الكنيسة أقرت الملكية ، فإقامة الملكية الخاصة أورثت البشر « الغرور ، والحق ، والكبرياء ، والجشع ، واللؤم ، والنفاق ، والشر .. وكل شيء شرير ينتهى إلى هذا العنصر الخفى المؤذى ، وأعنى به شهوة التملك »^(٥٦) . ثم ينتهى السفسطائيون إلى أن طبيعة البشر تجعل الشيوعية ضريبا من المحال ، فى حين إن الذى حدث فى التابع الواقعى للأحداث هو أن انتهاك الشيوعية هو الذى أفسد الفضائل الفطرية للإنسان . ولولا الجشع والأنانية ، والمزاحمات ، والأحقاد التى ولدتها الملكية الخاصة لعاش الناس معا فى إخوة مسالمة متعاونة .

ولا بد للبده فى إعادة البناء من إزالة العوائق من طريق التعايش الحر فى الأخلاق والسياسة « فتعطى كامل الحرية للعقلاء من الناس فى مهاجمة الأخطاء والأهواء التى تدعم نزعة التملك » وينبغى أن يؤخذ الأطفال من آبائهم وهم فى السادسة وينشأوا تنشئة مشتركة بواسطة الدولة حتى يبلغوا السادسة عشرة ، وعندها يعادون إلى ذويهم بعد أن تكون المدارس قد دربتهم على التفكير بلغة الصالح العام لا التملك الشخصى . وينبغى ألا يسمح بالملكية الخاصة إلا فى أخص خصائص الحاجات الشخصية « فتجمع كل النواتج فى مخازن عامة لتوزع على كل المواطنين لسد حاجات الحياة »^(٥٧) . ويجب أن يعمل كل قادر على العمل ، فيساعد فى المزارع من الحادية والعشرين إلى الخامسة والعشرين . وينبج ألا يكون هناك طبقة عاطلة ، ولكن لكل فرد الحرية فى أن يعتزل فى الأربعين على أن تدير الدولة وعايته فى شيخوخته . وتلقسم الأمة إلى مدن حدائق لها مركز للبيع والشراء وميدان عام . ويحكم

كل جماعة مجلس من الآباء الذين تزيد أعمارهم على الخمسين ، وتنتخب هذه المجالس مجلس شيوخ أعلى يحكمها كلها وينسق فيما بينها .

ولعل موريللى يحس قدر النزعة الفردية الفطرية فى البشر : وقوة غريزة الاقتناء ، ومقاومة التعطش للحرية والاستبداد اللازم للبقاء على حاله من مساواة غير طبيعية ومع ذلك كان تأثيره كبيراً . فصرح باييف بأنه تشرب شيوعيته من كتاب موريللى « ناموس الطبيعة » والداجح أن شارل فوريه استمد من نفس المصدر خطة المستعمرات التعاونية (الكتائبية phalansteries) (١٨٠٨) التى أفضت بدورها إلى تجارب شيوعية من أمثال مزرعة بروك (١٨٤١) . وفى « ناموس » موريللى نلتقى بذلك المبدأ الشهير الذى انحدر ليلهم الثورة الروسية وينكها ، ونعنى به « من كل حسب قدرته ، ولكل حسب حاجاته » . (٥٨)

أما جماعة الفلاسفة فقد رفضوا بوجه عام نظام موريللى باعتباره غير عملى ، وقبلو الملكية الخاصة نتيجة لا مناص منها للطبيعة البشرية . ولكن فى ١٧٦٣ وجد موريللى حليفاً قوياً فى سيمون - هنرى لانبجيه . وهو محام هاجم القانون والملكية جميعاً . فبعد أن شطب اسم لانبجيه من جدول المحامين نشر (١٧٧٧ - ٩٢) « حوليات سياسية » وهى مجلة أطلق فيها وابلا من النيران على الشرور الاجتماعية . فالقانون فى رأيه قد أصبح أداة لتحليل وصيانة المقتنيات التى كسبت أصلاً بالقهر أو الغش :

« إن القوانين يقصد بها أولاً تأمين الملكية . وبما أنه يمكن الآن أن يؤخذ من الغنى أكثر مما يؤخذ من الفقر ، فمن الواضح أنها ضمان يعطى الأغنياء ضد الفقراء . وقد يعسر علينا أن نصدق — وإن كان هذا يمكن بيانه بجلاء — أن القوانين من بعض نواحيها مؤامرة على الكثرة العظمى من البشر (٥٩) .

ويرتب على ذلك أن حرباً طبقية لامندوحة عنها تستمر بين أصحاب الملكية أو رأس المال ، وبين العمال الذين لا بد لهم من بيع كدهم لأرباب العمل

الملاك ، منافسين في ذلك بعضهم بعضا ، وقد احتقر لانجبه دعاوى
الفيوقراطيين بأن تحرير الاقتصاد من سيطرة الدولة سيجلب الرخاء تلقائياً ،
لأنه على النقيض من ذلك يعجل بتركز الثروة ، فترتفع الأسعار ، وتتخلف
الأجور . وسيطرة الأغنياء على الأسعار من شأنها الإبقاء على عبودية
الاجير حتى بعد « إلغاء » الرق قانوناً ، « فكل ما جنوه (أى العبيد السابقون)
هو العذاب الدائم من خوف الموت جوعاً ، وهو خطب أعفى منه على الأقل
أسلافهم ممن تردوا في هذا الدرك الأسفل للإنسانية » (٦٠) . فقد كان العبيد
يسكنون ويطعمون على مدار السنة ، أما في الاقتصاد غير المقيّد فإن رب
العمل حر في أن يقذف بالعمال في مهاوى التسول إذا لم يستطع جنى الربح
من ورائهم ، ثم يجعل التسول جريمه . وفي رأى لانجيه أنه لا دواء لهذا كله
الا الثورة الشيوعية . على أنه لم يوصى بها بلحيلة ، لأنها ستفضي على الأرجح
إلى الفوضى لا إلى العدالة ؛ ولكنه أحس بأن الأحوال المواتية لثورة كهذا
آخذة في التشكل السريع ؛ يقول :

« لم يحدث قط إن كان الفقر أعم ولا أشد فتكا بالطبقة التي تبلى به ،
ولعل أوروبنا لم تكن في يوم من الأيام أقرب منها اليوم إلى الانقلاب التام
وسط هذا الرخاء الظاهر ... ولقد بلغنا بالضبط ، بطريق عكسي تماماً ،
تلك النقطة التي بلغها إيطاليا حين أغرقها حرب العبيد (التي قادها سبارتاكوس)
في حمام من الدم ، وحملت النار والتقتيل إلى أبواب عاصمة الدنيا
ذاتها » . (٦١)

وقد نشبت الثورة وهو حى بعد رغم نصيحته وقلقت به إلى الحلوتين
(١٧٩٤) .

وأما الأييه جابريل بونردمايل نو فقد احتفظ برأسه لأنه مات قبل الثورة
بأربع سنوات وكان سليل أسرة كريمة في جرينوبل ، وأخذ أخوته جان
بونو دمايل الذي عاش روسو معه في ١٧٤٠ ، والآخر كوندياك الذي أثار
ضجة بأبحاثه السيكلولوجية . ثم قريب مشهور آخر هو الكردينال دتسنان ،
حاول أن يجعل من جابريل قسيساً ، ولكنه لم يجاوز مراتب الكهانة الصغرى ،

واختلف إلى صالون مدام تنسان في باريس ، ثم استسلم لإغراء الفلاسفة . وفي ١٧٤٨ تشاجر مع الكردينال ، وانصرف إلى الدرس في خلوته ، وبعدها كانت أهم أحداث حياته هي كتبه ، وكلها ذاع صيته في الماضي .

وقد أفاد من الأعوام السبعة التي قضاها في باريس ولمساي علماً بالسياسة ، والعلاقات الدولية ، والطبيعة البشرية . وأسفر هذا كله عن مزيج فذ جمع بين التطلعات الاشتراكية والشكوك المتشائمة . وقد أصر مايلى على أن المعايير الخلقية التي تطبق على الأفراد يجب أن تطبق على سياسة الدول (وهو عكس ما قال به مكيافلى) ، ولكنه أدرك أن هذا يتطلب نظاماً من القوانين الدولي يمكن فرضه . وكان كفولتير وموريللى موحداً بغير مسيحية ، ولكنه آمن بأنه لا سبيل إلى صيانة الفضيلة إلا بديانة قوامها العقاب والثواب فوق الطبيعيين ، لأن أكثر الناس « قضى عليهم بطغولة العقل الدائمة » (٦٢) . وقد أثر أخلاقيات الرواقين على أخلاقيات المسيح ، والجمهوريات الإغريقية على الماركسيات الحديثة . وأتفق مع موريللى على أن رزائل البشر مبعثها الملكية لا الطبيعة ؛ فهي « أس جميع البلايا التي نكب بها المجتمع » (٦٣) . وقد تربعت شهوة الغنى على عرش متضخم في قلب الإنسان ، فعزفت كل ما فيه من حب العدل والانصاف (٦٤) ، وكأما ازدادت التفرقة بين حظوظ البشر تأججت هذه الشهوة . فالحسد ، والطمع ، والفوارق الطبقة ، تسمح ما في طبيعة البشر من مودة فطرية . فيستكثر الأغنياء من أسباب الترف والبلذخ ، ويتردى الفقراء في مهاوى الذل والهوان . فأى خير في الحرية السياسية مادامت العبودية الاقتصادية قائمة ؟ « ن الحرية التي يحسب كل أوربي أنه يستمتع بها ليست سوى حرية في أن يترك عبوديته لسيد ويسلم نفسه إلى سيد آخر » (٦٥) .

وكم يكون البشر أسعد وأهنأ إذا اختفت الفاظ « هذا ملكى » « وذلك ملكك » . وزعم مايلى أن الهنود الحمر كانوا أهنأ بالآ في ظل شيوعية اليسوعيين في برجواى من فرنسي جيله ، وأن السويديين والسويسريين في ذلك الحيل ، الذين تخلوا عن الجرى وراء المجد والثراء قانعين برخاء معتدل ، هم أسعد حالاً من الإنجليز الذين يغزون المستعمرات والتجارة . وذهب إلى

أن الأخلاق في السويد تحظى بمقام أعظم من الشهرة ، وأن القناعة أئمن في نظر القوم من الثراء الطائل^(٦٦) . أن الذين يملكون الحرية الحقيقية هم أولئك الذين لا تهفو نفوسهم للغنى . ولن تتوافر السعادة في مجتمع كذلك الذي يدعو إليه الفزيوقراطيون ، لأن الناس ستثيرهم على الدوام الرغبة في أن يتساووا في مقتنياتهم مع من يفوقونهم ثراء .

وهكذا خلاص مايلي إلى أن الشيوعية هي النظام الاجتماعي الوحيد الذي يقدم الفضيلة والسعادة . « أقيموا اشتراكية السلع ، وعندها لن يكون أيسر من إقرار المساواة بين أحوال العيش ، وارساء رفاهية الإنسان على هذا الأساس المزدوج . »^(٦٧) ولكن كيف السبيل إلى إقامة شيوعية كهذه والناس على مثل هذا الفساد ؟ هنا يرفع الشكوكى في مايلي رأسه ، ويسلم في قنوط بأنه ليس في قدرة أى قوة بشرية اليوم أن تعيد إقرار المساواة دون أن تحدث من ضروب الخلل والاضطراب ما يفوق تلك التي تحاول تفادها^(٦٨) . فالديمقراطية رائعة نظريا ، أما عمليا فهي تفشل بسبب جهل الجماهير وحجبها للاقتناء^(٦٩) . وقصارى ما نستطيعه هو أن نعروض الشيوعية مثلا أعلى ينبغي أن تسعى إليه الحضارة شيئا فشيئا في حذر ، وتغير ببطء . عادات الإنسان الحديث من التنافس إلى التعاون . ويجب ألا يكون هدفنا الاستكثار من الثروة ، ولا حتى الاستكثار من السعادة ، بل إنماء الفضيلة ، فالفضيلة وحدها هي مجلبة السعادة . وأول خطوة في سبيل الحصول على حكومة أفضل هي دعوة مجلس طبقات الأمة ، الذي ينبغي أن يضع دستوراً يحول السلطة العليا لجمعية تشريعية (وهذا ما تم . في ١٧٨٩ - ٩١) . وينبغي تحديد مساحة الأقطان التي يملكها الفرد ، وتقسيم الضياع الواسعة للاستكثار من ملكية الفلاحين للأرض ، ووضع القيود الصارمة على إرث الثروة ، وإلغاء « الفنون عديمة الجدوى » كالتصوير والنحت .

وقد تبنت الثورة الفرنسية كثيرا من هذه المقترحات . ونشرت مجموعة أعمال مايلي في ١٧٨٩ ، ثم في ١٧٩٢ ، ثم في ١٧٩٣ ، ورتب كتاب نشر عقب الثورة هلفيتوس ، ومايلي ، وروسو ، وفولتير . وفرانكلن ، بهذا الترتيب ، بوصفهم أكبر ملهمي ذلك الحدث ، وقديسي الدين الجديد الحقيقيين^(٧٠) .

٦ — الملك

أما لويس الخامس عشر فقد أبتسم سخرية من هؤلاء الشيوعيين ... على قدر علمه بهم — لأنهم قوم حاملون لا وزن لهم ، وراح يتنقل في ود من فراش إلى فراش . وأما البلاط فواصل قماره المستهتر وزهوه المسرف ، من ذلك أن أمير سوبيز أنفق ٢٠٠,٠٠٠ جنيه على توفير أسباب اللهو للملك في يوم واحد ، وكان كل إنتقال لجلالته إلى أحد مقاره الريفية يكلف دافعي الضرائب ١٠٠,٠٠٠ جنيه . وكان خمسون من كبار القوم يملكون « أوتيلات » أى قصوراً في فرساي أو باريس ؛ وكان عشرة آلاف خادم يبذلون العرق في كبرياء وفخر لتلبية حاجات النبلاء ؛ والأجبار ، والخليلات ، والأسرة المالكة واشباع غرورهم . وكان للويس نفسه ثلاثة آلاف جواد و ٢١٧ مركبة ، و ١٥٠ غلام يرتدون حللا من الخمل والذهب ، وثلاثون طبيباً يقصدونه وينظفون أمتعاه ويسمونه . وقد أنفق البيت المالكي في سنة واحدة (سنة ١٧٥١) ٦٨,٠٠٠,٠٠٠ جنيه — وهو ما يقرب من ربيع إيراد الحكومة^(٧١) وشكا الشعب ولكن أكثر شكاواهم كانت غفلا من التوقيع ، وفي كل عام كشفت عشرات النشرات والملمصقات ، وأغاني الهجو ، عن كراهية الملك . وقد جاء في أحد الكتيبات « إذا كنت يا لويس مرة موضع حينا فذلك إلا لأن رذالك كانت لا تزال مجهولة لنا . وفي هذه المملكة ، التي نصبت من أهلها بسبك ، وأسلمت فيها للمشعوذين الذين يحكمون معك ، إن بقى فرنسيون ، فانما يكون ليكرهوك^(٧٢) » .

فكيف انقلب لويس المحبوب ملكاً محقراً مهاناً ؟ أننا لو صرفنا النظر عن إسراره ، وإهماله ، وفواحشه ، لم نجد في ذاته بالسوء الذي صور به التاريخ الحقود . كان في بنيتة رجلاً وسيماً ، طويلاً ، قوياً ، قادراً على الصيد طوال المساء واللاهو مع النساء في الليل . أفسده معلموه ، فأفهمه فيلرو أن فرنسا كلها ملكه بالوراثة والحق الألهي . وقد خفف من كبرياء الملكية وشوشها الظل الذي خلفه لويس الرابع عشر وتقاليده ، إذ ألح على الملك الحدث إلحاح الماحس ، وأورثه الحب ، إحساسه بالعجز عن الارتفاع

إلى ذلك المستوى الجليل من الفخامة وقوة الإرادة ؛ فأصبح عاجزا سر البت في الأمور ، وترك مهمة إتخاذ القرارات لوزرائه مغتبطا . وأتاحت له قراءاته وهو غلام ، وذاكرته القوية ، بعض الإلمام بالتاريخ ، واكتسب مع الوقت معرفة لا يستهان بها بالشئون الأوربية ؛ واحتفظ سنوات كثيرة بمراسلاته الدبلوماسية السرية . كان ذكيا في تراخ وفطور ، يحكم حكما شديدا ولا رحمة فيه على أخلاق من أحاط به من الرجال والنساء ؛ في وسعه أن يجارى خبير العقول في بلاطه حديثا ونكته ، ولكن يبدو أنه قبل حتى أسخف العقائد اللاهوتية التي تبثها فيه فلورى وهر صبي . وبات الدين عنده أشبه بالحمى المتقطعة إذ راح يتذبذب بين التقوى والفجور . فكان يعاني من خوف الموت والجحيم ، ولكنه يقامر على غفران خطاياهم وهو في الزرع الأخير . وقد أوقف اضطهاد الجانسينيين ، وإذا نستحضر تاريخ تلك الحقبة نتيين أن جماعة الفلاسفة استمتعوا في حكمه بين الحين والحين بقدر كبير من التسامح .

كان يقسو أحيانا ، ولكنه في الأكثر رحيم . تعلمت بومبادور ودورباري أن تجاه من أجل شخصه كما أحبتاه من أجل السلطة التي منحهما أياها . وكانت برودة عاطفته وتحفظه جزءا من حياته وانعدام ثقته بنفسه ، ولكن وراء ذلك التحفظ عناصر من الحنان والرقّة أعرب عنها خاصة في محبة لبناته ، وقد أحبينه أباً منحهن كل شيء إلا القدوة الحسنة . وكان في سلوكه عموما تلطف وكياسة ولكنه كان قاسى الفؤاد أحيانا ، ويتكلم في هدوء مفرط على امراض أفراد حاشيته أو موتهم الوشيك . وقد نسي تماما أن يسلك مسلك الرجل المهذب وهو يقيل فجأة دارجانسون ، وموريا ، وشوازيل ؛ ولكن هذا أيضا ربما كان نتيجة عدم ثقته بنفسه . فقد شق عليه أن يقول لا لإنسان في وجهه . ومع ذلك كان قادرا على أن يواجه الخطر بشجاعة كما كان يفعل في الصيد أو في فونتنوا .

وكان على ظهوره بمظهر الوقار أمام الناس لطيفا حلو العشرة بين أخصائه ، يعد لهم القهوة بيديه الكريمتين . وقد راعى قواعد السلوك المعقدة التي أرساها لويس الرابع عشر للملكية ولكنه أنكر الشكليات التي فرضها

على حياته . وكثيراً ما كان يستيقظ قبل تقليد « الاستيقاظ » المقرر رسمياً ويوقد ناره بنفسه لكيلا يوظف خدمه ، ويغلب عليه أن يلبث في فراشه حتى الحادية عشرة . أما في الليل ، فإنه بعد أن يحتفل رسمياً بذهابه إلى فراشه ، قد يتسلل ليلهو بمحيطيته أو حتى ليتفقد مدينة فرساي متنكراً وكان يلوذ بالصيد من مراسم البلاط المنكلفة ، وفي الأيام التي لا يهرب فيها للصيد كانت بطانته تقول « أن الملك لا يعمل اليوم شيئاً »^(٧٣) . وكان يعرف عن كلاب صيده أكثر مما يعرف عن وزرائه ؛ إذ رأى أن في قدرة وزرائه أن يعنوا بشئون الدولة خيراً منه ، فلما نبه إلى أن فرنسا في طريقها إلى الأفلاس والثورة ؛ عزى نفسه بهذه الفكرة « ستسير الأمور على هذه الوتيرة حتى ينتهى أجلى » .

أما من الناحية الجنسية فقد كان وحشاً فاسقاً . ولقد تغنر له إتخاذة المحظية التي إتخذها حين ضاقت الملكة ذرعاً بفحولته ، وقد نفهم اقتنائه بيومبادور ؛ وحساسيته لحمال المرأة وظرفها وحيويتها المشرقة ، ولكن قل في تاريخ الملوك ما أشبه حقارة تنقله بين الفتيات اللاتي إعددن لفراشه في البارك أوسبر واحدة تلو أخرى . وكان يحىء دويارى بالقياس إلى هذا رجوعاً إلى الحالة السوية .

٧ - دويارى

بدأت حياتها في قرية من قرى شيمانيا تدعى نوكلير حوالى ١٧٤٣ باسم مارى - جان بيكى . أبنة الآنسة آن بيكى ، التي يبدو أنها لم تمتط اللثام قط عن شخصية أبي الفتاه . ومثل هذه الخفايا كانت مألوفة بين الطبقات الدنيا . وفي ١٧٤٨ أنتقلت آن إلى باريس وأصبحت طاهية للمسيو دومونسيه الذى رتب لإحراق جان ، وهى فى السابعة ، تلميذة داخلية بدير سانت - آن للراهبات . هناك مكثت الفتاة الجميلة تسع سنوات ، يلوح أنها لم تعوزها فيها السعادة ؛ وقد احتفظت بذكريات حلوة عن هذا الدير المنظم . وتلقت فيه تعليماً فى القراءة والكتابة والتطريز ، واحتفظت طوال حياتها بتدين بسيط لا يتشكك ، وباجلال للراهبات والقساوسة ، وكان إيراؤها للقساوسة المطاردين فى الثورة من العوامل التي أفضت بها إلى الجيولتين^(٧٥) .

فلما خرجت من مدرسة الدير لإتخذات اسم صديق أمها الحديد ،
المسيورانسون ، لقباً لها وأرسلت إلى حلاق لتتعلّم فنه ، ولكن هذا الفن
أشتمل على الإغواء ، وجان - الحميلة جبالا لا يقاوم - لم تعرف كيف
تقاوم . ونقلتها أمها وصيفة لمدام دلاجارد ، ولكن ضيوف هذه السيدة
غالوا في الأهتمام بجان ، فما لبثت أن طردت . واجتذب دكان القبعات
الذى التحقت به بائعة عددا غير عاды من الزبائن الذكور . فاصبحت
خليفة اختص بها سلسلة من الفجرة . وفى ١٧٦٣ تلقاها جان دوبارى ،
وهو مقامر كان يجلب النساء للفاسقين من النبلاء . وخدمت هذا القواد -
متخذة اسم جان دفوبرنية الأنيق - خمس سنوات مضيئة فى حفلاته ،
وأضافت شيئاً من التهذيب والصقل لمفاتها . ثم رأى دوبارى أنه هو أيضاً ،
كمدام بواسون ، قد أكتشف « طبقة شبيهة للملك » .

وبيان ذلك أن الملك الطيب ستانسلاس مات عام ١٧٦٦ فى اللورين
فأصبح بذلك اقليما من أقاليم فرنسا . وأنهارت صحة ابنته مارى (ملكة
فرنسا التقية المتواضعة) أنهيارا سريعا بعد موته لأن جبهما المتبادل
كان سندا لها فى حياة العبودية الطويلة التى عاشتها مع زوج خائن اليهود
الزوجية ، فى بيئة غريبة . وفى ٢٤ يونيو ١٧٦٨ لفظت أنفاسها الأخيرة
فبكاهها الجميع حتى الملك . وقد علل بناته بالأمل فى أنه لن يتخذ المزد
من التحليلات . ولكن فى شهر يوليو رأى جان التى كانت سائرة بالصدفة
على غير هدى فى قصر فرساي فى براءة كبراءة لايومبادور وهى راكبة فى
أرض الصيد . « سينار » قبل أربع وعشرين سنة .

وراعه فيها جمالها الشموانى ومرحها وطبعها اللعوب . فهاهنا امرأة
تستطيع أن توفر له اللهو من جديد وتدفع قلبه البارد الحزين ، فأرسل
إليها تابعه لبيل . ولم يتردد (الكونت) دوبارى فى التفريط فيها لقاء
مقابل ملكى . ورغبة فى تهديته المظاهر أصر لويس على أن تزوج الفتاة .
فزوجها الكونت بسرعة لأخيه جيوم ، الكونت دوبارى الحقيقى ، المفتر ،
بعد أن استقدمه لهذا الغرض من لفنيك بغسفونية . وحيته تحية الوداع

عقب حفل الزفاف مباشرة (أول سبتمبر ١٧٦٨) ، ولم تقع عليه عيناها بعد ذلك قط . وكوفيء جيوم بمعاش قدره ٥٠٠٠ ريه جنيه ، فاتخذ له خلية واصططحها إلى لفنيالك حيث عاشها خمسة وعشرين عاما ، ثم تزوجها حين علم أن زوجته أعدمت بالحلوتين .

ولحقت جان ، التي اتخذت الآن اسم الكونتس دوبارى ، بالملك سرا في كومبيين ، ثم علانية في فونتينيلو . وسأل الدوق ريشليو لويس ماذا يرى في هذه اللعبة الجديدة ، فأجاب جلالته « لا أكثر من أنها تنسينى اننى سأبلغ الستين بعد قليل . »^(٧٦) وريعت بطانته . فقد كان في استطاعتهم أن يفهموا في غير ضياء حاجة الملك إلى خلية ، أما أن يأخذ امرأة عرفها العديدون منهم مومسا ، ثم يرفعها إلى مقام يعلو على المراكز والدوقات !! وكان شوازيل قد منى نفسه بأن يقدم أخته للملك (خلية تحمل لقبا) ، فراحت هذه النبيلة المرفوضة تعرض أخاها - الذى كان الحذر من طبعه -- على العداء الصريح لهذه الدعية الجميلة ، ولم تغفر له دوبارى فعلته قط .

وسرعان ما تقلبت الخلية الجديدة في الذهب والجواهر . وخلع عليها الملك معاشا قدره ١٣٠.٠٠٠ فرنك بالإضافة إلى راتب سنوى قدره ١٥٠.٠٠٠ فرنك ، تفرض على مدينة باريس وولاية برخندية . وهرع الجواهريون إلى تزويدها بالجواهر والعقود والأساور والتيجان وغيرها من أسباب الزينة المتألقة التى اقتضوا الملك ثمنها لها ٢٠٠.٠٠٠ فرنك في أربع سنوات . وبلغت جملة ما تكلفته الخزانة في تلك السنوات الأربع ٣٧٥.٠٠٠ ريه جنيه^(٧٧) . وسمع أهل باريس بجمالها المتألق ، وحزنوا لأن بومبادور جديدة اقبلت لتبتلع ضرائبهم .

وفى ٢٢ ابريل ١٧٦٩ قدمت رسميا في البلاط ، وطلعت على أفراده في شعلة متوجهه من الحلى والجواهر وهى تتكىء على ذراع ريشليو . وأعجب الرجال بمفاتها ، أما النساء فاستقبانها بما جرون عليه من فتور . واحتملت هذه الالهات في هدوء ، وأرضت بعض الحاشية بتواضع سلوكها والضحك الرخيم الذى كانت تشرح به صدر الملك . ولم تبد أى ضغينة حتى لأعدائها (باستثناء شوازيل) ، واكتسبت الرضى باستمالة

جلالته لاصدار قرارات عفوا أكثر مما كان يصدر من قبل . وشيئا فشيئا جمعت حولها رجالا ونساء من النبلاء الذين تشفعوا بها عند الملك . وقد حرصت على رعاية أقاربها كما فعلت يومبادور من قبل ، فاشتريت أملاكاً ولقبا لأهمها ، وحصلت على معاشات لحالتها وأبناء حالتها ، ثم دفعت ديون جان دوبارى ، وخلفت عليه مالا كثيرا ، واشترت له فيلا أنيقة في لبل - جوردان . وظفرت لنفسها من الملك بالشاتولوفسين الذى كان أمير لامبال وأميرتها يشغلانه ، على حافة الحديقة الملكية فى مارلى ، واستخدمت أعظم معمارى الجبل ، جاك - انج جابرييل ، ليعيد بناء القصر على هواها ، وصانع الأثاث المدقق بيير جوتير ليزخره بأثاث وتحف فنية باع ثمنها ٧٥٦,٠٠٠ جنيه .

وكانت تعوزها خافية التعليم والاختلاط التى جعلت من يومبادور راعية مختارة ذواقة للأدب والفلسفة والفن . بيد أنها جمعت عددا كبيرا من الكتب الأنيقة التجليد ، من هومر إلى كتب الفحش ، ومن تأملات بسكال الورعة إلى رسوم فراجونار البذيئة . وفى ١٧٧٣ أرسلت تلميحتها وصورتها إلى فولتير مع قبلة على كل وجنة وأجاب بأبيات فيها ذكاء شعره المعهود :

« ماذا ! أقبلتان فى ختام حياتى ! أى جواز تفضلين بأن ترسلينه لى ! قبلتان ! إن واحدة تكفى وزيادة ، أى ليجيريا المعبودة ، لأننى سأموت فرحا فى القبلة الأولى (٧٨) » .

وطلبت إلى لويس الخامس عشر أن يسمح لفولتير بالعودة إلى باريس فرفض ، وكان عليها أن تقنع بشراء تشكيلة من الساعات من فرنيه وفى ١٧٧٨ . حين أتى الاقطاعى العجوز إلى باريس ليموت ، كانت من بين الكثيرين الذين صعدوا سلم بيته فى شارع بون لتقدم له احترامها . وقد فتن بزيارتها ، وختمها بالهوض من فراشة ليصحبها إلى الباب . وفى تزولها التقت بجاك بيير بريسو ، رجل الثورة المستقبل ، وكان يرجو أن يقدم إلى فولتير مخطوطة فى القانون الجنائى ، وحاول الدخول إليه بالأمس ففشل ، وكان يعيد الكرة الآن ، فقادته عودة إلى باب فولتير

وربّت له أن يدخل . وقد استعاد في مذكراته « ابتسامها المفعمة دفئا ولطفاً » (٧٩) .

لقد كانت طيبة القلب سمحة النفس ما فى ذلك ريب . احتملت دون رد عداء الأسرة المالكة ورفض ماري انطوانيت التحدث اليها . وكان شوازيل دون غيره هو الذى لم تستطع الصفع عنه لأنه لم ين عن محاولة طردها من البلاط . وسرعان ما وضح أن واحداً منهما لابد أن يرحل .

٨ - شوازيل

كان سليل أسرة لورينية عريقة ، وأصبح فى مطلع حياته الكونت دستانفيل ، وقد ظفر بالتشريف لبلائه فى حرب الوراثة النمساوية . وفى ١٧٥٠ حين كان فى الحادية والثلاثين استعاد لأسرته ثراءها بزواجه من وراثته غنيه . وسرعان ما ظفر بمكان مرموق فى البلاط بفضل ذنه الوقاد وذكائه المرح ، ولكنه عطل رقيه بمعارضته لبومبادور . وفى ١٧٥٢ نقل ولاءه فاكزسب عرفانها بصنيعه حين أفشى لها سرؤامرة دبرت اطردها . فحصلت له على وظيفة سفير فى روما ثم فيينا . وفى ١٧٥٨ دعى إلى باريس ليحل محل برنيس وزيرا للخارجية ، وبقى دوفا ونبيلا من نبلاء فرنسا . وفى ١٧٦١ نقل وزارته هذه لأخيه سبزار ، ولكنه واصل توجيه السياسة الخارجية ، أما هو فاتخذ لنفسه وزارتي الحرية والبحرية . وتعاظم ساطانه حتى كان يتغلب أحيانا على الملك ويخيفه (٨٠) . وقد أعاد بناء الجيش ، والبحرية ، وقلل من المضاربة والفساد فى المدفوعات الحربية وفى تموين الجيش ، وأعاد النظام إلى صفوف الجيش ، وأحل ذوى الكفايات من غير حملة الألقاب محل حملتها ممن شاخوا فى سلاح الضباط . وطور المستعمرات الفرنسية فى جزر الهند الغربية ، وأضاف كورسيكا إلى ممتلكات التاج الفرنسى ، وتعاطف مع جماعة الفلاسفة ، ودافع عن الموسوعة ، وأيد طرد اليسوعيين (١٧٦٤) وأغضى عن إعادة تنظيم الهيجونوت فى فرنسا . وقد حمى أمن فواتيز فى فرنيه ، وأيد حملته دفاعا عن أسرة كالاس ، وظفر من ديدو بمدبح قال فيه « أى شوازيل العظيم ، انك لتسهر على مقدرات الوطن » (٨١) .

ويمكن القول على الجملة إن سياسته أنقذت فرنسا إلى حد معتدل من الكارثة التي جرّها إليها الحلف النمساوي المنحوس . فخفض الإعانات المالية التي كانت تدفعها عادة إلى السويد ، وسويسرة ، والدنموك ، وبعض الأمراء الألمان . وشجع الجهود التي بذلها شارل الثالث ليدخل أسبانيا إلى حظيرة القرن الثامن عشر ، وحاول أن يعزز قوة فرنسا وأسبانيا بميثاق الأسرة (١٧٦١) الذي أبرمه الملكان البوربونيان . وقد تعثرت الخطة ، ولكن شوازيل فاوض إنجلترا على صلح بشروط تفضل كثيراً ما كان الموقف العسكري يبرره . وقد تنبأ بثورة المستعمرات الإنجليزية في أمريكا ، ودعم مركز فرنسا في سان دومينج والمارتينيك ، وجواديلوب ، وغيانا الفرنسية ، أملا في إرساء سلطان استعماري جديد يعوض فرنسا عن فقد كندا . وقد تبني النابليونان هذه السياسة في ١٨٠٣ و ١٨٦٣ .

ويجب أن نضع مقابل هذه المنجزات إخفاقه في وقف التغلغل الروسي في بولندة وإصراره على قيادة فرنسا وأسبانيا في أعمال عداوية مجددة مع إنجلترا . وكان لويس قد سُم الحرب ، فاستمع بذهن مفتوح لأولئك الذين يعملون على إسقاط شوازيل . وقد فتن الوزير الأريب الكثيرين بمجاملته للبلاط ، واستضافته المسرفة للأصدقاء ، وسعة حيلته وجهاده في خدمة فرنسا ، ولكنه قوى المنافسات فأحاطها عداوات بنقده الصريح وحديثه المستهتر . وأتاحت معارضته لدوباري معارضة لا هوادة فيها لإعدائه سييلا إلى أذن الملك . وأيد ريشيلو — الذي لا يكل — دوباري ، وكان ابن أخيه الدوق ديجيون يتحرق شوقاً للحلول محل شوازيل رئيساً للحكومة . ونزلت الأسرة المالكة التي أنكرت نشاط شوازيل ضد الشيوعيين إلى استعمال الخليفة المزدرة أداة لعزل الوزير العديم التقوى .

وطلب إليه لويس غير مرة أن يتجنب الحرب مع إنجلترا ومع دوباري . ولكن شوازيل واصل الإثمار على الحرب خفية ، وازدراء الخليفة جهزاً . وأخيراً استجمعت كل قواها ضده وفي ٢٤ ديسمبر ١٧٧٠ أرسل الملك المغيظ رسالة مقتضبة إلى شوازيل جاء فيها « يا ابن عمي ، إن عدم رضائي

عن خدماتك يضطرنى إلى نفيتك إلى شانتلوب حيث يتعين عليك أن ترحل في ظرف أربع وعشرين ساعة . « وتحدى أكثر الحاشية غيظ الملك بالإعراب عن عطفهم على الوزير المقاتل بعد أن صدمهم هذا الطرد الفجائى لرجل أدى لفرنسا خدمات جليلة . وركب نبلاء كثيرون إلى شانتلوب ليواسوا شوازيل في منفاه . وكان منى مريحا لأن ضيعة الدوق كانت تحوى قصرا من أبدع القصور ، وحدائق خاصة من أرحب الحدائق في فرنسا ، ثم إنه كان يقع في تورين غير بعيد من باريس . هنالك عاش شوازيل حياة الأبهة والأناقة ، لأن دو بارى أقنعت الملك بأن يرسل إليه ٣٠٠,٠٠٠ جنيه فوراً وتعهداً بستين ألفاً كل عام . وحزن بجماعة الفلاسفة بسقوطه ، وبكى الطاعمون على مائدة دولباخ قائلين : « لقد ضاع كل شيء » وقال ديدرو في وصفهم أنهم غرقوا في دموعهم .

٩ - تمرد البرلمانات

جاءت بعد شوازيل « حكومة ثلاثية » كان ديجيون وزير الخارجية فيها ورينيه نيكولا دمويو مستشارا ، والأبييه جوزيف مارى تريه مراقباً مالياً . وأعطى تريه لدوبارى كل ماطلبته من مال ، ولكنه فيما عدا ذلك خفض المصروفات تخفيضاً بطولياً . فأوقف استهلاك الديون ، وخفض نسبة الفائدة على الديون الحكومية ، ووضع الجديد من الضرائب ، والفروض ، والرسوم وضاعف الرسم الحكومى على النقل الداخلى . وبلغت جملة ملوفره ٣٦,٠٠٠,٠٠٠ جنيه ، وأضاف ١٥,٠٠٠,٠٠٠ إلى الدخل . والواقع أنه إنما أجل الانهيار المالى بتفليسة مؤقتة ولكن الكثيرين عانوا من تخلف الحكومة في إيفاء ديونها ، وضموا أصواتهم لأصوات السخط الذى لم يهدأ . وما لبث العجز أن عاد إلى التفاقم حتى بلغ ٤٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه في آخر سنوات الحكم (١٧٧٤) . وكان هذا الذى يبدو اليوم دينا أهاليا متواضعا لأمة تتمتع بالاستقرار المالى مبررا إضافيا لقلق أولئك الذين أقرضوا الحكومة مالا ، والذين سمعوا الآن ، بعداء أهل الصيحات المتصاعدة بطلب التغيير .

وكانت أزمة الذروة في العقد الأخير من حكم اويس الخامس عشر دى

كفاح وزرائه للحفاظ على ساطة الملك المطلقة ضد تمرد البرلمانات . وهذه البرلمانات (كما رأينا) لم تكن هيئات نيابية أو تشريعية كالبرلمان البريطاني بل غزفاً قضائيه تقوم بعمل محاكم الاستئناف في ثلاث عشرة مدينة فرنسية . زد على ذلك أنها إدعت - كما إدعى البرلمان الإنجليزي ضد تشارلز الأول - بأنها تدافع عن « القانون الأساسي » أو التقاليد المقررة لأقاليمهم ضد الاستبدادية الملكية ، وإذ كان الوصى فليب دورليان قد أكد حقهم في « الاعتراض » أو الاحتجاج على المراسم الملكية أو الوزارية ، فإنهم تقدموا خطوة أخرى فطالبوا بالألا يصبح أى مرسوم من هذه المراسم قانوناً ما لم يوافقوا عليه ويسجلوه .

ولو كانت هذه البرلمانات قد إنتخبها الشعب ، أو إنتخبها أقلية متعلمة مالكة (كما في بريطانيا) لكان ممكناً أن تكون أداة أنتقال إلى الديمقراطية ، ولقد كانت إلى حد ما رقيقاً صحياً على الحكومه المركزيه . ومن ثم فإن الشعب بصفة عامة أيدها في كفاحها ضد الملك . على أنها كانت من أشد القوى محافظة في فرنسا ، لأن أعضاءها كلهم تقريباً كانوا من أثرياء المحامين . وأصبح هؤلاء المحامون ، بوصفهم « نبلاء الرداء » منخلقين بانغلاق نبلاء السيف ، « وقرر البرلمان تلو البرلمان قصر المناصب الجديدة التي تحمل النبالة . . . على الأسر النبيلة فعلاً »^(٨٣) . وكان برلمان باريس أكثرها غلوا في المحافظة ، وباري الأكليروس في معارضة حرية الفكر أو النشر ؛ وحرم كتب جماعة الفلاسفه بل احرقها أحيانا . وكان قد إنحاز إلى الجانسنية التي إدخلت لاهوتا كلفنيا في الكنيسة الكاثوليكية . وقد لاحظ فولتيران برلمان تولوز الجانسنى عذب وقتل جان كالاس ، وإن برلمان باريس صدق على إعدام لا بار ، في حين نقضت وزارة شوازيل الحكم على كالاس وحمى الموسوعين .

وزاد كرسstof دهبومون ، رئيس أساقفة باريس ، الصراع حدة بين الجانسنين والكاثوليك التقليديين إذ أصدر أمره إلى الكهنه الخاصين له بالألا يناولوا القربان إلا للأشخاص الذين إعتفروا على يدكاهن غير جانسنى .

ومنع برلمان باريس الكهنة من إطاعة هذا الأمر مؤيذا من أكرية الشعب ، وأتهم رئيس الأساقفة بأنه يثير إنشقاقا في الكنيسة ، وأستولى على بعض أملاكه غير الكنسية . وأعتبر مجلس الدولة الملكي هذا الإجراء مصادره غير قانونية ، وأمر البرلمان بالأنسحاب من الخلافات الدينية . فأبى ، لابل وضع « اعتراضات كبرى » (٤ مايو ١٧٥٣) كانت إلى حد ما إرهابا بالثورة : فقد قال الأعضاء أنهم يعلنون ولاهم للملك ولكن « إذا كانت الرعية تدين بالطاعة للملوك ، فإن هؤلاء يدينون بالطاعة للقوانين ^(٨٤) » . والمعنى الذى تضمنه هذا القول هو أن البرلمان بوصفه حارسا للقانون ومفسرا له ، سيقوم بوظيفة المحكمة العليا فوق الملك . وفى ٩ مايو أصدر مجلس الدولة أوامر ملكية مخنوقة بنفى معظم أعضاء برلمان باريس من العاصمة . وهبت برلمانات الأقاليم وأهل باريس المناصرة المنفيين . ولاحظ المريكز دارجنسون فى ديسمبر أن « الباريسيين فى حالة إنفعال مكظوم ^(٨٥) » . وأمرت الحكومة جنودها بخفر الشوارع وحماية بيت رئيس الأساقفة لخشيته من فتنة شعبية . وفى مارس ١٧٥٤ كتب دارجنسون يقول « كل الاستعدادات تجري لحرب أهلية ^(٨٦) » . ووضع الكردينال دلا روشفوكوخلا وسطا يتقذ ماء الوجه : فطلبت الحكومة إلى المنفيين أن يعودوا (٧ سبتمبر) ، ولكنها أوت البرلمان والأكليروس أن يكفيا عن النزاع . ولكن احدا لم يطع الأمر ، وواصل رئيس أساقفة باريس حملته على الجانسية . وواصلها بعنف حمل لويس على نفقه إلى كونفلانس (٣ ديسمبر) : وأعلن البرلمان أن المرسوم البابوى الصادر ضد الجانسينيين ليس قانونا من قوانين الإيمان ، وأمر الكهنة بتجاهله . وتذبذبت الحكومة ، وأخيرا أمرت البرلمان بقبول المرسوم البابوى (١٣ ديسمبر ١٧٥٦) نظراً لحاجتها إلى سلفة من الأكليروس تعيينها على خوض حرب السنين السبع .

وأدار الجدل العنيف رؤوسا كثيرة . وفى ٥ يناير ١٧٥٧ هاجم روير - فرنسوا داميان الملك فى أحد شوارع فرساي ، وطعنه بمطواة كبيرة ،

ثم لزم مكانه ينتظر القبض عليه . وقال لويس لحراسه المهملين « تحفظوا عليه ولكن لا يؤذه أحد^(٨٧) » . واتضح أن الجرح غير ذى بال ، وقال المهاجم « لم يكن فى نيتى قتل الملك ، ولو شئت لقتلته . إنما فعلت ما فعلت لئيمس الله قلب الملك ويؤثر فيه ليعيد الأمور إلى سيرتها الأولى^(٨٨) » . وفى رسالة أرسلها من سجنه إلى الملك أعاد القول بأن « رئيس أساقفة باريس هو سبب كل هذه الضجة حول الأسرار المقدسة ، لأنه أمسكها عن يريد تناولها^(٨٩) » . وقال إنه قد أثاره ما سمعه فى البرلمان من خطاب ، « ولواننى لم أدخل قط دارا للعدالة . . . لما وصلت إلى هذا المكان قط^(٩٠) » . وقد حاجته هذه الخطب هياجا حملا على أن يرسل فى طلب طبيب ليقصده ، ولكن لم يأتى طبيب . و « أنه قصد (كما قال) لما هاجم الملك^(٩١) » . وحاكمته غرفة البرلمان الكبرى ، وأدانته ، وحكمت عليه ، ثم حكمت على أبيه ، وأمه ، وأخته ، بالنفى المؤبد . وعانى داميان الوان العذيب التى نص عليها القانون عقابا لقتلة الملوك : فزق لحمه بكماشات مخمية ، ورش عليه الرصاص المغلى ، ومزقت أوصاله جياذ أربعة (٢٨ مارس ١٧٥٧) . ودفعت نبيلات النساء المسال نظير تمكينهن من مشاهدة هذه العملية من مواقع مواتية . أما الملك فاعرب عن اشمزازه من ضروب التعذيب هذه وأرسل المعاشات للأسرة المنفية .

وأسفر العدوان عن بعض العطف على الملك ، فشارك اليهود والبروتستنت فى الصلاة من أجل سرعة شفائه ، ولكن حين علم الناس أن الجرح لم يكن أكثر من « شكة دبوس » فى عبارة فولتير (pique d'épingle) ارتد تيار التأييد الشعبي إلى ناحية البرلمان . وبدأ الناس ينافسون فى موضوع الحكومة النيابية وما يقابلها من الملكية المطلقة . كتب دارجنسون يقول « إنهم يرون فى هذه البرلمانات علاجا للأوصاب التى يعانون منها . . . أن الثور تضطرم تحت الرماد » . وفى يونيو ١٧٦٣ عاد برلمان باريس يؤكد أن « مراجعه البرلمان للقوانين هى أحد القوانين التى لا يمكن انتهاكها دون انتهاك لذلك القانون الذى أوجد الملوك انفسهم^(٩٢) » . ومضى برلمان تولوز شوطا أبعد ، فأعلن أن القانون يقتضى « رضاء الأمة الحر الطليق^(٩٣) »

ولكنه غنى بلفظ « الأمة » في البرلمانات . وفي ٢٣ يوليو ١٧٦٣ قدمت هيئة قضائية هامة تدعى محكمة المعوقات يرأسها مالزيرب الشجاع الأمين إلى الملك تقريراً عن فقر الشعب وعن العجز والفساد في إدارة مالية الدولة ، ورجته الهيئة « أن يصغى للشعب نفسه عن طريق مندوبيه في اجتماع لمجلس طبقات المملكة^(٩٤) » . وهذه أول مطالبة صريحة بمجلس الشعب الذي لم يدع منذ ١٦١٤ .

وفي الصراع الخطر الذي تمخض عن طرد اليسوعيين من فرنسا (١٧٦٤)^(٩٥) . اتخذ برلمان باريس موقف الهجوم وفرض رأيه على الملك . وفي يونيو ونوفمبر أرسل برلمان رين ، وهو دار القضاء العالي بريتني ، إلى لويس اعتراضات شديدة اللهجة على الضرائب التي فرضها الدوق ديجبون الذي كان آنذاك حاكماً على الإقليم . فلما لم يتلق جواباً يرضيه أوقف جلساته ، واستقال معظم أعضائه (مايو ١٧٦٥) ، ونشر نائبه العام ، لوى رينيه دلاشالوتييه ، هجوماً على الحكومة المركزية فقبض عليه وعلى ابنه وثلاثة مستشارين وأتهموا بالتحريض على الفتنة . وأمر الملك برلمان رين بمحاكمتهم . فرفض ، وأيدت الرفض جميع برلمانات فرنسا يظاهرها في ذلك الرأي العام . وفي ٣ مارس ١٧٦٦ ظهر لويس أمام برلمان باريس وحلده من الإغضاء عن الفتنة . وأعلن تصميمه على الحكم ماسكاً مطاق السلطان .

« في شخصي وحدي تستقر سلطة السيادة ، ولي وحدي السلطة التشريعية غير مشروطة ولا مجزأة . وكل النظام العام ينبثق مني . وشعبي وأنا واحد ، وحقوق الأمة ومصالحها ، الأمة التي يمرؤ البعض على جعلها هيئة منفصلة عن الملك ، هي بالضرورة متحدة . مع حقوق ومصالحى ، مستقره في يدي دون غيري^(٩٦) » .

وأضاف أن الإيمان التي أقسمها لم يقسمها للأمة ، كما أكد البرلمان ، بل لله وحده . وواصل برلمان باريس دفاعه عن برلمان رين ، ولكنه في ٢٠ مارس قبل النظرية التالية رسمياً ، بإعتبارها « مبادئ أساسية

لا مناص منها » وهى « أن السيادة للملك وحده ، ولا يسأل إلا أمام الله ... والسلطة التشريعية مستقره كلها فى شخص الملك »^(٩٧) . وحث شوازيل وغيره الملك على بذل تنازلات متجاوبة فأفرج عن لاشالويته وزملائه المسجونين ، ولكنهم نفوا إلى سانت قرب لا روشيل . ودعى ديجيون من بريتنى ، وأنضم إلى اعداء شوازيل . واستأنف برلمان رين جلساته (يوليو ١٧٦٩) .

ودخل فولتير الصراع باصداره « تاريخ برلمان باريس بقلم الأبييه بج » عام ١٧٦٩ . وقد أنكر أنه مؤلف الكتاب ، وكتب خطابا ينقده لأنه آية فى الأغلاط والسخف ، وجريمة ضد اللغة^(٩٨) . ومع ذلك فالكتاب بقلمه . ومع أنه كتبه على عجل فقد دل على ما بذل فيه من بحث تاريخى لا يستهان به . غير أن النزاهة تعوزه ، فهو اتهام طويل للبرلمان باعتباره مؤسسة رجعية قاومت فى كل مناسبة التدابير التقدمية - كانشاء الأكاديمية الفرنسية ، والتطعيم ضد الجدري ، والأدارة الحرة للقضاء . وأتهم فولتير البرلمانات بالتشريع الطبقي ، والخرافة ، والتعصب الدينى . فلقد أدانت أقدم الطابعين فى فرنسا : وهلت للمذبة يوم القديس برتلميو ، وحكمت بحرق المرشال دانكر كما تحرق الساحرات . وقال فولتير أنها إنشئت لوظائف قضائية بحتة ، وليس لها سلطة التشريع ، ولولا اتخذت هذه السلطة لأحلت محل أوتقراطية الملك أو ليجاركية المحامين الأغنياء المتحصنه ضد أى رقابة شعبية . وكان فولتير قد كتب هذه المذكرة المسهبة خلال سطوة شوازيل الذى شجعت ميوله اللبرالية الاعتقاد بأن التقدم ميسور أشد ما يكون يسرا على يد وزير مستنير فى ظل ملك مستنير . أما ديدرو فلم يوافق فولتير ، وقال أن البرلمانات مهما كانت رجعية النزعة فإن مطالبتها بحقوق الاشراف على التشريع ضابط مرغوب فيه على الاستبداد الملكى^(٩٩) .

وجاءت عودة ديجيون إلى باريس بأزمة جديدة . فقد اتهم برلمان رين الدوق بارتكاب عمل محظور ، وإذعن لحاكمة برلمان باريس له على هذه

التم ، فلما وضح أن الحكم سيصدر بأنه مذنب لجأت مدام دوبارى إلى الملك ليتدخل . وأيدها في ذلك المستشار موبو ، وفي ٢٧ يوليو ١٧٧٠ أعلن لويس أن الجلسات تفشى أسراراً للدولة . وعلى ذلك يجب إنهاؤها ثم ألغى شكاوى الفريقين المتبادلة ، وأعلن براءة كل من ديجون ولاشالوتيه ، وأمر جميع أطراف النزاع بالكف عن إثارة الشعور العام . وتحدى البرلمان هذه الأوامر باعتبارها تدخلا تعسفيا في سير العدالة المشروع ، وأعلن أن الشهادة أضرت ضررا بليغا بشرف ديجون ، وأوصى بوقفه عن ممارسة جميع وظائفه بصفته نبيلًا حتى تثبت براءته بالطريقة القانونية الواجبة . وفي ٦ سبتمبر أصدر البرلمان قرارا arrêté كان فيه اختبار بقوة الملك :

« أن تعدد أعمال ساطة مطلقة تمارس في كل مكان ضد روح ونص القوانين التأسيسية للملكية هو برهان دامغ : على أن هناك نية مبيتة لتغيير شكل الحكومة ، ولأحلال الأعمال الشاذة لسلطة تعسفية محل سلطان القوانين المتبادل على الدوام^(١٠٠) » .

ثم أجل البرلمان جلساته حتى ٣ ديسمبر .

واستغل موبو هذه المهانة ليعاد دفاعا متصلبا عن السلطة الملكية . ففي ٢٧ نوفمبر أصدر بتوقيع الملك مرسوما سلم بحق الاعتراض ولكنه حرم أى رفض لمرسوم يحدد بعد سماع الاعتراضات . ورد البرلمان بأن التمس من الملك أن يسلم مشيرى العرش الأشرار لانتقام القوانين^(١٠١) . وفي ٧ ديسمبر دعا لويس البرلمان إلى فرساي ، وفي جلسة رسمية لـ (سرير العدالة) أمر الأعضاء بأن يوافقوا على مرسوم ٢٧ نوفمبر ويسجلوه . فلما عاد القضاة إلى باريس قرروا الكف عن أداء جميع وظائف البرلمان حتى يسحب مرسوم نوفمبر . وأمرهم لويس باستئناف جلساتهم . فتجاهلوا الأمر . وحاول شوازيل لإقرار السلام في ربوع الوطن لحوض حرب انجح خارجه . فأقاله لويس ، وهيمن موبو الآن على مجلس الدولة بينما راحت دوبارى تحوم حول الملك ، وأرته لوحة فاندليك التي رسمها لتشارلر

الأول ملك انجلترا ؛ وحذرت من معير كصيره قائلة « إن برلمانك أيضا سيضرب عنقك (١٠٢) » .

وفي ٣ يناير ١٧٧١ أمر لويس ثانية بقبول مرسوم نوفمبر . ورد البرلمان بأن المرسوم يذهب قوانين فرنسا الأساسية . وفي ٢٠ يناير فيما بين الساعة الواحدة والرابعة صباحاً سلم جنود الملك المسلحون لكل قاض « إرادة ملكية » تخيره بين الطاعة أو النفي من باريس . وأكدت الكثرة الساحقة حبهم للملك ، ولكنهم ظلوا على عنادهم . وعليه ففي اليومين التاليين نفي ١٦٥ عضواً في برلمان بايس إلى أنحاء شتى في فرنسا . وهتف الشعب لهم وهم يرحلون قصر العدالة .

وتحرك الآن موبو ليحل منظمة قضائية جديدة محل البرلمانات . فأنشأ في باريس بمرسوم ملكي محكمة عليا تتألف من مجلس الدولة وبعض الفقهاء اللينيين ؛ وأنشأ في آراس ، وبلوا ، وشالون ؛ وكلمون - فران ، وليون وبواتيه ، « مجالس عليا » لتكون محاكم استئناف للأقاليم . وأصلحت بعض المفاسد القضائية ، وأوقف بيع الوظائف ، وتقرر أن يكون التقاضي من الآن بالبحان . وهلل فولتير للإصلاح ، وتنبأ في تهور « إنني واثق تمام الثقة أن المستشار سيمحقق نصراً كاملاً ، وأن الشعب سيعجب هذا الانتصار » (١٠٣) . ولكن الشعب لم يستطع أن يتقبل في رضى هدم مؤسسة عريقة القدم كالبرلمانات فما من شيء يكثر الناس من إدانته ويعمق حبهم له كالماضي . واحتقرت معظم الجماهير المحاكم الجديدة لأنها أدوات إضافية تستعين بها الأوتقراطية الملكية . وحزن ديدرو على نهاية البرلمانات وإن لم يكن مخدوعاً فيها ، فقال إن ذلك « خاتمة الحكم الدستوري » . ففي لحظة واحدة قفزنا من الحالة الملكية إلى أشد حالات الاستبداد (١٠٤) . وأعرب أحد عشر نبيلاً من نبلاء المملكة ، بل بعض أعضاء الأسرة المالكة ، عن عدم موافقتهم على المحاولة التي يبذلها موبو لاستبدال البرلمانات . ولم ينشب بين الشعب هياج واضح ، ولكن كلمات الحرية ، والقوانين ، والشرعية ، التي ترددت كثيراً في البرلمان مؤخراً أخذت تتداولها الألسن . واصطبغت الهجائيات الموجهة للملك الفاسق بعصر جديد من الجرأة والمرارة ، ودعت الملمصقات الدوق أورليان لتزعم الثورة .

وتورطت البرلمانات كارهة تقريبا ، وبرغم نزعتها المحافظة ، في خميرة من الأفكار الثورية . وكان مقالا روسو ، وشيوعية موريلى ، ومقترحات مابلى والاجتماعات السرية لجماعة الماسون الأحرار ، وفضيح الموسوعة للمفاسد المتفشية في الحكومة والكنيسة ، وسيل النشرات المتدولة في أرجاء العاصمة والآلام — كلها كانت تعارض معارضة عنيفة دعوى السلطة المطلقة والحق الإلهي التي يدعيها ملك خامل عرييد. وهكذا أخذ رأى العام (M.Tout le monde) يتحرك بوصفه قوة في التاريخ .

كان أثقل النقد إلى عام ١٧٥٠ يقع على الكنيسة ، ولكنه بعد ذلك راح يقع بازدياد على الدولة بعد أن حفزه حظر الموسوعة . كتب هوراس ولبول من باريس في أكتوبر ١٧٦٥ :

« لم يعد للضحك سوق هنا .. باللقوم الطيبين ، إن وقتهم لا يتسع للضحك ، فواجبهم الأول هو هدم الله والملك ؛ ويشارك الرجال والنساء ، والعظماء والحقراء في هذا الهدم من كل قلوبهم .. أتعلم من هم «الفلاسفة» أو ما مدلول اللفظ هنا؟ أولا هو يشمل كل إنسان ، ثانياً يعنى الرجال الذين يهدف الكثيرون منهم ، بعد أن أقسموا على خوض الحرب على الملكية ، إلى هدم الدين كله وأكثر من هؤلاء إلى القضاء على سلطة الملك » (١٠٥) .

وفي هذا الحكم مغالاة بالطبع ، فعظم جماعة الفلاسفة (باستثناء ديدرو على الأخص) كانوا أنصارا للملكية يتجنبون الثورة . هاجموا النبلاء وكل الامتيازات الوراثية ؛ وانتقدوا عشرات المفاسد وطالبوا بإصلاحها ؛ ولكنهم كانوا يرتعدون فرقا من فكرة إعطاء السلطة كلها للشعب (١٠٦) . ومع ذلك كتب جريم في « رسائله » في يناير ١٧٦٨ يقول :

« إن السأم العام من المسيحية ، الذي يتضح في جميع الأرجاء ، لاسيا في الدول الكاثوليكية ، والقلق الذي يهيج عقول الناس بشكل غامض ويدفعهم إلى مهاجمة المفاسد الدينية والسياسية — كل هذا ظاهرة يتسم بها قرننا ، كما اتسم القرن السادس عشر بروح الإصلاح ، وهو ينذر بثورة داهمة لا مفر منها » (١٠٧) .

١٠ - رحيل الملك

لم يؤت لويس الخامس عشر كما لم يؤت من قبله لويس الرابع عشر ،
فن الموت في الوقت المناسب . لقد كان عليا بأن فرنسا تترقب زواله ، ولكنه
لم يطق التفكير في الموت . كتب السفير النمساوي « أن الملك يبدي الملاحظات
بين الحين والحين عن سنه ، وصحته والحساب العسير الذي لابد أن يقدمه يوما ما
للخالق الأعظم »^(١٠٨) . وقد يتأثر لويس تأثراً عابراً باعتكاف ابنته لويز -
ماري في دير كرملي تكفيراً عن ذنوب أبيها فيما زعموا ؛ وقيل إنها كانت تدعك
أرض الحجرات وتغسل الملابس . فلما ذهب لزيارتها وبخته على عيشته
وتوسلت إليه أن يطرد دي باري ويتزوج الأميرة دلامبال ويصلح مافسد بينه
وبين الله .

وقد مات عدة أصدقاء له في أخريات عهده ، وقع اثنان منهم
صريعين تحت قدميه بهبوط في القلب^(١٠٩) . ومع ذلك بدا أنه يجد لذة رهية
في تذكير الشيوخ من حاشيته بقرب موتهم . قال مرة لأحد قواده .
« انك تشيخ يا سوفريه ، فأين تريد أن تدفن ؟ » فأجاب سوفريه « عند
قدمي جلالتك يا مولاي » . وقيل أن هذا الجواب « جعل الملك واجماً كثير
التفكير »^(١١٠) . وقالت مدام دؤوسيه أنه « لم يخلق رجل أكثر منه
اكثاباً وغماً »^(١١١) .

وكان موت الملك انتقاماً طال انتظاره ، انتقمه على غير عمد جنس
النساء الذي هام به وحط من كرامته ، فحين لم تكف حتى دوباري لأشباع
شهوته ، جاء إلى فراشه بفتاه يبلغ من حداتها أنها لم تكف تبليغ سن الزواج .
وكانت تحمل جراثيم الجدري ، فنقلت عدواه إلى الملك . وفي ٢٩ إبريل
١٧٧٤ بدأ هذا المرض يهاجمه . وأصرت بناته الثلاث على ملازمته وتمريضه
مع أنهن لم يسبق لهن التحصين ضد الجدري (وقد أصبن بالمرض جميعهن
ولكنهن شفين) وكن يتركنه في الليل فتحل دوباري محلهن . غير أن الملك
صرفها برفق حين رغب في تناول الأسرار المقدسة في • مايو قائلًا :
« أعلم الآن أنني مريض مرضاً خطيراً . أن فضيحة متزيج ألا تتكرر .

أنى أدين بنفسى لله ولشعبى . وإذن يجب أن نفترق . فاذهبى إلى قصر
الدوق ديجيون الرينى فى روبيل وانتظرى أوامر جديدة . وصدقينى إننى
سأظل على الدوام أحتفظ لك بشعور المحبة العميقة (١١٢) .

وفى ٧ مايو صرح الملك فى حفل رسمى أمام البلاط بأنه نادى على
مافرط منه من فضائح أمام رعاياه ، ولكنه أصر على أنه لا يدين بأى مؤخذة
عن سلوكه إلا لله وحده (١١٣) . وأخيراً رحب بالموت . فقال لإبنته لم أشعر
فى حياتى بمثل هذه السعادة (١١٤) . ولفظ أنفاسه فى ١٠ مايو ١٧٧٤ وهو
فى الزابعة والستين ، بعد أن حكم تسعة وخمسين عاماً . وحمل جثمانه الذى
لوث الهواء على عجل إلى المدافن الملكية فى سان دنيس دون أمه وسط
تهكم الجميع الذى اصطف على الطريق . واغتبطت فرنسا مرة أخرى بموت
ملكها كما اغتبطت من قبل عام ١٧١٥ .

الفصل الرابع

فن الحياة

١ - الفضيلة والكياسة

يقول تاليران « لا يعرف لذة العيش من لم يعيش حوالى سنة ١٧٨٠ »^{*}
بالطبع شريطة أن يكون من أبناء الطبقات العليا ، وأن تكون مجرداً
من أى ميول للفضيلة .

وتعريف الفضيلة صعب ، فكل عصر يكيف تعريفه وفق طبعه
وآفامه . وقد ظل الفرنسيون القرون الطوال يحققون من وطأة الاقتصاد
على الزوجة الواحدة بالزنا ، كما تخفف منها أمريكا اليوم بالطلاق . والرأى
الغالى (الفرنسي) يجد الزنا المعتدل أقل إضراراً بالأسرة — أو بالأبناء على
الأهل من الطلاق . على أية حال ازدهر الزنا فى فرنسة القرن الثامن عشر ،
وكان الناس يغضون عنه عموماً . وآية ذلك أن ديدرو حين أراد فى موسوعته
أن يفرق بين « الارتباط » و « التعلق » ضرب هذا المثال : « أن الرجل يرتبط
بزوجته ، ولكنه يتعلق بخليته . »^(٢) ويقول معاصر لذلك الجيل « ان خمسة
عشر نبيلاً من بين الشريرين الذين تراهم فى البلاط يعاشرون نساء لم
يتزوجوهن^(٣) . وكان الظفر بخيلة أمراً لاغنى عنه للمركز الاجتماعى كحيازة
المال سواء بسواء . أما الحب فكان شهوانياً فى غير موارد : صورته
بوشيه فى صورة وردية ، وخلع عليه فراجونار الأناقة والرشاقة ، أما
بوفون فقال فى صراحة وحشية « ليس فى الحب شئ طيب إلا الجسد »^(٤) .

* وردت هذه الملاحظة الشهيرة فى « موسوعة الأقوال المأثورة » لمصنفها ب . دوبريه
(باريس ١٩٥٩) ، ١ ، ٦٣٥ ، نقلها عن « مذكرات لتاريخ مصرى » بقلم فر . جيزو
(باريس ١٨٥٨ - ٦٨) ، ١ ، ٦ . (١)

(م ١١ - قصة الحضارة ج ٢٩)

على أن الحب الأنبل كان يظهر هنا وهناك . حتى في « كريبيون » الابن^(٥) ، ومن جماعة الفلاسفة جرثو هلفتيوس على الهيام بزواجه ، وظل دالامير وفيما لحولى دليسيناس طوال تنويعات لحنها الذى أمتعها . وقد اضطلع جان جاك روسو فى هذا الحيل باصلاح للاخلاق يدعو إليه رجل واحد . وهل نشيد كذلك بفضل روايات صموئيل رتشر دسن ؟ وتحلت بعض النساء بالفضيلة على سبيل الموضة^(٦) fashion ، ولكن بعضهم تقبلن فى عرفان دعوة بعثت من مرقدتها ، دعوة العفة قبل الزواج ، والوفاء بعده ، منقذة لمن من هوان استخدامهن معابر اكل زير نساء ، على أية حال لم يعد الاختصار على الزوجة الواحدة شارة تحجل حاملها . فقد اكتشف الفاسقون من جديد بعد أن تزوجوا مباهج قديمة فى الحياة الأسرية ، وأنه خير للرجل أن يسهر أغوار الوحدة . من أن يظل طوال حياته يعذب بسطح التعسّد والتنوع . واستقرت نسوة كثيرات بدأت حياتهن بنزق وطيش كأنهن سطوح لاعق فيها — حين أنجن — وأرضعن بعضهن أطفالهن حتى قبل أن يحمن على ذلك روسو ، وكثيرا ما كان هؤلاء الأطفال يردون هذا الصنيع بعد أن ترعرعوا فى ظل محبة الأم ، باهتمام البنين بوالديهم . ومن أمثلة ذلك أن المارشالة دلكسمبورج أصبحت زوجة مثالية بعد شبابها المغامر ، وأخلصت أزوجها وهى ترعى روسو فى حنان كأنها أمه . وحين مات الكونت دموريا (١٧٨١) بعد أن خدم لويس الخامس عشر والسادس عشر وعانى آلام النفي الطويل فيما بين فترتي وزارته ، ذكرت زوجته أنهما « انفقا معاً خمسين عاما دون أن يفترقا يوما واحدا »^(٧) ونحن نسمع الكثير جدا ... والمؤلفان قد تكلمنا كثيرا جدا عن النساء اللاتي أفلحن فى دخول التاريخ بفضل حنن بهود الزواج ، ولا نسمع إلا القليل جدا عن أولئك النسوة اللاتي امتنعن عن الحيانة حتى ولو خائهن رجالهن . مثال ذلك أن الأنسة كروزا . التى خطبت وهى فى الثانية عشرة للرجل الذى أصبح فيما بعد الدوق دشوازيل . احتملت فى صبر هيامه بأخته الطموح ، ورافقتة فى منفاه : فاشساد بتداسيتها حتى ولبول « المرقع » . ولم تفر محبة الدوقة درشليو لزوجها طول خياناته الزوجية ، وكانت شاكرة لأن القدر سمح لها بأن تموت بين ذراعيه^(٨) .

وظلت الانحرافات ، والمطبوعات الفاجرة ، والبغاء على ما عهدنا . كان القانون الفرنسي ينص على الإعدام عقابا للواط : وحدث فعلا أن لوطين احرقا في ميدان جريف عام ١٧٥٠^(٩) . ولكن القانون كان عادة يتجاهل اللواط الاختياري بين البالغين^(١٠) . وكانت الأخلاق الاقتصادية على حالها اليوم ، وليلاحظ القارئ الفقرة الواردة في كتاب روسو « إميل »^(١١) . (١٧٦٢) عن غش الطعام والحمور . وكانت الأخلاق السياسية على حالها اليوم ، كان هناك الكثيرون من خدام الشعب المخلصين (مازيرب ، وطورجو ، ونكير) ، ولكن كثيرون أيضا ممن وصلوا إلى مناصبهم بالمال أوالاتصالات ، وأثروا في المنصب متجاوزين في ذلك نص القانون وعاش كثير من النبلاء العاطلين عيشة الترف على دماء فلاحيهم ، ولكن بر الحكومة والأفراد بالناس كان كثيرا .

وكان فرنسيو القرن الثامن عشر في جملتهم شعبا لطيفا رغم ناموس من الاخلاق الجنسية أنهلك المعايير المسيحية بصراحة . فانظر كم من الناس خفوا لنجدة روسو وتعزيزته رغم صعوبة إدخال البهجة على نفسه ؛ وكثيرا ما كان هؤلاء القوم الكرام ينتمون إلى الطبقة الاستقرائية التي سبها . وكانت الشهامة قد اضمحلت في علاقة الرجل بالنساء ، ولكنها ظلت حية في معاملة الضباط الفرنسيين لأسرى الحرب الذين من طبقتهم . كتب سموليت الخضم الزرق في رحلة له بفرنسا عام ١٧٦٤ يقول : « أتى أخص الضباط الفرنسيين بالاحترام لشهائهم وبسالتهم : لاسما للروح الإنسانية السمحة التي يعاملون بها أعداءهم . حتى وسط أهوال الحرب^(١٢) » . وقد صور جويا قسوة الجنود الفرنسيين على العامة الأسبان في حروب نابليون ، ولكنه كان في أغلب الظن مبالغا . وما من شك في أن الفرنسيين كانوا يستطيعون أن يكونوا غابة في القسوة . ربما لأنهم تعلموا القسوة من الحرب وقانون العقوبات . كانوا صخابين يميلون للمشاجرت على نحو ما يفعل طلاب الكليات الذين يهاجمون خصومهم بالمدى . وللمشاجبات في الشوارع بديلا عن الإنتخابات . فيهم عنف ونهور . يندفعون إلى الخير أو الشر دون أن يضيعوا وقتا في التروي . وفيهم شوفينية (غلو في الوطنيه) لا يستطيعون أن يفقهوا لم كان سائر

البشر من الهمجية بحيث يتحدثون بلغة غير الفرنسية . وقد أبت مدام دنيس أن تتعلم الكلمة الإنجليزية « الحبز » — لم لا يستطيعون كلهم أن يقولوا pain ؟ ^(١٣) ولعلمهم أحبوا مجد وطنهم أكثر مما أحبه أى شعب آخر . وعما قليل سيموتون بالألوف المؤلفة وهم يهتفون « يحى الأمبراطور » .

وقد بز الفرنسيون بالطبع غيرهم من الشعوب فى آداب السلوك . صحيح إن تقاليد الأدب التى أرسيت فى عهد لويس الرابع عشر لوئها النفاق ، والكليية ، والسطحية ، ولكنها ظلت فى جوهرها حية ، وأضفت على الحياة بين الطبقات المتعلمة كياسة لا قدرة لأى مجتمع أن يضارعها اليوم . قال كازانوف « إن فى الفرنسيين أدبا جما وتلفظا كثيرا يجذب إليهم المرء للتو » ولكنه أضاف أنه لم يستطع قط أن يثق بهم ^(١٤) .

وقد تفرقوا على غيرهم من الشعوب فى النظافة . فأصبحت فى المرأة الفرنسية إحدى الفضائل الأساسية التى تمارسها حتى الموت . وكان من حسن الأدب نظافة الملبس وأناقة . وكان رجال الحاشية ونساؤها يخرجون أحيانا على أصول الذوق السليم بالاسراف فى اللباس الفاخر أو الغلو فى تصفيف شعورهم . وأرسل الرجال شعورهم فى ضفائر ، وهى عادة استهجنها المرشال دساكس لخطرها فى الحرب لأنها تمكن العدو من صاحب الشعر ؛ ثم يبدرون الشعر بنفس العناية التى يبدر بها نساؤهم شعورهن . وغالت النساء فى رفع شعورهن حتى خشين الرقص مخافة أن يلتقطن النار من الثريات . وقد قدر زائر فرنسى أن ذقن إحدى السيدات الفرنسيات يقع تماما فى منتصف المسافة بين قدميها وقمة شعرها ^(١٥) . وجنى الحلاقون الأموال الطائلة بكثرة تغيير موضات الشعر . ولم تمتد النظافة إلى شعر المرأة ، لأن تصفيفه كان يستغرق الساعات . واحتفظت جميع النساء — إلا أشدهن غلوا فى التبرج — بنفس التسريحة أياه دون أن يمسهن مشط . وحملت بعض السيدات مكاشط من العاج ، أو الفضة ، أو الذهب ، يحككن بها روسهن فى رشاقة ساحرة .

وكان ما كياج الوجه اهتماما تعميده اليوم . كتب ليوبولد مونتسارت إلى

زوجته من باريس في ١٧٦٣ يقول . « تسألين هل النساء الباريسيات جميلات . ولكن كيف السبيل إلى معرفة هذا إذا كن موزقات كعرائس نورمبرج ، ممسوخات بهذه الحيلة المنفرة مسخا تعجز معه عينا الألمانى السادج عن التعرف على امرأة ذات جبال طبعى إذا رآها^(١٦) » ؟ وكان النساء يحملن مساحيق الزيد معهن ، ويحلمان بشرتهن من جديد علانية فى غير حياء شأنهن اليوم . وقد حمزت مدام دموناكو وجهها قبل أن تركب 'متقطع الجيولتين' رأسها . وكانت جثث الموتى تحمل ، وتبدر ، وتحمر ، كما فى زماننا . أما ثياب النساء فكانت مزيجا متحديا من الاغراءات والمعوقات : فيه فتحات النحور الرائثة ، والصدارات المخرمة ، والجواهر التى تخطف الأبصار ، والتنانير الكبيرة الفضفاضة . والأخذية المالية الكعوب المصنوعة عادة من التيل أو الحرير . وأنتقد بوفون وروسو وغيرهما لبس المشدات ، ولكنها ظلت ضربة لازب حتى أطاحت بها الثورة .

وكان تنوع الحياة الاجتماعية ومرحها من مفاتن باريس . فكانت مقاهى بروكوب ، ولا ريجانس ، وجرادو ، تستقبل رجال الفكر والثوار ، والأثريا . من الرجال الباحثين عن اللهو . والنساء الباحثات عن الرجال . أما نجوم الأدب ، والموسيقى . والفن . فكانوا يسطعون فى الصالونات . وأبهج أقطاب النبالة أو الروة فرساي وباريس بالمآدب والاسقبالات والمراقص . وكانت الفنون بين عليه القوم تشتمل على الأكل والحديث . فكان المطبخ الفرنسى مثار حسد أوربا . وكان الحديث الفرنسى الذكى الطريف قد بلغ الآن من الصقل مبلغا أستزف فيه كل المواضيع . فقام الضجر على الإشراف ، واضمحل فن الحديث فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر : فرفعت الخطابة من حرارته فوق ما ينبغى ، وسبق المتكلمون السامعين . وأبتذلت النكتة الذكية نتيجة لإسرافها ولدغائها المستهرة . وقد ذكر فولتير - الذى كان هو ذاته قادرا على اللدغ - باريس بأن النكتة إذا خلت من الأياقة كانت الفجاجة بعينها^(١٧) ، وذهب لاشالوتيه إلى أن « الولع بالتظرف . . . أقصى العلم والثقافة الصحيحة عن الصالونات^(١٨) » .

وكان الناس يتمشون الموبنا فى الحدائق العامة ... اتى لقيت النظافة
والنشدب وحفلت بالتماثيل — أو يتبعون أطفالهم أو كلابهم ، والفتيان
الطائشون المرحون يطاردون الصبايا البارعات فى التراجع عديم الحدودى .
وأغلب الظن أن حدائق التويلرى كانت يومها أبدع منها الآن فلنستمع إلى
وصف مدام فيحيه — لوبرون :

« كانت دار الإوبرا قريبة فى تلك الأيام : على حافة الباليه ... روبال .
وكان التمثيل فى الصيف ينتهى فى الثامنة والنصف : فيخرج على القوم
حتى قبل النهاية للتمشى فى أرجاء الحديقة . وراج بين النساء أن يحملن
طاقات زهر كبيرة كانت هى والبودرة المعطرة التى فى شعرهن تملا الجو
عبيراً بكل معنى الكلمة . وأنا أعلم أن هذه الاجتماعات كانت قبل الثورة
تمضى حتى الثانية صباحاً ثم كانت هنالك حفلات موسيقية على ضوء القمر
فى الهواء الطلق وكان يفتشد فى المكان جمع كبير على الدوام (١٩) » .

٢ . الموسيقى

لتخذت فرنسا من الموسيقى جزءاً من « مرحها الباريسى » فهى لم نعباً
بمنافسة ألمانيا فى القداسات والكورالات الحادة . وقد تجاهلت موتسارت
تقريباً حين وفد على باريس ، ولكنها نسيت التعصب لوطنيتها حين افتننت
آذانها بالألحان الإيطالية . وجعلت من موسيقاها « مهرجانات ترفيه » .
وتخصصت فى السوان تناسب الرقص أو تذكره — كالكورانت .
والسربنده . والجيج . والحافوت . والمنويات . وكانت المرأة المحور
الذى تدور حوله الميسيقى كما دارت أخلاقها . وعادتها . وفنونها ،
وكثيراً ما اتخذت أسماء تذكر بصورتها . كالساحرة . والساذجة ، وميمى
وكاربون دستير .

وأحب القوم الأوبرا التهريجية فى فرنسا . كما أحبوا فى إيطاليا .
أكثر من الأوبرا الحادة قبل أن يأتى جلوك (١٧٧٣) . وكانت فرقة سميت
نفسها الأوبرا كوميك قد أستقرت فى باريس عام ١٧١٤ : وفى ١٧٦٢

لتحدت مع فرقة الكوميدي الإيطالية . وفي ١٧٨٠ انتقلت هذه الأوبرا كوميدى الموسعة إلى مقر دائم لها في صالة فافار . أما صاحب الفضل في إزدهارها فهو فرانسوا أندريه فيليدور : الذى جاب أوربا بطلا من أبطال الشطرنج ، وألف خمسا وعشرين أوبرا ، كلها تقريباً هزلية ، مثل « سانشوبانسا » ، « وتوم جونس » ولكن فيها ذوق سليم وفن رفيع . وقد نسبت الآن أوبراته ، ولكن « دفاع فيليدور » « وتراث فيليدور » مازالا يذكرا بوصفهما نقلتين كلاسيكيتين في لعبه الشطرنج وكان البالية فاصلا محببا يتخلل الأوبرا الفرنسية : هنا وجدت الرشاقة الفرنسية مجالا آخر : وغدت الحركة شعرا ، قد كتب جان جورج نويفر : أستاذ الأوبرا في دار أوبرا باريس ، رسالة كانت يوما ما مشهورة عن ألحان الرقص — « رسائل في الرقص والبالية » (١٧٦٠) . وقد مهدت الطريق لإصلاحات جلوك بدعوتها إلى الرجوع للمثل الإغريقية في الرقص ، بما فيها من طبيعية الحركة ، وبساطة اللباس . وتأكيد على الدلالة الدرامية لا الأشكال التمجيدية أو براعات العازفين .

واصبحت الحفلات الموسيقية العامة الآن جزءا من الحياة في جميع مدن فرنسا الكبرى . ففي باريس ضربت « الفرقة الموسيقية الروحية » (التى انشئت بالتوبرلى في ١٧٢٥) مثلاً رفيعاً في الموسيقى الآلية . وبينما كانت الأوبرا — كوميك تمثل مسرحيه برجوليزى « لا سيرفا يادرونا » كانت فرقة الكونسير تعزف ترنيمة « ستابات مائر » [وهى ترنيمة لآتينية عن حزن مريم على المسيح المصلوب] التى أحسن الجمهور أستقبالها فظلت تتكرر سنويا حتى عام ١٨٠٠ (٢٠) . وكان لفرقة الكونسير الفضل في تحبيب هاندل ، وهيدن ، وموتسارت ، وجومللى ، ويتشنى ، والباخين ، إلى الجماهير الفرنسية ، وأتاحة فرصة الظهور لسكبار عازفي ذلك العهد .

وقد أجمع هؤلاء العازفون الزائرون على أمر واحد ، هو تخلف فرنسا في الموسيقى عن المانيا والنمسا وإيطاليا . وشاطرهم جماعة الفلاسفة هذا الحكم . فكتب جريم (وهو المانى) « من الأسف أن القوم في هذا البلد

لا يفهمون من الموسيقى غير القليل جداً^(٢١) . وكان يستثنى الأنسه فل ،
التي تغنى بمنجزة بديعة . ووافق جريم روسو وديدرو على طلب « الرجوع
إلى الطبيعة » فى الأوبرا : وتزعم ثلاثتهم الحزب الإيطالى فى « حرب
المهرجين » تلك التى كانت قد بدأت بتقديم أوبرا تهريجية مثلها فرقة
إيطالية فى باريس . وقد سبقت الإشارة إلى هذا الجدل الذى نشب بين
المذهبيين الموسيقيين الفرنسى والإيطالى ، ولم يكن قد أنهى بعد . فإزال
ديدرو يخوض حرب المهرجين فى قصته « ابن أخى رمو » ، وفى « حديث
ثالث حول الأبن الطيبى » (١٧٥٧) وطالب بمنقذ يخلص الأوبرا
الفرنسية من الخطب الطنانه والأساليب المفتعلة « ألافية تقدم ذلك الذى عليه
أن يعرض المآساة الصحيحة ، والملاهة الصحيحة : عن المسرح الغائى ؛
وضرب مثلاً لنص صالح « لافجينيا فى أوليس » لبوربيديس^(٢٢) . ترى هل
سمع هذا النداء جلوك : الذى كان يومها فى فينا ؛ أما فولتير فقد كرره فى
١٧٦١ متنبئاً :

« أننا نأمل أن يظهر عبقرى أوتى من القوة ما يحول به الأمة عن هذه
الآفة [آفة التصنع والتكلف] ويضفى على الإخراج المسرحى . . . الكرامة
والروح الخلقية التى يفتقر إليها الآن . . . أن سيل الدوق الفاسد متدفق ؛
وهو يغرق على غير وعى منا ذكرى ما كان يوماً ما مجد هذه الأمة . ولكننى
أكرر ثانية : يجب إرساء الأوبرا على أساس مختلف ؛ حتى لا تعود مستأهلة
لذلك الاحتمار الذى تنظر به إليها كل أمم أوروبا^(٢٣) . »

وفى ١٧٧٣ وصل جلوك إلى باريس ، وفى ١٩ أبريل ١٧٧٤ قاد هناك
أول أداء فرنسى « لافجينيا فى أوليس » . ولكن هذه القصة يجب
أرجاؤها إلى حينها المناسب .

٣ - المسرح

لم تنتج فرنسا فى هذه الفترة تمثيليات تتحدى النسيان - ربما باستثناء بعض
التمثيليات التى بعث بها فولتير من ليدليس أو فرنيه . ولكن فرنسا منحت

الدراما كل تشجيع سواء في العرض أو الاستحسان . ففي ١٧٧٣ أقام
غكتور لوى في بوردو أجمال مسرح في المملكة ، له رواق فخم من الأعمدة
الكويتية ، ودربزين كلاسيكى ، وزخارف منحوتة . أما الكوميدي — فرانسيز ،
التي أقر جاريك بأنها خير الفرق التمثيلية في أوروبا ، فقد أنزلت « التياتر —
فرانسيه » الذي شيد عام ١٦٨٣ في شارع فوس ، بسان — جرمان — دى
— بويه : ثلاثة صفوف من الشرفات في مستطيل ضيق فرض الالتقاء الخطأى
وقرر الأسلوب الخطأى للتمثيل في فرنسا . وعرضت مئات الأسر مسرحيات
خاصة ، من فولتير في فرنيه إلى الملكة في تريانون — حيث لعبت مابرى
أنطوانيت دور كولييت في مسرحية روسو « قسيس القرية » وحيث كان
« أكثر من عشر نساء من عليّة القوم يمثلن ويغنين خيزا من أى ممثلات
ومغنيات في الملهى »^(٢٤) ونبتت في كل مكان في فرنسا « مسارح صغيرة » .
من ذلك أن ديرا نرنارديا ، قابعا في غابات بلريس بنى مسرحا صغيرا لرهبانه
« دون علم من المتعصبين وأصحاب العقول الضيقة » (كما قال أحدهم) .

ولمع نجوم الكوميدي — فرانسيز فوق ربوع فرنسا رغم منافسة الفرق
الهاوية . وقد رأينا كيف أقبل أهل جنيف وفرنيه ليروا الممثل لوكان يمثل
فولتير في شاتلين . أما اسمه الحقيقى فهو هنرى — لوى كان Cain ، (قاييل)
ولكن هذا كان لقباً ملعونا غيره وإله العذر في تغييره . كذلك لم يجلب له
وجهه الخط ، وقد استقرت الآنسة كليرون فترة حتى تأنس إليه ولو كان
ذلك في تمثيلته ، وكان فولتير قد اكتشف مقدرته في حفلة تمثيل للهواة ،
وعلمه ، ووجد له مكانا في التياتر — فرانسيه . وفي ١٤ سبتمبر ١٧٥٠
استهل لوكان حياته المسرحية بدور تيطس في مسرحية فولتير « بروتس » ،
وظل طوال جيل بعد ذلك يمثل دور البطل في مسرحيات فولتير . وأحبه
الشيخ الغضوب إلى النهاية .

على أن أحب من إعتلى مسرح فولتير إلى القلوب كانت الآنسة كليرون
(بعد أن توفيت أدرين لكوفريير) وكان اسمها قانونا كلير — جوزيفه
ليبوليت ليريس دلاتور . ولدت عام ١٧٢٣ دون زواج شرعى بين أبيها .

ولم يتوقع أهلها أن تعيش ، ولكنها عمرت إلى الثمانين وما هذا العمر المديد بالشئ الذى تغبط عليه دائما بطلات المسرح . ولم ير أهلها أنها تستحق عناء التعليم ، ولكنها تسالت إلى التياتر ... فرانسيه ، وسحرتها المناظر والخطب المسرحية ، ولم تتغلب قط تماما على الميل للمخطابة حتى وهى فى نشوة الحب . وأعلنت أنها ستحترف التمثيل ، فهددتها أمها بأنها ستكسر زراعيها ورجليها ان هى مضت فى انفاذ هذه النية الآثمة ، (٢٦) . ولكنها أصرت ، وانضمت إلى فرقة تمثيلية متنقلة . وسرعان ما تخلقت بأخلاق مهنتها . « إننى بفضل موهبتى ، وجمال ، وسهولة الاتصال بى رأيت عددا هائلا من الرجال يركعون تحت قدمى ، بحيث استحال على وقد أوتيت قلبا رقيقا بطبعه ... ان امتنع على الحب » (٢٧) .

فلما عادت إلى باريس فتلت المسير دلا بوبلنير . وقد استمتع بها ثم استخدم نفوذه ليحصل لها على مكان فى دار الأوبرا . وبعد أربعة شهور استطاعت دوقه شاتورو ، خليله الملك آنئذ : أن تدخلها فرقة الكوميدي فرانسيز . وطلبت إليها الفرقة أن تختار الدور الذى ستمثله أول مرة ، متوقعة منها أن تجرى على السنة المعهودة ، فتختار دورا صغيرا ، ولكنها اقترحت أن تمثل دور فيدر ، وعارضت الفرقة . ولكنها تركتها تنفذ مشيئتها . وتكلت مغامرتها بالنصر . وبعدها غدت نجم الأدوار المأساوية التى لم ينافسها فيها غير الآنسة دومنيل . وذاعت شهرتها بالفسق المقترن بشهوة الاقتناء . كانت ترفه عن ليف من النبلاء ، وتتقاضى منهم أجرا طيبا ، وتجمع مكاسبها ، ثم تعطى كثيرا منها لعشيقها المفضل الشفاليه دجوكور . الذى كان يحرق مقالات فى الاقتصاد للمرسوعة . كذلك دفعت ثمنا للملاطفة مارمونتييل ، الذى سلتقى به عما قليل مؤلفا لكتاب « الحكايات الخلقية » . تأمل جانب المرأة فى هذا الحب فى خطابها له : « أمكن أنك لم تعرف أى معاناة سببتها لى (على غير عمد منك ، ولكنى كابدتها رغم ذلك) ، وان هذه المعاناة ألزمتنى الفراش ستة أسابيع وأنا فى خطر كبير ؟ لا أستطيع أن أصدق أنك كنت عليا بهذا ، وإلا لما ذهبت فى صحبة بينما الناس جميعا يعرفون ما كنت فيه » (٢٨) . ومع ذلك ظلت هى ومارمونتييل صديقين حميمين ثلاثين عاما .

وهو الذى حملها انتقاداته ومقترحاته على أن تحدث فى التمثيل حدثا . ذلك أنها كانت إلى عام ١٧٤٨ تجرى على أسلوب ممثلى التياتر — فرانسيه فى الحديث المفتعل العاطفى ، والإيماءات الفخمة ، والانفعالات المرتعدة . أما مارمونتيل فقد وجد هذا أمرا غير طبيعى يمجج الذوق . وكانت كليرون قد قرأت كثيرا وسط غرامياتها ، وأصبحت من أفضل نساء جيلها تعليما ، وأدخلتها شهرتها ورجاحة عقلها حظيرة المجتمع المثقف ، وأدركت أن أفرغ الطبول هراغلاها صوتا . وفى عام ١٧٥٢ أكرهتها إصابة بالزهرى على اعتزال المسرح حينما . فلما أبلت قبلت عقدا بإحياء خمس وثلاثين حفلة فى بورديو . روت أنها فى أول ليله مثلت فيها هناك لعبت دور فيسدر بالأسلوب التقليدى « بكل الضجيج والعجيج والحماقة التى كانت يومها تلقى الاستحسان فى باريس » وصفق لها الجمهور استحسانا . ولكن فى الليلة التالية لعبت دور أجريين فى مسرحية راسين بريتا نيكوس بصوت هادى وبمحركات محسوبة ، وكظمت الانفعالات حتى المشهد الأخير . وضحج النظارة بالهتاف . فلما عادت إلى باريس كسبت جمهورها القديم لأسلوبها الجديد . وجحد ديدرو هذا الأسلوب بحرارة . وكانت فى ذمته حين كتب « مفارقة الممثل » ومؤاذاها أن الممثل القدير هادى ممالك نفسه فى داخله حتى فى أكثر لحظات أدواره انفعالا ، ثم تساءل أى تمثيل كان أروع من تمثيل كليرون (٢٩) . وكانت تحب أن تصدم المعجبين بها فتروى لهم أنها تراجع ذهنها فى فواتيرها الشهريه وهى تلقى إلى الجمهور من الأشجان ما يستدر دموعه (٣٠) . ولم يرحب فولتير بالأسلوب الجديد ، ولكنه أباها تأييدا فعلا كما أيدته هى فى اصلاح ملابس المسرح وأثاثه . وكانت جميع الممثلات إلى ذلك الحين يلعبن أدوارهن — من أى أمة أو عصر — مرتديات زى باريس القرن الثامن عشر ، فى تنورات بأطواق موسعة وشعر مبدر ، ولكن كليرون فاجأت جمهورها باتخاذ زى زمان المسرحية لجسمها وشعرها ، فلما لعبت دور إيدامى فى تمثيلية فواتير « يتيمة الصين » كانت اثبات والأثاث صينية .

وفي ١٧٦٣ ذهبت كليرون إلى جنيف لتستشير الدكتور ترونشان .
وطلب إليها فولتير أن تمكث معه في فيلا دليس . « إن مدام دنتس مريضة ،
وكذلك أنا . وسيحضر مسيو ترونشان إلى مستشفىنا ليعودنا نحن الثلاثة (٣١) »
وأنت ، وأعجب بها الحكيم العجوز إعجاباً حمله على إغرائها بزيارة
أطول لفرنيه ، وأقنعها بأن تشاركه في حفلات عديدة بمسرحه ويظهره
رسم قديم وهو في السبعين من عمره راكعاً أمامها في اعتراف حار
يالحب .

واعزلت المسرح في ١٧٦٦ وكانت صحتها قد اعتلت وهي بعد في الثالثة
والأربعين ، بل لم تعد قادرة على التحكم في حديثها ، وهامت حياً بفنئ
نبيل أنيق كما فعلت لوكوفير وباعت كل ممتلكاتها تقريباً لتنقله من دائنيته
ورد لها صنيعها ببذل حبه ، ومالها لغيرها من النساء . ثم تلقت وهي
في التاسعة والأربعين دعوة من كرستان فريدريش كارل الكسندر ، حاكم
آنزباخ وبابرويت البالغ من العمر ستة وثلاثين عاماً للعيش معه في آنزباخ
ناصحة وخليلة . فذهبت (١٧٧٣) وظلت محتفظة بسلطانها عليه ثلاثة
عشر عاماً ، وكان قد تشرب في فرنسا بعض مثل التنوير ، وبتشجيع منها
أجرى عدة اصلاحات في إمارته ، فألغى التعذيب وأقر الحرية الدينية .
وكانت آخر مآثرها أن أقنعته بأن ينام كل ليلة مع زوجته . وبمضي الوقت
أصاب الملل كليرون فتاقت إلى باريس فكان الأمير يصحبها إليها بين
الحين والحين . وفي إحدى هذه الرحلات اتخذت خليلة جديدة ، وترك
كليرون في باريس بعد أن أجرى عليها معاشاً طيباً ، وكانت الآن في
الثالثة والستين .

ولقيت الترحيب في الصالونات ، حتى من مدام نكير الفاضلة ، وأعطت
الدروس في الاقامة للفتاة التي أصبحت فيما بعد مدام دستال . واتخذت
عشاقاً جديداً منهم الرجل الذي تزوج بعد ذلك مدام دستال ذاتها التي
سرّها التخلص منه . وقد رتب للممثلة العجوز معاشاً مريحاً ، ولكن
الثورة اختزلت معاشها فعاشت في ضئلك حتى زاد نابليون معاشها في

١٨٠١ . وفي ذلك العام عرض عليها رجل يدعى المواطن دوبواربيه غراماً . أخيراً . فثبّتت عزيمته بخطاب مؤلم يلخص مأساة الكثير من الممثلات العجائز . قالت « لعل ذاكرتك مازالت تتخيلنى مشرقة ، فتية ، محاطة بكل مظاهر سمعى الماضية . ولكن عليك أن تراجع أفكارك . فأنا لا أكاد أبصر ، وسمعى ثقيل ولم يعد لى أسنان ، ووجهى كله غضون ، وجلدى الذى جف بالجهد ايكسوهيكلى الضعيف . » (٣٢) ومع ذلك أتى وعزى أحدهما الآخر باسترجاع ذكرى شبابهما . ثم ماتت عام ١٨٠٣ إثر سقوطها من فراشها .

وكانت قد خلفت وراءها منذ سنين طويلة الدراما المأساوية الكلاسيكية . التى أشاد فولتير ، أعظم كتابها فى القرن الثامن عشر ، بكليرون معبرة عنها لا ضريب لها . فقد أنخم جمهور باريس ، وكثرته من الطبقة الوسطى ، بالخطب المسجوعة يلقيها الأمراء ، والأمرات ، والملوك ، وبدت تلك البحور « الاسكندرية » بحور كورينى ورأسين التى تمشى مخنالة على ست أقدام (أى تفاعيل) - بدت الآن رمزاً للحياة الأرستقراطية ، ولكن أليس فى التاريخ سوى النبلاء ؟ بل بالطبع . ورجل كمواير أبرز هؤلاء من قبل ، ولكن فى الملهاة ، أفليس هناك مأس ، من المحن العميقة والمشاعر النبيلة فى بيوت وقلوب البشر الذين تجردوا من الألقاب ؟ ورأى ديدرو أن قد آن أوان درامات البورجوازين ، وقال أنه إذا كان النبلاء قد تجنبوا العاطفية ، واشتروا لباس المشاعر قناعاً مهيباً ، فإن على الدراما الجديدة أن تطلق الوجدان من عقاله ، وألا تنجّل من إثارة أشجان الجمهور وإدرار دموعه . وهكذا كتب هو وغيره من بعده « مسرحيات باكية » .

يضاف إلى هذا أن العديد من كتاب المسرحيات الجدد لم يكتفوا بتصوير حياة الطبقة الوسطى . والإشادة بها ، بل هاجموا النبلاء ، والكهنة ، وحتى الحكومة آخر الأمر - هاجموا فسادها ، وضرائبها ، وبذخها ، وإسرافها ، ولم يقتصروا على التنديد بالاستبداد . والتعصب (فقد أجاد فولتير هذا التنديد من قبل) بل امتدحوا الجمهوريات . والديمقراطية ، ولقيت تلك الفقرات أشد الاستحسان من النظارة . (٣٣) وشارك المسرح الفرنسى عشرات القوى الأخرى فى الإعداد للثورة .

٤ -- مارمونتيل

كتب هوراس ولبول من باريس في ١٧٦٥ يقول « إن المؤلفين في كل مكان » وأنهم « أسوأ من كتاباتهم » ، ولست أقصد بهذا ثناء على الكتاب أو ما يكتبون ^(٣٤) » ولا ريب في أن ذلك العصر لم يكن ليضارع في الأدب عصر فولتير وراسين ؛ ولا عصر هوجو وفلوير وبلازك ، ففي هذه الفترة القصيرة بين ١٧٥٧ و ١٧٧٤ ليس لدينا من الكتاب الجديرين بالذكر سوى روسو ومارمونتيل ، والجمرات الحية من نار فولتير ، وغيلان ديدرو الدفين غير المذخور . ذلك أن الرجال والنساء أسلموا أنفسهم بقوة للحديث حتى كلت قرائحهم قبل أن يعتادوا الكتابة . وانقضى زمان العقل الاستقراطي ، واستأثرت الفلسفة والاقتصاد والسياسة بالجو ، وتغلب المضمون الآن على الشكل . لا بل إن الشعر نزع إلى الدعاية . فقد قلدت قصيدة سان - لامبير الفصول « (١٧٦٩) جيمس طومسن ، ولكنها نددت بالتعصب والترف تنديداً في غير أوانه ، وتمثلت الشتاء ... كما تمثله الملك لير .. عواصف ثلجية تقصف حول اكواخ الفقراء .

ويدين جان - فرنسوا مارمونتيل في صمود نجمه لدهائه ، وللنساء ، ولفولتير . ولد في ١٧٢٣ . وقد كتب في شيخوخته « مذكرات أب » (١٨٠٤) وهي تعطينا صورة رقيقة لطفولته وشبابه . ومع أنه اعتنق الشكوكية وكاد يعبد فولتير ، إلا أنه لم يذكر إلا بالخير أهله الأتقياء الذين ربوه ، واليسوعيين العطفين المخلصين الذين علموه . وقد أحبهم حبا جما حمله على أن ينلر نفسه لله ، وتطلع إلى الانضمام إلى رهبنتهم ، وعلم في مدارسهم بكنليمون وتولوز . ولكنه كالكثيرين من أفراس اليسوعيين . طار بعيدا على أجنحة التنوير ، وفقد على الأقل عذريته الفكرية . وفي ١٧٤٣ قدم أبياتا من شعره على فولتير فاستمتع بقراءتها أيما استماع ، وأرسل إلى مارمونتيل مجموعة من أعماله صحتها بيده . واحتفظ الشاعر الشاب بها ميراثا مقدسا ، وأقلع عن كل تفكير في احتراف القسوسية . ويعد عامين حصل له فولتير على وظيفة في باريس ، وعلى إذن بدخول التياتر -- فرانسية بجانا ، لا بل

إن فولتير ، بما في قلبه — قلب الأب المحروم من البنين — من طيبة مستثيرة .
باع قصائد مارمونتيل وبعث إليه بحصيلة البيع . وفي ١٧٤٧ قبات تمثيلية
مارمونتيل « دنيس الجبار » (دبونيسيوس) — التي أهداها إلى فولتير ،
وأخرجت على المسرح ، وحقت نجاحا لم يحلم به « فقد أصبحت » مشهور
وغنيا في يوم واحد . ^(٣٥) وسرعان ما أصبح سبعا صغيرا من سباع
الصالونات ، فطعم على موائلها ، ودفع الثمن ذكاء وظرفا ، ووجد سبيلا
إلى فراش كليرون .

وآتته تمثيلية الثانية « أريستومين » بمزيد من المال ، والأصدقاء ، والتحليلات .
وفي ندوات مدام دتنسان التقى بفولنتيل ، ومونتسكيو ، وهلفيتوس ،
وماريغو ، وعلى مائدة البارن دولياخ سمع ديدرو ، وروسو ، وجريم
وشتق طريقة صعدا في المجتمع تحدوه يد النساء المرشدة . وأدخل إلى البلاط
بعد أن مدح لويس الخامس عشر بأبيات ذكية . وافتتحت بومبا دور بوجهه
الملح وشبابه المتفتح ، فأقنعت أخاها بأن يستخدمه سكرتيرا ، وفي ١٧٥٨
عينته محرراً للجريدة الرسمية « مركير دفرانس » وكتب نصاً لرامو ،
ومقالات الموسوعة . وأعجبت به مدام جوفران إعجابا حملها على أن تقدم
له مسكناً مريحاً في بيتها ، حيث عاش عشر سنوات ضيفا بالأجر .

وقد كتب لصحيفة المركير (١٧٥٣ - ٦٠) سلسلة من « الحكايات
الأخلاقية » رفعت تلك الدورية إلى مقام الأدب . ومن إحدى هذه
الحكايات تكون فكرة عنها كلها . فسلیمان الثاني ، بعد أن مل المبايع التركية ،
يطلب ثلاث حسان أورييات . أما الأولى فتقاوم شهراً ، ثم تستسلم أسبوعاً
ثم تنجى جانباً . وأما الثانية فتغنى غناء رخيا ، ولكن حديتها منوم . وأما
الثالثة — روكسالانا — فلا تكفي بالمقاومة ، بل تسب السلطان لأنه داعر مجزم
ويصبح السلطان « أنسيت من أنا ومن أنت ؟ وتجب روكسالانا « أنت قوى ؛
وأنا جميلة ، فنحن إذن صنوان . » وهي ليست بارعة الجمال ، ولكن لها
أنفاً أنخس (مرتفع الأريية) ، وهو يغلب السلطان على أمره . فيحاول
بكل الحيل أن يكسر مقاومتها ولكنه يففق . ويهدد بقتلها ، فتقزح أن تعفيه .

من هذا العناء بالانتحار . ويسبها ، فتنسبه سباً أقذع . ولكنها تجربته أيضاً أنه جميل ، وأنه لا يحتاج إلا لإرشادها لكي يصبح في روعة الفرنسيين . فيغتاض ويبتهج . وأخيراً يتزوجها ويجعل منها مليكة . وفي أثناء حفل الزفاف يسأل نفسه « أمكن أن يطيح أنف أخنوس صغير بقوانين امبراطورية ؟ » (٣٦) والعبرة عندما ما رمونتيل : إن صغار الأشياء هي التي تحدث جلائل الأحداث ، ولو عرفنا تلك التوافة الخفية لراجعنا التاريخ مراجعة كاملة .

وسارت الأمور كلها تقريباً رخاء مع ما رمونتيل إلى أن نشر (١٧٦٧) قصة سماها « بيليزير » . وكانت قصة ممنازة ؛ ولكنها دافعت عن التسامح للدين ، وتشككت في « حق السيف في أن يبيد المهرطقة ، والألحاد ، وعدم التقوى ؛ وأن يضع العالم كله تحت نير الدين الحق » (٣٧) . وادانت الصوروبون الكتاب لا محتوانه على تعليم يستحق الشجب . ومثل ما رمونتيل أمام عميد الصوروبون واحتج عليه قائلاً « قسلى لى ياسيدى ، ألسنت تدين الآن روح العصر لا روحى » (٣٨) ، وظهرت روح العصر في جرائده ، في اعتدال العقوبة . ولو نشر قصته تلك قبل عشر سنوات لزج به في الباستيل ولصودر - كتابه ؛ أما الآن فالذى حدث هو أن القصة راجت رواجاً كبيراً ؛ وظلت تحمل « إذن الملك وامتيازته » وأكتفت الحكومة بالتوصية بأن يلزم الصمت حول الموضوع (٣٩) ، على أن مدام جوفران إنزعجت كثيراً حين لم يقتصر الأمر في قرار الصوروبون بمصادرة الرواية على قراءته في الكنائس ، بل نجأوزه إلى تعليقه على باب بيتها . فافترحت على مارمونتيل في لطف أن يبحث عن مسكن آخر .

ووقع واقفاً كالعادة . ففي ١٧٧١ عين مؤرخاً رسمياً ملكياً براتب حسن ، وفى ١٧٨٣ أصبح السكرتير الدائم للأكاديمية الفرنسية . وفى ١٧٨٦ عين أستاذاً للتاريخ فى اللبسيه . وفى ١٧٩٢ حين كان فى التاسعة والستين وقد قفزته إنحرافات الثورة ، إعتكف فى أفرو ؛ ثم فى أبلوفيل ؛ وهناك كتب « مذكراته » التى اغتفر فيها حتى للصوروبون إساءاتها . وقضى سنواته الأخيرة فى فقر لا يشكو ولا يتلمز ، شاكراً لأنه عاش حياة غنية ممتعة . ومات فى آخر يوم فى عام ١٧٩٩ .

٥ - حياة الفن

(١) النحت

كان الملك ذواقاً في الفن ، وكذلك كان نبلاء بلاطه ونبيلاته ، والمليونيرات الذين كانوا الآن يتحرقون شوقاً للهيمنة على الدولة . وكان حدثاً هاماً في التاريخ الفرنسي أن تبدأ مصانع سيفر ، التي أسستها مدام دهمبادور من قبل ، لإنتاج الخزف الصيني القاسي العجينة عام ١٧٦٩ ؛ ومع أن الإلمان في درسدن ومايسن قد فعلوا هذا قبل ستين عاماً ، فإن منتجات سيفر سرعان ما كسبت سوقاً أوروبياً . ولم يركب الفنانين أمثال بوشيه ، وكافيري ، وباجو ، وبيجال ، وفالكونيه ، وكلوديون ، ما يغضب من قدرهم في رسم التصميمات لصيني سيفر . واستمر خزافو سيفر ، وسانكلو ، وشانتيي ، وفانسين ، في إنتاج القاشاني والصيني الطري العجينة في رسوم غايه في الإتقان .

وتضافرت مهارات الخزافين ، وصناع المشغولات المعدنية والأثاث الخشبي وقطع النسيج المرسومة ، لتجميل الحجرات الملكية وغرف النبلاء واقطاب المال . وكانت "ساعات الجدارية" ، كذلك التي صممها بوازو وصنها جرتير بالبرونز^(١) إحدى حليات العصر المميزه . وأبدع بير جونثير وجاك كافيري في صناعة « الأورمولو » ومعناه الخرفي « الذهب المطحون » ، وهو في حقيقته سبيكة أهم مكوناتها النحاس الأحمر والزنك ، تنمش وترصع بالجوهر ويكف بها الأثاث . وألف كبار صناع الأثاث نقابه قوية تعزز بنفسها ، اشترط على عضائها أن يختموا لإنتاجهم بأسمائهم علامة على مسئوليتهم عنه . وكان خيرهم في فرنسا وأفدا من المانيا : جال فرنسوا أوبن وتلميذه جان - هنري ريزنر ، وسخر هذان مهارتهما في صنع مكتب فخم للملك لويس الخامس عشر (١٧٦٩) ، وهو تحفة روكوكية معرّبة من رسوم ونقوش وتطعيم وتذهيب دفع الملك ٦٣,٠٠٠ أيره ثمنها لها .

وقد استمتع بها نابليون الأول ونابليون الثالث ، وسلمت إلى اللوفر في ١٨٧٠
وتقدر الآن بخمسين ألفاً من الجنيهات (١) .

في هذا العهد الذي علق مثل هذه الأهمية على القيم اللمسية ، كان النحت
يقدر بقدره الكلاسيكي تقريبا ، فالشكل له ، وكانت فرنسا تعلم أن
الشكل ، لا اللون ، هو روح الفن . وهنا أيضاً فاقت النساء الآلهة ، لا في
عيوب الواقع الطبيعية ، بل في المثالي من الأشكال والثياب التي استطاع
النحاتون المرمقون أن يؤلفوا بينها ويصوروها . ولم يزين النحت
القصور والكنائس فحسب ، بل الحدائق والمتنزهات العامة ، وكانت
التماثيل التي أقيمت مثلاً في حدائق التويلري من أحب التماثيل إلى الناس في
باريس ، وفلدت بوردو ، ونانسي ، ورين ، ورامس ، باريس في التراكوتا
(الطين النضيج) والرخام والبرونز .

وأخرج حيوم كوستو الثاني الآن أروع إنتاجه (وكان يصغر العهد
بسنة واحدة فقط) ففي ١٧٦٤ عهد إليه فردريك الثاني بنحت تماثيل
لفينوس ومارس إله الحرب ، وفي ١٧٦٩ أرسلها كوستو إلى بوتسدام لقصر
صانوسى . كذلك بدأ في ١٧٦٩ تحت المقبرة الفخمة المشيدة للدوفين
والدوفينة (والذى لويس السادس عشر) لكاتدرائية صانوس ، وعكف
على هذا العمل بهمة إلى أن مات (١٧٧٧) . ورأى في أخريات عمره
ظهور أربعة نحاتين من ألمع من عرفتهم فرنسا إلى يومنا هذا ، وهم بيجال
وفلاكونييه ، وكافيري ، وباجو .

أما بيجال فقد قصد روما على نفقته ، يعينه على ذلك كوستو ، بعد أن أخفق
في نيل « الجائزة الكبرى » التي تدفع لنائلها مصروفات تعامه الفن في روما .
فلما عاد إلى باريس شق طريقه إلى أكاديمية الفنون الجميلة برأئته المسماة
« عطار د يثبت خفيه » ، هذه الرائعة التي صاح الفنان للعجوز جان - باتست
لموان حين رآها « وددت لو كنت راسمها ! » كذلك أعجب بها لويس
الخامس عشر ، وأرسلها إلى حليفه فردريك الثاني في ١٧٤٩ . وقد وجدت
سبيلها بطريقة ما عودا إلى اللوفر ، حيث نستطيع أن نتأمل المهارة الفائقة

تألى ألمع بها الفنان الشاب إلى لطفه الرسول الأولمبي على النهوض والانطلاق .
ووافق فن بيجال مزاج مدام دبوببادور ، فعهدت إليه بالكثير من المهام .
وقد صنع لها تماثلا نصفيا ، محفوظا الآن بمتحف المتروبوليتان للفن بنيويورك ،
وحين هدا ما بينها وبين الملك من غرام مشبوب واستحال إلى صداقة ، نحت
لها تماثلا على هيئة « ربة الصداقة » (١٧٥٣) . (٥٠) وصنع تماثلا للويس
بوصفه مجرد « مواطن » للميدان الملكي برامس ، وأتم تماثلا بوشاردون
« لويس الخامس عشر » للميدان الذى يسمى الآن ميدان الكونكورد . وصور
ديدرو في البرونز ، رجلا تمزقه الفلسفات المتصارعة . ولكنه أطلق لنفسه
عنان التمثيل في المقبرة التى نحتها لرفات المرشال دى دساكس بكنيسة القديس
توما بستراسبوج . — فهو المحارب العاشق يركب إلى الموت كأنه راكب إلى
معركة ينتصر فيها .

أما أشهر التماثيل الذى كان حديث الناس فى هذا العهد فذلك الذى اختارت
صفوة مفكرى أوربا بيجال لينحته لفولتير . وقد اقترحت مدام نكير فى
أحدى أمسياتها فى ١٧ أبريل ١٧٧٠ ورحب بالاقتراح جميع ضيوفها السبعة
عشر (ومنهم دالامير ، وموريلية ، ورينال . ، وجريم . ومارمونتيل)
ودعى عامة الناس للمساهمة فى النفقة . وأثيرت بعض الاعتراضات ، إذ لم
يكن من المألوف لإقامة التماثيل لأى أحياء سوى الملوك ، ولم يصنع تماثيل
لكورنيى أو راسين قبل موتهما . ورغم ذلك تدفقت التبرعات ، حتى من
نصف ملوك أوربا ، وأرسل فردريك مائتى جنيه ذهبى لتخليد ذكرى
صديقه وخصمه القديم . وأستاذ روسو فى المساهمة ، فاعترض فولتير ،
ولكن دالامير اقنعه بالموافقة . وعرض فريرون ، وبالايسو ، وغيرهم من
خصوم جماعة الفلاسفة أن يشاركوا فى التهمة ، ولكن عرضهم رفض .
ووضح أن الفلاسفة كانوا أبطأ من خصومهم مغفرة وصفحا . أما فولتير
نفسه فقد نبه مدام نكير إلى أنه لا يصلح موضوعا لتماثيل :

« لقد بلغت السادسة والسبعين ، ولم أكد أتماثل للشفاء من مرض عبث
بجسدى وروحى عبثا منكرا ستة أسابيع . ويقولون إن مسيو بيجال قادم
ليصنع تماثلا يحكى محياى . ولكن هذا يا سيدتى يقتضى أن يكون لى محيا ،

ومن العسير التكهن بالموضع الذى كان فيه هذا الهيا . فعيناي غائرتان ثلاث بوصات ، وخدای من الرق البالى الملتصق لصقاسينا على عظام لا تتركز على شىء ، وقد فقدت الأسنان القليلة التى كانت لى . وليس كلامى هذا من قبيل التمتع ، ولكنه الصدق الخالص . ولم ينحت قط تمثال لرجل مسكن فى حالتى هذه ، ولعل مسيو بيجال سيعتقد أنكم تهزأون به ، أما أنا فينبغى أن يكون عندى من حب الذات ما لا أجرؤ معه أبدا على الظهور فى حضرته . ولو شاء أن يضع حدا لهذه المهمة الغريبة لنصحته بأن يأخذ نموذجه ، بتغيرات طفيفة ، من تمثال الصغير المصنوع من صينى سيفر^(١٣) .

وضاعف بيجال المشكلة باقتراحه ان يصنع تمثالا عاريا لذلك العفريت الأشهر ، ولكنهم ثنوه عن هذا رأى . وقصد فرنیه فى يونيو ، وجلس إليه الفيلسوف الخجول ثمانية أيام ، فى قترات متقطعة ، ولكن فى تململ شديد — يملى على سكرتير ، ويومئ للإيماءات وينفخ حبات البسلا على أشياء شتى فى الهجرة — حتى قاربت أعصاب المثال على الانهيار^(١٤) . فلما عاد إلى باريس بقالب للتمثال عكف على مهمته شهرين ، ثم أعلن النتيجة فى ٤ سبتمبر ، وأقبل نصف الصفوة الممتازة يعجبون ويتسمون . والتمثال يقوم الآن فى دهليز مكتبة المعهد .

ولم يكن من مزاحم لبيجال فى زعامة النحت فى هذه الحقبة غير إيتين موريس فلاكونيه ، وىروى ديدراو قصة لطيفة عن خصوصتهما . ذلك أن فلاكونيه الذى كان يصغر غريمه بغامين تجنب أول الأمر منافسته مباشرة ، فكان يصنع التماثل من الصينى ، وكان من أبهج هذه التماثل تمثال « بجاليون » الذى صنعه دورو على تصميم فلاكونيه ، وفيه تبدو دهشة النحات الاغريق إذ ينحني تمثاله « غلاطية » المرمى للتحدث إليه . واستطاع ذاك التمثال أن يرمز إلى حقيقة أوشك الناس أن ينسوها ، وهى أنه ما لم ينحدر لاينا العمل الفنى فهو ليس بفن . فلما اطلع بيجال على هذه القطعة من الطين وقد تحولت إلى رمز خالد فاه بالثناء التقليدى بثنى به فنان عظيم على آخر : « وددت لو كنت صانعه ا » ولكن فلاكونيه لم يرد التحية بمثلها تماما حين

رأى تمثال. بيجال « لويس الخامس عشر مواطننا » فقد قال « اننى لا أحبك يا ميسيو بيجال ، وأعتقد أنك تبادلنى هذا الشعور . وقد رأيت تمثال « المواطن » الذى صنعته . لقد كان ممكنا خلق هذا العمل ، لأنك قمت بهذا فعلا ، ولكنى لا أعتقد أن الفن يستطيع أن يجاوزه بخط واحد وهذا لا يمنعنا من أن نظل كما كنا^(٥٥) .

وقد نقصت عيش فلاكونيه أربعون سنة من الحن قبل أن يظفر بالتقدير التام ، فانطوى على نفسه وعاش فى بساطة ديوجينية ، وأصبح سريع الشجار ، وغض من قدر فنه ، وأعرب عن احتقاره للشهرة سواء فى حياة صاحبها أو بعد موته . وافته الشهرة آخر الأمر بتمثاله « المستحمة » (١٧٥٧) ... وهى مستحمة جميلة تجس حرارة الماء بأصابع قدمها .^(٥٦) وآتست إليه الآن مدام دجومبادور ، فنحت لها « الحب الدايم » الذى يمثل كيوبيد يهدد باطلاق سهم فيه عدوى الحب . وأصبح فلاكونيه حيناً فى عالم النحت ما كانه بوشيه وفراجونار فى عالم التصوير مبدعا دغدغات فتانه مثل « فينوس وكيوبد » ، « وفينوس تخلع ثيابها أمام باريز » .

وقد أبدع فى تصميم الشمعدانات الزينية ، والنوافير الصغيرة ، واثنايل الدقيقة ، وحفر الرخام « ساعة ربات الحسن الثلاث » المحفوظة الآن فى اللوفر ، وأهيج بومبادور بتمثيلها فى صورة الموسيقى^(٥٧) . وفى ١٧٦٦ قبل دعوة كاترين الثانية له للذهاب إلى روسيا . وقد صنع فى سانت بطرسبوج رائعة « بطرس الأكبر على جواد يخطر » ، وشارك ديدرو وجريم حظوتهما عند الأمباطورة ، وعمل لها بهمة طوال اثنى عشر عاماً ، ثم تشاجر معها ومع وزرائها ، ورحل فى نوبة غضب عائدا إلى باريس . وفى ١٧٨٣ أصيب بالفالج ، ولزم حجرته فى الأغوام الثمانية الباقية له ، وقد زادت نظرتة إلى الحياة اكتئاباً .

أما جان — جاك كافيرى فكان فى وسعه أن يكون أكثر بشاشه وانشراحاً لأنه ربي على النجاح فى رعاية أبيه جاك ، الذى كان من أئمة — صناع البرونز فى العهد الأسبق . وقد شق طريقه مبكراً إلى أكاديمية الفنون

الجميلة بتمثال عجوز لا تكسوه غير سبله سماه « النهر » . وكلفه مسرح الكوميدي — فرانسيز بتزيين قاعاته بتمائيل نصفية للمسرحيين الفرنسيين ، فأبهج الناس جميعاً بتمائيله التي صورت كورنيي ، ومويزير وفولتير ، في صور مثالية . أما رائحته فتمثال نصفي للكاتب المسرحي جان دروترو نقله عن حفر في حوزة الأسرة . وهو أشبه يدارتنيان في كهولته — شعر مرسل ، وعينان متقدتان ، وأنف مشاكس ، وشوارب كثة ، وهو من أبداع التماثيل النصفية في تاريخ النحت . وبدافع الغيرة من مسرح الكوميدي — فرانسيز ، كلفت فرقة الأوبرا كافيري بأن ينحت التماثيل لأبطالها هي أيضاً ، فصنع التماثيل النصفية للوللي ورامو ، ولكن هذه التماثيل اختفت . وبقيت لوحة جميلة لفتاة صغيرة^(١٨) . ربما كانت من أعضاء فريق باليه الأوبرا ، وهي توفيق ساحر جمع بين العيين الحجولتين والصدر الناهد .

أما أحب التماثيل لمدام دوباري فهو أوجستن باجو . فبعد أن قضى الفترة المألوفة لتلمذة الفنانين في روما ، حقق ثراء مبكراً بمسا تلقى من مهام ملكية وتكليفات من خارج فرنسا . وقد صور الخليفة الجديدة في نحو اثنتي عشرة لوحة . ويرتدى التمثال المحفوظ بالوفر رداء كلاسيكياً منقوشاً نقشاً رائعاً . وصور بوفون للجاردان دروا بناء على طلب الملك^(١٩) . ثم خلد ديكرات ، وتورين ، وبسكال ، ونوسوبه ، وأروع أعماله مازال حياً في الصور البارزة التي حلّى بها أسفل المقصورات في دار الأوبرا بفرساي . وعمر حتى قام بأعمال اللويس السادس عشر ، وبكى على إعدام ذلك الملك ، وشهد نابليون ببسط سلطانه الشامل على القارة .

ب - العمارة

هل قامت في فرنسا خلال هذه الأعوام الثمانية عشر عمارة خالدة؟ لم يبق إلا القليل . فالكنائس كانت أوسع من أن يملأها من بقي من المؤمنين . والقصور أخذت تثير غيرة الجماهير التي طحنها الجوع . وكان تجدد الاهتمام بالمعمار الروماني نتيجة للحفائر التي أجريت في هركولانيوم (١٧٣٨) وبومبي (١٧٤٨ - ٦٣) بدعم لإحياء الطرز الكلاسيكية الخطوط ذات البساطة

والوفار ، وواجهة الأعمدة والقوصرة ، والقبّة الفسيحة أحياناً . وكان جاك - فرنسوا بلونديل ، الأستاذ بالأكاديمية الملكية للعمارة ، نصيراً متحمساً لهذه الأشكال الكلاسيكية ، وأصدر خلفه جوليان - دافيد لروا ، في ١٧٥٤ ، رسالة سماها « أحمل آثار الإغريق » زادت من سرعة الانتشاء بهذه الآثار . وقد نشر آن - كلود تيبير ، كونت دكايلوس ، بعد أن ساح كثيراً في إيطاليا واليونان والشرق الأدنى (١٧٥٢ - ٦٧) ، ثمانية مجلدات خطيرة سماها « مختارات من الآثار المصرية ، والأثروسيكية ، واليونانية ، والرومانية ، والغالية » موضحة في عناية ببعض رسومه ؛ وتأثرت دنيا الفن الفرنسي كلها حتى السلوك الفرنسي ، تأثراً قوياً بهذا الكتاب فالت إلى نبذ شطحات الباروك ونزوات الروكوكو رجوعاً إلى خطوط الطرز الكلاسيكية الأكثر نقاء . وهكذا نجد جريم يقول لقرائه في ١٧٦٣ :

« ظللنا سنوات نبحث بحثاً جاداً عن الآثار والأشكال القديمة وأصبح الميل لها عاما حتى عدا من الأمور المقررة الآن أن يؤدي كل شيء على الطريقة اليونانية à la grècque من العمارة إلى صنع القبعات ، فنساؤنا يصفقون شعورهن على الطريقة اليونانية ، ووجهائنا يرونه عاراً إن لم يمسكوا علبة صغيرة على الطريقة اليونانية »^(٥١) .

أما ديدرو ، رسول الرومانسية البورجوازية ، فقد استسلم فجأة للموجة الجديدة (١٧٦٥) حين قرأ ترجمة لكتاب وئكلمان « تاريخ الفن القديم » وكتب يقول « ينخيل إلى أننا يجب أن ندرس القديم لكي نتعلم رؤية الطبيعة »^(٥١) . وكانت هذه العبارة في حد ذاتها ثورة .

وفي ١٧٥٧ بدأ جاك - جرمان سوفلو بناء كنيسة القديسة جنيفيف ، التي نذر لويس الخامس عشر خلال مرضه في منز أن يشيدها للقديسة راعية باريس حالما يتأثر للشفاء . وأرسي الملك بنفسه حجر الأساس ، وأصبح بناء هذا الصرح « الحدث المعاري العظيم في النصف الثاني من القرن الثامن عشر » في فرنسا^(٥٢) . وقد صممها سوفلو على شكل معبد روماني ، برواق من قوصرة منحوته وأعمدة كورنثية ، وأربعة أجنحة تلتقي في صليب يوناني

في خورس أوسط تحت قبة ثلاثية . واتسمت كل مرحلة تقريباً من مراحل البناء بالجدول . ومات سوفلو في ١٧٨٠ بعد أن أرمقته وقتت في عضده الهجمات التي شنت على تصميمه ، وخلف البناء ناقصاً . وتبين أن الركائز التي صممها لتحمل القبة أضعف من أن تحملها ، فأحل شارل - آتين كوفلييه محلها دائرة - من الأعمدة تفوقها جمالا . وحولت الثورة هذه الرائعة من روائع إحياء الفن القديم من هدفها الديني إلى هدف دنيوي ؟ فسمتها من جديد البانثيون ، تذكيراً لرائعة ماركوس أجريبا في روما ، لتكون مشوى لـ « جيع آلهة » النظام الجديد ، حتى فولتير ، وروسو ، ومارا ، ولم تعد كنيسة مسيحية ، بل غدت مقبرة وثنية ، وقد رمزت في عمارتها ومصيرها إلى انتصار الوثنية المطرد على المسيحية .

وأحرز للشكل الكلاسيكي نصراً آخر في كنيسة المادلين (المجدلية) الأولى التي بديء تشييدها عام ١٧٦٤ ، فحلت صفوف الأعمدة والأجنحة المستوية السقوف محل العقود والبواكي ، وغطت الخورس قبة . وأطاح نابليون بها كلها قبل أن تنجز لتحل محلها كنيسة المادلين التي تثبوا مكانها اليوم والتي هي أشد إمعاناً في الكلاسيكية .

كان هذا الانقلاب إلى الطرز الكلاسيكية الوقورة ، بعد إصراف الباروك المتمرد في عهد لويس الرابع عشر ولإناقة الروكوكو اللعوب في عهد لويس الخامس عشر . جزءاً من الانتقال إلى « طراز لويس السادس عشر » في عهد لويس الخامس عشر نفسه - وهو طراز البناء ، والأثاث ، والزخرفة الذي سيتخذ اسم الملك الذي أطاحت الجيولتين برأسه . وضبط الفن نفسه فتحول عن المنحنيات الكثيرة والزخارف المسرفة إلى البساطة المقتصدة ، بساطة الخطوط المستقيمة والشكل البنائي . وكان اضمحلال المسيحية قد انتزع من التسامي القوطي المفرط قلبه ، ولم يترك للفن ملاذاً غير تحفظ رواق تجرد من الآلهة وتشبث بالأرض .

أما أعظم المعماريين الفرنسيين في هذا الجيل فهو جاك - آنج جابريل ، الذي أورثه أسلافه العماراة في عروقه . عهد إليسه لويس الخامس عشر

(١٧٥٢) بإعادة بناء قلعة قديمة في كومبيين ، فجعل مدخلها ببوابة
إغريقية ذات أعمدة دورية ، وكورنيش بدنطيل (مسن) ، ودرازين
خال من الزخرف . ونهج هذا النح من التصميم في إعادة بناء الجناح الأيمن
في قصر فرساي (١٧٧٠) . وأضاف لهذا القصر (١٧٥٣ - ٧٠) داراً أنيقة
للأوبرا . وبفضل الأعمدة المستوية ، والكرائيش الرقيقة النقوش ،
والدرازين الجميل ، أصبحت هذه الدار من أجمل المباني الداخلية في فرنسا .
وحين سمّ لويس ما في حياة البلاط من علنية وتكلف ، لجأ إلى جابريل لينى
« بيتاً صغيراً » تستر به الغابات واختار جابريل موقعاً يبعد ميلاً عن القصر ،
وشاد عليه بطراز النهضة الفرنسية « البتي تريانون » (١٧٦٢ - ٦٨) . هنا
كانت يومها دور تمنى النفس بالاستمتاع بحياة العزلة والدعة وهناك مرحت
دوبارى وقصفت برهة ، ثم جعلته مارى انطوانيت منتجعاً المفضل كانها
الراعية الملكية في تلك الأيام الحلية السعيدة والشمس ما تزال تشرق على
ربوع فرساي .

ج - جرور

كانت الصورة حاية أثيرة في جو البيوت الأرستقراطية الحميم . فالتماثيل
باردة عديمة اللون ، تسر العين والعقل دون القلب والنفس ، أما الصور
فتستطيع أن تعكس تقلب الأمزجة والأذواق ، وأن تنقل الروح إلى الأماكن
الحلوية ، أو الأشجار الظليلة ، أو المشاهد النائية والجسد باق داخل الجدران .
وهكذا نرى كلود - جوزف فرنزيه يرسم من السفن التي تبحر عباب البحار
الفرنسية عدداً بلغ من كثرته إن لويس الخامس عشر قال في نكتة مشهورة
إنه لا حاجة به لبناء المزيد منها . واستأجرت الحكومة الفرنسية فرنزيه ليزور
الثغور ويرسم السفن الراسية فيها ، ففعل ، وجعل فرنسا فخورة بأساطيلها .
وحصل ديدرو على إحدى صور قرنيه للبحر والأرض ، وغلا في تقديرها
غلوها حتى لقد توسل إلى إله إرتجله لتجلا فقال « أنى أتجلى لك عن كل شئ » ،
فخذه كانه ، إلا فرنزيه (٥٣) . - وهناك أومير روبر ، الذى لقب « روبر
الامثال » نعم كله لأنه زود كل صرر مناظره الطبيعية تقريباً بالأطلال

الرومانية مثل « كويرى جار فى نيم » ومع ذلك كان القوم « يتهافون عليه » فى صالونات باريس كما تؤكد لنا مدام فيجيه ... لوبرون ، رغم شغفه المدمر بالأكل^(٥٤) . ثم هناك فرنسوا ... أوبير درواى ، الذى حفظ لنا فى تصوير مرهف جبال المركيزة دسور والطفولة البريئة للغلام الذى سيصبح شارل العاشر ولاخته مارى أدليد^(٥٥) . ولكن لنتلق نظرة أكثر تدقيقاً على جرور وفراجونار .

أما جان — بازيست جرور فقد صنع بفرشاته ما صنعه روسو وديدرو بقلمهما ؛ إذ أضفى على ألوانه إشراق العاطفة ، وجعل نفسه « آيلز » البورجوازية . فالعاطفه أسعد من التكلف والصقل ، وليست ضحلة مثلها ، وعلمنا أن نخفر لجرور رؤيته الجوانب السارة من الحياة وتصويرها ، وحب لوئب الأطفال المرح ؛ وبراءة البنات الجميلات الهشة ، والقناعة المتواضعة لبيوت الطبقة الوسطى . فلولا جرور وشاروان لتوهمنا أن فرنسا كلها كانت منعطة فاسدة . وأن دويارى كانت نموذجها ، وأن فينوس ومارس كانا ربها الوحيدين . أما الحقيقة فهى أن الأشراف هم المنحطون ، وأن لويس الخامس عشر هو الفاسد . وأن الارستقراطية والملكية هما اللذان سقطا فى الثورة . أما جماهير الشعب — باستثناء رعاى الريف والمدن — فقد احتفظت بالفضائل التى تنقذ أمة من الأمم ، وقد صورها جرور . وحيأ ديدرو شاردان وجرور . لا بوشيه وفراجونار . باعتبارهما صوت فرنسا وسلامة روحها .

ويروى عن هذا الفنان فى شبابه ما يروى عادة من قصص عن شباب الفنانين : أراد أن يرسم ، فمنعه أبوه ظناً منه بأن هذه الرغبة ليست سوى ستار للكسل ، وكان الغلام يتسلل من فراشه ليلاً ليرسم الصور . فلما وقع بعصر أبيه على صورة منها لانت قناته فأوفده ليدرس على يد مصور فى ليون . ولم يطل رضاء جان — باتيست عما استطاع أن يتعلمه هناك ، فم شطر باريس . وعمل فترة فى الفقر الذى تتمتعن به الموهبة الشابة . وكان محققاً فيما بعد فى إبراز الجانب الأفضل فى الناس ، لأنه وجد كما يجد معظمنا

الكثير من العطف مختلطاً بما في الدنيا من عدم مبالاة وإنشغال عن الموهبة .
وحوالى عام ١٧٥٤ أشتري [جماع للفنون يدعى إلا ليف دجوللى] صورة
رسمها جروز تسمى « رب الأسرة » [(وقد [استعمل] ديدرو هذا [المنمو] أن
ذاته لتمثيلته الثانية عام ١٧٥٨) وشجعه على مواصلة [التصوير] . ورأى
الفنان الذى كان يعلم التصوير للأسرة المالكة صورة بريشة جروز ، فرشحه
للأكاديمية . ولكن كل مرشح كان ينتظر منه أن يقدم خلال ستة أشهر رسماً
لمشهد من مشاهد التاريخ . ولم تكن هذه المشاهد التاريخية مما يوافق مزاج
جروز ، فترك حقه فى الترشيح يسقط ، وقبل ما عرصه الأبيه جوجنو
من تمويل رحلته إلى روما (١٧٥٥) .

وكان قد بلغ الثلاثين ، ولا بد أنه أحس قبل ذلك بزم من بسحر الأنثى ،
أو ليس نصف الفن نتاجاً جانبياً لتلك القوة القاهرة ؟ وقد خبرها فى روما
خبرة أورثته تباريح الجوى . ذلك أنه عهد إليه بتعليم الرسم لليتيا ، ابنة
أحد الأدواق ، وكانت فى ميعه الصبا ، فما الذى يستطيعه إلا أن يقع فى
غرامها ؟ وكان مليح الصورة ، له شعر مموج ووجه بشوش متورد ، وكان
زميله فى الطلب فراجونار يلقبه « الملاك العاشق » . أنظر فى اللوفر إلى
صورته التى رسمها لنفسه فى شيخوخته ، ثم تخيله وهو فى الثلاثين . ولم يكن
مناص من أن تلعب ليتيا فى حميا الشباب الذى لا يعبأ بالمال ، دور هلويز
أمام هذا الأيبلار ، باستثناء الجراحة . ولم يستغل ضمهها ، وعرضت عليه
الزواج : وكان يهفو إليها ، ولكنه أدرك أن زواج فنان أفقر بوارثة دوق
سيقلب بعد قليل مأساة للفتاه . وإذ كان غير وأثق من قدرته على السيطرة
على نفسه فقد عقد النية على ألا يراها ثانية . فرضت ، وزارها وسرى
عنها ، ولكنه عاد إلى تصميمه . ويؤكدون أنه ظل ثلاثة أشهر يلزم فراشه
بخمى وهذيان متكرر^(٥٦) . وفى ١٧٥٦ قفل إلى باريس دون أن يتأثر إطلاقاً
بالفن الكلاسيكى أو الإحياء الكلاسيكى الجديد .

يقول « بعد وصولي إلى باريس أتفق أن مررت .. ولا أدري أى قدر
دفعني إلى هذا — بشارع سان — جاك ، حين لحظت الإنسية بابوتى خلف

منبذتها^(٥٧) . وكانت جابريل بابوي تعمل في مكتبة ، وكان ديدرو يشتري كتبها و « يحبها كثيرا » (على جده قوله) قبل ذلك بسنوات . وكانت الآن (١٧٥٦ — ٥٧) قد تجاوزت الثلاثين (كما يقول جرور) تخشى أن تظل عانساً ؛ فوجدت جان — باتيست غير مبسور الحال ولكنه حلو . وبعد أن زارها بضع مرات قالت له « يا مسيو جرور ، اتزوجني أن رضيت بك زوجاً ؟ » وأجاب كما يجيب أى فرنسي مهذب « يا آنسة ، ألا يكون أى رجل غاية في السعادة إذا أنفق حياته مع امرأة ساحرة مثلك ؟ » ولم يفكر في الأمر أكثر من هذا . ولكنها تركت الجيران يفهمون أنه خطيبها . ولم يطاوعه قلبه على تكذيبها ، فزوجها وظلاً . سبع سنين ينعمان بقسط محقول من السعادة . وكانت ذات جمال مفر ، فاستخدمها راضية موديلاً في كثير من الأوضاع التي لم تكشف عن شيء وإن أعلت لكل شيء . وإنجبت له في تلك السنين ثلاثة أطفال عاش منهم اثنان كانا إلهاما « لفنه .

ويعرفه العالم بصور الأطفال التي رسمها . وعلينا ألا نوقع هنا روعة لوحة فيلاسكوز « دون بلنازار كارلوس »^(٥٨) . أولوحة فاندريك « جيمس الثاني صبياً »^(٥٩) ، لا بل إننا أحياناً قد نصدم بما في بنات جرور من غلو وتهافت في العاطفة ، كما تشهد بذلك « صورة عذراء » المحفوظة ببرلين ، ولكن لم نرفض مافي صورة « البراءة »^(٦٠) من خصل متموجة ، وخدود متوردة . وعيون فيها الحزن والثقة ، أو مافي لوحة « الفلاحة الصغيرة »^(٦١) من بساطة لم يفسمها التبرج ؟ كذلك لأنجد تكلفنا في لوحة « الغلام وكتاب الدرس »^(٦٢) . فهي تصور أى غلام مل واجبا يبدو له مقطوع الصلاة بالحياة . ومن بين ١٣٣ لوحة بقيت من رسوم جرور . اختص البنات بست وثلاثين . وقد اشترى يوهان جيورج فلي ، الحفار الألماني نزيل باريس ، ما استطاع شراء من هذه الصور المثالية للطفولة ، ورآها « أئمن من أروع صور هذا العهد »^(٦٣) « ورد جرور هذه النحية بتصويره السكسوني غير الجذاب مثالا للفحولة . على أن هؤلاء الفتيات يشوبهن التكلف والصنعة إذ يكبرن في فن جرور . مثال ذلك أن « اللبانة »^(٦٤) تبدو في أبهى لباس كأنها تتأهب للذهاب إلى المرقص ، وصبيبة « الحرة المكسورة »^(٦٥) لا داعي (إلا داعي

الجمال) يدعوها للكشف عن حلمة ثديها وهى فى طريقها من البئر . ولكن فى صورة لصوقى أرنو^(٦٦) ، وتبدو القبعة ذات الريش ، والوقفة الأنيقة ، والشفاة القرمزية ، كلها طبيعية .

لقد كان جرورز أشبه بشاردان صغير فيه مسحة من بوشيه ، رجلا معجبا حقيقة بالفضيلة وبجياه الطيبة الوسطى ، ولكنه يكسوها بين الحين والحين لغراء شهوانيا كان شاردان يتجنبه . وكان فى إستطاعة جرورز إذا نسي أجساد نسائه أن ينشد فى صورة أنشودة الحياة العائلية البورجوازية ، كما نرى فى « عروس القرية^(٦٧) » التى ظفوت بأكبر جائزة حين عرضت فى آخر أسبوع لصالون ١٧٦١ ، وأصبحت حديث باريس . وأطراها ديدرو لما فيها من « عاطفة حلوة » وأشاد بها « مسرح الإيطاليين » إشادة لم يسبق لها نظير . إذ قدمها فى « لوحة حية » على المسرح . وقد وجد الخبراء فيها عيوباً — من ضئى لم يحسن المصور التصرف فيه ، إلى الزان متنافرة ، إلى قصور فى الرسم والتنفيذ ، وضحك الارستقراطيون على ما فيها من غلو فى العاطفة ، ولكن جمهور باريس ، الذى كان قد عب فى الزنا حتى الثمالة ، وأبكته فى هذه السنة بعينها « جولى » روسو ، كان فى مزاج يدعو لاحترام النصائح والتحذيرات الخلقية التى كادت تسمع من فم والد العروس إلى زوجها الموعود . وكانت كل عقيلة من عقائل الطبقة الوسطى عليمة بمشاعر تلك الأم وهى تسلم أبنها لمشاق الزواج ومخاطره ، وكل فلاح كان يشعر بأنه ليس غريباً فى ذلك الكوخ الذى تنقر فيه دجاجة وأفراخها الغلة على أرضه أو تشرب فى أطمشان من القدر التى تحت قدم الأب . واشترى مركز دمارينيه الصورة لقوره ، ودفع الملك فيها بعد ذلك ١٦٠٦٥٠ جنيا ليحول دون بيعها بالخارج . وهى اليوم محفوظة بأحدى حجرات اللوفر التى لا تحظى بزوار كثيرين ، وقد أنلفها تغير ألوانها السطحية جداً ، وغض الجمهور من قدرها فى غمرة تمرد الواقعية والكلبة على العاطفة المتفائلة .

وأحس كل فناني باريس تقريباً بأن جرورز حط من شأن الفن لأنه سخره للوعظ من خلال الروايات والقصص بدلا من كشف الحقيقة والطبائع

بنفاذ بصيرة وعدم تحيز . ودافع عنه ديدرو قائلا إنه « أول فنانينا الذي أضنى الخلق على الفن ، وهيا صورته لتروى قصة (٦٨) » . وبلغ به الأمر حد الدهشة والتعجب من المأسى الرقيقة التي رسمها جروز ، فصاح في أسى « لذيذة ! لذيذة ! » حين رأى لوحة « الفتاة الصغيرة تبكى على عصفورها الميت » وكان هو نفسه يدعو لمواضيع الطبقة الوسطى ومشاعرها في الدراما . فأنس في جروز حليفا عظيم القيمة وأطراه حتى فوق إطاره شاردان . وغلا جروز في تصديقه ، فكرر نفسه كأنه رسول الفضيلة والعاطفة ، وأرسل إلى مجلات باريس شروحا طويلة للدورس الاخلاقية في الصور التي كان ينتجها . وأخيرا أستنزف ترحيب جمهور الفن به حتى إبان تسلط العاطفة على مزاج العصر .

وكان خلال فترة السنوات الأثنتى عشرة كلها منذ قبول ترشيحه للأكاديمية قد أهمل أن يقدم لها الصورة التاريخية التي كانت شرطا للعضوية الكاملة ، وكانت الأكاديمية ترى أن الصورة التي ترسم المشاهد المألوفة التي تصف الحياة البيئية أو اليومية تتطلب من الموهبة الناضجة أقل مما يتطلبه التأليف القادر على التخيل ، والتثقل الكفء لمشهد من المشاهد التاريخية . ومن ثم قبلت مصورى مشاهد الحياة اليومية على أنهم « مقبولون agréés » فقط ، ولكنهم ليسوا بعد صالحين للدرجات أو الكراسى الأكاديمية . وفي ١٧٦٧ أعلنت الأكاديمية أن صور جروز سيتوقف عرضها في الصالون البينالى حتى يقدم لها صورة تاريخية .

وعليه ففى « ٢٩ يوليو ١٧٦٩ » قدم جروز صورة لسبتموس سفروس يوبخ ابنه كراكالا لمحاولته اغتياله (٦٩) . وأطلع أعضاء الأكاديمية على الصورة ، وبعد ساعة أبلغه المدير أنه قبل ، ولكنه قال له : « سيدى . لقد قبلت فى الأكاديمية مصورا للمشاهد اليومية . وقد أخذت الأكاديمية فى الاعتبار تفوق صورك السابقة ، وأغمضت عينها عن الإنتاج الحالى غير الحديري بها ولا بك (٧٠) » . وصدى جروز ، فدافع عن لوحته ، ولكن أحد الأعضاء بين الأخطاء فى الرسم . واحتكم جروز إلى الجمهور فى خطاب

لصحيفة « الأفان - كورييه » (٢٥ سبتمبر ١٧٦٩) ، وأخفق شرحه في إقناع الراسخين في الفن ، وحتى ديدرو سلم بعدالة النقد .

والمع ديدرو إلى أن قصور اللوحة راجع إلى أن فشل المصور في زواجه شوش ذهنه . واتهم جابرييل بابوتي بأنها تردت إلى درك المرأة المشاكسة المغرورة ، فاستنزفت مال زوجها بإسرافها ؛ وأرهقته بمضايقاتها ؛ وحطمت عزة نفسه بخياناتها المتكررة^(٧١) . وقدم جروز نفسه لرئيس الشرطة (١١ ديسمبر ١٧٨٥) شهادة خطية يتهم فيه زوجته باستقبال عشاقها بإصرار في بيته ورغم احتجاجاته . وفي خطاب لاحق أتهمها بسرقة مبالغ كبيرة منه ، وبمحاولة « تحطيم رأسى بمبولة^(٧٢) » . وحصل على انفصال شرعى ، وأخذ ابنتيهما في حضانته ، وترك لها نصف ثروته ومعاشا سنويا قدره ١,٣٥٠ جنيتها .

وتدهور خلقه إثر هذه اللطامات ، فبات يضيق بأى نقد ، وفقد كل تواضع في الأشادة بلوحاته . على أن الجمهور وافقه على إعزازة بنفسه ، فأقبل على مرسته وأثراه بشراء صوره ، والنسخ المطبوعة منها . وإستثمر هو مكاسبه في سندات حكومية ، ولكن الثورة أطاحت بقيمة هذه السندات ، وألقى جروز نفسه مملقا ، في حين لإنهارت سوق صوره الممثلة للسعادة والسلام البيتين نتيجة « لا ستغراق فرنسا في العنف الطبقي ، والهياج السياسى ، ورد فعل الكلاسيكية الجديدة . وأنقذته الحكومة الجديدة إنقاذا معتدلا (١٧٩٢) بمعاش قدره ١٥٣٧ جنيتها ، ولكن سرعان مانفذ هذا المعاش فالتمس سلفة ، وجاءت امرأة من الرعاع تدعى إنتيجون لتعيش معه وتعنى بصحته المتدهورة . فلما قضى نحبه (١٨٠٥) كان العالم كله تقريبا قد نسيه ، ولم يرافق جثمانه إلى القبر سوى فنانين اثنين .

(٥) فراجونار

تغلب جان - أونوريه فراجونار على محن النجاح خيرا من جروز ، لأنه كان يفوقه شهوانية وصنعة . وفنه الأنيق هو التمجيد الأخير للمرأة الفرنسية في القرن الثامن عشر .

ولد في جراس بأقليم بروفانس (١٧٣٢) ، فأضنى على فنه أريج وطنه وعبير إزهاره ، فضلا عن عشق التروبادور الرومانسى ، وإضاف إلى هذا كله مرح الباريسيين وتشككهم الفلسفى . وجلب إلى باريس فى الخامسة عشرة فطالب إلى بوشيه أن يقبله تلميذا ، وقال له بوشيه بكل ما وسعه من تلطف إنه لا يقبل غير الطلاب المتقدمين . فذهب فراجونار إلى شاردان ليخذه . وكان فى ساعات فراغه ينسخ الروائع الفنية أينما وجدها . وأطلع بوشيه على بعض هذه النسخ فأعجب بها إعجابا شديدا حملة على قبوله الآن تلميذا ، وجند خياله الفنى فى عمل تصميمات لقطع النسيج المرسومة ، وتقدم الغلام بسرعة حتى حثه بوشيه على دخول المسابقة لنيل جائزة روما . وقدم فراجونار لوحة تاريخية سماها « يربعام يضحى للصنام (٧٣) » . وكانت إنتاجا ممتازا لفتى فى العشرين - فيها الأعمدة الرومانية الفخمة ، والأرواب المناسبة ، ورؤس الشيوخ الملتحية ، أو المعمة ، أو الصلعاء ، وكان فراجونار قد تعلم فى زمن قليل بحيث نرى فى الوجه العجوز من الملامح أكثر من وجه لم تطبعه بعد الرغبة فى الأثارة والاستجابة . ومنحته الأكاديمية الجائزة ، فدرس ثلاث سنين فى مرسم كارل فانلو ، ثم إنطلق فى نشوة إلى روما (١٧٦٥) .

وثبتت همته كثرة الروائع التى وجدها هناك أول الأمر :

« لقد روعتني همة ميكلائجلو - فجاشت فى صدرى عاطفة عجزت عن التعبير عنها ، وحين رايت روائع رفائيل تأثرت إلى حد البكاء ووقع القلم من يدى . وفى النهاية رانت على حالة من التراخى لم أقو على قهرها . ثم ركزت على درس المصورين الذين أتاحوا لى الأمل فى أننى قد أنافسهم يوما ما . وهكذا جذب إنتباهى باروتشيو ، وببيترو داكورتوبا ، وسليينا ، وتيبولو (٧٤) » .

وبدلا من أن ينسخ صور قدامى الفنانين راح يرسم التصميمات أو التخطيطات للقصور ، والقناطر ، والكنايس ، والمناظر الطبيعية ، والكروم ، وأى شئ آخر ، ولا غرور فقد ملك الآن فى استعمال القلم تلك البراعة التى

مستحواله واحدا من أقدر الرسامين وأكملهم في عصر غنى في ذلك الفن الأساسى (*). وقل من الرسوم مالتقط من حياة الطبيعة أكثر من الأشجار الخضراء في فيلا دستى كما رآها فراجونار في تريفولى (٧٥).

فلما عاد إلى باريس عكف على إرضاء الأكاديمية بلوحة تاريخية ، باعتبار هذه اللوحة شرطا لاغنى عنه في قبول الرسام عضوا بها . ووجد المواضيع التاريخية كما وجدها جروز ، لاتناسبه ، فقد اجتنبته باريس جميلة بنسائها الساحرات بأقوى مما اجتنبه الماضى . وكان تأثير بوشيه لايزال حارا في مزاجه . وبعد تلكو كثير قدم لوحة « كبير الكهنة كوريرسوس يضحى بنفسه لينقل كالليروبيه » ؛ ولاحاجة بنسأ للوقوف والاستفسار عن يكون هذا الكاهن وتلك العذراء ، والمهم أن الأكاديمية وجدتهما نابضتين بالحياة مرسومين رسما جيدا ، فنحت فراجونار عضوية مشاركة . وقال ديدرو في حماسة عارمة « لأعتقد أن أى فنان آخر في أوربا كان مستطيعا تصور هذه اللوحة (٧٦) » . واشترأها لويس الخامس عشر لتكون تصميما لقطعة نسيج مرسومة . ولكن فراجونار رفض يده من المواضيع التاريخية ، بل إنه بعد ١٧٦٧ رفض أن يعرض في الصالون ، وقصر إنتاجه كله تقريبا على التكيليفات الخاصة ، حيث يستطيع اطلاق العنان لذوقه من القيود الأكاديمية . ولقد تمرد على تلك « الصلصة البنية » صلصة النهضة الأوربية ، قبل أن يتمرد عليها الرومانسيون الفرنسيون بزمان طويل ، وانطلق في مرجح إلى بحار أرحب وأقل تخطيطا .

ولكنها لم تكن خلوا تماما من التخطيط . فقد فتح فانتو الطريق . من قبل بنسائه اللأى كساهن أثوابا مشرقة وهن منطلقات بضمير . طمئن إلى جزيرة فينوس ، وكان بوشيه قد نهج هذا النهج بحواس مرحلة الحب ، وزواج جروز بين الشهوانية والبراءة . أما فراجونار فقد جمع بين هذه كلها : ففي لوحاته الثياب الهفافة ترف في النسيم ، والغواى الرقيقات يعرضن اللذات الطليقة من كل قيد ، والنبيلات الأنيفات يسحرن الرجال

* كان هذا عصر أئمة النقش والحفر أمثال شارل-نيكولا كوشان ، وجايريل دسانت

أوهان ، وجان - جاك بواسيه ، وشال ايزن - ألمع رسامى الكتب في القرن الثامن عشر .

بحفيف ثوب أو ورقة قميص ، أو بحركة رشيقة متناغمة أو بسمة تلين الأفئدة ، والأطفال السمان المتوردون الشعث ، الذين لم يكتشفوا الموت بعد . وقد صور في رسومه ومنااته كل ناحية تقريبا من نواحي الطفولة — وضع يعانقون أمهاتهم ، وفتيات يدللن عرائسهن ، وصبية يركبون حمارا أو يلعبون مع كلب

وقد استجابت ميول فراجونار العشقية الغالية لطلبات رجال الحاشية المكتهلين ، والتحليلات المتعبات ، من الصور التي تشيد بالجسد وتلهبه . فجال بين أرجاء الأساطير الوثنية بحثاً عن ربات امتنعت أجسادهن الوردية على فعل الزمن . وكانت فينوس ، لا العذراء ، هي التي رفعت الآن في صعود ظافر إلى السماوات . وسطا على نصف شعائر الدين للمرجانات الغرام : فكانت لوحته « القبلة »^(٧٧) صلاة ، و « نذر الحب » عهداً مقدساً ، و « قربان الورد » التقدمة الأخيرة . ومن بين صور أربع رسمها فراجونار لقصر مدام دوباري الريني في لوفسيين كان لإحداها عنوان يصالح لتغطية نصف إنتاج الفنان : « الحب الذي يشعل الكون » . ثم نبش في ملحمة تحرير أورشليم بحثاً عن المشهد الذي تعرض فيه الحوريات مفاتهن أمام رينالدو العفيف . وأصبح هذا الفنان « بوشيه » الفراش ، إذ أبدى النساء نصف عاريات أو عاريات تماماً ، كما يرى في لوحات « الجمال النائم » أو القميص المخلوع أو الباخوسية النائمة^(٧٨) . فلما أدرك أن العرى قد يشع الأوهام تحول من التصريح إلى التلميح ، ورسم أشهر لوحاته « مخاطر الأرجوحة »^(٧٩) ، ففيها يرى العاشق يتفرس بابتهاج في أسرار ثياب عشيقته الداخلية التي تتكشف وهي تتأرجح لأعلى فأعلى ، وتقلد بحفها في الهواء بتحرر لعوب . وأخيراً استطاع فراجونار أن يتمص جروز ، بل وشاردان : فصور النساء المحتشيات ، كما في لوحاته « الدراسة » والمطالعة^(٨٠) . و « قبلات الأم » ، وفي صورة « مدموازيل كولومب » اكتشف أن النساء نفوساً .

وفي ١٧٦٩ ، حين بلغ السابعة والثلاثين ، أذعن للزواج ، فحين قدمت للأنسة جيرار من جراس لدراسة التصوير في باريس ، كان حسبها أن تذكر

سقط رأسها حتى تظهر بالقبول في مرسوم فراجونار . ولم تكن جميلة ، ولكنها كانت امرأة مكتملة النضج ، وقرر « فراجو » (كما كان يسمى نفسه) كما قررت مدام بوفارى ، أنه لا يمكن أن يكون الاكتفاء بامرأة واحدة . مملاً أكثر من الزنا . ووجد متعة جديدة في العمل معها في رسم صور مثل « خطوات الطفل الأولى » وفي التوقيع معها على الصور . فلما ولدت طفلها الأول استأذنته في استدعاء أختها البالغة أربعة عشر عاماً من جراس لتعيّنها على الطفل والبيت ، فوافق وظلت هذه الأسرة سنين تعيش في سلام مزعزع .

ونافس الآن جروز في تصوير الحياة البيئية ، ونافس بوشيه في توصيل هدوء المشاهد الريفية إلى أنظار المشاهدين . ورسم بعض الصور الدينية ، وصور أصدقاءه . وكان في صداقته أثبت منه في حبه ، فلم يفتر قط تعلقه بجروز وروبير ودافيد رغم ما أصابوا من نجاح . وحين نشبت الثورة أهدى صورة وطنية سماها « الأم الطيبة » للأمة . وكادت مدخراته تفقد قيمتها نتيجة للتضخم وتحلف الحكومة في الوفاء بديونها ، ولكن دافيد الفنان الأثير لدى العهد الجديد ، حصل له على وظيفة شرفية صغيرة . وفي نحو هذه الفترة رسم صورته الذاتية الرائعة المعلقة الآن في اللوفر : الرأس قوى ضخيم والشعر أشيب قصير القص ، والعينان مازالتا هادئتين ثقة واطمئناناً . وقدر وعه عصر الارهاب وقززه ، ففر إلى وطنه الأول جراس ، حيث وجد المأوى في بيت صديقه موير وقد زين الجدران بلوحات تعرف في جملتها باسم « رواية الحب والشباب » وقد رسمها خصيصاً لمدام دوبارى ، ولكنها كانت قد رفضتها لأنها لم تحسد في ثرائها السابق ، وهى اليوم من كنوز فريك جالرى بنيويورك .

و ذات يوم من أيام الصيف كان راجعاً من جولة في باريس وقد حمى جسمه وتصيب عرقاً ، فوقف عند مقهى وتناول قطعة من الخبثان وأصيب للتو تقريباً باحتقان في المخ . ونعم بمينة عاجلة (٢٢ أغسطس ١٨٠٦) . وقد أقامت جراس تمثالاً جميلاً لتخليد ذكره ، وتحت قدميه طفل عار ومن خلفه شابة تدوم ثوبها في رقصة مرحة .

أن الفنان لابد أن يدفع ثمنا لرمزه لعصر ما ، فشهرته تضمحل بزوال رغبات العصر المشبوبة ، ولا سبيل إلى عودة هذه الشهرة إلا إذا رفع قدره عاطف البعد ، أو رد تحول في التيار موضة قديمة إلى الذوق الحاضر . وقد زكا فراجونار لأن فنه العارى أو الكاسى أبهج زمانه ، بثلطفه وتزيينه للانحلال ، ولكن الناموس الصارم الذى خضعت له ثورة تقاتل في سبيل الحياة سائر أقطار أوربا ؛ كان في حاجة إلى أرباب غير فبنوس تلهمه ، فوجدوا في أبطال روما الجمهورية ، الشديدى المراس . لقد انتهى عصر المرأة وعاد حكم المقاتل ؛ وأقبل جيل جديد من الفنانين على النماذج اليونانية — الرومانية ، التى أعاد تأليفها فنكلمان ، واكتسح الطراز الكلاسيكى الجديد الباروك والروكوك فى موجة عارمة من الأشكال القديمة .

٦ — الصالونات الكبرى

(١) مدام جوفران

لقد دالت دولة المرأة ، ولكن بعد أن بلغت الصالونات ذروتها . وبلغت تلك المؤسسة الفذة أوجها بـ مدام جوفران ، وانحسرت في حمى من الرومانسى بمدوازيل ديسيناس . وستنتعش بعد الثورة بالسيدتين دستال وريكاميه ، ولكنها لن تدرك أبدا فتنه وخصوبة تلك الفترة التى كان يلتقى فيها مشاهير الساسة في أيام السبت بـ الصالونات مدام دوديفان . والفنانون في أيام الإثنين والفلاسفة والشعراء أيام الأربعاء بـ صالون مدام جوفران ، والفلاسفة والعلماء أيام الثلاثاء بـ صالون مدام هلفتيوس ، وأيام الأحد والخميس بـ صالون البارون دولباخ ، وفحول الأدب وأقطاب السياسة أيام الثلاثاء بـ صالون مدام نكير . وقد يلتقى أى منهم في أى ليلة بـ صالون جولى دليسيناس . وإلى هذه الصالونات كان هناك الكثير من الصالونات الصغرى : كـ صالونات السيدات دلكسمبورج ودلافالير ، ودفور كالكييه ودالمون ، ودبرولى ، ودبوسى ، ودكروسول ودشوازيل ، ودكامبيس ودميروا ودبوفور ، ودانفيل ، وديجيون ، ودودوتو ودمارشيه . ودوبان ، وديبينيه .

ولم يكن الجمال هو الذى زين ربات الصالونات هؤلاء ، فقد كان جلهم

نساء نصفاً أو أكبر ، إنما هو ذلك المركب من الذكاء ، واللباقة ، والكياسة والنفوذ والمال غير المتطفل ، الذى مكن للمضيقة أن تجمع نساء ذوات فطنة وسحر ، ورجالا ذوى عقول راجحة يستطيعون أن يجعلوا اجتماعاً أو مجلس شمر يتألق ظرفاً أو حكمة دون أن يؤججوه انفعالا أو تعصباً . ولم يكن الصالون منها مكانا للمغازلات ولا للمواضيع العشقية أو التوريات .^(٨١) فقد يكون لكل رجل فيه خليلة ولكل امرأة عشيق ، ولكن هذا كان يستر بأدب فى التبادل المتحضر للمجاملات والأفكار . وكانت الصداقات الأفلاطونية تستطيع أن تجدد القبول هناك . كما كان الحال مع دودفان وهوراس ولبلول ، أو مع ليسييناس ودالامير . وباقتراب الثورة نزع الصالونات إلى فتدان تسامها المادى وأصبح مراكز للتمرد .

وزادت شهرة صالون مدام جوفران لأنها كانت أبرع مروضى السباع بين رببات الصالونات ، ولأنها أتاحت للرواد مزيدا من حرية النقاش ، ولأنها عرفت كيف تمنع الحرية من تجاوز حدود السلوك المهذب أو الذوق السليم — دون أن تبدو مستبدة . وكانت إحدى النساء القليلات اللاتى برزن من الطبقة الوسطى ليحتفظن بصالون مرموق . وكان أبوها ، وصيف الدوفيتة مارى — آن ، قد تزوج بابنة مصرفى ، وأول من رزقا من أطفال فى ١٦٩٩ هى مارى — تريز ، التى أصبحت فيما بعد مدام جوفران . ووضعت أمها ، وكانت امرأة مثقفة موهوبة فى التصوير ، الخطط الطموحة لتنشئة ابنتها . ولكنها ماتت عام ١٧٠٠ وهى تلد صبيا . وأرسل الطفلان ليعيشا مع جدتهما فى شارع سانت — أونوريه — وبعد نصف قرن عللت مدام جوفران افتقارها إلى التبهر فى الثقافة فى خطاب أجابت به ماطلته كاترين الثانية فى سيرة ذاتية موجزة لها .

« لم تحظ جدتى . . . إلا بنصيب ضئيل من التعليم . ولكن كان لها عقل أوتى من قوة الملاحظة ، والذكاء ، والسرعة . . . ما جعلها دائما باديلا عن المعرفة . وكانت تتحدث حديثاً لطيفاً جداً عن أمور لا تعرف عنها شيئا حتى لم تترك زيادة لمستزيد . . . وبلغ رضاؤها عن

حفظها مبلغا جعلها ترى التعليم نافلة لا تحتاج اليها المرأة . وكانت تقول « لقد وفقت توفيقاً لم يجعلني أشعر قط بحاجة اليه . فاذا كانت حفيدتي حمقاء فستجعلها المعرفة معتدة بذاتها لا يطيعها أحد ، وإذا كان لها ذكاء وفطنة فسوف تسلك كما سلكت ، وسوف تعوض النقص بباقتها ونفاذ بصيرتها ، ومن ثم فإنها في طفولتي لم تعلمني غير القراءة ، ولكنها جعلتني أقرأ كثيراً ، وعلمتني أن أفكر ، وأن أجادل ، وعلمتني أن أعرف الرجال وجعلتني أعرب عن رأيي فيهم ، وأخبرتني كيف تحكم هي عليهم . . . وما كانت تطيق ضروب النظرف التي يعلمها مدرسو الرقص ، وكل ما تمتنني لي هو أن تكون لي الرشاقة التي تهبها الطبيعة للمرأة الحسنة الحلقة (٨٧) .

وأحسنت الجدة أن الدين أهم من التعليم ، ومن ثم كان الطفلان اليتيمان يؤخذان لحضور القداس كل يوم .

كذلك أهتمت الجدة بزواج ماري . ذلك أن رجل أعمال غنيا يدعى فرنسوا جوفران ، في الثامنة والأربعون من عمره ، تقدم للزواج من الفتاة ذات الثلاثة عشر ربيعاً ، ورأت الجدة في ذلك العرض صفقة طيبة ، وكان في تربية ماري وتهذيبها المفرط ما منعها من الاعتراض . على أنها أصرت على أن تصحب معها أخاها إلى بيت السيد جوفران المريح ، الواقع في شارح سانت - أوثوريه أيضاً ، والذي قدر لها أن تقوم عليه إلى نهاية عمرها . وفي ١٧١٥ أنجبت ابنه ، وفي سنة ١٧١٧ أبنا - مات في العاشرة .

وفي ذلك الشارع العصري ذاته افتتحت مدام دنانسان صالونا مشهورا . ودعت إليه مدام جوفران فأعرض زوجها . ذلك أن ماضي مدام دنانسان كان قد أحدث بعض الضجة ، وأن ضيوفها الأثريين كانوا من أحرار الفكر أمثال فونتينيل ، ومونتسكيو ، وماريفو ، وبريفوست ، وهلفيتيوس ، ومارمونتيل . على أن مدام جوفران ذهبت برغم ذلك ، فلقد بهرتا هذه العقول الطليقة من كل قيد : فما كان أثقل أولئك التجار الذين يأتون لزيارة

زوجها الشيخ بالقياس إلى هؤلاء ! وكان الآن قد بلغ الخامسة والستين ، وهي لم تزل « امرأة الثلاثين » كما يقول بلزاك . وبدأت هي أيضاً تستضيف الزائرين . فاعترض ، ولكنها تغلبت عليه ، وأخيراً ارتضى أن يترأس على حفلات عشائها ؛ صامتا عادة ومؤديا دائماً . فلما مات (١٧٤٩) في الرابعة والثمانين ، لم يكده ضيوفها يلحظون غيابه . واستفسر أحد رواد الصالون حين عادو من رحلة عما أصاب السيد العجوز الذى كان يجلس فى استحياء شديد على قمة المائدة . وأجابت مدام جوفران برفق « أنه كان زوجى ، وقد توفى (٨٣) » .

كذلك طوت مدام دتنسان رحلة الحياة عام ١٧٤٩ ، مما فرغ له ضيوفها المعتادون . ويجب أن نذكر ثانية تلك الملاحظة التى أبداهها فونتينيل الذى بلغ يومها الثمانية والتسعين : « امرأة طيبة جداً (مع أنها كانت تركيبة من الآثام الحقيقية .) ياله من خطب مقلق ؟ فأين أتناول غدائى الآن أيام الثلاثاء ؟ » ولكن أساريه انفرجت وقال : « حسنا ، فى أيام الثلاثاء يجب أن أتناول الغداء فى بيت مدام جوفران (٨٤) » . وقد أبهجها أن يحضر ، لأنه كان « فليسوفا » قبل مونتيكيو وفولتير ، يحتفظ بذكريات تمتد إلى مازاران ، وقد بقى له من الأجل سبع سنوات ؛ وكان فى وسعه أن يحتمل المعاكسة دون أن يتأذى منها لأن سمعه ثقل . وحذا حذوه أكثر مشاهير القوم الذين تألقوا على مائدة دتنسان ؛ وسرعان ما جمع غداء أربعاء جوفران ، فى وقت أو آخر ، مونتيكيو ، وديدرو ، ودولباخ ، وجريم ، وموريلليه ؛ ورينال ، وسان - لامبير ؛ والأبيرة فرديناندو جاليانى ؛ النابولى القصير الأريب ؛ سكرتير السفير النابولى فى باريس .

وعقب موت زوجها ، ورغم معارضة أبنائها الساخطة . سمحت مدام جوفران لديدرو ، ودالامبير ، وما رمونتييل ، بأن يقرروا خط النقاش ونبرته فى حفلات غداها أيام الأربعاء . لقد كانت وطنية ومسيحية ، ولكنها أعجبت بشجاعة الفلاسفة وحيويتهم . فلما نظمت « الموسوعة » تبرعت بأكثر من ٥٠٠,٠٠٠ جنيه فى نفقاتها وأصبح بيتها يعرف بـ « صالون

الموسوعة » ، وحين هجا باليسر المتمردين في هزلية « الفلاسفة » (١٧٦٠) سخر منها في شخصية سيد البر ، الجنينة عرابة « الشلة » . وبعدها طلبت إلى سباعها أن يزأروا بأدب أكثر من ذى قبل ، وكبحت البلاغة الجاحمة بعبارة مجاملة خففت من غلوائهم ... « آه ، هاهنا شيء طيب (٨٥) » ! وأخيراً سحبت دعوتها الدائمة المبدرو ، ولكنها أرسلت إليه طقماً من الأثاث الجديد وروباً فخماً فخامة غير مريحة .

وأكتشفت أن الفنانين والفلاسفة ، ورجال الأعمال ، لا ينسجمون إذا اجتمعوا معاً ، فالفلاسفة يحبون النقاش والثرثرة . والساسة يتوقعون التحفظ والتأدب ، أما الفنانون فقييلة صحابة لا يستطيع فهمهم غير الفنانين . وعليه فإن المدام ، التي كانت جماعة للفن والتقطت شيئاً من حرارة الجاليات من الكونت دكايلوس ، دعت أقطاب الفن وذواقيه الباريسيين إلى حفلات عشاء خاصة في أمسيات الاثنين . ولبي الدعوة بوشيه ، ولاتور ، وفرنيه . وشاردان ، وفانلو . وكوشان ، ودرويه ، وروبير ، وأودريه ، وناتيه . وسوفلو ، وكايلوس . وبوشاردون ، وجروز . وكان مارمونتيل الفيلسوف الوحيد الذى سمح له بحضور هذه الحفلات لأنه كان يسكن في بيت مدام جوفران ، ولم تكن المضيئة اللطيفة بالاحتفاء بضيوفها ، بل إشتت أعمالهم وجلست إليهم ليصوروها ، وأجزلت لهم الأجر ، وصورها شاردان خيراً من سائر الفنانين . سيدة بدينة لطيفة في قبعة من الدانتيل (٨٦) .

وبعد موت فانلو أشتت صورتين من صوره بأربعة آلاف جنيه . ثم باعتهما للأمير روسى بخمسين ألف جنيه ، وأرسلت الربح لارملة المصور (٨٧) .

واستكمالاً للضيافة كانت مدام جوفران تقيم « حفلات عشاء صغيرة » لصديقاتها . ولكنها لم تدع نساء الحفلات الاثنين . وكانت مدهوازيل دليسيناس (ربما بوصفها نفس دالامير الثانية) من النساء القليلات اللاتي حضرن أمسيات الأربعاء . ذلك أن المدام كانت على شيء من حب التملك ،

ثم لما وجدت أن حضور الأناث يصرف سباعها عن الفلسفة والفن . وبذا أن سياسة الفصل بين الجنسين التي انتهجتها قد بررها ما كسبته ندواتها من صيت ذائع بالمناقشات الطريفة الهامة . واحتال الأجانب في باريس للظفر بدعوات إلى صالونها ، ذلك أن مباهاتهم ، بعد عودتهم إلى أرض الوطن ، بأنهم اختلفوا إلى صالون مدام جوفران ، كانت تشريفا لا يفوقه إلا شرف المثول بين يدي الملك . وكان هيوم ، وولبول ، وفرانكلن ، من بين ضيوفها الشاكرين . وحرص السفراء لدى بلاط فرساي - حتى الكونت فون كاونز الرقيق المقام - على تقديم أنفسهم في ذلك المنزل المشهور في شارع سانت - أوثوريه . وفي ١٧٥٨ أصطحب الأمير كانتيمير ، السفير الروسي ، أميرة أنهالت تسربت التي حدثت القوم بفضائل أبنتها ، ولم تنقضي أربعة أعوام حتى أصبحت هذه الأبنة كاترين الثانية ، وظلت إمبراطورة الأقاليم الروسية كلها سنين طوالا بعد هذا ، تبادل ربة الصالون البورجوازية الرسائل الساحرة . وعاد سويدي جميل ذكي ممن اختلفوا إلى بعض ولا ثم المدام إلى وطنه ليصبح جوستاف الثالث .

وثمة شاب أجمل هو ستانيسلاس يونايتوفسكي كان كثير التردد إلى كاد يكون من عباد مدام جوفران (التي كانت أحيانا تؤدي عنه ديونه^(٨٨)) ، وما لبث أن اعتاد أن يناديا « ماما » ، فلما أصبح ملسكا على بولندة (١٧٦٤) دعاها إلى زيارة وارسو ضيفا عليه . فلبث الدعوة مع أنها بلغت الآن الرابعة والستين . وأقامت في طريقها بفينا فترة ، وكتبت تقول « أن القوم يعرفونني هنا خيرا مما يعرفني جيرانى على ياردين من بيتي^(٨٩) » . وظلت حيناً في القصر الملكي بوارسو (١٧٦٦) تقوم من الملك مقام الأم والمشييرة . وتبادل الناس الرسائل التي بعثت بها إلى باريس كما تبادلوا الرسائل التي بعثت بها فولثير من فرنيه ، وقد كتب جريم يقول : « إن الذين لم يقرأوا رسائل مدام جوفران لم يكونوا أهلا لمخالطة المجتمع الراقى^(٩٠) » . فلما قفلت إلى باريس واستأنفت ولائها : إتهج عشرات من مشاهير القوم ، ونظم بيرون ودليليل القصائد احتفاء بعودتها .

وكانت الرحلة شاقة - فقد أستقلت مركبة اخترقت نصف أوروبا طولا

ثم عادت بها إلى وطنها ، ولم تعد مدام جوفران قط بعدها إلى سابق تيقظها ومرحها . وراحت الآن تجدد حرصها على العبادة الكاثوليكية ، وهى التى أعربت من قبل عن إفكارها الحياة بعد الموت^(١١) ، وأحالت الدين محبة وبراً بالناس . وقد وصف ما رمونتيل نقواها الغربية فقال :-

« لكى ترضى السماء دون أن تغضب مجتمعها ، ألقت العكوف على لون من العبادة المستورة . فتذهب إلى القديس سرّاً كما يذهب غيرها إلى مؤامرة ، ولها شقة فى دير ومقعد خاص فى كنيسة الكبرشين تتكتم أمرها كما تتكتم النساء العاشقات فى تلك الأيام عش غرامهن^(١٢) .

وفى سنة ١٧٧٦ أعلنت الكنيسة الكاثوليكية يوبيلاً يتلقى فيه كل من يزورون كنائس معينة فى أوقات مقررة الحل والغفران . وفى ١١ مارس حضرت مدام جوفران صلاة طويلة فى كندرائية نوتردام . وعقب وصولها إلى بيتها أصابها نوبة فالج . وغضب جماعة الفلاسفة لأن مرضها جاء عقب قيامها بالعبادة ، وعلق الأبيه موريليه تعليقاً لاذعاً « لقد أكدت بالقدوة صدق القول المأثور الذى كثيراً ما رددته « أن المرء لا يموت إلا بفعل من أفعال العبادة^(١٣) . وتكفلت أبنيتها المركيزة دلافرتيه — يامبو بأمرها المريضة ، وحذرت الفلاسفة من زيارتها . ولم تقع عيننا المدام ثانية على دالامبير ولا موريليه ، ولكنها رتبت زيادة فى المعاشات التى كانت تجريها عليها بعد موتها . ولمتد بها الأجل عاماً آخر ، مشلولة عاجزة ، ولكنها ظلت توزع صدقاتها إلى النهاية .

ب - مدام دودفان

كان هناك صالون واحد فى أوروبا يستطيع أن ينافس صالون مدام جوفران شهرة ومريدين وقد سبق أن درسنا سيرة وخلق مارى ديفيشى — شامرون : وكيف أنها وهى صبية أفرغت الراهبات والقساوسة بحرية فكرها ، وكيف تزوجت المركيز دودفان ، وهجرته ، والتمست السلوى لوحدها فى صالون (١٧٣٩ وما بعدها) ، بشارع بون أولا ، ثم (١٧٤٧) بدير سان جوزيف

بشارع سان دومنيك. وروع هذا الموقع الجديد الذي اختارته لصالونها جماعة الفلاسفة الذين كانوا يأتون ليستمتعوا ببيلدها وظرفها ، إلا واحداً منهم هو دالامير ، الذي ظل يتردد عليه لأنه كان أقل أفراد هذه القبيلة مشاغبة وعدوانا . أما باقي الرواد فكانوا رجالا ونساء من الطبقة الارستقراطية ، يميلون إلى التعالى على مدام جوفران لأنها بورجوازية . وحين كف بصر المركيزة وهى فى السابعة والخمسين (١٧٥٤) واصل أصدقائها الاختلاف إلى حفلات عشائها ولكنها خلال باقى الأسبوع أحست وقع الوحدة فى جزع متزايد ، إلى أن أقنعت ابنة أخيها بالإقامة معها ، والقيام بدور المضيفة المساعدة فى أمسياتها :

وكانت جولى دليسيناس الابنة غير الشرعية للكونتيسة دالبون وجسبار دفيشى ، أختى مدام دودفان ، واعترفت الكونتيسة بها ، وربتها مع أطفالها الآخرين ، وأتاحت لها تعليما ممتازا ، وحاولت إقرار شرعيتها ، ولكن إحدى بناتها اعترضت فأخفقت المحاولة . وفى ١٧٣٩ تزوجت هذه الأخت غير الشقيقة من جسبار دفيشى وذهبت لتعيش معه فى قصر شامبرون الرينى ببرجنديا . وفى ١٧٤٨ ماتت الكونتيسة بعد أن أوصت بمعاش سنوى قدره ثلثائة جنيه لجولى البالغة آنذاك السادسة عشرة . وأخذت مدام دفيشى جولى إلى شامبرون ، ولكنها عاملتها على أنها فتاة يقيمة غير شرعية تستخدمها مربية للأطفال . فلما زارت مدام دودفان شامبرون راعها ما آتته فى الآتسة دليسيناس من عقل نير وساوك مهذب ، وكسبت ثقة الفتاة ، وعلمت أنها تشقى فى وضعها الراهن شقاء حملها على أن تدخل ديرا . واقترحت المركيزة أن تأتى جولى وتعيش معها فى باريس ، واعترضت الأسرة مخافة أن ترتب دودفان تقرير شرعية جولى فيخول لها هذا حقاً فى نصيب من تركة ألبون . ولكن المركيزة وعدت بأنها لن تسيء إلى أقربائها بعمل كهذا . ودخلت جولى أثناء ذلك ديرا (أكتوبر ١٧٥٢) لا كراهبة مبتدئة بل كتلميذة فى القسم الداخلى . وجددت المركيزة اقتراحها . ووافقت جولى بعد عام من التردد . وفى ١٣ فبراير ١٧٥٤ أرسلت لها المركيزة رسالة غريبة يجب أن تذكرها ونحن نحكم على ما تلاها :

« سأقدمك على أنك شابة من إقليمى تريدن دخول دير ، وسأقول لاني

قدمت لك مسكنا حتى تجدى مكانا مناسباً لك . وستعاملين بأدب ، بل بمعاملة .
وفى وسعك أن تعتمدى على فى أن أحدا لن ينال من كرامتك .

على أن هناك نقطة أخرى على أن أشرحها لك . فأننا لا أطيق أى
خداع ، ولو كان مكرافطيفاً جداً ، إن كنت تخطئيه بسلوكك . وأنا بطبعى
شكاكه ، أشبه فى كل من أكشف فيهم المكر إلى أن أفقد كل ثقة فيهم . إن لى
صديقين حميمين — فورمون ودالامير ، أحبهما حبا جما ، لا للطفهما
وصداقتهما بقدر ما أحبهما لصدقهما المطلق . عليك إذن يا مليكتى أن تعزى
العيش معى بغاية الصدق والإخلاص ... قد تظنين أننى أعظمك ، ولكنى
أؤكد لك أننى لا أفعل هذا أبداً إلا فيما ينصل بالإخلاص . فى هذا لا تأخذنى
رحمة بأحد . (٩٤)

وفى أبريل ١٧٥٤ أتت جولى لتسكن مع مدام دودفان ، أولا فوق سقيفة
الهربات ، ثم فى حجرة فوق شقة المركزة فى دير سان جوزيف . وقرر لها
دوق أورليان معاشاً قدره ٦٩٢ جنيه^(٩٥) ، ربما بناء على اقتراح المدام .
وكانت تعين المضيفة المكفوفة على استقبال ضيوفها وإجلالهم فى ندواتها ،
وأضفت الإشراف على أعمال الندوة باطلف سلوكها وسرعة بديتها ونضارة
شبابها وتواضعه . ولم تكن ذات جمال بارع ، ولكن عينيها السوداوين
المتألفتين وشعرها البنى الغزير ألفا مزيجاً فتاناً . فكاد يقع فى غرامها نصف
الرجال الذين اختلفوا إلى الندوة ، حتى فارس المدام الأمين العجوز شارل ...
جان فرنسوا اينو ، رئيس محكمة العرائض ، صاحب الأعوام السبعين ،
المتوجع أبداً ، التلأبداً بالكثير من النبيذ . وتقبلت جولى مجاملاتهم بما يجب من عدم
الأكتراث ، ولكن رغم ذلك فإن المركيزة الشديدة الحساسية فى عماها لا بد
قد شعرت بأن بعض العبادة قد انتقلت من عرشها . وربما دخل فى الأمر عنصر
جديد : ذلك أن المرأة المسنة كانت قد بدأت تحب الشابة حبا لا يرضى بشريك
له . وكانت كلتاها تلهب بالعاطفة المشوبة ، رغم أن المركيزة أوتيت عقلا من
أكثر عقول العصر رجاجة ونفاذاً .

ولم يكن مناص لجلولى من أن تحب . أولا لإرلنديا شابا لا نعرف عنه

غير اسمه تاف . فبعد أن قبل في الصالون كان يختلف إليه كل يوم تقريبا . وسرعان ما تبين للمركيزة أنه لا يأتي لمشاهدتها بل لمشاهدة المسموازيل ، وروعاها أن ترى أن جولى قبلت تودده بالرضى . فحذرتها من تعريض نفسها للخطر . وأنكرت الفتاة المتكبرة نصيحة الأم . وإذ خافت المركيزة أن تفقدها وحرصت على حمايتها من غرام عات لا يرجى دوامه ، أمرت جولى بأن تلزم حجرتها إذا جاء تاف . فأطاعت ، ولكن المشاجرة أثارت فيها من الانفعال ما حملها على تعاطى الأفيون لتهدئ أعصابها . وقد شاع استعمال الأفيون في القرن الثامن عشر مهدئا ، ولكن الآنسة ليسبيناس ضاعفت جرعاتها مع كل غرام جديد .

وألفت أن تسلو تاف ، ولكن غرامها الجديد دخل التاريخ ، لأنه أصاب الرجل الذى اصطفته مدام دودفان لنفسها في حب أموى ولكنه شديد التلك . وكان هذا الرجل ، جان لورون دالامبير ، في عام ١٧٥٤ قد بلغ أوج شهرته رياضيا ، وفيزيائيا ، وفلكيا ، ومحورا في تلك « الموسوعة » التى كانت حديث باريس المثقفة بأسرها . وقد قال فولتير عنه ، في لحظة تواضع ، إنه « أعظم كتاب القرن » ^(٩٦) ومع ذلك لم يؤث شيئا من فرص فولتير . فقد ولد ولادة غير شرعية ، وأنكرته أمه مدام دتانسان ، ولم ير أباه منذ طفولته . وعاش بوجوازيا بسيطا في بيت الزجاج روسو . وكان وسيما ، حسن الهندام ، جهم الأدب ، مرحا أحيانا ، في وسعه أن يخوض في أى موضوع مع أى متخصص تقريبا ، ولكن في وسعه أيضا أن يخفى علمه وراء واجهة من القصص ، والتقليد الساخر ، والنكتة الدكية . وفيما عدا ذلك لم يصلح العالم إلا قليلا . فقد أثر استقلاله على رضى الملوك والملكات ، وحين قامت مدام دودفان بحملة لتدخاها الأكاديمية الفرنسية أبى أن يضمن الحصول على صوت إينو بتقريظ كتابه « مختصر كرونولوجى لتاريخ فرنسا » (١٧٧٤) وكان فيه عرق من الهجاء جعل فكاهته لاذعة أحيانا ^(٩٧) فقد ينفذ صبره ، ويبيت أحيانا عذيفا في ثورته على خصومه ^(٩٨) ، ولم يعرف قط ما الذى يجب أن يقوله أو يفعله حين ينفرد بالنساء ، ومع ذلك فلان حياه اجتذبتهن ، كأنما بتحديثه لقوة تأثير مفاتهن .

وقد راع مدام دودفان منه في أول لقاءها به (١٧٤٣) اتساع ذهنه ونصوع تفكيره . وكانت يومها في السادسة والأربعين ، وهو في السادسة والعشرين . فكتبته « قطها الوحشي »^(١٩) ولم تكتف بدعوته لصالونها بل دعتة أيضاً إلى تناول الطعام معها على انفراد ؛ وأقسمت بأنها على استعداد « لتنام اثنتين وعشرين ساعة من الأربعة والعشرين ، ما دمتا ننفق الساعتين الباقيتين معاً »^(٢٠) وكان قد انقضى على هذه الصداقة الحميمة أحد عشر عاماً حين دخلت جولى حياتهما .

كان هناك رباط طبيعي بين الابن الطبيعي والابنة الطبيعية . وقد دون دالامبير هذه الحقيقة وهو يسترجع ذكرها فيما بعد :

« كان كلانا يفتقد والدين والأسرة ، ولذا عانينا الهجر ، وسوء الطالع . والشقاء منذ ولادتنا ، بهذا أن الطبيعة بعثت بنا إلى العالم ليجد الواحد منا صاحبه ، وليكون له كل ما افقده ، وانقف معا كأننا صفصافتان ، أحنتهما العاصفة دون أن تتعلمهما ، لأنهما في ضعفهما تشابكت أغصانهما »^(٢١) .

وأحس بهذا الانجذاب لأول نظرة تقريبا . كتب لها عام ١٧٧١ يقول :-
« إن الزمن وطول الألفة يبليان كل الأشياء ، ولكنهما عاجزان عن أن يمسا حبي لك ، وهو حب الحمته قبل سبعة عشر عاماً »^(٢٢) ومع ذلك تريت تسع سنوات قبل أن يفصح عن غرامه ، وحين فعل كان ذلك بطريقة غير مباشرة . كتب لها من بولسدام في ١٧٦٣ يقول : أن له في رفض دعوة فردريك له أن يصبح عميلاً لأكاديمية برلين للعلوم « ألف سبب ، منها سبب لا يخطر لك أن تحزريه »^(٢٣) وتلك زلة في الدكاء تستغرب عن دالامبير : فهل في الوجود امرأة لا تعرف أن رجلا من الرجال يهواها ؟

وأحست مدام دودفان ذلك الود المتزايد بين ضيفها المقدر وأبنة أخيها المحروسة ، كذلك لحظت أن جولى تغدو محور النقاش والاهتمام في الصالون . وظلت برهة لا يبدر منها لوم ولا عتاب ، ولكنها في رسالة إلى فولتير (١٧٦٠) أبدت ملاحظات مرة حول دالامبير . وسمحت لصديق أن يقرأ على ضيوفها

قبل وصول دالامبير جواب فولتير الذى أشار إلى ملاحظاتها . وإذا دالامبير يدخل بمجرد البدء فى القراءة ويسمع الفقرة الثامنة ، فضحك مع الضاحكين ، ولكنه تأذى ، وحاولت المركيزة استرضاءه ، ولكن الجرح لم يندمل ، فلما زار فردريك عام ١٧٦٣ كانت رسائله يومية تقريبا إلى الأنسة ديليسبناس ، نادرة إلى المدام . وبعد عودته من باريس ألف أن يزور جولى فى شقتها قبل أن يهبط إلى الصالون ، وكان طورجو أو شاستلوكس أو رمارمونتيل يصحبونه أحيانا فى هذه الزيارات الحميمة . وشعرت المضيفة العجوز أن الذين أعانهم وأحبهم يخونونها . ونظرت الآن إلى جولى كأنها عدو لها ، وكشفت عن شعورها بطرق مثيرة كثيرة — كفتور لهجتها فى الحديث معها ، ومطالبها الثافهة منها ، وتذكيرها إياها بين الحين والحين باعتمادها عليها . أما جولى فقد ازداد ضيقها يوما بعد يوم بهذه « العجوز العياء الغضوب » ، وبالتزامها بأن تكون دائما فى متناولها أو على مقربة منها لتبلى حاجة المركيزة فى أية ساعة . وزادها مرور الأيام تعاسة على تعاسة ، إذ كان لكل يوم لدعته . وقد كتبت فى تاريخ لاحق تقول « كل ألم يتغلغل إلى الأعماق ، أما اللذة فطائر سريع الفرار »^(١٠٤) وفى ثورة أخيرة من ثورات غضب المدام إهمتها بخداعها فى بيتها وعلى نفقتها . وردت جولى بأنها لم تعد قادرة على العيش مع من تنظر إليها هذه النظرة . وفى يوم من أوائل مايو ١٧٦٤ غادرت المنزل بحثا عن مسكن آخر . أما المركيزة فقد جعلتها قطيعة لا رجعة فيها باصرارها على أن يختار دالامبير بينها أو بين جولى ، فغادر البيت ، ولم يعد إليه قط .

وبدا حيناً أن الصالون القديم قد جرح جرحا مميتا بهذين البترين ، وواصل معظم رواده زيارة المركيزة ، ولكن العديد منهم — كالمرشالة دلكسمبورج ، والدوقة دشايتون ، والكونتيسة دبوليه ، وطورجو ، وشاستلوكس ، بل حتى إينو — ذهبوا إلى جولى ليعربوا عن تعاطفهم واهتمامهم المستمر بها ، وتخلص الصالون فلم يحو غير قدامى الأصدقاء والأوفياء منهم ، والوافدين الجدد الذين يسعون إلى التميز والطعام الطيب . وقد وصفت المدام هذا التغيير فى ١٧٦٨ فقالت :

« كان هنا بالأمس إثنا عشر شخصا ، وأعجبت بمختلف أنواع الحديث المتناهية ودرجاته . كنا جميعاً مغفلين كبارا ، كل في بابه ... كنا مملين غاية الإملال . وانصرف الإثنا عشر جميعا في الساعة الواحدة ، ولكن أحداً منهم لم يخلف وراءه أسفا ... ان بون — ديفيل صديق الوحيد ، وهو يقتلني ضحيراً ثلاثاً أرباع الوقت » . (١٠٥)

إنها لم تكن للحياة أى حب على الإطلاق منذ انطفأ نور عينيها ، أما الآن ، وبعد أن انفض عنها أعز أصدقائها ، فقد تردت في حالة من القنوط الساخر الذى لا شفاء منه . فلعلت اليوم الذى ولدت فيه كما فعل أيوب « إن عمى وشيخوختى هما أقل ما رزئت به من أحزان ... فليس هناك غير خطب واحد . . . هو أننى ولدت . » (١٠٦) ونحرت من أحلام الرومانسيين والفلاسفة على السواء — لا من « هلويز ، وروسو وقسيسه السافواوى » فحسب ، بل من حملة فولتير الطويلة في سبيل « الحقيقة » قالت : « وأنت يا مسيو فولتير . عاشق الحقيقة المعلن ، قل لى بأمانة ، هل وجدتها ؟ إنك تخارب الأخطاء وتهلمها ، ولكن ماذا تحمل محلها ؟ » (١٠٧) لقد كانت شكاكه ، ولكنها أثرت الشكاكين المعتدلين أمثال مونتيني وسانت — إفرمون على الثوار العلوانيين كفولتير وديدرو .

وخالت أنها نقضت يديها من الحياة ، ولكن الحياة لم تنفض يديها منها تماماً . فقد بعث صالونها بعثا متقطعا خلال وزارة شوازيل ، حين تجمع أقطاب الحكم حول المركزية العجوز ، وجاءت صداقة دوقه شوازيل الرقيقة ببعض النور الذى أشرق وسط تلك الأيام الخالكة . وفي ١٧٦٥ بدأ هوراس ولبول يختلف إلى ندواتها ، وشعرت نحوه شيئاً فشيئاً بمنحة غدت آخر تشبث مستميت لها بالحياة . ونرجو أن نلقى بها ثانية في ذلك التجسد الأخير المذهل .

الآنسة داليسبيناس

اختارت جولى لمسكنها الجديد بيتا ذا طوابق ثلاثة عند ملتقى شارع بلشارش بشارع سان — دومنيك، ولم يكن يبعد غير مائة ياردة من بيت المركزية الديرى .

ولم تبلغ معاناتها مبلغ الإملاق ، فقد تلقت بالإضافة إلى عدة معاشات صغيرة ، معاشين مقدارهما ٢,٦٠٠ جنيه من « دخل الملك (١٧٥٨ و ١٧٦٣) » ، بناء على إلحاح شوازيل فيما يبدو ، ثم إن مدام جوفران وهبتها بناء على اقتراح دالامبير راتبين سنويين منفصلين مقدارهما ألفا جنيه وألف كراون . وأعطتها المرشالة دلكسمبورج طقما كاملا من الأثاث .

وما إن استقرت جولى فى مسكنها الجديد حتى أصيبت بالجدري لإصابة شديدة . كتب ديفد هيوم إلى مدام دىوفليه يقول « أن الأنسة دليسيديناس مريضة مرضاً خطراً ، ويسرنى أن دالامبير نسى فلسفته فى لحظة كهذه » (١٠٨) والواقع أن الفيلسوف كان يمشى مسافة طويلة كل صباح ليقوم على خدمتها إلى جوار فراشها حتى ساعة متأخرة من الليل ، ثم يعود إلى حجراته فى بيت مدام روسو . وتماثلت جولى للشفاء ، ولكنها باءت ضعيفة عصبية باستمرار وغلظت بشرتها وشابتها الندوب . وفى وسعنا أن نتصور ما يعنيه هذا للمرأة لم تتجاوز الثانية والثلاثين ولم تتزوج بعد .

وقد شفيت فى الوقت المناسب لتعنى بدالامبير الذى لزم فراشه فى ربيع ١٧٦٥ لآثر ألم فى معدته أشرف به على الهلاك . وراع مارمونتيل أن يراه ساكنا « حجرة صغيرة سيئة الإضاءة ، سيئة التهوية ، تحوى سريرا ضيقا جدا كأنه للنمش . » (١٠٩) وعرض صديق آخر هو المالى قاتلية على دالامبير أن يستعمل بيتا فسيحا قرب التامبل . وارتضى الفيلسوف الآن فى أسف أن يترك المرأة التى آوته وأطعمته منذ طفولته . وقال دوكلو فى دهشة « يا لليوم المدهش ! لقد فطم دالامبير ! » وكانت جولى تقطع الرحلة كل يوم إلى مسكنها الجديد وترد له رعايته الأخيرة لها باخلاصها الفياض . فلما نقه إلى حد يتيح له التحرك رجته أن يشغل بعض الحجرات فى الطابق الأعلى من بيتها ، فذهب فى خريف ١٧٦٥ ، ودفع لها إيجارا معتدلا . ولم ينسى مدام روسو ، فكان يزورها كثيرا ، ويقسم معها بعض إيراده ، ولا يكف عن الاعتذار عن انفصالهما « أيتها الحاضنة المسكينة ، يا من تحبينى أكثر مما تحبين أبنائك ! » (١١٠)

وزعمت باريس حينئذ أن جولى خليلته . وأيدت المظاهر الزعم . فقد كان دالامبير يتناول طعامه معها ، ويكتب لها الرسائل ، ويدير لها أعمالها ، ويستثمر لها مذكراتها ، ويجمع لها إيراداتها . وكانا أمام الناس يظهران معا على الدوام ، وما دار بخلد مضيف أن يدعو الواحد دون صاحبه . ولكن شيئا فشيئا بدأ القوم — حتى المتقولون منهم — يتبينون أن جولى لا هى بالخليلة ولا الزوجة ولا العاشقة لدالامبير ، إنما هى مجرد أخت وصديقة . ويلوح أنها لم تدرك قط أن حبه لها كان كاملا وإن لم يستطع أن يعرب عنه ، وتقبلت السدتان جوفران ونكير — وكلتاهما مضرب المثل فى الفضيلة — هذه العلاقة بين دالامبير وجولى على أنها حب أفلاطونى . ودعت صاحبة الصالون العجوز كليهما لنلتوتها .

وكان لمتحانا قاسيا لعطف الأم الذى أبدته مدام جوفران نحو الآنسة دليسييناس. ألا يصدر عنها أى احتجاج حين افتتحت هذه صالونها خاصا بها ذلك أن جولى ودالامبير كانا قد صنعا من الأصدقاء عددا بلغ من الكثرة ما ملأ قاعة استقبالها كل يوم تقريبا من الخامسة إلى التاسعة بصفوة الزوار رجالا ونساء ، وكلهم تقريبا ذائع الصيت أو رفيع المرتبة . وكان دالامبير يقود الحديث ، وجولى تضفى على الندوة كل مفاتن الأنوثة ودفع الضيافة . ولم يقدم فيها غداء أو عشاء ، ولكنها اشتهرت بأنها أعظم صالونات باريس حفزا للعقول ، اختلف إليها طورجو ، ولومينى دبرين ، اللذين سيزقيان سريعا إلى مكان مرموق فى الحكومة ، ونبلاء مثل شاستلوكس وكوندورسنيه ، وأخبار مثل بوامون وبواجيلان ، وشكاكون مثل هيوم وموريلليه ، ومؤلفون مثل مابليه ، وكوندياك . ومارمونيل ، وسان — لامبير . حضروا أول الأمر ليروا دالامبير ويستمعوا إليه ، ثم ليحفظو بتلك المهارة المتعاطفة التى كانت جولى تستلرج بها كل ضيف ليتجلى فى ميدان تفوقه الخاص . ولم يحظر أى موضوع هنا ، فكانت تناقش أدق مشكلات الدين أو الفلسفة أو السياسة ، ولكن جولى — التى دربتها مدام جوفران على هذا الفن — عرفت كيف تهديء من ثائرة الثائرين وترد النزاع نقاشا . وكانت الرغبة فى عدم الإساءة إلى المضيفة الرقيقة هى القانون غير المكتوب الذى بعث النظام فى هذه الحرية . وفى ختام حكم لويس الخامس عشر كان صالون الآنسة دليسييناس.

في رأى سانت - بييف ، « أكثر الصالونات رواجاً ، وأحفلها بالزوار المتشوقين إليه ، في جيل كثر فيه الأملعيون » (١١١)

ولم يقدم صالون آخر لزواره مثل هذا الإغراء المزدوج ، فقد بدأت جولى رغم ندوب وجهها وعدم شرعية نسبها تصبح الحب الثانى لعشرة أو يزيد من الرجال المرموقين . وكان دالامبير في قمة قدراته . يقول جريم :

« كان في حديثه كل ما يعلم العقل ويمتعه . فكان يسلم نفسه ببسر ورغبة لأي موضوع يدخل السرور على نفوس أكثر السامعين ، مدخلاً فيه معيناً لا يكاد ينضب من الأفكار ، والنوادر ، والذكريات العجيبة ، وما من موضوع أياً كان جفافه أو تفاهته في ذاته لم يملك سرا إضفاء المتعة والطرافة عليه . وكان في كل فكاهاته أصالة رقيقة عميقة . » (١١٢)

ثم استمع إلى ديفد هيوم يكتب إلى هوراس ولبول : « أن دالامبير رفيق لطيف المعشر كامل الفضائل . وقد دل على ترفعه عن المنفعة الشخصية والطمع الباطل برفضه عروضاً من قيصرية روسيا وملك بروسيا وله خمسة معاشات ، أولها من ملك بروسيا ، وثانيها من ملك فرنسا ، والثالث يتلقاه بوصفه عضواً في أكاديمية العلوم ، والرابع بوصفه عضواً في الأكاديمية الفرنسية ، والخامس من أسرته . ولا تزيد جملتها كلها على ستة آلاف جنيه في العام . وهو يعيش على نصف هذا المبلغ عيشة كريمة ، ويهب النصف الآخر للفقراء الذين لهم بهم صلة . والخلاصة أنني لا أكاد أعرف رجلاً ، إلا القليلين ، .. يفضلونه نموذجاً للشخصية الفاضلة الفلاسوفة . » (١١٣)

أما جولى فكانت نقيض دالامبير في كل شيء خلا يسر الحديث ورقته . ولكن بينما كان هذا الموسوعي واحداً من آخر أبطال حركة التنوير ، يشد العقل والقصد في الفكر والعقل ، كانت جولى ، بعد روسو ، أول صوت واضح للحركة الرومانسية في فرنسا ، مخلوقاً (في عبارة مارمونتيل) « أوتى أنشط تصور ، وأحر روح ، وأشد الخيالات تأججاً منذ سافو » (١١٤) . فلم يفقها أحد من الرومانسيين ، في عالم الحقيقة أو القصص لا هلويز روسو ، ولا روسو ذاته ؛ ولا كلاريسية رتشر دسن ، أو مانون بريفوست - في رهافة

الحس أو حرارة حياتها الباطنة. كان دالامبير مرضوعيا، أو حاول أن يكون كذلك، أما جولى فكانت ذاتية إلى حد الاستغراق الأناني في النفس أحيانا . ومع ذلك « كانت تشارك الحزوين ألمهم ، وقد جاهدت جهادا محمودا لكي ينتخب شاستلوكس ولا هارب عضوين في الأكاديمية ، ولكنها حين أحبت نسيت كل شيء ، وكل إنسان آخر . نسيت أولا مدام دودفان ، وثانيا دالامبير نفسه .

ذلك أنه في ١٧٦٦ دخل الصالون نبيل شاب هو المركيز نخوزيه دمورا إلى جونزاجو ، ابن السفير الأسباني ، وكان في الثانية والعشرين ، وجولى في الرابعة والثلاثين وكان قد زوج في الثانية عشرة من فتاة في الحادية عشرة ، ماتت عام ١٧٦٤ . وأحست جولى بعد قليل بسحر شبابه ، وربما بسحر ثرائه . وسرعان ما نضح تعلق الواحد منهما بصاحبه فتعاقدا على الزواج . فلما سمع أبوه بالأمر أمره بأداء واجبه العسكري في أسبانيا. وذهب مورا ، ولكنه لم يلبث أن استقال من وظيفة الضابط . وفي يناير ١٧٧١ بدأ يبصق الدم ، فذهب إلى بلنسية التماسا للراحة ، فلما لم يشف هرع إلى باريس وجولى . وأنفقا معا أياما سعيدة كثيرة ، مما روح عن بلاطها الصغير وأثار في نفس دالامبير ألما دفيننا . وفي ١٧٧٢ استدعى السفير إلى أسبانيا ، فأصر على أن يصحبه ابنه . ولم يرض الأب ولا الأم بزواجه من جولى ، فانفصل فوراً عنهما وبدأ رحلته إلى الشمال ليعود إليها ، ولكنه مات بالسل في بوردو في ٢٧ مايو ١٧٧٤ . في ذلك اليوم كتب لها يقول « كنت في طريق إليك ، ولابد أن أموت ، ياله من قضاء بشع ! ... ولكنك أحببتني ، وتفكرى فيك ما زال يسعدنى ، لأننى أموت في سبيلك ! » ونزعوا من أصابعه خاتمين ، احتوى أحدهما على خصلة من شعر جولى ، ونقش على الآخر هذه الكلمات « كل الأشياء تزول ، ولا يبقى غير الحب » وكتب دالامبير الشهم عن مورا يقول « إننى آسف لشخصى على فقد ذلك الرجل الحساس الفاضل الخلق ، الرفيع الفكر ، أكل من عرفت من الناس ... وسأذكر ما حييت تلك اللحظات الغالية التى أحبت فيها نفس بهذا الطهر والنبل والقوة والتهذيب الاختلاط بنفسى » . (١١٦)

ومزق نبأ موت مورا قلب جولى ، وزاد الخطب فداحة أنها منحت حبها

فى الوقت نفسه لرجل آخر . ذلك أنها فى سبتمبر ١٧٧٢ التقت باكونت جاك — أنطوان دجيير ، البالغ من العمر تسعة وعشرين عاما ، والذى كان قد أبلى بلاء حسنا فى حرب السنين السبع . أضف إلى ذلك أن كتابه « دراسة شاملة للتكتيك » أشاد به القواد ورجال الفكر رائعة فى هذا الميدان ، وقد قدر لهذا الكتاب أن يحمل نابليون نسخه منه عليها تعليقات بخط يده خلال حملاته جميعا . « المقال التمهيدى » للكتاب الذى ندد بجميع الأنظمة الملكية صاغ المبادئ الأساسية لسنة ١٧٨٩ قبل اندلاع الثورة بعشرين عاما . وفى وسعنا أن نحكم على الاعجاب الذى أغرقه الناس على جيير من موضوع اختيار للنقاش فى أحد الصالونات الكبرى : « أمين تحسد أكثر من غيرها : أم المسيو دجيير ، أم أخته ، أم خليلته ؟ »^(١١٧) وكان له بالطبع خليله — هى جان دمونسوج ، آخر وأطول غرام له . وقد حكمت عليه جولى حكما قاسيا فى لحظة مرارة إذ قالت : —

« إن الاستخفاف ، بل القسوة ، التى يعامل بها النساء مصدرها قلة اعتباره لمن ... فهو يراهن معاثبات ، مغرورات ، ضعيفات ، كاذبات ، طائشات ، واللاتى يحسن فيهن رأيه يراهن متعلقات بالخيال ، ومع أنه يضطر إلى الإقرار بوجود نخصال جميلة فى بعضهن ، فهو لا يقدرهن لهذا السبب تقديرا أعلى ، بل يرى أن فيهن رذائل أقل ، لا فضائل أكثر . »^(١١٨)

على أنه كان وسيما ، وسلرته كاملا ، وحديثه يجمع بين الغنى والشعور ، وبين العلم والوضوح ، قالت مدام دستال « كان حديثه أكثر ما عرفت تنوعا ، وحيوية ، وغنى . »^(١١٩)

ورأت جولى أنها محظوظة بايتار جيير لندواتها . وافتنن الواحد منهما بشهرة صاحبه ، فنشأت بينهما علاقة أصبحت من جانبه غزوة عارضة ، ومن جانبها غراما قتالا . وهذا الغرام الفتاك هو الذى أحل رسائلها إلى جيير مكانا مرموقا فى الأدب الفرنسى وبين أكثر وثائق العصر كشفا . ففيها أكثر حتى مما فى « جولى أو هلويز الجديدة » لروسو (١٧٦١) ، تلقى إرهابات لحركة الرومانسية فى فرنسا تعبيرها الحى .

وفي أول رسالة باقية إلى جيبير (١٥ مايو ١٧٧٣) نراها واقعة في حباتل غرامه ، ولكن كان يمزقها تأنيب الضمير لانتهاكها ميثاق الوفاء لمورا . فكتبت لجيبير وهو راحل إلى ستراسبورج تقول :

رباه ! بأى سحر ، وبأى قدر ، استطعت أن تفتننى ؟ لم لم أمت فى سبتمبر ؟ كان يمكن أن أموت آنثذ فأعنى من اللوم الذى ألوم به نفسى الآن .. إننى أشعر بهذا وآأسفاه ، إننى ما زلت أستطيع الموت فى سبيله ، فما من مصلحة لى أضن بيلها له ... أواه ، أنه سيفصح عنى ! لقد عانيت كثيراً جداً ! ولقد أضنى جسدى وروحى طول ما ألم بى من حزن . وطاش عقلى حين تلقيت خطابه . فى ذلك الحين رأيتك أول مرة ، فى ذلك الحين تسلمت نفسى ، فى ذلك الحين أدخلت عليها السرور ، ولست أدري أيهما كان أحلى — أن أشعر بذلك السرور ، أو أن أدين به لك . (١٢١)

وبعد ثمانية أيام سقطت كل أسباب دفاعها : « لو كنت صغيرة جميلة ، فانتة جدا ، لما أعيانى أن أثبتن الكثير من الافتعال فى مسلكك معى ، ولكن بما أننى لست من هذا كله فى شىء ، فأئننى أجد فى مسلكك عطفًا وشرفا أكسبك نصرا على روحى إلى الأبد . (١٢١)

وكانت أحيانا تكتب بكل التحرر الذى كتبت بها هلويز لأبيلار :

« أنت وحدك الذى يستطيع فى هذا الكون أن يمتلك كيانى ويتربع فيه .. وقلبي ، وروحى ، لا يمكن أن يملأها سواك إن بانى لم يفتح اليوم مرة دون أن يخفق قلبي ، ومرت بى لحظات كنت أخشى فيها أن أسمع أسمك ، ثم كان يحطم قلبي ألا أسمع . أن كثيرا من المتناقضات ، وكثيرا من الانفعالات المضطربة ، صادقة ، وتفسرها كلمة واحدة : أحبك . (١٢٢)

وزاد الصراع بين الغرامين من الاضطراب العصبى الذى ربما كان مصدره تعطش آمالها إلى تحقيق المرأة لذاتها ، واستهدافها المتزايد للسُّل ، وكتبت إلى جيبير ٦ يوليو ١٧٧٣ تقول :

« إن روحك رغم اضطرابها ليست كروحى التى لا تفتأ مترددة بين

التشنج والاكثاب . وأنا أتعاطى السم (الأفيون) لأهدىء نفسى . وأنت ترى
أننى عاجزة عن أن اهدىء نفسى ؛ فأرشدنى ، وقونى ، وسأصدقك ،
وستكون سندي . (١٢٣)

وعاد جيبيير إلى باريس في أكتوبر ، وقطع علاقاته مع مدام دمونسوج ،
وباح بحبه لجولى . فقبلته شاكرا ، وأسلمت له جسدها — فى الحجرة المؤدية
لمقصورتها فى الأوبرا (١٠ فبراير ١٧٧٤) (١٢٤) وقد زعمت فيما بعد أن هذه
الفعلة التى اقترفتها وهى فى الثانية والأربعين ، كانت أول زلة لها من « الشرف »
و « الفضيلة » (١٢٥) ولكنها لم تنح على نفسها باللوم :

« أتذكر الحال التى وضعتنى فيها ، والى اعتقدت أنك تركتني عليها ؟
حسنأ أود أن أقول لك أننى بعد أن أفقت سريعا ، قمت ثانية (والكلماتان
كتبتهما بحروف مائلة) ورأيت ذاتى غير هابطة عن مقامى قيد أمّله وربما
تعجب لأن آخر الدوافع التى جذبتنى إليك هو الوحيد الذى لا يبكئنى عليه
ضميرى فبذلك الاستسلام ، بتلك المرتبة النهائية من نكران نفسى وكل
مصلحة شخصية لى ، أثبت لك أنه ليس هناك غير خطب واحد فى الأرض
لا طاقة لى باحتماله — وهو أن أغضبك وأفقدك . فذلك الخوف يجعلنى أبذل
لك حياتى . » (١٢٦)

ونعمت حيا بنشوات السعادة . وكتبت إليه (لأنها أخفيا عن الناس
علاقتهما وسكن الواحد بعيدا عن صاحبه) . لقد ظلت أفكر فيك طوال الوقت .
وأنا مستغرقة فيك استغراقا يجعلنى أفهم شعور العابد نحو إلهه . « (١٢٧) أما
جيبيير فلم يكن بد من أن يمل غراما يسرف هذا الاسراف فى سكب نفسه
دون أن يترك لقوته أى تحد . وسرعان ما راح يهتم بالكونتيسة دبوفليه ،
ويستألف غرامه مدام دمونسوج (مايو ١٧٧٤) . وعائته جولى ، فرد فى
فتور . ثم نى إليها فى ٢ يونيو أن مورا مات فى طريقه إليها وهو يبارك اسمها .
فتردت فى حمى من الندم والحسرة وحاولت أن تسمم نفسها ، ولكن جيبيير
منعها . وراحت خطاباتها إليه يدور أكثرها حول مورا ، ومبلغ سمو هذا النبيل
الأسبانى عن أى رجل عرفته فى حياتها . وقلت رؤية جيبيير لها وزادت لقاءاته
دمونسوج . وعلبت جولى نفسها بالبقاء على الأقل خلية من خيلاته ، فكانت

ترتب له الزيجات ، ولكنه رفض عرائسها ، وفي أول يونيو ١٧٧٥ تزوج
الآنسة دكورسيل ، وكانت فتاة غنية في السابعة عشرة . وكتبت له جولى
خطابات مفعمة بالحد والاحتقار ، مختمة بتوكيدات الحب الذى لا يموت (١٧٨).

وقد استطاعت طوال حمى غرامها كلها أن تخفى طبيعتها عن دالامبير ،
الذى خيل إليه أن سبها هو غياب مورا ثم موته . فرحب بجيبير فى صالونها ،
وكون صداقة مخلصه معه ، وكان يرسل بشخصه الرسائل المختومة التى تكتبها
لعشيقها . ولكنه لحظ أنها فقدت اهتمامها به ، وأنها كانت أحيانا تستاء من
وجوده . والواقع أنها كتبت لجيبير « لولا أنه يبدو عقوقا بالغامنى لقلت إن
رحيل دالامبير يعطينى نوعا من السرور . إن حضوره يثقل روحى . وهو
يجعلنى قلقة مضطربة النفس ، فأنا أشعر أننى غير مستحقة أبدا لصداقته وطيبة
قلبه .. » (١٢٩) فلما ماتت كتبت إلى « روحها » يقول :

« ليت شعرى لأى سبب لا أستطيع أن أفهمه ولأن أحزره ، تغير فجأة
ذلك الشعور الذى كان من قبل غاية فى الرقة نحوى ... إلى شعور الغربة
والنفور ؟ ما الذى صنعت مما يسىء إليك ؟ لم لم تشكى إلى إن كان لك مبرر
للشكوى ؟ ... أم أنك أيتها العزيزة جولى ... قد أسأت إلى إساءة أجهلها ،
وكان يحلو لى كثيرا أن اغتفرها لو علمت بها ... لقد كنت عشرين مرة
على وشك أن ألقى بنفسى بين ذراعيك ، وأن أطلب إليك أن تخبرينى ما
جريرتى ، ولكنى خشيت أن تصدنى هاتان الدراذان ...

« وظللت تسعة أشهر أترقب اللحظة التى أخبرك فيها بما عانيت وما أحسست .
ولكنى وجدتك خلال تلك الشهور أضعف من أن تحتلمى العتب الرقيق الذى
كان على أن أكاشفك به ، واللحظة الوحيدة التى كان يمكننى فيها أن أكشف
لك فى غير خفاء عن قلبى المحزون الواهن هى تلك اللحظة الرهيبة ، قبل موتك
بساعات ، حين سألتنى الصفيح عنك بطريقة مزقت نياط قلبى ... ولكن
عندها لم يعد فيك قوة لا للتحدث ولا للاستماع إلى ... وهكذا فقدت إلى
الأبد لحظة العمر التى كانت ستكون لى أغلى اللحظات - اللحظة التى أخبرك
فيها ، مرة أخرى ، كم أنت عزيزة على ، وكم شاطرتك محك ، وما أعمق

رغبتي في أن أنهي آلامي بك ، وددت لو بذلت كل ما بقي لي من لحظات عمري لقاء تلك اللحظة الواحدة التي لن تتاح لي أبدا ، تلك التي ربما كنت أستعيد بها حنانك إذ أكاشفك بكل ما في قلبي من حنان لك . » (١٣٠)

وساعد لإنهيار حلم جولي السل على الفتك بها ، ودعى لعيادتها الطبيب بوردو (الاي الثقلينا به في قصة ديدرو «حلم دالامبير») ، فصرح بأنه لا أمل في شفائها . ولم تبرح فراشها منذ أبريل ١٧٧٦ . وكان جيبير يذهب لزيارتها كل صباح ومساء . ولم يكن دالامبير يترك العناية بها إلا لينام . وكان الصالون قد توقف ، لولا حضور كوندورسيه ، وسوار ، ومدام جوفران الخطيبة ، التي كانت هي ذاتها مشرفة على الموت . وفي أيامها الأخيرة أبت جولي أن تسمح لجيبير بزيارتها ، لأنها لم تشأ أن تدعه يرى كيف شوهت التشنجات وجهها ، ولكنها كانت ترسل العديد من الخطابات ، وأكد لها هو أيضا حبه : « لقد أحبيتك منذ اللحظة الأولى التي التقيتها فيها ، أنك أغلى عندي من كل شيء في هذه الدنيا . » (١٣١) فكان هذا ، ووفاء دالامبير الصامت ، وقلق أصدقائها عليها ، العزاء الوحيد لها في آلامها . وكتبت وصيتها ، التي عينت دالامبير منفذا لها ، وعهدت إليه بكل أوراقها وأمتعتها الشخصية (٥) .

وجاء أخوها المركيز ديفيشي من برجندية ، وألح عليها في أن تتصالح مع الكنيسة وكتب إلى الكونت دالبون « يسعدني أن أقول لك إنني أقنعتها بأن تتناول القربان على الرغم من « الموسوعة » كلها ، وفي مواجهتها » (١٣٢) .

وأرسلت كلمة أخيرة إلى جيبير : « يا صديقي ، أننى أحبك ... وداعا » وشكرت دالامبير على وفائه الطويل ، وتوسلت إليه أن يغفر لها جحودها ، وماتت في تلك الليلة ، في الساعات الباكورة من يوم ٢٣ مايو ١٧٧٦ . ودفنت في اليوم نفسه : من كنيسة سان — سوليس ، « دفن الفقراء » كما رغبت في وصيتها .

(*) احتفلات زوجة جيبير بخطابات جولي إليه ، وقد نشرت في ١٨١١ .

الفصل الخامس

فولتير الشيخ

١٧٥٨ .. ١٧٧٨

١ - الإقطاعى الطيب

فى أكتوبر ١٧٥٨ اشترى فولتير ضيعة قديمة فى فرنیه . فى مقاطعة جكس ، الواقعة على حدود سويسرة . ولم يلبث أن أضاف إليها أقطاعة تورنيه التى اشتراها لمدى الحياة ، وبهذا أصبح الآن من الناحية القانونية سيداً إقطاعياً . وراح يوقع باسم « الكونت دتورنيه » فى الشؤون القانونية ، وأبرز شعار نبالته على مدخل بيته وعلى آتيته الفضية ^(١) «

كان قد سكن فيللا دليس بجنيف منذ ١٧٥٥ . ولعب دور المليونير الفليسوف المضيف فى لذة وفى استحسان من الناس ، ولكن المقال الوارد فى موسوعة دالامير عن جنيف ، الذى أمارط اللثام عن المهرطقات السرية التى يدين بها قساوستها ، عرض فولتير للاتهام بأنه وشى بهم لصديقه ، فلم يعد شخصاً مرغوباً فيه على أرض سويسرة ، وراح يلتمس من حوله مسكناً آخر . وكانت فرنیه تقع فى فرنسا ، ولكنها لا تبعد عن جنيف أكثر من ثلاثة أميال ، هنالك يستطيع أن يخرج لسانه للقادة الكلفنيين ، ولو جدد القادة الكاثوليك فى باريس - على بعد ٢٥٠ ميلاً - حملتهم لإعتقاله ، لاستطاع فى ظرف ساعة أن يعبر الحدود ، وخلال ذلك (١٧٥٨ - ١٧٧٠) كان صديقه الدوق دشوازيل يرأس الوزارة الفرنسية واشترى فرنیه باسم ابنة أخته مدام دنيس ، ربما انتقاء المصادرة إذا غيرت ريح السياسة اتجاهها ، لم يشترط عليها إلا أن تعترف به سيداً على الضيعة طوال حياته . وظلت فيللا دليس حتى عام ١٧٦٤

مسكنه الرئيسى ، وراح يعدل فى بيته بقرنيه على مهل ، وأخيراً انتقل إليه فى ذلك العام .

وكان البيت الفخم الجديد من الحجر ، ومن تصميم فولتير إلى حد كبير ، وبه أربع عشرة حجرة نوم . كتب يقول « إنه ليس قصراً ، ولكنه بيت ريفى فسيح ، تلحق به أرض تنتج الكثير من الدريس ، والقمح ، والتبن ، والشوفان . ولدى بلوطات فى استقامة أشجار الصنوبر تلمس رؤوسها السماء . » (٢) وأضاف تورنيه إلى أملاكه هذه قصراً ريفياً قديماً ، ومزرعة ، ومخزناً للغلال ، ومرابط ، وحقولاً ، وغابات ، وضمت مرابطة فى جملتها الخيول ، والثيران ، وخسین بقره ، ووسعت مخازنه كل حاصلات أرضه وبقى فيها مكان لمعاصر النبيذ ، وحيشان الدواجن ، وحظيرة للغنم ، وامتلات المزرعة بطنين أربعمئة خلية نحل ، وجادت الأشجار بأخشاب تدفء عظام السيد الإقطاعى من رياح الشتاء . واشترى وغرس الشجيرات ، وزرع شجيرات أكثر من نباتات صغيرة رباها فى مستنبتاته . ومد الحدائق والأبنية حول بيته حتى بلغ محيطها ثلاثة أميال ؛ وكانت تحوى أشجار الفاكهة ، والكروم ، وأنواعاً كثيرة من الأزهار . هذه الأبنية ، والنباتات ، والحقول ، والنظار الثلاثون القائمون عليها - كل أولئك كان يشرف عليه بشخصه . هنا أيضاً رضى رضى أنساه أن يموت ، شأنه حين دخلا فيللا دليس . فكتب إلى مدام دودفان يقول « أرى مدين بحياتى وصحتى للطريق الذى سلكته . ولو جرؤت لاعتقدت أننى حكيم ، لأننى سعيد جداً . » (٣)

وتسلطت مدام دليس على الخدم والأضياف الثلاثين أو أكثر الذين عاشوا فى القصر الريفى بيد متفاوتة الإنصاف . وكانت طيبة القلب ، ولكنها حادة الطبع ، تحب المال أكثر قليلاً من حبها لما عداه رمت خالها بالبخل ، ولكنه نفى التهمة ؛ على أى حال « نقل إليها شيئاً فشيئاً ، الجانب الأكبر من ثروته . » (٤) وكان قد أحبا طفلة ، ثم امرأة ، وطاب له الآن أن يتخذها قهرمانة له . وكانت تمثل فى المسرحيات التى يخرجها ، وأجادت التمثيل حتى كان يقارنها بكليرون . وأدار هذا المديح رأسها ، فعكفت على كتابة المسرحيات ولقى فولتير عنتاً فى ثنها عن عرضها على الناس . ثم أضجرتها حياة الريف

وهفت نفسها إلى باريس ؛ وكانت رغبة فولتير في الترويج عنها بعض ما دفعه إلى دعوة هذه السلسلة الطويلة من الضيوف واحتمالها . ولم تكن تحب سكرتيره فاجنير ، ولكنها أغرمت بالأب آدم ، اليسوعي الشيخ الذي رحب به فولتير في بيته غريما لطيفا في لعبة الشطرنج ، والذي فاجأه ذات يوم عند قدمي الخادمة بربارة .^(٥) ومرة : ربما بسبب سماح دنيس للاهارب بالرحيل مصطحبا إحدى مخطوطات السيد ، أغضبت فولتير غضبا حمله على ردها إلى باريس بعد أن رتب لها معاشا سنويا قدره عشرون ألف فرنك^(٦) . ولكن بعد ثمانية عشر شهرا انهار ، فتوسل إليها أن تعود .

وغدت فرنيه كعبة يحج إليها من يستطيعون الرحلة ويستطيعون التنوير . فأمرها صغار الحكام كدوق فورتمبرج وناخب بالاتين . والإقطاعيون كأمر لين ودوفى ريشليو وفيلار ، والأعيان ككثاواز جيمس فوكس ، وملتقطوا الأخبار كبيرنى وبوزويل ، والفاسقون مثل كازانوفا ، ومثات بمن هم أقل من هؤلاء شأنا . وكان يكذب كذبا مفضوحا إذا جاءه زوار لم يدعهم ؛ « قولوا لهم إننى مريض جدا » « قولوا لهم أننى مت » ، ولكن أحدا لم يصدق . كتب إلى المركز ديفليت يقول « اللهم نجنى من أصدقائى ، أما أعدائى فأنا كفيل بهم . »^(٧)

وما أن استمر به المقام في فرنيه حتى ظهر بوزويل (٢٤ ديسمبر ١٧٦٤) وهو ما يزال متأثرا بزياراته لروسو . وبعث فولتير إليه بكلمة يقول إنه ما زال في فراشه ولا يمكن إزعاجه . ولكن هذا لم يجد في ثنى الاسكتلندى الملهوف ، فأصر على البقاء ولم يرح مكانه حتى طلع عليه فولتير . وتحادثا مليا ، ثم خلا فولتير إلى مكتبه . وفي الغد كتب بوزويل إلى مدام دنيس من فندق في جنيف يقول :

« يجب أن التمس منك ياسيدتى أن تعبرينى اهتمامك بأن تحصلى على صنيع كبير جداً من المسيو ديفولتير . أريد أن أنال شرف العودة إلى فرنيه يوم الأربعاء أو الخميس . فأبواب هذه المدينة الوقور تغلق في ساعة ... صنيعة جدا ، حتى ليضطر المرء إلى الرحيل بعد العشاء قبل أن يتاح لرب البيت الأشهر أن يطلع بمحياه على ضيوفه ... »

فهو لا يسمح لي يا سيدتي بقضاء ليلة واحدة تحت سقف المنيو دفولتر؟
لأني اسكتلندي صلب العود شديد البأس ، ولك أن تصعديني إلى أعلى وأبرد
علية في البيت ، بل أنني لن أرفض النوم على مقعدين في حجرة نوم خادمك » (٨)

وأمر فولتر ابنة أخته بأن يخبر الاسكتلندي أن يحضر ، وسيعده له فراش .
فحضر في ٢٧ ديسمبر ، وتحديث إلى فولتر بينما كان هذا يلعب الشطرنج ،
وفتته حديث السيد وشتائمه الإنجليزية ، ثم « أنزل مكانا أنيقا » في « حجرة
جميلة . » (٩) وفي الغد اضطلع بهداية فولتر إلى المسيحية القويمة ، وبعد قليل
اضطر فولتر وقد أوشك على الانغماء أن يطلب هدنة . وبعد يوم ناقش بوزويل
ديانه رب البيت مع الأب آدم ، الذي قال له « أنني أصلي من أجل المنيو
دفولتر كل يوم من المؤسف أنه ليس مسيحيا . فإنه يملك الكثير من
الفضائل المسيحية . له أجمل نفس ، وهو إنسان خير ، محسن ، ولكنه شديد
التحامل على الدين المسيحي . » (١٠)

وكان فولتر يقدم لضيوفه الطعام ، والحكمة ، والنكتة ، والمسرحية ،
ليرفه عنهم . وبني قرب بيته مسرحا صغيرا وصفه جبون حين رآه عام ١٧٦٣
بأنه « أنيق جداً مصمم تصميميا حسنا ، يقع إلى جوار كنيسة الصغيرة ، التي
لا تدانيه إطلاقا . » (١١) ويحضر الفيلسوف من روسو والقساوسة الجنيبيين
الذي أدانوا المسرح باعتباره منبر الشيطان . ولم يكتف بتدريب مدام دنيس
بل درب أيضاً خدمه وضيوفه على لعب الأدوار في تمثيلياته وغيرها ، وكان
هو نفسه يختال على خشبة المسرح في الأدوار الرئيسية ، وأقنع الممثلون
المحترفون بسهولة بأن يمثلوا لأشهر كاتب في العالم .

ووجد الزوار في مظهره فتنة تقرب من فتنة حديثه ، فقال أمير لين في
وصفه إنه مدثر بروب عليه رسوم أزهار ، على رأسه باروكة هائلة تعلوها
قلنسوة من الخمل الأسود ، ويرتدي سترة من القطن الرفيع تصل إلى
ركبتيه ، وببطلونا قصيرا أحمر ، وجوارب رمادية ، وحذاء من القماش
الأيض . (١٢) وكانت عيناه « لامعتين تملئان نارا » كما يقول فاجنير ،

وقال هذا السكرتير المخلص إن مولاه « كثيرا ما كان يغسل عينيه بالماء النقي البارد » ، و « لا يستعمل النظارات إطلاقاً »^(١٣) وفي أخريات حياته ، حين مل حلاقة لحيته ، كان ينزع شعرها بملقاط . ويواصل فاجنير حديثه فيقول « كان شديد الوله بالنظافة والنظام ، وكان هو ذاته نظيفاً إلى حد الوسوسة . »^(١٤) وكثيراً ما كان يستعمل مساحيق التجميل ، والعطور ، والمراهم ، وكانت حاسة شمه المرفهة تتأذى من الروائح الكريهة .^(١٥) وكان « نحيلاً إلى حد يصدق » لا يحمل من لحم إلا ما يكسو عظامه بالجهد . وكتب الدكتور بيرنى بعد أن زاره عام ١٧٧٠ « ليس من اليسير تصور إمكان بقاء الحياة في جسد يكاد يكون جلداً وعظاماً وقد ظننى مشتاق لتكوين فكرة عن ... إنسان يمشى بعد موته . »^(١٦) وقد قال يصف نفسه إنه « يثير السخرية لأنه لم يمت »^(١٧) .

كان عليلاً نصف عمره . وكان يشكو من بشرة شديدة الحساسية ؛ وكثيراً ما شكوا من حركات متنوعة^(١٨) ، ربما من أثر العصبية أو الإفراط في النظافة . وكان أحياناً يعاني من تقطر البول — وهو التبول البطيء المؤلم ؛ في هذه الناحية كان هو وروسو صنيون وإن اشتد تباينهما فيما عداها . وكان يشرب القهوة بأسراف — خمسين مرة في اليوم في رواية فردريك الأكبر ؛^(١٩) وثلاث مرات في رواية فاجنير^(٢٠) . وهو يسخر من الأطباء ، ويلاحظ أن لويس الخامس عشر عمر بعد أن مات أربعون من أطبائه ، ويقول « من سمع بطبيب عمر للمائة ؟ »^(٢١)

ولكنه هو نفسه كان يستعمل الكثير من العقاقير . وقد وافق مرشح مولير لنيل درجة الطب على أن خير دواء في أى داء خطير هو « إعطاء عقار مسهل »^(٢٢) . وكان يطهر أمعاءه ثلاث مرات في الأسبوع بمحلول القرفة الصيفية ، أو بحقنة صابون . ومن رأيه أن خير الأدوية هو اللواء الواقى ، وخير واقى هو تنظيف الأعضاء الداخلية والغذاء الخارجى .^(٢٣) وكان يمارس عمله ، رغم شيخوخته ، وأوصابه ، وزواره ، بنشاط لا يؤتاه إلا رجل تحفف من عبء اللحم الفائض . وقد قدر فاجنير أن مولاه لم يكن ينال « أكثر من خمس ساعات أو ست »^(٢٤) في اليوم . وكان يواصل العمل إلى

ساعة متأخرة من الليل ، وأحيانا يوقظ الأب دم من فراشه لينعيه على تصيد كلمة يونانية .^(٢٦)

وكان يؤمن أن العمل دواء ناجح للفلسفة والانتحار . وأنجح منه العمل في الخلاء ، فهو يزرع حديقته بشخصه ، وأحيانا يحرق أو يبذر البذر بيديه .^(٢٧) وتبينت مدام دودفان في رسائله اللذة التي استشعرها في رؤية الكرب الذي غرسه ينمو . وكان يرجو أن يذكره الخلف على الأقل لآلاف الأشجار التي غرسها . وقد أصلح الأراضي البور وجفف المستنقعات . وأنشأ إسطبلا لتربية الخيل وجلب إليه عشر مهرات ، ورحب بعرض المركز دفوايه أن يعطيه فحلا . وكتب يقول « إن حريمي جاهز لا ينقصه غير السلطان ... لقد كتب الكثير جدا في السنوات الأخيرة عن السكان حتى إنني أود على الأقل أن أملا أرض جكس بالخيال ، ما دامت قاصرا عن شرف إكثار نوعي الإنسانى »^(٢٨) . وكتب إلى الفسيولوجي هالمر يقول « أن خير ما يسعدنا عملة على هذه الأرض هو أن نزرعها ، وكل ما عدا ذلك من تجارب في الفيزياء بالقياس إليه عبث أطفال . أنعم وأكرم بزراع الأرض ، وتباً للإنسان الشقي الذي يكدرها — سواء حمل على رأسه تاجا ، أو خوذة ، أو قلنسوة كاهن ! »^(٢٩) .

وحين أعوزته الأرض التي تكني لتشغيل جميع السكان من حوله ، نظم في فرنه وتورنيه حوانيت لصنع الساعات ونسج الجوارب — التي ربت لها أشجار توته دودة القز . وكان يشغل كل طالب شغل ، حتى أصبح عدد من يعملون له ثمانمائة شخص . وشيد مائة بيت لعماله ، وأقرضهم المال بفائدة قدرها ٤٪ ، وساعدهم على إيجاد أسواق لسلعهم . وما لبث أصحاب التيجان أن أقبلوا على شراء ساعات فرنه ، ولبست كراثم السيدات اللائي أغرتن خطباته جوارب زعم أنه نسج بعضها بيده . واشترت كاترين الثانية من ساعات فرنه ما بلغت قيمته ٣٩,٠٠٠ جنيه ، وعرضت أن تساعد على إيجاد أسواق لها في آسيا . وما مضت ثلاث سنوات حتى كانت الساعات الصغيرة والكبيرة والحلي والمجوهرات المصنوعة في فرنه تصدر في شحنات منتظمة على السفن إلى هولندا ، وإيطاليا ، وأسبانيا ، والبرتغال ، ومراكش ، والجزائر ،

وتركيا ، وروسيا ، والصين ، وأمريكا . وبفضل الصناعات الجديدة نمت
فرنيه من قرية يسكنها أربعون فلاحا إلى مجتمع قوامه ألف ومائتا نفس خلال
مقام فولتر بها . كتب إلى رشايو يقول « أعطني فرصة موالية وأنا كفيل ببناء
مدينة . » ^(٣٠) وعاش الكاثوليك والبروتستنت في سلام على أرض هذا الزنديق .

أما علاقاته بـ « مواليه » فكانت علاقات « الإقطاعي الطيب » . وكان يعاملهم
كلهم بأمانة وبجاملة . يقول الأمير دلين : « كان يكلم فلاحيه وكأنهم سفراء » ^(٣١) .
وأعفاهم من ضرائب الملح والتبغ (١٧٧٥) . ^(٣٢) وكافح دون طائل ولكن
بغير هوادة ليحرر جميع فلاحى إقليم جكس من رق الأرض . وحين هددت
الحجاعة الإقليم استورد القمح من صقلية وباعه بأقل كثيرا مما كلفه . ^(٣٣) وبينما
كان يواصل حربه على « العار » — على الخرافة ، والظلامية ، والاضطهاد —
أنفق الكثير من وقته في ممارسة الإدارة . واعتذر عن عدم مغادرة فرنيه ليزور
أصدقائه بقوله « على أن أرشد وأعول ثمانمائة شخص ... ولا أستطيع الغياب
دون أن أعرض كل شيء للانتكاس إلى حالة الفوضى » . ^(٣٤) وقد أدهش
نجاحه إداريا كل من شهد نتائجه . قال ناقد من أقضى نقاده « أنه أبدى حكما
واضحا على الأمور وإدراكا حسنا جدا » . ^(٣٥) وتعلم القوم الذين حكمهم أن
يحبوه ، ومرة ألقوا أوراق الغار على مركبته أثناء مروره . ^(٣٦) وكان أشدهم
تعلقا به الشباب والصغار لأنه فتح لهم قصره كل أحد للرقص والترفيه . ^(٣٧)
وكان يشجعهم على المضى في هوههم ويغتنب لابتهاجمهم . كتبت . مدام دجاللاتان
تقول « كان في غاية السعادة ولم يحس بأنه بلغ الثانية والثمانين » ^(٣٨) . لقد أحس
بهذا ، ولكنه كان راضيا . وكتب يقول « إنى أصبح شيخا » ^(٣٩) .

٢ — صولجان القلم

وواصل الكتابة خلال ذلك ، فدفع بما لا يصدق كما ، وكيفا . وتنوعا .
من التواريخ ، والأبحاث ، والدراسات ، والقصص ، والقصائد ، والمقالات .
والنبد ، والخطابات ، والمراجعات النقدية — دفع بهذا كله إلى جمهور دولي
يتلهف على كل كلمة تصدر عنه . ففي سنة واحدة — سنة ١٧٦٨ — كتب

« الرجل صاحب الأربعين أيكو » و « أميرة بابل » (وهي من خيرة قصصه) ، و « رسالة إلى بوالو » ، و « إعلان لإيمان موحد بالله » و « بيرووية (لا أدرية) التاريخ » ونصين لأوبرا هزلية ، وتمثيلية . وكان ينظم كل يوم تقريبا « شعرا قصير الأجل » هو ضرب من الإيجرام المسجوع ، قصير ، خفيف ، رشيق ، وهو في هذا المضمار لا يشق له غبار في الأدب بأسره ، حتى في التفوق المركب لـ « المختارات اليونانية » .

وقد عاجلنا كتاباته في الدين والفلسفة في غير هذا الموضع . فلنلق نظرة عاجلة على التمثيليات التي كتبها في فرنیه . تانكريد ، ونانين ، والاسكتلندية ، وسقراط ، وشاول ، وإيرين ، وهي أقل ذريته خلودا وإن كانت حديث باريس في حياته . وقد حظيت تانكريد التي مثلت على التياتر — فرانسيه في ٣ سبتمبر ١٧٥٩ باستحسان الجميع حتى فريرون ، خصم فولتير اللدود . وقد بلغت الآنسة كليرون في دور دبورة ، ولو كان في دور تانكريد في هذه المسرحية قمة فهما . وكانت خشبة المسرح قد أجلي عنها المتفرجون وجمالت بديكور فسيح رائع ، وكان الموضوع الفروسي الوسيط تحولاً محبباً عن المواضيع الكلاسيكية ، بل يمكن القول إن تلميذ بوالو كتب هنا تمثيلية رومانسية ، وأظهرت « نانين » أن فولتير تأثر برتشردسن ، شأنه شأن ديدرو ؛ وقد امتدحها روسو ذاته . أما « سقراط » فاحتوت — حكمة غالية — إنه انتصار للعقل أن يعيش في سلام مع أولئك الذين لا عقل لهم .^(١١)

وقد درس فولتير كورنبي وراسين دراسة مستفيضة ، وهو الذي أشاد به جيله ضرباً لهما . تردد طويلاً في أى الاثنين يفضل ؛ وانتهى به التردد إلى إيثار راسين . وقد رفع الاثنين بجرأة فوق مقام سوفوكليس ويوريبيديس ، ورفع مولير في أفضل مسرحياته ، فوق تيرينس وبرودته رغم نقائه ، وفوق المهرج أرسطوفانيس .^(١٢) وقد تأثر حين نمي إليه أن ماري كورنبي ، حفيدة أخى المسرحي ، تعيش في ضنك قرب إفريه ، فعرض أن يتبناها ويتكفل بتعليمها ، وحين علم أنها فتاة متدينة أكد لها أنه سيتيح لها كل الفرص لممارسة عبادتها . فحضرت إليه في ديسمبر ١٧٦٠ ، فتبناها ، وعلمها أن تكتب

الفرنسية الجيدة ، وأصلح من نطقها ، وصاحبها إلى القُداس . ورغبة في جمع مهر لها اقترح على الأكاديمية الفرنسية أن تنوط به نشر أعمال كورنبي والتعليق عليها ، فوافقت . وعكف لتوّه على قراءة تمثيلات سلفه من جديد وتزويدها بالمقدمات والهوامش ، ثم أعلن عن المشروع ، وناشد الراغبين أن يكتبوا له لأنه كان خبيراً بشئون المال والأعمال ، واكتب كل من لويس الخامس عشر ، والقيصرة إليزابيتا ، وفرديريك ملك بروسيا ، بمائتي نسخة ، وكل من مدام ديومبادور وشوازيل بخمسين ، ووصلته اكتتابات أخرى من تشتر فيلد وغيره من وجوه الأجانب . وكانت النتيجة أن تقدم الخطاب الكثيرون لما رى كورنبي . وقد تزوجت مرتين ، وأصبحت في ١٧٦٨ أم شارلوت كورداى .

وقد كان فولنير أعظم مؤرخى جيله كما كان أعظم شعرائه ومسرحيه . ففي ١٧٥٧ طلبت إليه الإمبراطورة إليزابيتا أن يكتب ترجمة لأبيها بطرس الأكبر . ودعت فولنير إلى سانت بطرسبورج ووعدته بأن تغدق عليه أسباب التكريم . فأجاب بأن شيخوخته تحول بينه وبين القيام برحلة كهذه ، ولكنه سيكتب التاريخ إذا وافاه وزيرها الكونت شوفالوف بالوثائق التى تبين سيرة بطرس والتغيرات التى أحدثتها إصلاحات هذا القيصر . وكان قد رأى في شبابه بطرس في باريس (١٧١٦) . وكان يعتبره رجلاً عظيماً ، همجياً رغم عظيمته وتحاشياً للفضول الخطر فى أخطائه ، قرر ألا يكتب ترجمة بل تاريخاً لروسيا تحت حكمه الجدير بأن يذكر ، وهى مهمة أشق بكثير . وقام بأبحاث هامة فى الموضوع ، وعكف بهمة على هذا العمل من ١٧٥٧ إلى ١٧٦٣ ، ثم نشره فى ١٧٥٩ - ١٧٦٣ بعنوان « تاريخ روسيا فى عهد بطرس الأكبر . » وكان مأثرة جليلة بالنسبة لزمانه ، وظل خير تناول للموضوع قبل القرن التاسع عشر ، ولكن ميشليه الأمين وجده باعثاً على السأم ، وقد رأت القيصرة أجزاء منه ، فأرسلت إلى فولنير « ماسات كبيرة » على الحساب ، ولكنها سرقت فى الطريق ، وماتت القيصرة قبل أن يكتمل الكتاب .

وبينما كانت حرب السنين السبع مستعرة من حوله ، قام فى فترات متقطعة بتجديد كتابه « التاريخ العام » أو « مقال فى الأعراف » مضيفاً إليه (١٧٥٥ -

١٧٦٣) « خلاصة لعصر لويس الخامس عشر » وكانت عملية شائكة ، لأنه لم يزل من الناحية الرسمية مدانا من الحكومة الفرنسية ؛ وعلينا أن نغفر له مروره الحذر بأخطاء الملك الحاكم ؛ ولكنه رغم ذلك كان قصة ممتازة فيها بساطة ووضوح ، وكاد وهو يروى قصة الأمير تشارلز إدورد ستيوات (بوتى يرنس تشارلى) أن ينافس الشخصية التي رسمها للملك « شارل الثانى عشر » - ووفاء لمفهومه عن التاريخ ، الذى يراه أكل ما يكون إذا سجل تقدم العقل البشرى ، أضاف مقالا ختاميا « فى تقدم العقل فى عصر لويس الخامس عشر » ولاحظ أشياء بدا له أنها علامات تشير إلى النمو :

« إن إلغاء السلطة الزمنية لرهبة برمتها (اليسوعيين) وتأديب الرهبانات الأخرى التى أصلحتها هذه السلطة ، والفصل بين (اختصاص) القضاة والأساقفة — كل هذا يدل على مبلغ ما بدد من أهواء ، وعلى مدى اتساع المعرفة بشئون الحكم ، وعلى درجة استنارة أذهاننا . وقد ألقيت بذار هذه المعرفة فى القرن الماضى . وهى تنبت اليوم فى كل مكان فى القرن الحاضر ، حتى فى أقصى الأقاليم ... فقد أنار العلم البحث الفنون النافعة ، وبدأت هذه الفنون فعلا فى إبراء جراح الدولة التى ابتلتها بها حربان طاحنتان . « أن معرفة الطبيعة ، ونبد الخرافات البالية التى قدسها الناس فى الماضى كأنها تاريخ ، والميتافيزيقا الصحيحة المبرأة من سخافات المذاهب — تلك هى ثمرات هذا العصر ، وقد تحسن العقل الإنسانى تحسنا كبيرا .

أما وقد أدى فولتير دينه للتاريخ ، فإنه عاد إلى الفلسفة وإلى حملته على الكنيسة الكاثوليكية. وأصدر فى تعاقب سريع الكتيبات التى فحصناها من قبل ، وكأنها ضرب من المدفعية الخفيفة فى الحرب على « العار » : « الفليسوف الجاهل » ، و « إمتحان هام للورد بولنبروك » و « الساذج » و « قصة جينى » و « ألف باء العقل » ووسط هذه الأعمال الشاقة واصل أغرب تبادل للرسائل قام به فرد واحد .

فحين زاره كازانوفا عام ١٧٦٠ أراه فولتير مجموعة من نحو خمسين ألف خطاب تسلمها حتى ذلك العام ، وسيجتمع له منها بعد ذلك نحو هذا العدد ، ولما

كان مستلم الخطاب هو الذى يدفع أجرة البريد ، فإن فولتير كان يتفق أحيانا مائة جنيه على البريد الذى يتسلمه فى يوم واحد . وكان ألف معجب ، وألف عدو ، ومائة مؤلف شاب ، ومائة هاو للفلسفة ، يبعثون إليه بالهدايا وباقات الزهور ، والشتائم ، واللعنات ، والأسئلة ، والمخطوطات ، ولم يكن من غير المؤلف أن يرجوه سائل مثلهف أن ينبئه برجوع البريد هل وجد إله ، أو هل للإنسان نفس خالدة . وأخيرا نشر تحذيرا فى « المركز دفرانس » جاء فيه :

« نظرا إلى أن أشخاصا عديدين شكوا من عدم تسلمهم ما يفيد وصول طرود أرسلوها إلى فرنيه ، أو تورنيه ، أو ليدليس ، لزم التنبيه إلى أنه بسبب ضخامة عدد تلك الطرود ، أصبح من الضرورى رفض تسلم كل ما لا يأتى من أشخاص تشرف المالك بمعرفتهم . » (٤٣)

وفى طبعة تيودور بسترمان الكاملة تملأ رسائل فولتير ثمانية وتسعين مجلدا . وفى رأى برونثير أنها « أخلد قسم من إنتاجه كله » (٤٤) . والحق أننا لا نجد صفحة مئة فى هذا الحشد برمته ، لأننا فى هذه الرسائل ما زال فى إمكاننا أن نسمع ألمع محدث فى زمانه يتكلم بكل ألفة الصديق . وما من كاتب من قبل ولا من بعد حشد على قامه المتدفق كل هذا التأدب ، والحيوية ، والسحر ، والرشاقة الكثيرة . إنها ليست وليمة للذكاء والبلاغة فحسب ، بل للصدقة الحارة ، والشعور الرقيق ، والفكر البتار ، ولو قورنت بها رسائل مدام دسفينيه على ما فيها من دواعى البهجة . لبدت ترف رفا خفيفاً عارضا على سطح توافه عابرة . لقد كان فى زخارف أسلوب رسائله ولا ريب بعض التمسك بالعرف ، ولكن يبدو أنه يتعمده حين يكتب إلى دالامبير قائلا « أعانقك بكل قوتي ، ويؤسفنى أنه حتم أن يكون العناق على هذا البعد السحيق » ، وهو مارد عليه دالامبير بقوله : « وداعا يا صديق العزيز الشهير ، إني أعانقك فى حنان ، وأنا أكثر منى فى أى وقت مضى ، ملكك بالروح » . (٤٥) ثم استمع إلى كلمات فولتير لمدام دودفان : « وداعا يا سيدتى إن أوثق الحقائق التى التمسها هى أن لك نفسا توافقى ، وسأكون شديد التعلق بها طوال الأجل القصير الذى أفسح لى » (٤٦) .

وكانت رسائله لمعارفه في باريس موضع تقديرهم ، تتداولها الأيدي تداول نفائس الأخبار ودرر الأسلوب . ذلك أن رسائل فولتير هي التي بلغ فيها أسلوبه أروع تألقه . فهذا الأسلوب لم يبلغ قصارى إبداعه في تواريقه ، حيث يستحب السرد الناعم المتدفق أكثر من البلاغة أو النكتة ، وفي تمثيلياته شط إلى حد الخطابة الرنانة الطنانة ؛ أما في رسائله فقد استطاع أن يدع سن قلمه الماسى يسطع بالابجرام أو ينير موضوعا بدقة وإيجاز لا مثيل لهما . وقد جمع بين علم بيل وأناقة فونتينيل ، واستعار مسحة تهكم وسخرية من رسائل بسكال الإقليمية ، وقد ناقض نفسه خلال سني كتابته السبعين ، ولكنه لم يكن قط غامضا ؛ ونحن لا نكاد نصدق أنه كان فليسوفا ، فهو في غاية الوضوح ، يقصد مباشرة إلى هدفه الأهم ، إلى النقطة الحيوية في الفكرة . وهو يتوخى القصد في العوت والتشبيهات مخافة أن يعقد الفكرة ، وفي كل جملتين تقريبا ومضة من نور . وقد تتكاثر الومضات أحيانا ، وتزاحم نفحات الذكاء ؛ فيتعب القارئ بين الحين والحين من هذا التألق ، وتضيق عليه بعض السهام المريشة من ذهن فولتير السريع الحركة . وقد أدرك أن فرط تألقه هذا خطأ ، كوضع الجواهر على العباءة . واعترف في تواضع بأن « اللغة الفرنسية بلغت وج كمالها في عصر لويس الرابع عشر . »^(٤٧)

وكان بين مراسليه نصف وجوه ذلك العهد — لا كل جماعة الفلاسفة فحسب ، ولا جميع كبار مؤلفي فرنسا وإنجلترا فحسب ، بل الكرادلة ، والبابوات ، والملوك ، والملكات ، واعتذر له كرستيان السابع عن عدم تنفيذ كل الإصلاحات الفولتيرية في وقت واحد في الدنمرك ؛ وأسف ستانسلاس يونياتوفسكى ملك بولندة على أنه سيق على عجل لاعتلاء العرش وهو في طريقه إلى فرنیه ؛ وشكره جوستاف الثالث ملك السويد لأنه ألقى بين الحين والحين نظرة عجيلى على الشمال البارد ، وتوسل « أن يطيل الله في أيامك الغالية القيمة للإنسانية »^(٤٨) . ومع أن فردريك الأكبر ونجح لأنه قسا على موبرتوى ، وأساء أدبه مع الملوك^(٤٩) ، إلا أنه كتب بعد شهر يقول « الصحة والرفاهية لأشد من عاش أو سيعيش من العباقرة على هذه الأرض خبثا وإغراء »^(٥٠) وفي ١٢ مايو ١٧٦٠ أضاف :

« أما أنا فسأذهب إلى هناك (الجحيم) وأخبر قرجل بأن فرنسا بزه في فنه . وسأقول مثل هذا لسوفوكليس ويوريديس ، وسأحدث ثيوسيديديس عن تواريخك ، وكويتوس كورتويوس عن كتابك « شارل الثاني عشر » ؛ وربما رجمنى هؤلاء الموقى الفيورون لأن رجلا واحدا جمع في شخصه شتى فضائلهم . »^(٥١)

وفي ١٩ سبتمبر ١٧٧٤ واصل فردريك مدانحه : « لن يكون هناك بديل لك بعد موتك ، وسيكون نهاية الآداب الجيدة في فرنسا . »^(٥٢) (وهذه غلطة بالطبع لأنه ليس للأدب الجيد نهاية في فرنسا) . وأخيرا ، في ٢٤ يوليو ١٧٧٥ ، أحنى فردريك صولجانه أمام قلم فولتير : « وأما أنا فيعزى أننى عشت في عصر فولتير ، وحسبى هذا . »^(٥٣)

وكانت كاترين الكبرى تكتب إلى فولتير كما يكتب رأس متوج إلى آخر — لا بل كما يكتب التلميذ إلى معلمه . فلقد قرأته بشغف ولذة ستة عشر عاما قبل أن تشق طريقها إلى عرش روسيا ، ثم بدأ تراسلها في أكتوبر ١٧٦٣ بجوابها بضمير المتكلم على رسالة منظومة بعث بها إلى عضو في هيئتها الدبلوماسية^(٥٤) . ولقها فولتير سيميراميس الشمال ، وأنغمض في لباقة عن جرائمها ، وأصبح المدافع عنها أمام فرنسا . ورجته أن يعفيا من مدانحه ، ولكنه أفاض فيها . وكانت تقدر انخيازه لها ، لأنها علمت أن بفضلها — ثم بفضل جريم وديدرو — نالت « مساندة طيبة من الكتاب » في فرنسا . وأصبحت الفلسفة الفرنسية أداة للدبلوماسية الروسية . وأوصى فولتير كاترين باستعمال المركبات الحربية المدمجة بالمناجل على الطريقة الأشورية في حربها مع الترك ، واضطرت إلى أن تبين له أن الأتراك غير المتعاونين لن يهاجموا عدوهم بتشكيلات مكثفة تكيفا يتيح حصدهم بشكل مريح .^(٥٥) ونسى كراهيته للحرب وسط تحمسه لإمكان قيام جيوش كاترين بتحرير بلاد اليونان من سلطان العثمانيين ، وناشد « الفرنسيين ، والبريطانيين ، والإيطاليين » أن يناصروا هذه الحرب الصليبية الجديدة ، وحزن حين قصرت سيميراميس عن تحقيق هدفه . ثم اضطلع بيرون بقضيته تلك .

وقد عنف الكثيرون من الفرنسيين فولتير على تملقه للملكية ، وشعروا أنه حط من قدره بالالف حول العروش والتشديق بمديح أصحابها . ولا ريب في أن هذا الف كان أحيانا يدير رأسه . ولكنه هو أيضا كان يلعب لعبة دبلوماسية . فهو لم يدع قط العواطف الجمهورية ، وقد ذهب غير مرة إلى أن قدرا من التقدم يمكن تحقيقه بفضل الملوك « المستنيرين » أكثر مما يتحقق بسيطرة الجماهير المتقلبة ، الجاهلة ، التي تتسلط عليها الخرافة . ولم يخض الحرب ضد الدولة بل ضد الكنيسة الكاثوليكية ، وكان تأييد الحكام في تلك المعركة عوناً قيماً . وقد رأينا قيمة ذلك التأييد في حملاته الظافرة دفاعاً عن أسرتي كالاس وسيرفانس . وكان أهم في نظره أن يكون فردريك وكاترين في صفه وهو يناضل في سبيل التسامح الديني . كذلك لم ييأس من كسب لويس الخامس عشر ، فقد كسب من قبل مدام ديبومبادور وشوازيل ؛ ثم خطب ود مدام دي بارى . ولم يكن يتورع عن شيء في استراتيجيته ، والواقع أنه قبل أن ينتهي العهد استطاع الظفر بتأييد نصف حكومة فرنسا ، وتكلفت معركة التسامح الديني .

٣ - فولتير السيامي

ما الذي أمل أن يحققه في ميدان السياسة والاقتصاد ؟ لقد ثبت بصره على هدفين ، هدف أعلى وآخر أدنى : الأعلى تحرير الناس من الخرافات اللاهوتية وساطقان الكهنة - وهي مهمة عسيرة ولا ريب ، وفيما عدا ذلك طلب بعض الإصلاحات ، ولكنه لم يطمع في المجتمع المثالي . وكان يبتسم بخفية من « أولئك المشرعين الذين يحكمون الكون ومن أبراجهم يصدرون الأوامر للملوك »^(٥٦) . وكان معارضا للثورة شأن جماعة الفلاسفة كلهم تقريبا ، ولعله لو عمر حتى يشهدها لصدمته - وربما أعدمته بالحلوتين * . أضف إلى هذا أنه كان غنيا غنى فاحشا ، وما من شك في أن ثراه لون آراءه .

(*) انظر وصف روبسيير للموسوعيين : « أما فيما يتصل بالسياسة ، فإن هذه الجماعة توقفت عند حقوق الشعب وقد عارض زعمائها الاستبداد أحيانا ، وكان ينفذهم الطغاة ، كانوا أحيانا يكتبون المقالات عن الملوك ، وأحيانا الإهدامات تكريما لهم ، وكانوا يدبجون الخطاب للحاشية ، والقصائد الفنائية للمحظيات (٥٧) . »

ففي ١٧٥٨ نوى أن يستثمر ٥٠٠,٠٠٠ فرنك (٦٢٥,٠٠٠ دولار ؟) في اللورين .^(٩٨) وقد كتب إلى فردريك في ١٧ مارس ١٧٥٩ يقول « أننى أتلنى ستين ألف جنيه (٧٥,٠٠٠ دولار ؟) من دخلى (السنوى) من فرنسا ... وأننى أعترف بأننى غنى جدا . » وكان قد جمع ثروته بفضل « نصائح » من أصدقائه المالمين أمثال الأخوين بارى ، وبفضل فوزه بجوائز اليانصيب في فرنسا واللورين ، وبفضل نصيبه في شركة أبيه ، وبفضل شراء سندات الحكومة ، والمساهمة في مشروعات تجارية ، وإقراض المال للأفراد . وكان يقنع بعائد قدره ٦٪ ، وهو عائد معتدل إذا أخذنا في الاعتبار المخاطر والخسائر . وقد ضاع عليه ألف لا يكو (٣,٧٥٠ دولار ؟) في تفليسة شركة جليار في قادس (١٧٦٧) ^(٩٩) . وفي ١٧٦٨ علق جييون في معرض الإشارة إلى الثمانين ألف فرنك (١٠٠,٠٠٠ دولار ؟) التى أقرضها فولتير للدوق دريشليو : « لقد أفلس الدوق ، والضمان عديم القيمة ، واختفت النقود . » ^(١٠٠) وعند موت فولتير كان قد تسدد ربع السلفة . وكان دخل فولتير من معاشاته أربعة آلاف فرنك في العام . وفي عام ١٧٧٧ بلغت جملة دخله ٢٠٦,٠٠٠ فرنك (٢٥٧,٥٠٠ دولار ؟) ^(١٠١) وقد جمل هذه الثروة بما يتناسب معها من سخاء ، ولكنه أحس أنه مطالب بالدفاع عنها دفاعا ليس بالضرورة مما لا يليق بفيلسوف

« لقد رأيت الكثير جداً من الأدباء فقراء محقرين ، بحيث قررت ألا أزيد عددهم . ولا مناص للمرء في فرنسا من أن يكون إما سندانا أو « طرقة » ؛ وقد ولدت سندانا . والميراث الهزيل يتناقص كل يوم ، لأن كل شئ في المدى الطويل يزداد ثمنه ، وكثيرا ما تفرض الحكومة الضرائب على الدخل والنقود كليهما فعليك أن تكون مقصتدا إبان شبابتك ، وستجد نفسك في شيخوختك تملك رأس مال يدهشك ، وهذا هو الوقت الذى تشتد فيه حاجتنا للثروة . » ^(١٠٢)

وكان قد اعترف في فترة باكرة (عام ١٧٣٦) في قصيدته « رجل الدنيا » « إننى أحب الترف ، بل الحياة الناعمة ، وجميع اللذات ، وجميع الفنون . » وذهب إلى أن طلب الأغنياء لأسباب الترف يداول مالم بين الصناعات المهرة

والغنائين ، وظن أنه لولا الثروة لما كان هناك فن عظيم . (٦٤) ونحن نشر
« ميثاق » ميزلييه الملحد - الشيوعي ، حذف القسم المعارض للملكية . وقد
آمن أنه ما من نظام اقتصادي يستطيع النجاح بغير حافز التملك . « إن روح
التملك تضاعف من قوة الإنسان » (٦٥) وكان يأمل أن يرى كل إنسان يملك
ملكاً ، وبينما كان روسو يبارك القنية في بولندة كتب فولتير يقول « إن بولندة
يمكن أن يزداد سكانها وثروتها ثلاث مرات لو لم يكن فلاحوها أقتاناً . » (٦٥)
على أنه لم يجد أن يصبح الفلاحون أغنياء ، فمن أذن يرفر للدولة جندها
الأقوياء ؟ (٦٦) .

ولم يشاطر روسو تحمسه للمساواة ؛ فهو يعلم أن الناس كلهم مخلوقون غير
أحرار ولا متساوين . ورفض فكرة هلفتسيوس القائلة بأنه لو أُتيح للناس
كلهم التعلم والفرص المتكافئة ، لأصبح الجميع بعد قليل متساوين في التعليم
والقدرات . « يا لها من حماقة أن نتصور أن في استطاعة كل إنسان أن يصبح
نيوتناً ! » (٦٧) فسوف يكون هناك دائماً الأقوياء والضعفاء ، والأذكى
والبسطاء ، وإذن الأغنياء والفقراء .

« يستحيل في دنيانا الكثيرة منع الناس الذين يعيشون في مجتمع من أن
ينقسموا إلى طائفتين - الأغنياء الآمرين ، والفقراء الذين يأتزمون
ولكل إنسان الحق في أن يكون له رأيه الخاص في مساوئته مع غيره ، ولكن
لا يستتبع هذا أن طباطخ الكردينال ينبغي أن يأخذ على عاتقه أن يأمر سيده
بتجهيز طعامه . على أن للطباخ أن يقول « أننى إنسان كسيدى سواء بسواء ،
فقد ولدت مثله بالدموع ، وسأمت مثله في عذاب ... فكلانا يؤدي الوظائف
الحيوانية نفسها . وإذا استولى العثمانيون على روما فأصبحت كردينالاً وأصبح
سيدى طباطخاً ، فأنتى سأدخله في خدمتى » وهذه اللغة معقولة ومنصفة جداً ،
ولكن ، إلى أن يستولى السلطان العثماني على روما لا بد للطباخ من أن يؤدي
واجبه وإلا انهار المجتمع الإنساني كله . » (٦٨)

ولما كان ابن ميثاق ، ولم يصبح سيداً إقطاعياً إلا مؤخراً ، فقد كان له

في الارستقراطية آراء مختلطة ، وواضح أنه فضل نوعها الإنجليزي^(٧١) . وقد قبل النظام الملكي باعتباره الشكل الطبيعي للحكومة « لم يحكم الملوك الأرض كلها تقريبا ؟ ... الجواب الأمين هو : لأن الناس نادرا ما يكونون جديرين بحكم أنفسهم . »^(٧٢) وقد سخر من حق الملوك الالهى وأرجعهم هم والدولة إلى الغزو « إن القبيلة تختار زعيما ليقود حملات السلب والنهب التي تشنها ، وهي تعود نفسها الطاعة ، وهو يعود نفسه إصدار الأوامر لها ، وفي اعتقادي أن هذا أصل الملكية . »^(٧٣) فهل هذا طبيعي ؟ أنظر إلى حوش المزرعة :

« إن حوش المزرعة يرينا أكمل تمثيل للملكية . فما من ملك يضارع الديك . ذلك أنه إن مشى شائحا ضاريا وسط قطيعه فما ذلك لغروره ، لأنه إذا زحف العدو فهو لا يكتفى بإصدار الأمر لرعيته أن تخرج وتقتل فداءه إنما هو يذهب بشخصه ، وينظم جنده من خلفه ، ويقاوم إلى آخر نسمة . فإذا انتصر فهو الذي يترنم بمسبحة الشكر وإذا صبح أن النحل تحكمها ملكة مخطب ودها جميع رعاياها ، فتلك حكومة أعظم كمالا حتى من حكومة الديك . »^(٧٤)

واستطاع لعيشه في برلين ثم في جنيف أن يدرس الملكية و « اللاملكية » في ممارستها الحية . وكان كغيره من جماعة الفلاسفة متحيزا لأن ملوكا عدة (فردريك الثاني ، وبطرس الثالث ، وكاترين الثانية) وبعض الوزراء (شوازيل ، وأراندا ، وتانوتشي ، وبومبال) استمعوا إلى نداءات الإصلاح ، أو منحوا المعاشات للفلاسفة . وقد بدا في عصر بلغ فيه الفلاح الروسي منتهى البدائية ، وغلبت الأمية على جماهير الشعب في كل بلد ، وأعجزها الإرهاب عن التفكير ، إن من السخف اقتراح حكم الشعوب ، والواقع أن « الديمقراطيات في سويسرة وهولندة كانت أوجاركيات . والجماهير هي التي أحبت أساطير الدين ومراسمه القديمة ، ووقفت كأنها جيش عمرم في طريق الحرية والتطور الفكريين . وليس هناك سوى قوة واحدة لها من القدرة ما يمكنها من مقاومة الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا ، كما قاومت بنجاح الكنائس البروتستنتية في إنجلترا وهولندة وألمانيا وتلك هي الدولة . وبفضل الحكومات الملكية القائمة في فرنسا وألمانيا وروسيا — بفضل هذه فقط يستطيع الفلاسفة أن يطمعوا في

تفوز في كفاحهم للخرافة ، والتعصب ، والاضطهاد ، واللاهوت الطفلى .
فهم لا يستطيعون توقع التأييد من « البرلمانات » لأنها تنافس الكنيسة وتبز
الملك في الظلامية ، والرقابة ، وعدم التسامح . ولكن انظر ما فعله هنرى
الملاح للبرتغال ، وما فعله هنرى الرابع لفرنسا ، أو بطرس الأكبر لروسيا
أو فردريك الأكبر لروسيا . « ما من عمل جليل تقريبا عمل في العالم إلا بفضل
عبقريه وحزم رجل فرد كافج أهواء الجماهير »^(٧٣) . ومن ثم كان جماعة
الفلاسفة يتمنون تربع الملوك المستنيرين على العروش . كتب فولتر في
« ميروب » يقول « إن الفضيلة المربعة على العرش هي أروع أعمال السماء »^(٧٤) (*)
وسياسة فولتر يذبح بعضها من ظنه بأن من الناس عدداً كبيراً لا قدرة لهم
على هضم التعليم حتى إن قدم لهم . وقد أشار إلى « الشطر المفكر من النوع
الإنسانى — أى الجزء على مائة ألف منهم »^(٧٥) ، وكان يخشى من عدم النضج
العقل وسرعة الانفعال العاطفى للناس عموماً . « حين تشارك الجماهير في
التفكير يضيق كل شيء . »^(٧٦) وهكذا ظل حتى سنّى شيخوخته لا يتعاطف
تعاطفاً يذكر مع الديمقراطية . فلما سأله كازانوفا « أتود أن ترى الشعب
سيد نفسه ؟ » أجابه « معاذ الله ! »^(٧٧) وكتب إلى فردريك « حين رجوتك
أن تكون الباعث لفنون اليونان الجميلة ، لم يبلغ رجائى الحد الذى أطلب إليك
فيه إعادة الديمقراطية الأثينية . فأنا لا أحب حكم الرعاع . »^(٧٨) وقد اتفق
وروسو على أن « الديمقراطية لا تناسب غير البلاد الصغيرة » ، ولكنه أضاف
قيوداً أخرى « وغير تلك التى تنعم بموقع ملائم ... والتى يكفل لها موقعها
الحرية ، والتى في مصلحة جيرانها المحافظة عليها . » (وكان يعجب بالجمهوريتين
الهولندية — والسويسرية ، ولكن خامرت إعجابه بعض الشكوك :

« إن تذكرتم أن الهولنديين أكلوا على السفود قلب الأخوين دى ويت ،

(*) حلق ميشيلة بفقرة ظريفة على هذا الدفاع عن الملكية فقال « إن من أحلام جماعة
الفلاسفة والاقتصاديين — رجال كفولتير ولورجو — أن يمدوا الثورة — أن يحققوا سعادة
للنوع الإنسانى — على يد الملوك . وليس أغرب من رؤية هذا المعبود يتنازع الفريقان ،
تجاهله الفلاسفة يمتنة ، والقساوسة يسرة . فن سيطفر به ؟ النساء » (٧٥) .

ولإن تذكرتم... أن الجمهورى يوحنا كلفنى بعد أن كتب أننا ينبغي ألا نضطهد إنسانا ولو أنكر الثالث ، أمر بحرق أسباني مخالفه فى الرأى حول الثالث فأحرقة حيا على حطب أخضر (بطيء الاحتراق) ، خلصتم حقاً إلى أنه ليس فى الجمهوريات فضيلة أعظم مما فى الملكيات .^(٨١)

على أنه بعد كل هذه التصريحات المعارضة للديمقراطية ، نجدد يؤيد الطبقة الوسطى الجنيقية تأييدا نشيطا ضد الاشراف (١٧٦٣) ووطنى جنييف المحرومين من الحقوق المدنية ضد الارستقراطية والبورجوازية (١٧٦٦) ، ولكن لرجىء هذه القصة إلى موضعها المناسب .

والواقع أن فولتير أخذ يتحول إلى مزيد من الراديكالية فما يبدو كملما تقدم به العمر . فى ١٧٦٨ أصدر قصته « الرجل ذو الأربعين لىكو » فطبع الكتاب عشر طبعات فى سنته الأولى ، ولكن برلمان باريس أحرقة وزج بالطابع فى سفن تشغيل العبيد ، ولم يكن مرجع هذه الصراحة تلك السخرية التى سمعت بها القصة على جماعة الفزيوقراطيين ، بل تصويرها الحى للفلاحين الذين أفقرتهم الضرائب ، والرهبان الذين يحبون حياة التبطل والترف على أملاك يفلحها عبيد الأرض . وفى كتيب آخر نشره عام ١٧٦٨ وسماه الألف باء (وقد حرص فولتير أشد الحرص على إنكاره) أجرى هذه العبارات على لسان « مسيوب » .

فى وسعى أن أتكيف بسهولة مع الحكومة الديمقراطية فكل الملاك على نفس الأرض لهم نفس الحق فى حفظ النظام على تلك الأرض . إنى أحب أن أرى رجالا أحرارا يضعون القوانين التى يعيشون فى ظلها ويطيب لى أن يرفع بنائى ، ونجارى ، وحدادى ، أولئك الذين أعانونى على بناء مسكنى ، وجارى المزارع ، وصديقى الصانع — أن يرفعوا أنفسهم فوق حرفهم ، ويعرفوا الصالح العام خيراً مما يعرفه الموظف التركى الشديد الوقاحة . فليس فى الديمقراطية ما يدعو عاملاً أو صانعاً إلى الخوف من الإزعاج أو الإحتقار ... فأن يكون المرء حراً ، بين أنداد لا أكثر ، هو الحياة الطبيعية الصادقة للإنسان ،

وما عدا ذلك من أساليب الحياة فهو خدع جقية ، وهزليات رديئة يلعب فيها فرد دور السيد ، وآخر دور العبد ، فرد دور الطفيل ، وآخر دور القواد. » (٨٢)

وفي عام ١٧٦٩ أو بعده بقليل (وكان في الخامسة والسبعين) في طبعة جديدة للقاموس الفلسفي ، ساق فولتير وصفا مرا لألوان الطغيان والفساد الحكومية في فرنسا (٨٣) ، وامتدح انجلترا بالقياس إليها :

« لقد بلغ الدستور الإنجليزي في الواقع نقطة التفوق التي فيها يرد جميع الناس إلى الحقوق الطبيعية التي حرّموا منها في جميع النظم الملكية تقريبا ، وهي : الحرية الكاملة للأشخاص والأموال ؛ حرية النشر ؛ حرية المحاكمة في جميع الجرائم على يد هيئة محلفين من أعضاء مستقلين ؛ حق المحاكمة طبقاً لنص القانون فقط ؛ وحق كل إنسان في أن يجهر دون مضايقة بأي دين يختاره ويرفض المناصب التي لا يجوز تقليدها إلا لاتباع الكنيسة الرسمية . هذه إمتيازات لا تقدر بقيمة ... أن تكون آمننا مطمئنا وأنت ماض إلى فراشك إلى أنك ستستيقظ وأنت تملك نفس الثروة التي كانت لك حين ذهبت لتنام ، وأنت لن تنزع من أحضان زوجتك وأطفالك في جوف الليل ليزج بك في سجن مظلم أو لتدفن في منى في الصحراء ... وأن يكون لك القدرة على نشر جميع أفكارك ... هذه الإمتيازات يتمتع بها كل من تطأ قدمه أرض انجلترا ... ولا مفر من أن يعتقد أن الدول التي لا تقوم على هذه المبادئ ستجتاحتها الثورات (٨٤)

وتنبأ بالثورة في فرنسا كما تنبأ بها الكثيرون . ففي ٢ أبريل ١٧٦٤ كتب إلى المركيز دشرغلان :

« إنى لأرى في كل مكان بذور ثورة لا مناص منها ، ثورة لن تتاح لي للذة مشاهدتها . فالفرنسيون يصلون متأخرين في كل شيء ، ولكنهم يصلون في النهاية ما في ذلك شك . وقد اتسع انتشار التنوير اتساعا سيعينه على التفجير في أول فرصة ، وعندها ستحدث فرقة عنيفة ... إن الشباب محظوظون ، لأنهم سيرون أشياء عظيمة . »

ومع ذلك حين تذكر أنه يعيش في فرنسا بفضل تسامح ملك أساء إليه بإقامته في بوتسدام ، وحين رأى بومبادور وشوازيل وماالزيرب وطورجو يوجهون الحكومة الفرنسية صوب التسامح الديني والإصلاح السياسي — وربما لأنه تاق إلى الإذن له بالعودة إلى باريس — اتخذ على العموم نغمة أكثر وطنية ، واستنكر الثورة العنيفة :

« إذا اشتد شعور الفقراء بفقرتهم أعقبت ذلك حروب كحروب حزب الشعب ضد مجلس الشيوخ في روما ، وحروب الفلاحين في ألمانيا ، و إنجلترا ، وفرنسا . وقد انتهت هذه الحروب كلها ، إن عاجلا أو آجلا ، باخضاع الشعب ، لأن الكبار يملكون المال ، والمال في الدولة هو صاحب الأمر والنهي في كل شيء . » (٨٥)

إذن ، وبدلا من إنقلاب من أسفل ، حيث القدرة على التدمير لا تتبعها القدرة على التعمير ، وحيث تعود الكثرة الساذجة بعد قليل للخضوع مرة أخرى لقلّة مأكرة ، أثر فولتير أن يعمل على قيام ثورة غير عنيفة عن طريق إنتقال التنوير من المفكرين إلى الحكام ، والوزراء ، والقضاة ، وإلى التجار ورجال الصناعة ، وإلى الصناع والفلاحين . « أن العقل يجب إقراره أولا في أذهان القادة ، ثم ينزل شيئا فشيئا وفي النهاية يحكم أفراد الشعب ، الذين لا يعون وجوده ، ولكنهم حين يرون اعتدال رؤسائهم يتعلمون أن يقلدوهم . » (٨٦) ورأى أن التحرير الحقيقي الوحيد ، في المدى الطويل ، هو التعليم ، وأن الحرية الحقيقية الوحيدة هي الذكاء . « كلما استنار الناس تحرروا . » (٨٧) وليس هناك ثورات حقيقية غير تلك التي تغير العقل والقلب ، ولا ثوار حقيقيون غير الحكماء والقديس .

٤ — المصلح

وبدلا من أن يدعو فولتير لثورة سياسية راديكالية ، جاهد في سبيل إصلاح معتدل تدريجي في إطار هيكل المجتمع الفرنسي القائم ، وفي نطاق هذه اللدائرة المنكرة للذات حقق أكثر مما حققه أى رجل آخر في جيله .

وكان أهم نداء له هو طلب تنقيح القانون الفرنسى تنقيحا شاملا ، ولم يكن قد روجع منذ ١٦٧٠ . وفى ١٧٦٥ قرأ بالإيطالية كتاب الجليل المسمى « رسالة فى الجنائيات والعقوبات » - من تأليف الفقيه الميلاى بيكاريا ، الذى كان بدوره قد استلهم جماعة الفلاسفة . وفى ١٧٦٦ أصدر فولتير كتابه « تعليق على كتاب الجنائيات والعقوبات » وفيه اعترف صراحة بفضل السبق لبيكاريا ، ثم واصل مهاجمة مظالم القانون الفرنسى ووظفاته إلى عام ١٧٧٧ حين نشر وهو فى الثانية والثمانين كتابه « ثمن العدالة والإنسانية . »

وقد طالب ، بادئ ذى بدء ، بإخضاع القانون الكنسى للقانون المدنى ، وبكبح سلطان الكهنوت فى اشتراط العقوبات التكفيرية المذلة أو فرض التبطل على الناس فى عطلات دينية كثيرة ؛ وطلب تخفيف العقوبات على إنتهاك المقدسات ، وإلغاء القانون الذى يهين جسد المنتحر ويصادر ثروته . وأصر على التفرقة بين الخطيئة والجريمة ، والقضاء على الفكرة التى تقول إن عقاب الجريمة ينبغى أن يدعى أنه يثار لإله مهان .

« يجب ألا يكون لأى قانون كنسى قوة إلى أن يحصل على موافقة الحكومة الصريحة عليه ... وكل ما يتصل بالزواج لا يفصل فيه غير القضاة ، وينبغى أن يقصر القساوسة على وظيفته مباركة الزواج الجليلة ... وإقراض المال بالفائدة من إختصاصات القانون المدنى وحده ... ويجب أن يكون جميع الكهنة ، فى جميع الحالات أيا كانت ، خاضعين لرقابة الحكومة المطلقة لأنهم رعايا للدولة ... ويجب ألا يكون لأى قسيس سلطة حرمان مواطن ولو من أبسط الحقوق بحجة أنه خاطيء ... ويجب أن يسهم القضاة ، والزراع ، والكهنة على السواء فى نفقات الدولة . » (٨٨)

وقد شبه قانون فرنسا بمدينة باريس - فهو حصيلة بناء تدريجى ، ونتاج المصادفات والظروف ، وخليط من المتناقضات ؛ وقال إن المسافر فى فرنسا يغير قوانينه مرارا كما يغير خيول مركبته ، (٨٩) فالواجب توحيد قوانين جميع الأقاليم والتنسيق العام فيما بينها . وينبغى أن يكون كل قانون واضحا ،

دقيقاً ، ومحصنا على قدر الإمكان من التلاعب بحريته . ويجب أن يكون جميع المواطنين سواء أمام القانون ، وإلغاء عقوبة الإعدام لأنها عقوبة همجية مبددة . فلا شك أن من الهمجية عقاب الزوير ، أو السرقة ، أو التهريب ، أو الحرق المتعمد بالموت . وإذا كانت السرقة تعاقب بالإعدام ، فلن يكون هناك ما يمنع اللص من القتل ، ومن ثم فإن كثيرا من جرائم قطع الطريق في إيطاليا مصحوبة بالاغتيال . « إذا علقتكم على مشنقة الدولة (كما حدث في برلين عام ١٧٧٢) الخادمة التي سرقت دسنة فوط من سيدتها ... فلنأخذ لن تستطيع إضافة دسنة من الأطفال إلى مواطنيكم ... وشتان بين دسنة فوط وبين حياة إنسان . » (٩٠) ومصادرة ثروة إنسان محكوم عليه بالإعدام سرقة صريحة تقرها الدولة ضد الأبرياء . وإذا كان فولتير يجادل أحيانا من وجهة نظر نفعية فقط فما ذلك إلا لأنه عرف أن حججه هذه سترجح أى نداء إنسانى في نظر معظم المشرعين .

على أنه حين تناول موضوع التعذيب القضائى أفصححت روحه الإنسانية عن نفسها في قوة وتأکید . ذلك أن القانون الفرنسى أباح للقضاة أن يستخدموا التعذيب وسيلة لاستئلال الاعترافات قبل المحاكمة إذا كانت هناك من المؤشرات المرية ما يلزم إلى أن المتهم مذنب . وقد حاول فولتير أن يخزى فرنسا بإشارته إلى مرسوم كاترين الثانية الذى ألغى التعذيب في روسيا التى زعم الفرنسيون أنها قطر همجى . « أن الفرنسيين ، الذين يعتبرون — ولا أدري لماذا — شعبا عظيم الإنسانية ، يدهشهم أن الانجليز الذين دفعهم تجردهم من الإنسانية إلى انتزاع كندا كلها من أيدينا ، قد أقبلوا عن لذة استخدام التعذيب . » (٩١)

واتهم بعض القضاة بأنهم « فتوات » يتصرفون كأنهم مدعون لا قضاة ، مفترضين بشكل واضح أن المتهم مذنب حتى تثبت براءته . وأحتج على حبس المتهم في سجون قديمة ، وأحيانا في أغلال عدة شهور قبل تقديمه للمحاكمة . ولاحظ أن المتهم بجريمة كبرى يمنع من الاتصال بأى إنسان حتى بمحام . وروى مرارا وتكرارا معاملة آل كالاس وسيرفيس مثالا على التعجل في

إدانة الأبرياء ، وقال إن شهادة شخصين فقط ، حتى إذا كانا شاهدي عيان ، ينبغي ألا تعتبر بعد اليوم كافية لإدانة رجل بالقتل ، وساق أمثلة على شهادة الزور ، وألح في إلغاء عقوبة الإعدام ولو للحيلولة دون إعدام برىء واحد في كل ألف متهم . وكان في الإمكان إصدار أحكام الإعدام في فرنسا بأغلبية اثنين من القضاة ، وقد حكم على كالاس بالموت بأغلبية ثمانية ضد خمسة . وطالب فولتير بأن يشترط لإصدار حكم الإعدام توافر أغلبية ساحقة ، ويفضل أن تكون إجماعا . « يالها من فظاعة بخيفة أن يعذب بحياة مواطن وموته في لعبة ستة إلى أربعة ، أو خمسة إلى ثلاثة ، أو أربعة إلى اثنين ، أو ثلاثة إلى واحد . » (١٢)

وكانت الإصلاحات التي اقترحها فولتير على الجملة توفيقا بين مبادئه الثقافية الوسيط وكرهيته للكنيسة ، وخبرته واستثماراته بوصفه رجل أعمال ومالك أرض ، ومشاعره الصادقة لشخصا بارا بالإنسانية ، وكانت مطالبه معتدلة ، ولكنها كانت في كثير من الحالات ذات أثر فعال . شن حملة لتحقيق حرية النشر ، فوسعت هذه الحرية توسيعا هائلا - ولو بفضل إغضاء الحكومة فقط - قبل أن يموت . وطلب لإنهاء الاضطهاد الديني ، فأنتهى في فرنسا من الناحية العملية في ١٧٨٧ . واقترح الإذن للبروتستنت ببناء الكنائس ونقل الملكية أو وراثتها ، والتمتع بكامل حماية القوانين ؛ فتم هذا قبل إندلاع الثورة . وطلب لإباحة الزواج قانونا بين أشخاص من ديانات مختلفة ، فأبيح . وندد ببيع المناصب ، وفرض الضرائب على الضروريات ، والقيود على التجارة الداخلية ، وبقاء القنية والوقف ؛ وأشار على الدولة بأن تسترد من الكنيسة تنفيذ الوصايا وتعليم الصغار ؛ وفي هذه الأمور جميعها كان لصوته تأثير على الأحداث . وقاد الحملة لإجلاء المتفرجين عن خشبة مسرح التياتر - فرانسيه ، فتم هذا في ١٧٥٩ . وأوصى بفرض الضرائب على جميع الطبقات ، وبنسبة ثروهم ، وكان على هذه التوصية أن تنتظر حتى تنشب الثورة . وطلب تنقيح القانون الفرنسي ، فتم هذا في مجموعة قوانين نابليون (١٨٠٧) ؛ وهكذا يسر الفقهاء والفلاسفة لرجل الحرب والسياسة ، الذي قرر الهيكل التشريعي لفرنسا حتى يومنا هذا ، أن يحقق أعظم مآثره بقاء على الزمن .

٥ — فولتير الصميم

كيف نجمل القول في شخصية هذا الرجل المذهل جدا من رجال القرن الثامن عشر ؟ لم يعد بنا حاجة للحديث عن عقله — فقد أفصح عن نفسه في مائة صفحة من هذه المجلدات . ولم يبارِه أحد في سرعة الخاطر ووضوح الفكر ، ولا في حدة النكتة ووفرتها ، وقد عرف النكتة الذكية بعناية بالغة فقال .

« إن ما يسمى النكتة الذكية هو أحيانا مقارنة مجللة ، وأحيانا كناية رقيقة ، أو قد يكون لعبا بالألفاظ — فأنت تستعمل لفظا بمعنى ، علما أن محدثك سيأخذه (لأول وهلة) بمعنى آخر . أو هو طريقة مأكرة للمقارنة بين أفكار لا يقرن الناس بينها عادة ... إنه فن إيجاد صلة بين نقيضين ، أو خلاف بين شبيهين ؛ إنه فن قول نصف ما تعنى وترك الباقي للخيال . ولو أوتيت المزيد منه شخصيا لزدت القول فيه كثيرا . » (٩٣)

ولم يؤث إنسان آخر مزيدا من هذه النكتة الذكية ، ولعل حظه هو منها كان كما قلنا مفرطا . فقد كان زمام حبه للدعابة يفلت منه أحيانا ، وكثيرا ما غلظت دعابته وأشرفت على التهريج أحيانا .

ولم تترك له سرعة إدراكاته ، وربطاته ، ومقارناته ، وقفة تتيح له الاتساق والتماسك ، ولم يسمح له تعاقب أفكاره السريع دائما وهو يتناول موضوعا بالتغلغل فيه إلى أعماقه المتاحة للبشر . ولعله تسرع في الحكم على الجماهير بأنهم رعاع ؛ وليس في وسعنا أن نتوقع منه التنبؤ بزمان سيكون فيه التعليم للجميع ضروريا لاقتصاد تقضى من الناحية التكنولوجية . ولم يطبق صبرا على نظريات بوفون الجيولوجية ، أو فروض ديلرو البيولوجية . وقد اعترف بقصوره ، ولم يخل من لحظات تواضع . قال لصديق مرة « إنك تظنني أعبر عن نفسي بوضوح كاف . ولكنني أشبه بالجداول الصغيرة — فهي صافية شفافة لأنها ليست عميقة . » (٩٤) وكتب إلى داكان في ١٧٦٦ :

« منذ كنت في الثانية عشرة اعتدت أن أتكهن بعدد هائل من الأشياء التي لم أوت الموهبة لفهمها . فأنا أعلم بأن أعضائي لم تهيأ لتعمق الرياضة . وقد أثبت أنني لا أميل إلى الموسيقى . اعتمد على تقدير فيلسوف عجوز فيه من الحماسة ما يحمله على الاعتقاد بأنه مزارع قدير جدا ، ولكن ليس فيه من الحماسة ما يحمله على الاعتقاد بأنه وهب جميع المواهب . » (٩٥)

وليس من الإنصاف أن نطلب من رجل كثرت الموضوعات التي عاجلها هذه الكثرة أن يكون قد أستوعب كل المعلومات المتاحة عن كل موضوع قبل أن يجرى عليه قلمه . فلم يكن كله عالما ؛ لقد كان مقاتلا ، أديبا جعل الأدب ضربا من العمل ، وسلاحا للتغيير . ومع ذلك تستطيع أن ترى من مكتبته التي حوت ٢,٢١٠ مجلدا ، وما تركه على الكتب من هوامش ، أنه درس في شغف وعناية موضوعات فيها تنوع مذهل ، وأنه كان رجلا واسع العلم جدا بالسياسة ، والتاريخ ، والفلسفة ، واللاهوت ، ونقد الكتاب المقدس ، وكانت رقعة حبه للاستطلاع واهتماماته شاسعة ؛ وكذلك كان غنى أفكاره وقدرة ذاكرته على التذكر . ولم يأخذ أى تقليد موروث على أنه قضية مسلمة ، بل فحص كل شيء بنفسه . وكان فيه نزوع إلى التشكك لا يتردد في أن يعارض بالفطرة السليمة سخافات العلم وأساطير إيمان العوام سواء بسواء . وقد وصفه عالم نزيه بأنه « مفكر جمع من المعلومات الدقيقة عن العالم في جميع نواحيه أكثر مما جمعه أى إنسان منذ أرسطو . » (٩٦) ولم يوفق عقل واحد في أى بلد آخر في أن ينقل إلى دنيا الأدب ودنيا العمل هذا الحشد الهائل من المواد من مثل هذه الميادين المتنوعة .

ولا بد لنا من أن نصوره أعجب مزيج من عدم الاستقرار العاطفي ، والرؤية والقدرة العقليتين . فقد جعلته أعصابه دائما متوترا قلقلًا ، فما كان في استطاعته الجلوس ساكنا إلا إذا استغرقته الكتابة الأدبية . وحين سألت السيدة ذات الردف الواحد « أيهما أسوأ للمرأة — أن تهتك عرضها قرصان من الزوج مائة مرة ، أو أن يجرح ردفها جرحا بليغا ... أو أن تقطع أربا ، أو أن تجذف في سفن تشغيل العبيد ، ... أو أن تقعد ولا تعمل شيئا ؟ » أجابها كانديد

وهي تنعم الفكر « ذلك سؤال كبير . »^(٩٧) لقد كان لفولتير أيام حفلت بالسعادة ، ولكنه قل أن عرف سلام العقل أو الجسد . كان عليه أن يكون مشغولا ، نشيطا ، يبيع ويشترى ، يزرع ، ويكتب ، ويمثل ، ويتلو ، وكان يخشى الملل أكثر مما يخشى الموت ، وفي لحظة سأم ذم الحياة لأنها « إما ضجر أو قسدة مخفوقة . »^(٩٨)

ولعلنا نرسم صورة قبيحة لفولتير أن وصفنا طلعتة دون أن نلاحظ عييه ، أو عددنا أخطاه وحماقاته دون فضائله وظرفه . لقد كان « البورجوازي منتحل النبالة » الذى شعر بأن له من الحق فى لقب الشرف ما لمدينه المماطلين . ولقد بارى أعظم السادة الإقطاعيين كياسة فى السلوك والحديث ، ولكنه كان قادرا على المساومة فى المبالغ التافهة ، وانهال على المشرف على الآجام بأقزع الشتائم بسبب أربعة عشر قدما مكعبا من الخشب - أصر على قبولها هدية دون ثمن . وأحب المال أساسا لأمنه . وقد اتهمته مدام دنيس بالبخل بعبارة فيها غلو شديد : « إن حبة الماك تعذبك ... وأنت فى صميمك أخط الرجال . وسأخفى ما استطعت رذائل قلبك » .^(٩٩) ولكنها حين كتبت هذا (١٧٥٤) كانت تعيش عيشة التبذير فى باريس على مال كان عبثا باهظا على جيبه ، وفى باقى السنين التى قضتها معه كانت تحيا حياة الأبهة والفخفة بفرنيه .

وقبل أن يصبح مليونيرا وبعده كان يسعى لمصادقة الأقوياء إجماعيا أو سياسيا بتعلق يقرب أحيانا من التذلل . وفى « رسالة إلى الكردينال دموا » وصف معدن الرذائل ذلك بأنه أعظم من الكردينال ريشليو^(١٠٠) . وحين كان يسعى لقبوله فى الأكاديمية الفرنسية واحتاج إلى تأييد رجال الدين أكد للأب دلاتو الكبير النفوذ أنه يود أن يعيش ويموت فى كنف الكنيسة الكاثوليكية المقدسة .^(١٠١) وأكاذيبه المطبوعة تؤلف كتابا لو جمعت ، والكثير منها لم يطبع ، وبعضها كان غير قابل للنشر ، وقد ذهب إلى أن هذا الإجراء مبرر فى الحرب ، وأحسن أن حرب السنين السبع لم تكن غير لهُو المملوك إذا قيسَت بحرب الثلاثين عاما التى خاضها ضد الكنيسة ، والحكومة التى تستطيع أن تزج برجل فى السجن لقوله الصدق ليس فى وسعها أن تشكو بحق إذا كذب .

وفي ١٩ سبتمبر ١٧٦٤ عندما حمى وطيس معركته ، كتب إلى دالامبير يقول « حالما يبدو أدنى خطر تفضل بإبلاغى لكي أنكر كتاباتى في الصحف العامة بما عهد في من صراحة وبراعة . » وقد أنكر كل أعماله تقريبا باستثناء ملحمة « الهنريادة » وقصيدته في معركة فونتنوا . « على المرء أن يظهر الحق للأجيال القادمة بجرأة ، ولعاصريه بحذر . ومن العسير جدا التوفيق بين الواجبين . » (١٠٢)

وما من شك في أنه كان مغرورا : فالغرور مهماز التقدم ، وسر الكتابة والتأليف . وكان فولتير يتحكم في غروره عادة ، فكثير ما نقح كتاباته استجابة لما يوجه إليه من مقترحات ونقد بروح طيبة . وكان تخيا في ثنائه على المؤلفين الذين لا ينافسونه — كما رمونتيل ، ولا هارب ، وبومارشيه ، ولكنه قد يغدو غيورا غير صهيانية من مزاحميه ، كما نرى في . « مديح كريبيون » (الأب) المفعم بالنقد الخبيث ؛ ويرى ديديرو أنه « يحمل ضغينة لكل قاعدة تمثال » (١٠٣) وقد دفعته غيرته إلى شتم روسو شتما مقلدا ، فوصفه بأنه « صبي الساعاتى » و « يهوذا خائن الفلسفة » و « كلب مسعور يعقر كل إنسان » و « مجنون وليد زواج صدفة بين كلبي ديوجين وايراستراتوس . » (١٠٤) وذهب إلى أن النصف الأول من « جولى أو هلويز الجديدة » قد ألف في مانخور ، والآخر في مستشفى للمجاذيب ، وتنبأ بأن « إميل » سينسى بعد شهر . (١٠٥) وأحس أن روسو ولى ظهره لتلك الحضارة الفرنسية التى كانت رغم كل ذنوبها وجرائمها في نظر فولتير خمر التاريخ ذاته .

وإذا كان فولتير مجرد أعصاب وعظام دون لحم يذكر ، كان أرهف حسا حتى من روسو . ولما كان حتما أن نحس بالآمنا حساسا أحد من إحساسنا بلداتنا ، فإنه كان يأخذ المديح والاطراء قضية مسلمة ؛ ولكنه « يصاب باليأس » إذا وجه إليه نقد معاد . (١٠٦) وقلما أوتى من الحكمة والتعقل ما يضبط قلمه ؛ فكان يرد على كل معارض مهما صغر شأنه . وقد وصف هيوم بأنه إنسان « لا يغفر أبدا (٢) ، ولا يرى عدوا لا يستحق إهتامه . » (١٠٧) وقد حارب خصومه الالقاء كديفونتين وفريرون حربا لا هوادة فيها ؛ ولجا إلى كل أسلوب في الهجاء ، والسخرية ، والشتم ، وحتى لوى الحق بمكر . (١٠٨)

وكان غله يصلهم أصدقاؤه القدامى ويخلق له أعداء جددا . قال « إني أعرف كيف أكره لأننى أعرف كيف أحب . » ^(١١٠) « إبنى بحكم طالعى أميل قليلا إلى الأدنى » ^(١١٠) ؛ وهكذا حرك كل كتابه بنجاح ليهزم ترشيح دى روس للأكاديمية (١٧٧٠) . وقد تلخص الأمر بمزيج من خلق دارتنيان ورابليه :

« أما عن شخصى الضعيف ، فإنى أخوض الحرب حتى آخر لحظة — ضد الجانسينيين ، والمولتيين ، والفريرونيين ، والبومبنيانيين ، اليمينيين واليساريين ، والوعاظ ، وجان — جاك روسو . أتلقى مائة طعنة وأردمها مائتين ، وأضحك .. حمداً لله ! إبنى أنظر إلى العالم كله كأنه مهزلة (فارص) تستحيل مأساة أحيانا ، يستوى كل شيء آخر النهار ، وسيظل كل شيء سواء فى نهاية الأيام . » ^(١١١)

وفى عداوته للسامية حول على شعب بأسره ذلك الغيظ الذى ولدته خصوماته مع بعض أفراده . ومن زاوية تلك الذكريات فسر فولتير تاريخ اليهود ، فسجل عليهم أخطأهم بتدقيق وتفصيل ، ونذر أن برأهم لعدم كفاية الأدلة على إدانتهم . ولم يستطيع أن يغتفر لليهود لإنجابه المسيحية . « حين أرى المسيحيين يلعنون اليهود يخيل إلى أننى أرى أبناء يضربون آباءهم . » ^(١١٢) ولم يكذبين فى العهد القديم شيئا سوى سجل للقتل ، والفسق ، والاغتيل بالجملة ، ورأى فى سفر الأمثال « مجموعة من الحكم التافهة ، القلرة ، المهلهلة ، المجردة من النوق ، أو الاختيار ، أو الهدف » ، أما نشيد الإنشاد فهو فى نظره « قصيدة حماسية سخيفة » . ^(١١٣) على أنه أثنى على اليهود لإنكارهم القديم للخلود ، ولامتناعهم عن التبشير بعقائدهم ، ولتسامحهم النسبى ؛ فالصدوقيون أنكروا وجود الملائكة ، ولكنهم لم يعانون من أى اضطهاد بسبب هرطقتهم .

أكانت فضائله ترجع رذائله ؛ أجل ، حتى ولو لم نضع فى الميزان صفاته العقلية مع صفاته الخلقية . فأمام شحه يجب أن نضع سخاءه ، وأمام محبته للمال تقبله البشوش للخسائر واستعداده لاقتسام مكاسبه مع غيره . استمع إلى كولاينى ، الذى لا بد قد عرف عيوبه لأنه عمل صكرتيراً له سنين كثيرة :

« ما من دعوى أكذب من تهمة البخل التي يرى بها ... فلم يكن للبخل مكان في بيته . وما عرفت رجلا يستطيع خدعه أن يسرقوه بسهولة أكثر . لقد كان ضيقنا بوقته فقط ... وكان له في أمر المال المبادئ التي يتهدى بها في أمر الوقت ؛ فمن الضروري في رأيه أن تقتصد لكي تسخو فيه . » (١١٤)

وتكشف رسائله عن بعض الهبات الكثيرة التي وزعها ، دون أن يعلن عن اسمه عادة ، لا على أصدقائه ومعارفه فحسب ، بل حتى على أشخاص لم يرههم قط . (١١٥) وسمح لباعة الكتب أن يحتفظوا بالربح الذي يجنونه من كتبه . وقد رأيناه يسدى العون للآنسة كورني ؛ وسنراه يساعد الآنسة فاريكور . ورأيناه يعين فوفنارج ومارمونثيل ؛ كذلك فعل مع لاهارب ، الذي فشل مسرحيا قبل أن يغدو أقوى نقاد فرنسا أثرا ، فطلب فولتير أن يعطى نصف معاشه الحكومي البالغ ألفي فرنك للاهارب دون أن ينبئه بحقيقة المعطى . (١١٦) كتب مارمونثيل « يعلم الجميع مبلغ العطف الذي كان يحبوه الشبان الذين يبدون أى موهبة للشعر . » (١١٧)

وإذا كان فولتير الواعي بضالة جسيمة ، لم يؤث شعاعة بدنية تذكر (إذ ترك الكاتبين بورجار يضربه بالعصا عام ١٧٢٢) ، (١١٨) فإنه أوتي من الشعاعة الأدبية قدرا مذهلا (فقد هاجم أقوى مؤسسة في التاريخ ، وهي الكنيسة الكاثوليكية الرومانية) . وإذا كان عنيفا في الخصومة ، فإنه كان سريع العفو عن خصومه الذين يسعون إلى الصلح معه ، « فكان غضبه يزول لأول رجاء . » (١١٩) وكان يغدق الحب على كل من طلبه ، وكان وفيا لأصدقائه . فلما افترق عن فاجنير بعد عشرة أربعة وعشرين عاما « بكى كالأطفال . » (١٢٠) أما عن فضيلته في أمور الجنس فقد كانت فوق مستوى جيله مع مدام دوشاتليه ، ودون ذلك المستوى مع ابنة أخته . وكان متسامحا مع الفوضى الجنسية ، ولكنه يغضب غضبة مضرية على الظلم . والتعصب ، والا طهاد ، والنفاق ، وقظاعات قانون العقوبات . وقد عرف الفضيلة بأنها « البر بالبشر . » أما فيما عدا ذلك فكان يسخر من المحظورات ، ويستمتع بالخمر ، والنساء ، والغناء ، في قصد فلسفي . وفي أقصوصة سماها « باباييك »

رفض الزهد بما هو معهود فيه من تهكم موجه . فترى أومنى يسأل البرهمي « أهناك أمل في أن يبلغ في النهاية السماء التاسعة عشرة ؟ »

ويجيب البرهمي « هذا يتوقف على نوع الحياة التي تحياها . إنى أحاول أن أكون مواطنا صالحا ، وزوجا صالحا ، وأبا صالحا ، وصديقا صالحا ، وأحيانا أقرض المال بغير ربا للأغنياء ، وأتصدق على الفقراء ، وأحفظ السلام بين جيرانى . » فيسأل البرهمي « ولكن أتغزو المسامير أحيانا في عجزك ؟ »

« أبدأ يا أبى المبجل »

ويجيب البرهمي « إذن فأنا آسف ، لأنك لن تبلغ السماء التاسعة عشر ، ما في ذلك ريب . » (١٢١)

أما فضيلة فولتير المتوجة لفضائله المكفرة عن سيئاته ، فهي إنسانيته . لقد حرك ضمير أوروبا بحملاته دفاعا عن آل كلاس وسيرفنس . وشهر بالحرب باعتبارها « الوهم الكبير » . « فالأمة الغالبة لا تفيد إطلاقا من أسلاب الأمة المغلوبة ، وهى تدفع ثمن كل شيء ، وتعانى حين تنتصر جيوشها قدر معاناتها حين تهزم . » (١٢٢) وأيا كان الفريق المنتصر ، فإن الإنسانية خاسرة على الحالين . وقد ناشد الناس في شتى الظروف والأقطار أن يتذكروا أنهم أخوة ، واستمع الناس إلى ذلك النداء بشكر وعرفان في مجاهل أفريقيا . (١٢٣) كذلك لم تصدق عليه التهمة التى وجهها روسو للذين بشروا بحب البشر ووسعوا هذا الحب توسيعا لم يترك فيه مكانا لجيرانهم ، فكل الذين عرفوه تذكروا عطفه وجمالته لأقل الأشخاص المحيطين به شأنا . كان يحترم كل نفس ، عارفا حساسيتها لأنه يعرف حساسيته . (١٢٤) وقد واصل كرم ضيافته رغم ما فرض عليها من مطالب باهظة . كتبت مدام دجرافيني « كم تأثرت حين وجدت فيك من الطيبة ما لا يقل عما فيك من العظمة ، ورأيتك تفعل لكل من يحيطون بك الخير الذى كنت تود أن تفعله للبشرية جمعاء . » (١٢٥) وكان أحيانا

نزقا يتفجر غضبا ، ولكن « لا يمكن أن تتصور أبدا مبلغ ما في قلب هذا الرجل من طيبة كما كتب عنه زائر آخر (٢٦) »

ولاذ ذاع صيت العون الذى يسديه للمضطهدين فى أوربا ، وانتشرت الأنباء فى فرنسا عن بره وإحساناته المستورة ، تشكلت صورة جديدة لفولتير فى ذهن الجماهير . فلم يعد عدو المسيح ، ولا المحارب لدين يحبه الفقراء ؛ بل أصبح منقذ آل كالاس ، وسيد فرنيه الطيب ، والمدافع عن عشرات من ضحايا العقائد المتزمتة والقوانين الظالمة . وقال قساوسة جنيف إنهم حاثرون فى موقفهم وإياه فى يوم الحساب ، فهل إيمانهم يعدل أعمال هذا الزنديق . (١٢٧) وغفر له المثقفون رجالا ونساء زندقته ، ومشاجراته ، وغروره ، لا بل خبيثته . ورأوه يتحول من الحصومة إلى السباحة ، فنظروا إليه الآن نظرهم إلى الأب الجليل للآداب الفرنسية ، وفخر فرنسا أمام العالم المثقف . ذلك هو الرجل الذى رحبت حتى جماهير العامة بمقدمه حين جاء إلى باريس ليموت .



الفصل التاسع

رو -و الرومانى

١٧٥٦ - ١٧٦٢

١ - فى « الايرميتاج » : ١٧٥٦ - ١٧٥٧

كان روسو قد انتقل إلى كوخ مدام دينيه فى ٩ أبريل ١٧٥٦ مصطحبا زوجته غير الشرعية تريز لافاسير وأمها . وسعد بالعيش هناك حيناً ، إذ أحب غناء الطيور وزقزقتها ، وحفيف الأشجار وعبرها ، وهلوء الجولات المنفردة فى الغابات . وكان فى جولاته يحمل قلما وكراسة ليقتنص الأفكار وهى تمرق منه .

ولكنه لم يخلق للراحة والسلام . ذلك أن حساسيته ضاعفت كل عناء ، وخلقت مزيدا من المتاعب . لقد كانت تريز زوجة وفية ، ولكنها لا تستطيع أن تكون رفيقا لذهنه ، كتب فى إميل يقول « ينبغى ألا يقترن الرجل الذى يفكر بزوجة لا تستطيع مشاطرته أفكاره . ^(١) ولم يكن بتريز المسكينة حاجة تذكر للأفكار ، ولا كبير حاجة للكلمات المكتوبة . لقد بذلت له جسدها وروحها ، واحتملت غضباته ، وأغلب الظن أنها ردت عليها بمثلها ، وسمحت له بأن يقترب من حافة الخيانة مع مدام دودتو ، وكانت هى على قدر ما تعلم وفية فى تواضع باستثناء حادث لا سند لنا فيه إلا رواية بوزويل . ولكن أنى لهذه المرأة الساذجة أن تستجيب لذلك الاتساع والتنوع الجامع فى عقل قدر له أن يزلزل نصف القارة ؟ استمع إلى تفسير روسو :

« ماذا يظن القارئ إذا قلت له ... لئننى منذ اللحظة الأولى التى وقع عليها بصرى حتى اللحظة التى أكتب الآن فيها لم أشعر قط بأقل حب لها ، ولم أشته قط أن أملكها ... وأن الحاجات البدنية التى أشبعت بشخصها كانت بالنسبة لى

حاجات الجنس فقط ، دون أن تنبثق إطلاقا من شخصيتها ؟ ... لقد كانت أولى حاجاتي ، وأعظمها ، وأقواها ، وأشرها ، كلها في قلبي : الحاجة إلى رباط (روحى) حميم ، حميم ما أمكن . وكانت هذه الحاجة الفريدة بحيث لا يشبعها أوثق الاتصال البدنى ، ولم يكن بد لها من وجود روحين .^(٧)

ولعل تريز كانت ترد على هذه الشكاوى بضدها ، لأن روسو كان قد كف الآن عن القيام بوظائفه الزوجية . ففي ١٧٥٤ قرر لطبيب جنينى : « لقد تعرضت طويلا لأقصى الآلام ، لعللة حصر البول التى لاشفاء لى منها ، والتى نجمت عن احتقان فى مجرى البول يسد القناة سدا يستحيل معه أن يدخل فيها حتى قسطرات الدكتور داران المشهور .^(٣) وزعم أنه أفلح عن كل اتصال جنسى مع تريز بعد ١٧٥٥^(٤) ثم أضاف « حتى ذلك التاريخ كنت صالحا ، ومن تلك اللحظة أصبحت طاهرا ، أو على الأقل متيا بالطهارة .

وجعل وجود حماته معهما هذا المثلث حادا إلى درجة مؤلمة . وقد علما هى وزوجته ما استطاع من دخله الذى جاءه من نسخ الموسيقى ومن بيع كتبه . غير أن مدام لافاسير كان لها بنات أخريات يحتجن إلى مهوور ويعشن فى ضنك مقيم . وجمع جريم وديدرو ودولباخ فيما بينهم للمراتين معاشا سنويا قدره أربعمائة جنيه ، وأخذوا عليهما العهد بكمآن الأمر على روسو مخافة جرح كبريائه . واختصت الأم نفسها وبناتها بمعظم المال (على رواية روسو)^(٥) ، واستدان باسم تريز ، ودفعت تريز الديون ، وأخفت أمر المعاش طويلا ، وأخيرا كشف روسو سره ، فاستشاط غضبا على أصدقائه لاذلالة على هذا النحو . وقد زادوه غضبا بالإلحاح عليه فى أن ينتقل من الإيرمتاج قبل حلول الشتاء ، فالكوخ (فى رأيهم) لم يعد للجو البارد . وحتى لو احتجبت زوجته برد الشتاء فيه فهل فى طاقة الأم احتمالها ؟ وكان ديدرو قد كتب فى تمثيلية « الابن الطبيعى »^(٦) : « إن الرجل الصالح يحيا فى مجتمع ؛ ولا يعيش وحيدا غير الطالح » . وخيل لروسو أنه المقصود بهذا القول ، وبدأ الآن نزاع طويل لم تكن المصالحات التى تخللته إلا مهادات . وشعر روسو أن جريم وديدرو يحاولان إغرائه بالعودة إلى مدينة فاسدة لأنهما يحسدانه على السلام الذى وجده بين

الغابات . وقد كشف في خطاب أرسله إلى صاحبة الفضل عليه ، مدام ديينيه ،
(وكانت في باريس) عن خلقه بصراحة ونفاذ بصر . قال :

« أريد أن يكون أصدقائي أصدقاء لا سادة على ؛ أريدهم أن ينصحوني
لا أن يحاولوا التسلط على ؛ وأن يكون لهم كل المطالب على قلبي دون مطلب
واحد يقيد حريتي . أنى لأراها غريبة تلك الطريقة التي يتدخل بها الناس باسم
الصداقة في شئوني دون أن يطلعوني على شئونهم ... وحرصهم الشديد على أن
يؤدوا لي ألف خدمة يرهقني ، ففيه لمسة من الاستعلاء تضمنني ؛ ثم إن كل
إنسان في وسعه أن يفعل مثل ما يفعلون ... »

« وإنني لتوحدى وانعزالي على الناس أشد حساسية من غري . قلو فرضنا
أنني تشاجرت مع إنسان يعيش وسط الزحام ، فإنه يفكر في الأمر لحظة ثم
تنسيه إياه عشرات الشواغل بقية النهار . أما أنا فلا يصرف أفكاري عنه شيء
ولا أفنأ أقلبه في ذهني طوال الليل وأنا مؤرق ، وأفكر فيه وأنا أتمشى وحدى
من شروق الشمس إلى غروبها ، وقلبي لا يهدأ لحظة واحدة ، واساءة من
صديق كفيله بأن تجعلني أعاني في يوم واحد سنوات من الحزن . وإن لي أنا
العليل حقاً في التسامح الواجب من إخوتي البشر نحو هفوات رجل مريض
وغضبائه ... وأنا فقير ، وفقرى يخول لي بعض الرعاية (أو كذلك يخيل لي) .

« لا يدهشك إذن إن أنا أبغضت باريس أكثر فأكثر . ليس لي شيء
أنشده من باريس سوى رسائلك . ولن يراني أحد هناك ثانية أبداً . وإذا شئت
أن تنبئني بآرائك حول هذا الموضوع ، وبكل ما تبغين من قوة وعنف ،
فلك الحق في ذلك . فستلقى مني قبولاً حسناً ، وستكون - عديمة الجدوى » .^(٧)
وقد أجابته بما يكفي من العنف فقالت « أوه ، دع هذه الشكاوى التافهة
لمن نحات قلوبهم ورؤسهم .^(٨) ولكنها استفسرت مراراً عن صحته وراحته ،
واشترت له حاجياته ، وأرسلت له الهدايا الصغيرة .

« ذات يوم والحرارة بلغت من التجمد درجة قصوى ، وجدت وأنا افتح
طرذا به عدة أشياء طلبت إليها أن تبتاعها لي جرنلة داخلية من الفانللا الإنجليزية

قالت إنها كانت تلبسها ، ورغبت إلى في أن البسها صدرية داخلية ، ورأيت في هذه الرعاية البالغة الود حنانا شديدا — وكأنها تعرت لتكسوفى — حتى رحت في انفعالى أقبل الخطاب والجولة جميعا غير مرة وأنا أزرف الدمع . وخالتنى تريز قد جننت . (٩)

وخلال عامه الأول في الارميناج صنف « قاموس الموسيقى » ونلخص بلغته المجلدات التى ألفها الأبيه دسان — بدير عن الحرب ، والسلام ، والتعليم ، والإصلاح السياسى . وفى صيف ١٧٥٦ تلقى من المؤلف نسخة من قصيدة فولتير فى الزلزال الذى أهلك خمسة عشر ألف شخص ، وبخرج خمسة عشر ألف آخرين فى لشبونة فى عيد جميع القديسين أول نوفمبر ١٧٥٥ ، وقد تساءل فولتير كما تساءل نصف العالم لم اختارت العناية ، المفترض فيها أنها خيرة ، لهذه المذبحة العمياء عاصمة قطر كله كاثوليكي ، وساعة — ٩،٤٠ صباحا — كل الانتقاء يصلون فيها فى الكنيسة . وفى نعمة من التشاؤم المطلق رسم فولتير صورة للحياة والطبيعة محايدتين حيادا قاسيا بين البشر والخير . وفى الفقرة التالية من الاعترافات نقرأ رد فعل روسو لهذه القصيدة القوية :

« حين ادهشنى أن أرى هذا المسكين ، الغارق (إن جاز القول) فى أسباب الثراء والتشريف ، يشكو بمرارة أرزاء هذه الحياة ، وبجد كل شىء خطأ ، فكرت فى مشروع جنونى هو أن أجبره على تحويل اهتمامه إلى نفسه ، وعلى إثبات أن كل شىء صواب . إن فولتير وهو يبدو مؤمنا بالله لم يؤمن قط فى الواقع بشىء غير الشيطان ، لأن إلهه المزعوم كائن خبيث لا يلتد إلا بالشر ، كما يقول . ومنف هذه القصيدة الصارخ بشر أشد التقزز من رجل ينعم براء فاحش ، رجل يحاول من حضن السعادة أن يشيع اليأس فى قلوب إخوته البشر بما يصور من صورة رهيبة قاسية لكل الكوارث التى أعنى منها ، أما أنا الذى ينحى لى أكثر منه أن أعدد وأزن كل شرور الحياة البشرية ، فقد فحصتها فى غير تحيز ، وأثبت له أنه ما من شر من جميع الشرور الممكنة يجب أن ننسبه للعناية ، وألا نرده بالأحرى إلى إساءة استعمال الإنسان لقدراته لا إلى الطبيعة » (١٠) .

وعليه فى ١٨ أغسطس ١٧٥٦ أرسل روسو إلى فولتير « رسالة فى العناية الإلهية من خمس وعشرين صفحة ، بدأها باقرار لطيف بفضل فولتير . قال :

« جاءتنى قصائدك الأخيرة يا سيدى فى عزلى ، ومع أن جميع أصدقائى يعرفون محبتي لكتابائك ، فليست أدرى من كان ممكنا أن يرسل لى هذا الكتاب سواك . فقد وجدت المتعة والفائدة جميعا ، وتبينت فيه يد الأستاذ ... ولزام على أن أشكرك على المحلد وعلى صنيعك . »^(١١)

ثم ناشد فولتير ألا يلوم العناية الإلهية على مصائب البشر . فعظم الشرور راجع لحماقتنا ، أو خطيئتنا ، أو إجرامنا :

« لاحظ أن الطبيعة لم تحشد عشرين ألف بيت من ستة طوابق أو سبعة ، وأنه لو كان سكان تلك المدينة الكبرى موزعين توزيعا أكثر توازنا فى مساكن أقل تكاثفا ، لكانت الخسارة أقل كثيرا ، أو ربما انعدمت ، ولكن كل اهلها قد هربوا عند أول هزة ، ولرأيانهم فى الغد على بعد عشرين فرسخا ، مرجح كأن شيئا لم يصهم . »^(١٢)

وكان فولتير قد كتب أن قلة من الناس من يودون أن يولدوا من جديد فى نفس الظروف ؛ فرد روسو بأن هذا لا يصدق إلا على الأثرياء الذين أنعموا باللدات ، وملوا الحياة ، وأعوزهم الإيمان ؛ أو على الأدباء القاعدين ، غير الأصحاء ، الغارقين فى تأملاتهم ، الساخطين ؛ ولكنه لا يصدق على بسطاء الناس كالطبقة الوسطى الفرنسية أو القرويين السويسريين . والذي يجعل من الحياة معضلة لنا هو إساءة استعمالها .^(١٣) ثم إن شر الجزء قد يكون خير الكل ؛ فورت الفرد يتيح الحياة المتجددة للنوع . والعناية الإلهية عامة لا خاصة ؛ فهى تسهر على الكل ، ولكنها تترك أحداثا نوعية للأسباب الثانوية والقوانين الطبيعية .^(١٤) وقد يكون الموت المبكر نعمة كذلك الذى أصاب أطفال لشبونة ، وهو على أية حال غير ذى بال ما دام هناك إله ، لأنه تعالى سيكافئ الجميع على ما أصابهم من معاناة لا يستحقونها .^(١٥) ومسألة وجود الله تجاوز

الحل بالعقل . ولنا أن نختار بين الإيمان والكفر ، فلم نرفض إيماناً ملهما معزياً ؟
أما عن نفسى « فقد عانيت فى هذه الحياة كثيراً ، لهذا يملؤنى الرجاء فى حياة
أخرى . وكل دقائق الميتافيزيقا لن تشككنى لحظة فى وجود عناية خيرة وفى
خلود النفس . أننى أحس هذا ، وأؤمن به ، وأتمناه ... وسأدافع عن هذه
المعتقدات إلى آخر نسمة من حياتى . » (١٦)

واختتم روسو خطابه ختاماً لطيفاً ، فقال إنه متفق مع فولتير على
التسامح الدينى ، وأكد له « إننى أؤثر أن أكون مسيحياً على طريقتك لا على
طريقة الصوربون . » (١٧) . ورجا فولتير أن ينظم بكل ما فى شعره من قوة
وفتنة « كتاب تعليم مسيحى للمواطن » يتضمن قاموساً أخلاقياً يهذى الناس فى
فوضى العصر . وكتب فولتير لإقراراً مهذباً بوصول رسالة روسو ، ودعاه
للزول ضيفاً عليه فى الدليس (١٨) ، ولم يبدل محاولة منظمة لتنفيذ حجج
روسو ، ولكنه رد عليها بطريق غير مباشر بروايته « كانديد » (١٧٥٩) .

٢ - العاشق

حفل شتاء ١٧٥٦ - ١٧٥٧ بالأحداث لروسو . فى فترة ما خلال تلك
الشهور بدأ يكتب أشهر رواية فى القرن الثامن عشر « جولى ، أو هلويز الجديدة »
وقد تصورها أول الأمر دراسة فى الصداقة والحب . فابتنا العم جولى وكليز
تجبان سان - برو ، ولكنه حين يغوى جولى تظل كليز الصديقة الوفية لكليهما .
فلما أخرجله أن يكون الكتاب مجرد رواية غرامية ، عمد إلى رفع القصة إلى
مقام الفلسفة بتحويل جولى إلى التدين ، والعيش فى ولاء مثالى لزوجها فولمار
وهو سيد شكاك استسلم لتعاليم فولتير وديدرو . يقول روسو فى اعترافاته :

« كانت العاصفة التى أطلقها الموسوعة .. فى ذلك الحين على أشدها .
فلم يلبث الفريقان ، اللذان بلغ سنهما بعضهما على بعض نهايته ، أن أصبحا
أشبه بذئاب غاضبة ... لا مسيحين وفلاسفة يرغب كل منهما فى إثارة الآخر
ولإقناعه وهداية إخوانهم إلى طريق الحق . وكنت قد جهرت بالحقائق الصارمة
للفريقين لأننى بطبعى عدو لكل أنواع التخريب ، ولكنهم لم يستمعوا إلى »

ففكرت في طريقة أخرى ، بدت لي في بساطتي جديرة بالإعجاب ، وهي التخفيف من كراهتهما المتبادلة بأن أحطم تعصبهما ، وأظهر لكل فريق ما للآخر من فضائل وحسنات تستحق تقدير الجميع واحترامهم . وأحرزت الفكرة ... للنجاح المرتقب ، فقد قرئت ووجدت الحزبين المتنافسين على هدف واحد هو سحق الكاتب ... ولما رضيت .. عن خطتي ، علست إلى الموقعين تفصيلا ... فأسفر هذا عن الجزئين الأول والثاني من « هلويز » .^(١٩)

وكان يقرأ على تريز ومدام ليفاسير كل مساء صفحات من القصة عند المدفأة . وشجعتهم اللومع التي كانت تلدفها تريز ، فدفع بالخطوطة إلى مدام دينيه حين عادت إلى قصرها الربيعي ، لاشتريت ، على ميل من الإرميتاج . وفي مذكراتها استعادة للحدث : « حين وصلنا هنا ... وجدنا روسو في إنتظارنا . وكان هادئا رائق المزاج للغاية . وأحضر لي رواية (جانبا منها) قد بدأها ... وقد قفل إلى الإرميتاج أمس ليستأنف هذا العمل ، الذي يزعم أنه قوام سعادة حياته . »^(٢٠) وبعد قليل كتبت إلى جرم :

« بعد العشاء قرأنا مخطوطة روسو . ولست أدري هل أنا متحيزة ضدها ، ولكني غير راضية عنها ، إنها مكتوبة بأسلوب في غاية الروعة ، ولكنها مسرفة في التفصيل ، وتبدو غير واقعية ومفتقرة إلى الحرارة . ولا تقول شخصها كلمة واحدة مما ينبغي أن تقوله ، فالمؤلف هو الذي يتكلم دائما . ولا أدري كيف أخرج من هذا المأزق ، فلست أحب أن أخدع روسو ، ولا أستطيع أن أستقر على إدخال الحزن على قلبه . »^(٢١)

على أن روسو ، على نحو ما ، بث الحرارة في جولي خلال الشتاء ، أكان ذلك لأن قصة حب دخلت حياته ؟ ذلك أنه في ٣٠ يناير ١٧٥٧ زارته سيدة كان قد لقها في باريس باعتبارها أخت زوج مدام دينيه . وكانت هذه السيدة ، واسمها اليزابث - صوفي هيلجارد ، قد تزوجت الكونت دودتو ، ثم تركته ، وأصبحت الآن خليعة عدة سنوات للمركيز دسان - لامير ، الذي كان يوما ما مزاحما لفولتر على مدام دناتليه . وكان زوجها وعشيقتها كلاهما

قد انطلق إلى ساحة القتال . وفي صيف ١٧٥٦ كانت الكونتيسة قد استأجرت قصر أوبون الريفي ، على نحو ميلين ونصف من الإيرميتاج . وكتب لها سان — لامبير أن روسو على رحلة جواد قصيرة منها ، واقترح عليها أن تسرى عن وحدتها بزيارة الكاتب الشهير الذي أوقف الحضارة كلها موقف الدفاع عن نفسها . فذهبت في مركبة ، فلما انغرزت في الوحل واصلت الرحلة سيرا ، فوصلت وحداتها وثوبها ملطخان . « وجعلت المكان يدوى بضحكها الذي شاركته فيه من كل قلبي »^(٢٢) . وأعطتها تريز تغييرة ملابس . ومكثت المركيزة لتتناول « وجبة ريفية خفيفة » وكانت في السابعة والعشرين ، وروسو في الخامسة والأربعين . ولم تكن باهرة الجمال سواء في طلعتها أو قوامها ، ولكن رقتها ، ردمائة طبعها ، وروحها المرحية أثارت حياته المظلمة . وفي العصر التالي أرسلت إليه رسالة لطيفة ، مخاطبة إياه باللقب الذي اتخذته بعد أن استوطن جنيف ثانية :

« أيها المواطن العزيز ، أعيد إليك الثياب التي تفضلت بأعارتني إياها . وقد وجدت عند رجوعي طريقا أفضل كثيرا ، ويجب أن أخبرك بمبلغ سروري بهذا ، لأنه ييسر لي العودة إلى زيارتك . ويؤسفني أنني لم أمكث إلا قليلا ... وسيكون أسفي أقل إذا كنت أكثر حرية ، واثقة دائما من أنني لا أزعجك . وداعا يا مواطني العزيز ، وأرجوك أن تشكر للأنسة ليفاسر كل ما أبدته نحوي من عطف . »^(٢٣)

وبعد أيام عاد سان — لامبير من الجبهة . وفي أبريل استدعى من جديد للخدمة العسكرية ، وما لبثت الكونتيسة المرحية أن خطرت إلى الإيرميتاج على صهرة جوادها مرتدية ثياب الرجال . وصدف زيارتها روسو ، ولكنه ما لبث أن أحس بأنه يحتوي امرأة فائتة . فانطلق مع ضيفته سيرا في الغابات تاركا تريز لواجباتها المنزلية وأخبرته مدام دودتو عن شدة محبتها لسان لامبير ، وفي مايو رد زيارتها ، فذهب إلى أوبون في الوقت الذي تكون فيه « وحيدة تماما » كما قالت له . يقول « كنت أحيانا في رحلاني المتكررة لأوبون أنام هناك ...

وكننت أراها كل يوم تقريبا طوال ثلاثة أشهر . ورأيت شخصية جولى متمثلة في مدام دودتو ، ثم لم أعد أرى غير مدام دودتو (في جولى) ، ولكن بكل أسباب الكمال التى جملت بها معبودة قلبى . »^(٢٤)

وأسلم نفسه زمنا لهذا الهذيان المحموم حتى لقد كف عن كتابة قصته ، وراح بدلا من هذا يكتب الخطابات الغرامية التى حرص على أن تعثر عليها فى كوى أشجار أوبون . فقال لها أنه يحب ، ولم يقل من محبوبته ؛ ولكنها عرفت بالطبع . فويحته ، وأكدت له أنها ملك سان — لامبير جسدا وروحا ، ولكنها سمحت له بمواصلة زيارته وتودده الحار ؛ والمرأة على أى حال تحيا حياة واحدة فقط حين تحب ، وحياة مضاعفة حين يحبها لثان . « لم تنكر على شيئا يمكن أن تمنحه أرق الصداقات . ولكنها لم تمنحني شيئا يجعلها خائنة . » وهو يروى أنباء ما كانا يخوضان فيه من « أحاديث مستفيضة متكررة ... خلال الشهور الأربعة التى انفقاها فى صلة حميدة لا تكاد تضارعها صلة بين صديقين من الجنسيتين يحصران نفسيهما داخل الحدود التى لم نتجاوزها قط . »^(٢٥) وفى روايته لهذه العلاقة نجد الحركة الرومانسية على أشدها : فلا شيء فى قصته يمكن أن يضارع هذه النشوات :

« لقد سكرنا كلانا بنخمر الحب — حبها لحبيبها ، وحبى لها ؛ وامتزجت تهدأتنا ودموعنا ... ولم تنس نفسها قط لحظة واحدة فى حميا هذا السكر اللذيذ ، وأؤكد تأكيداً قاطعاً إننى أن كنت مرة ، وأنا منساق بحواسى ، قد حاولت حملها على الخيانة ، فإنه لم يكن لى رغبة حقيقية فى النجاح .. ذلك أن واجب نكران الذات تسامى بعقلى ... لقد كان من الممكن أن أقارف الجريمة ، وقد قورفت مائة مرة فى قلبى ؛ ولكن أن الوث شرف حبيبتي صوفى ! أواه ، أممكن هذا ؟ كلا ! لقد قلت لها مائة مرة إنه محال ... فإن حبى لها أعظم من أن يغربنى بتملكها ... تلك كانت اللذة الوحيدة لرجل أوتى مزاجا من أكثر الأمزجة تأجيجا ، ولكنه ربما كان فى الوقت ذاته من أجبن من أننجبتهم الطبيعة من البشر . »^(٢٦)

ولاحظت مدام ديينيه أن « دها » لم يعد يزورها الآن إلا لماما ، ومرعان

ما علمت نبأ رحلاته لأخت زوجها . فألمها النبأ . وكتبت إلى جريم في يونيو تقول « من القسوة على أى حال أن يهرب منك فيلسوف في أقل اللحظات توقعا لهروبه . »^(٢٧) وذات يوم في أوبون وجد روسو « صوفى » تبكى . ذلك أن سان — لامبير نعى إليه خبر عبثها هذا ، وقد أبلغ بالخبر (كما قالت لجان — جاك) « بطريقة سيئة . إنه ينصفنى ، ولكنه مغيظ ... وأخشى ما أخشاه أن تكلفنى حماقاتك الراحة والهدوء بقية أيامى »^(٢٨) . واتفقا على أن الذى باح بالسر لسان — لامبير لابد هو مدام دينيه ، لأننا « كنا نعلم أنها تراسله . » أو لعلها باحت به لجريم ، الذى كان يلقي سان — لامبير بين الحين والحين في وستفاليا . وقد حاولت مدام دينيه — فى رواية روسو — أن تحصل من تريز على خطاباتة التى تلقاها من مدام دودتو ، واتهم مضيافته بخيائته فى خطاب عنيف :

« هناك عاشقان (صوفى وسان — لامبير) عزيزان على ، وهما وثيقا الارتباط جديران بحب الواحد لصاحبه ... وأحسب أن محاولات بذلت للتفريق بينهما ، وأننى استعملت لبث الغيرة فى صدر أحدهما . ولم يكن الاختيار سديدا ، ولكنه بدا محققا لأغراض الحق ؛ وأنت التى أشتبه فى أنها مذنبه بهذا الحق .. وهكذا كان يمكن أن يلصق بالمرأة التى أكن لها أعظم تقدير ... عار قسمة قلبها وشخصها بين حبيبين ، ويلصق بى أنا عار كونى أحد هذين التعيسين . ولو علمت أنك فكرت فى هذا إطلاقا ولو لحظة واحدة فى حياتك ، سواء عنها أو عني ، لأبغضتك حتى آخر نسمة من حياتى ، ولكنى لا أتهمك بالتفكير فى هذا فحسب ، بل بقوله أيضا .

« أتعلمين كيف أكفر عن أخطائى فى الفترة القصيرة التى أنا مضطر للمكث فيها بقربك ، بفعل ما لا يفعله أحد سواى : بمصارحتك برأى الناس فيك ، وبالصدوع التى عليك أن ترأبها فى سمعتك^(٢٩) » .

وأحزن عنف هذه التهم مدام دينيه ، سواء أكانت مذنبه أم بريئة (ولا علم لنا بالحقيقة) ، فأبلغتها إلى حبيبها البعيد جريم . وأجاب بأنه قد حذرهما من « المآذق الشيطانية » ، التى ستورط فيها بإنزال روسو الزق الغريب الأطوار

في الإبرميتاج^(٣٠) . ودعت جان — جاك إلى شفریت ، وحيته بالعناق والدموع ، وأجاب على الدموع بمثلها ، ولم تدل له بأى تفسير وصل إلينا علمه ، وتعشى معها ، ونام في بيتها ، ورحل في الغد مودعا بعبارات الصداقة .

وزاد ديدور الطين بلة . فقد أشار على روسو بأن يكتب إلى سان — لامبير معترفا بميله لصوفي ، مؤكدا له رغم ذلك وفاءها . ووعد روسو بأن يكتب (في رواية ديدرو) ولكن مدام دودتو رجته ألا يفعل ، وأن يدعها تنقذ نفسها بطريقتها الخاصة من المآزق التي ورطها فيها هيامه وعيها . فلما عاد سان — لامبير من الجهة حدثه ديدرو بالعلاقة ، مفترضا أن روسو قد اعترف بها . ولام روسو ديدرو ورماه بخيائنه ؛ ولام ديدرو روسو ورماه بخديعته . ولم يتصرف تصرف الفلاسفة غير سان — لامبير . فقد جاء وصوفي إلى الإبرميتاج ، و « دعا نفسه إلى العشاء معي ... وعاملني بصرامة ولكن بروح الصداقة . » ولم يوقع عليه عقوبة أشد من النزم والشخير بينما كان جان — جاك يقرأ عاليا خطاباه المطول إلى فولتير . على أن مدام دودتو لم تشجع المزيد من اللقاءات بروسو . وأعاد لها الخطابات التي كتبها له بناء على طلبها ، ولكن حين طلب خطابه إليها قالت إنها أحرقها . يقول « جرؤت على الشك في زعمها هذا ... وما زلت أشك . فلم تلق في النار قط خطابات كخطباتي . لقد رأى الناس أن خطابات هلويز (لأبيلاز) حارة ! فيا للسماء ! ، فماذا كانوا يقولون في خطباتي هذه ؟ »^(٣١) وأنكفأ إلى عالمه الخيالي مجروحا شاعرا بالحزى ، واستأنف كتابة « هلويز الجديدة » ، وسكب فيه عواطف رسائله المشبوبة لمدام دودتو .

على أن صنوفا جديدة من الدل كانت في انتظاره حين عاد جريم من الحرب (سبتمبر ١٧٥٧) « لم أكد اتبين فيه جريم القديم » الذي كان فيما مضى « يعده شرفا له أن ألقى عليه نظرة »^(٣٢) ولم يستطع روسو أن يفهم العلة في فتور جريم ، ولم يعرف أن جريم عرف بأمر الخطاب المهين الذي أرسله إلى مدام دينيه . وكان جريم يقرب من جان — جاك أنانية ، ولكنه فيما عدا ذلك نقيضه عقلا وخلقا — فهو شكاك ، واقعي ، فظ ، قاس .^(٣٣) وهكذا فقد روسو صديقين بخطاب واحد .

٣ - لفظ كبير

وحدثت أزمة جديدة حين قررت مدام دينيه في أكتوبر ١٧٥٧ أن تزور جنيف . وإليك قصة روسو :

« كتبت إلى تقول « يا صديقي ، سأقوم فوراً بالرحلة إلى جنيف ، لأن صبرى ساءت حالته ، وصحيتى أعتلت كثيراً ، بحيث يتعين على أن أذهب لاستشارة ترونشان . » وزادت دهشتي لهذا القرار الذى اتخذته هكذا فجأة ، وفى بداية أسوأ طقس فى السنة ... وسألتها من سيصحبها ، فأجابت بأنه لأنها ومعلمه مسيو دليفان ، ثم أردفت بغير اكتراث « وأنت يا عزيزى ، ألا تذهب أنت أيضاً ؟ » ولم يخطر لى أنها جادة فيما تقول ، لأننى فى هذا الفصل كنت لا أكاد أقوى على المضى إلى حجرتى (أى السفر بين لاشفريت والإيرميتاج) فقد رحت أمزح حول الفائدة التى يسديها مريض لآخر . ولم تكن هى ذاتها ، فيما بدا لى ، جادة فى اقتراحها ، وإلى هنا انتهى الأمر » (٣٤) .

وكان له مبررات وجيهة للزهد فى مصاحبة المدام ، فقد حالت دون ذلك آلامه وأوصابه ، ثم كيف يستطيع أن يترك تريز ؟ أضف إلى ذلك أن الشائعات أرجفت بأن مضيفته حبلى ، من جريم على الأرجح ، وصدق روسو القصة حيناً وهناً نفسه على النجاة من موقف مثير للسخرية . ولكن المرأة المسكينة كانت صادقة ، فهى تعاني من السل ، ويبدو أنها كانت مخلصه فى رغبتها فى أن يرافقها روسو ، ولم لا يهجه أن يعود ، على نفقتها ، لزيارة المدينة التى كان يفخر كثيراً بأنه مواطن فيها ؟ وكتب ديدرو ، العالم بشعورها ، إلى روسو يناشده أن يأخذ طلبها مأخذ الجد ويستجيب له ، ولو لما فى ذلك من بعض الرد على إحساناتها . وأجاب روسو بأسلوبه المعهود :

« أحسن أن رأى الذى تراه مصدره غيرك . وفضلاً عن عدم ميلى لأن أدع نفسى أساق على غير إرادتى تحت ستار اسمك من شخص ثالث أو رابع ، فإننى ألاحظ فى هذه النصيحة الثانوية نوعاً من الغدر لا يتفق وصراحتك ، ويمحسبك أن تكف عنه مستقبلاً لأجلك ولأجلى . » (٣٥)

وفى ٢٢ أكتوبر أخذ خطاب ديدرو وجوابه عليه إلى لاشفريت وقراها « بصوت عال واضح » على جريم ومدام دينيه . وفى الخامس والعشرين من الشهر رحلت قاصدة باريس . وذهب روسو ليوذعها وداعا مخرجاً ، يقول « ولحسن الحظ قامت فى الصباح ، وبقي لى من الوقت متسع للذهاب والغداء مع أخت زوجها » فى أوبون .^(٣٦) وفى التاسع والعشرين (كما جاء فى مذكرات مدام دينيه) كتب إلى جريم :

« قل لى يا جريم لم يعلن جميع أصدقائى أن من واجبى أن أصحب مدام دينيه ؟ أخطئ أنا ، أم أنهم كلهم مسحورون ؟ ... إن مدام دينيه مسافرة فى مركبة أجرة لطيفة ، ويصحبها زوجها ، ومعلم ولدها ، وخمسة خدام أو ستة ... فهل أحتمل أنا السفر فى مركبة أجرة ؟ وهل أطمع فى القيام برحلة طويلة كهذه وبهذه السرعة الكبيرة دون أن يقع لى حادث ؟ وهل على أن أطلب وقوفها فى كل لحظة لأتزل ، أم على أن أعجل بعذابائى وساعاتى الأخيرة باضطرارى إلى فرض القيود على نفسى ؟ (يلوح) أن أصدقائى المخلصين ... مصممون على إرهابى حتى الموت »^(٣٧) .

وفى ٣٠ أكتوبر غادرت مدام دينيه باريس قاصدة جنيف : وفى ٥ نوفمبر (فى رواية المذكرات) رد جريم على روسو :

« لقد بذلت ما وسعنى من جهد لتجنب الرد القاطع على الدفاع الرهيب الذى وجهته لى . وأنت تلح على أن أرد ... إنه لم يدر بخلقى قط أنه كان من واجبك أن تصحب مدام دينيه لى جنيف . وحتى لو كان ذافلك الأول هو أن تعرض عليها صحبتك لها ، لكان من واجبها أن ترفض عرضك ، وأن تذكر بما يجب عليك نحو مركزك ، وصحتك ، والمرأتين اللتين جررتها لى معتكفك ؛ هذا رأي ... وأنت تجسر على أن تحدثنى بعبوديتك ، أنا الذى كنت طوال أكثر من عامين الشاهد اليومى على كل دلائل الصداقة البالغة الحنان والكرم ، التى منحتها لياك هذه المرأة ، ولو استطعت أن أصفح عنك لرايتنى غير جدير بصداقة إنسان . أننى لا أريد أن أراك ما حييت ، وسأحسب نفسى

سعيدا إن استطعت أن أطرده من عقلى ذكرى سلوكك . سأطلب إليك أن تنساني ، وأن تكف عن إزعاجى .» (٣٨)

ومن جنيف كتبت مدام دينيه إلى جريم : « لقد تلقيت شكر الجمهورية على الطريقة التى عاملت بها روسو واستقبلت وفدا رسميا من صانعى الساعات للغرض ذاته ... إن القوم هنا ينظرون إلى نظرة الإجلال من أجله . » (٣٩) ونهبها ترونشان إلى ضرورة بقائها عاما تحت رعايته الطبية . وكانت تختلف مرارا إلى بيتى فولتير فى جنيف ولوزان . وبعد حين لحق بها جريم ، وقضيا معا ثمانية أشهر فى عيشة سعيدة . (٤٠)

وفى ٢٣ نوفمبر ١٧٥٧ كتب إليها روسو (كما يروى) يقول :

إن كان ممكنا لإنسان أن يموت حزنا لما كنت الآن على قيد الحياة إن الصداقة قد انطفأت بيننا يا سيدتى ، ولكن ذلك الذى مضى وانقضى ما زالت له حقوق ، وأنا احترمها . فأنا لم أنس كرمك معى ، ولك أن تنتظرى منى ما يمكن من عرفان بالجميل لشخص لا أستطيع أن أحبه بعد ...

« أردت أن أغادر الإيرميتاج . وكان ينبغى لى أن أفعل ، ويزعم أصدقائى أنه لابد من بقائى هناك إلى الربيع ، وما دام أصدقائى يريدون هذا فسأبقى هناك إن وافقت . » (٤١)

وفى أوائل ديسمبر جاء ديدرو لزيارة روسو ، فوجده ساخطا باكيا لما حل به من « استبداد » أصدقائه . وقد وردت رواية ديدرو لهذه الزيارة فى خطابه المؤرخ ٥ ديسمبر إلى جريم :

« إن الرجل مسعور forcen ... لقد زرتة ، ولمته على شناعة سلوكه بكل القوة التى منحتنى إياها الصراحة والأمانة . وقد دافع عن نفسه فى ثورة

(*) عاددا إلى باريس فى أكتوبر ١٧٥٩ ، وأصبح أيتها هناك أحد الصالونات الصغيرة وقد فاز كتابها فى التربية بجائزة من الأكاديمية .

غضب أحزنتنى ... إن هذا الرجل يقف جاثلا بينى وبين عملى ، ويربك عقلى ، وكأن بجوارى أحد المحكوم عليهم بالهلاك الأبدى ... أى منظر هذا — منظر رجل شرير ضار ! لا تدعى أراه ثانية ، فهو يحملنى على الإيمان بالشياطين والجحيم . » (٤١)

وتلقى روسو ردا من مدام ديبييه فى ١٠ ديسمبر . والظاهر أن جريم كان قد نقل إليها ملاحظات روسو عن « عبوديته » فى الإيرميتاج ، لأنها كتبت إليه بمرارة غير معهودة فيها :

« كل ما يسعنى عمله الآن أن أرثى لك ، بعد أن بذلت لك طوال سنوات عديدة كل أمارات الصداقة الممكنة . فأنت شقى جدا ... »

« وما دمت مصمما على مغادرة الإيرميتاج ، ومقتنعا بأنه ينبغى لك أن تفعل ، فإنه يدهشنى أن يقنعك أصدقاؤك بعد إلحاح بالبقاء فيه . أما أنا فلا أستشير أصدقاؤى أبدا فى أمر واجبى ، وليس عندى ما أزيد فى أمر واجبك . » (٤٢)

وفى ١٥ ديسمبر ، ورغم حلول الشتاء ، غادر روسو الإيرميتاج ومعه تيريز وكل متعلقاتهما . أما أمها فقد أرسلها لتعيش فى باريس مع بناتها الأنثريات ولكنه وعد بأن يسهم فى نفقاتها . وانتقل إلى كوخ فى مونمورنس أجره له وكيل للوى — فرانسو دبوريون ، أمير كونتى . هناك ، وقد ولى ظهره لأصدقائه السابقين ، أنتج فى خمس سنوات ثلاثة من أعظم كتب القرن تأثيرا .

٤ — خصامه مع جماعة الفلاسفة

كان مسكنه الجديد يقع فيما سماه « حديقة مون — لوى » وهو « حجرة واحدة » أمامها مرجة ، وفى طرف الحديقة حصن قديم فيه « طاقة خالصة على الهواء . » وكان عليه أن يستقبل زواره حين يجيئون « وسط أطباق القدرة وقلورى المحطمة » ويرتعد مخافة أن ينخسف « أرض الحجرة التى تهدمت » تحت أقدام ضيوفه . ولم يكثر لفقره ، فقد كان يكسب ما يكفيه

بنسخ الموسيقى ، اغتبط بكونه حرفيا كفتا (١٣) ، وبأنه لم يعد تابعا لامرأة غنية . وكان يرد هدايا جيرانه اللطفاء حين يرسلونها إليه ، فقد أحس أن من الدل أن يأخذ المرء أكثر مما يغطي . وأرسل له الأمير ذكورتى الدجاج مرتين ، فأخبر الكونتيسة دبوفليه أنه سيرد الهدية الثالثة إن جاءت .

ونلاحظ عرضا كثرة الأرستقراطيين الذين ساعدوا ثوار التنوير . لا لموافقتهم على آرائهم بقدر تعاطفهم الكريم مع العبقرية المحتاجة . لقد كان في نبلاء النظام القديم الكثير من عناصر النبل ، وقد خصت الأرستقراطية روسو بصداقتها رغم تنديده بها . وكان الحرفى المعز بنفسه ينسى نفسه أحيانا ويفخر بأصدقائه حملة الألقاب ، قال في معرض حديثه عن مرجته :

« كانت تلك الشرفة قاعة الجلوس التى استقبلت فيها مسيو ومدام لكسمبورج ، والدوق ديفلروا ، وأمير تنجرى ، ومركيز أرمنتيير ، ودوقة مونغررنسى ، ودوقة بوفليه (*) ، والكونتيسة دفاينتونا ، والكونتيسة دبوفليه ، وغيرهم من نفس الرتبة ... الذين تنازلوا بأن يحجوا إلى مون--لوى » (١٤)

وكان منزل المرشال والمرشالة دلكسمبرج غير بعيد من كرخ روسو . وما لبثا عقب وصوله أن دعواه إلى العشاء فرفض الدعوة . ثم كرراها في صيف ١٧٥٨ فرفضها ثانية . ثم أتيا حوالى عيد القيامة في ١٧٥٩ ومعهما ستة من أصدقائهم النبلاء يتحدونه في معقفه . وراعه الأمر فقد اكتسبت المرشالة يوم كانت الدوقة دبوفلية سمعة بأنها فتنت عددا هائلا من الرجال . ولكنها خلقت خطاياها وراعاها وغدت في نضجها امرأة فيها فتنة الأمومة لا مجرد فتنة الجنس ؛ وسرعان ما أذابت تحفظه الحجل وهزته ليشارك في حديث حى . وتساءل الزوار لم يعيش رجل أوفى هذه المواهب في هذا الضنك . ودعا المرشال روسو وتريز ليذهبا ويعيشا معه حتى يمكن إصلاح كوخهما ؛ ولكن

(*) نستطيع في زحمة أفراد آل بوفليه الذين دنواوا التاريخ في القرن الثامن عشر أن نميز (١) دوقة بوفليه ، التى أصبحت مرشالة لكسمبورج . (٢) مركيزة بوفليه ، خلية ستانلاس لسكزنسكى (٣) كونتيسة بوفليه ، صديقة ديفد هيوم وهارس ولبول .

جان — جاك ظل على مقاومته ؛ وأخيرا اقتنع هو وتريز بأن يسكننا حيناً « القصر الريفي الصغير » الواقع في ضبعة لكسمبورج . فانتقلا إليه في مايو ١٧٥٦ . وكان روسو أحيانا يزور لكسمبورج وزوجته في بيتهما الفخم ، هناك كان يغرى بسهولة بأن يقرأ عليهما وعلى ضيوفهما بعض فصول الرواية التي كان يكملها . وبعد بضعة أسابيع عاد هو وتريز إلى كوخهما ولكنه واصل زيارته لآل لكسمبورج ، وظلا هما على وفائهما له طوال تقلبات مزاجه . وشكا جریم من أن روسو « هجر أصدقائه القدامى واستبدل بنا قوما من أعلى الطبقات »^(٥٤) ولكن جریم هو الذي نبذ روسو ، وفي خطاب كتبه جان « جاك إلى مالزيرب في ٢٨ يناير ١٧٦٢ رد على من اتهموه بالتنديد بالنبله ، وبالتودد إليهم :

« سيدى ، إننى أكره كرها شديدا تلك الطبقات الاجتماعية التي تتسلط على غيرها ... ولا يضايقنى أن أعترف لك بهذا وأنت سليل أسرة مشهورة بعراقها ... إننى أبغض العظماء ، أبغض وضعهم ، وقسوتهم ، وأهواءهم ... ورددائلهم ... بمثل هذا المزاج ذهبت كإنسان يجر جرا إلى قصر (آل لكسمبورج) الريفي في مونمورنس . ثم رأيت سادته ؛ وقد أحببني ، وأحببتهم يا سيدى ، وسأظل أحبهم ما حييت ... وإنى لأبذل لهم ، لا أقول حياتي فتلك عطية هزيلة .. بل الفخر الوحيد الذى مس قلبي — وهو ذلك التشريف الذى أتوقعه من الخلف ، والذى سيمنحنيهِ ما فى ذلك شك ، لأنه حتى ، ولأن الخلف منصفون دائما . »

وكان يود أن يحتفظ بصديقة سابقة — هى مدام دودتو ، ولكن سان . لامير لامها على الشائعات التي ربطت فيها باريس اسمها باسم روسو ، فاخبرت روسو بأن يكف عن الكتابة لها . وتذكر أنه اعترف لديدرو بحبه لها ، فخلص الآن إلى أن ديدرو هو الذى ثرثر به فى الصالونات و « عقدت النية على مقاطعته إلى الأبد . »^(٥٦)

ولكنه اختار أسوأ اللحظات والوسائل ففي ٢٧ يوليو ١٧٥٨ كان هلفتيوس قد نشر فى كتابه « فى العقل » هجوما عنيفا على الكهنوت الكاثوليكي . وأفضت

الضجة المترتبة على هذا الهجوم إلى المطالبة المتصاعدة بحظر « الموسوعة » (التي كان قد صدر منها سبعة مجلدات) وكل الكتابات التي تنتقد الكنيسة أو الدولة . وكان المجاد السابع ينضم من مقال دالامبير المتهور عن جنيف ، الذي امتدح فيه القساوسة الكلفين على عقيدة التوحيد التي يتكتمونها وناشد السلطات الجنيقية أن تسمح بإقامة مسرح . وفي أكتوبر ١٧٥٨ نشر روسو « خطابا إلى مسيو دالامبير عن المسرح » وكان على اعتدال لهجته أشهر حرب على عصر العقل ، وعلى زندقة فرنسة منتصف القرن الثامن عشر وفساد خلقها ، وقد بذل روسو في مقدمته قصارى جهده في التبرؤ من ديدرو ، دون أن يذكر اسمه صراحة : « كان من بين أصحابي أرسنارخوس » رجل صارم ، عادل ولكنه لم يعد صاحبا لي واستأريد مزيدا من صحبته ، على أنني لن أكف عن الأسف عليه وأن قلبي ليفتقده أكثر حتى من كتاباتي ، « وأضاف في هامش معتقدا أن ديدرو قد أفشى سره لسان -- لامبير :

« إن كنت قد امتشقت حساما على صديق فلا تيأس لأن هناك سبيلا لرد الحسام إليه وإن كنت قد اشقيته بكلامك فلا تخف لأن في الإمكان مصالحته . أما الإهانة واللوم المؤذى وأفشاء السر وجرح قلبه بالخيانة فهذه كلها تسخطه عليك وهو تاركك إلى غير عودة (٤٧) .

أما الخطاب الذي تبلغ صفحاته في الترجمة ١٣٥ فكان بعضه دفاعا عن الدين كما يبشر به علانية في جنيف . وكان روسو نفسه موحدا — أى رافضا لللاهوت المسيح كما سيدل على ذلك كتاب « إميل » بعد قليل ، ولكنه حين تقدم طالبا المواطنة الجنيقية كان قد أقر بالعقيدة الكلفية الكاملة ، وفي هذا الخطاب دافع عن الدين القديم ، وعن الإيمان بالوحي الإلهي ، باعتبارهما أمرين لا غنى عنهما لاختلاق الشعب . « أن ما يمكن إثباته لأغلبية الناس بالعقل ليس إلا الحساب ، إن ما يمكن إثباته لأغلبية الناس بالعقل ليس الحساب النفعي للمصلحة الشخصية » ومن ثم كان مجرد (الدين الطبيعي) سيهبط بالأخلاق إلى مستوى لا يزيد على تجنب اكتشاف الذنوب .

ولكن اللاهوت كان مثارا صغيرا للجدل في حجة روسو ، أما هجمته الأمامية فكانت على اقتراح دلامبير بأن يصرح باقامة مسرح في جنيف . هنا لم يكن العدو الخفي هو دالامبير ، بل فولتير . فولتير الذى حجب سناء شهريته نزيلا بجنيف ، فخر روسو بمواطنته الجنيفية ، حجباً بأثار حنقه ، فولتير الذى جرؤ على تقديم التمثيليات في جنيف أو قربها ، والذى حث لامبير بلا شك على أن يضمن مقالا في الموسوعة نداء بانشاء مسرح جنيفي . فإذا ؟ أتدخل في مدينة اشتهرت بأخلاقتها البيورتانية ضربا من اللهو . كان في كل مكان تقريبا يمجّد الفساد الخلقى ؟ أن الدرامات المحزنة تصور الجريمة دائما ، وهى لا تظهر العواطف كما ظن أرسطو ، بل تلهبها ، لاسيما عواطف الجنس والعنف . وأما التمثيليات الهزلية فنادرا ما تعرض الحب الزوجى النقي ، وكثيرا ما تترأى بالفضيلة ، كما فعل حتى موليير في مسرحيته « مبغض البشر » . وكل الناس عليهم بأن الممثلين يحيون حياة العريضة والفساد ، وأن معظم ممثلات المسرح الفرنسى الفاتنات هن مضرب الأمثال في فوضى الجنس ، وبؤر ومصادر الفساد في مجتمع يعبدهن . وربما كانت شروخ المسرح هذه في المدن الكبيرة مثل باريس ولندن لا تؤثر إلا في شطر صغير من السكان ، أما في مدينة صغيرة كجنيف (لا يسكنها أكثر من ١٤,٠٠٠ نسمة) فإن سمومها تتغلغل في جميع الطبقات ، وتثير العروض أفكارا مولعة بالجديد وحربا بين الأحزاب .^(٤٨)

وإلى هنا كان روسو يردد الرأى البيورتانى أو الكلفنى في المسرح ، ويقول في فرنسا عام ١٧٥٨ ما قاله من قبل ستيفن جوسون في انجلترا عام ١٥٧٩ ، ووليم يرين عام ١٦٣٢ ، وجريمى كوليوار عام ١٦٩٨ . ولكن روسو لم يقتصر على التنديد . فهو لم يكن بيورتانيا ؛ ومن ثم دعا إلى الرقص والمراقص تحت رعاية الدولة وإشرافها . وقال إنه ينبغي أن تفر أسباب الترفيه العامة ولكن من نوع لإجماعى وصحى ، كالحللات الخاوية ، والألعاب في الهواء الطلق ، والمهرجانات ، والاستعراضات (هنا أضاف روسو وصفا نابضا بالحياة لسباق زوارق على بحيرة جنيف .^(٤٩)

ويقول لنا روسو أن الخطاب « أصاب نجاحا كبيرا » فقد بدأت باريس

تمل حياة الفساد ؛ ولم يعد هناك لذه في الانحرافات الخارجية على العرف التي أصبحت هي ذاتها عرفا . فلقد أتمخت المدينة برجال يسلكون مسلك النساء ، ونساء يتحرقن شوقا إلى أن يكن كالرجال . لقد شبت من الدراما الكلاسيكية وأشكالها الطنانة المتكلفة ورأت حقارة قواد مدام دبومبادور وجنودها أمام جند فرديريك الاسبرطين . وكان الاستماع إلى فياسوف يمجّد الفضيلة تجربة منعشة وسيزداد تأثير « الخطاب » الأخلاقي حتى يشارك هو وكتابات روسو الأخرى في إحداث عودة للياقة تكاد تكون ثورية في عهد لويس السادس عشر .

ولم يكن في وسع الفلاسفة أن يتوقعوا هذا . فالذى أحسوا به في إعلان روسو هو أنه حمل من أعمال الخيانة ، لأنه هاجمهم في لحظة خطرهم الأكبر . ففي يناير ١٧٥٩ حظرت الحكومة نهائيا نشر الموسوعة أو بيعها . وحين ندّد روسو بأخلاق باريس رماه أخصائه القدامى بالنفاق . وقد تذكروا مطاردته لمدام دودتو ، وحين ندّد بالمرسح نوها بأنه كتب « كاهن القرية » و « نارسيس » للمسرح ، وأنه كان يختلف إلى المسرح . ورفض سان — لامبير برسالة جافية (١٠ أكتوبر ١٧٦٨) نسخة « الخطاب » التي أرسلها إليه روسو :

« لا أستطيع قبول هديتك ، ولعل لك عذرا — على غير ما أعلم — في الشكوى من ديدرو ، ولكن هذا لا يعطيك حق إهانته علنا . فأنت لا تجهل طبيعة الاضطهادات التي يعانها ولست أملك يا سيدى إلا أن أقول لك إن هذا العمل الشائن الذى اقترفته صدمنى كثيرا ... كلانا يختلف فى مبادئنا اختلافا أشد من أن يتيح لنا أن ننسجم . فانس أننى موجود ... وأنى أعذك بأن أنسى شخصك ، ولا أذكر عنك شيئا إلا مواهبك . » (٥١)

على أن مدام دينيه حين عادت من جنيف شكرت روسو على النسخة التي بعث بها إليها ، ودعته للعشاء فذهب ، والتقى بسان — لامبير ومدام دودتو آخر لقاء .

ووافاه من جنيف أكثر من عشرة خطابات ثناء . وحظر قضاه جنيف على فولتير عرض أى مسرحيات على أرض جنيف بعد أن شجعهم موقف روسو . ونقل فولتير مواهبه المسرحية إلى تورنيه ، وانتقل هو إلى فرنيه . وأحس

بوجع الهزيمة ، فاتهم روسو بأنه هارب مارق ، وأسف على تردى قطيع « الفلاسفة » الصغير إلى هوة صراع يفنون فيه أنفسهم . وكتب يقول « إن جان - جاك السيبي السمعة هو يهوذا الجماعة »^(٥١) ورد روسو بخطاب (٢٩ يناير ١٧٦٠) إلى الراعي الجنيتي بول مولتو :

« أتحدثني عن ذلك الرجل فولتير ؛ لم يلوث اسم ذلك المهرج رسائلك ؟ لقد دمر ذلك التمس وطني (جنيف) . ولو كان احتقارى له أقل لكرهته أكثر . وأنا لا أرى في مواهبه العظيمة إلا شيئا مخزيا يضاف إلى خزيه ، ويخط من قدره بسبب الطريقة التي يسخر بها ... إليه أيها المواطنون الجنيفيون ، إنه يكلفكم غاليا جزاء أيوائكم له ! »^(٥٢)

وأحزن روسو أن يعلم أن فولتير يخرج التمثيليات في تورنيه ، وأن كثيرا من المواطنين الجنيفيين يعبرون الحدود إلى فرنسا ليشهدوا هذه الحفلات . لا بل ليشارك بعضهم فيها . ووجد استيأؤه مبررا آخر للحرب حين طبع خطابه الذي أرسله إلى فولتير عن زلزال لشبونة في مجلة برلين (١٧٦٠) ، لأن فولتير فيما يبدو أعار المخطوطة في غير مبالاة لأحد الأصدقاء . فأرسل روسو الآن (١٧ يونيو) إلى فولتير خطابا من أعجب الخطابات في رسائل هذا العصر الصاخب . قال بعد أن لام فولتير على نشر الخطاب دون إذنه :

« إنني لا أحبك يا سيدى . فلقد آذيتني أنا تلميذك المتحمس لك أبلغ الأذى . لقد دمرت جنيف جزاء على الملجأ الذي قدمت لك . ولقد نفرت مواطني من جراء المديح الذي مدحتك به بينهم . وأنت الذي تجعل مقامى في وطني شيئا لا أطيعه ، أنت الذي ستضطرني للموت على أرض غريبة ، محروما من كل تعزيات المحتضرين ، ملقى على كوم من أكوام المهملات في ازدراء ، بينما يحيط بك كل ما يستطيع لإنسان أن يطمع فيه من أسباب التكريم في وطني . فأنا باختصار أكرهك ، لأنك هكذا شئت ، ولكني أكرهك بمشاعر إنسان ما زال في وسعه أن يحبك لو كنت قد رغبت في حبي . ولم يبق من جميع المشاعر التي امتلأ بها قلبي نحوك سوى الإعجاب بعقريتك الرائعة ، وحب

كتابائك . وإذا كنت لا أكرم فيك غير مواهبك فليس للذنب ذنبى . ولن يوجد قصور أو نقص أبداً في الاحترام الواجب لها ، ولا فى المسلك الذى يقتضيه ذلك الاحترام . » (٥٣)

ولم يجب فولتير ، ولكنه كان يدعو روسو سرا « المشعوذ » و « الخنون » (٥٤) و « الناس الصغير » وقد كشف فى رسائله للامير عن نفس لا تقل حساسية وتأججا عن نفس جان - جاك :

« تلقيت رسالة طويلة من روسو . لقد جن جنونا مطبقا ... فهو يهاجم المسرح بعد أن كتب هو نفسه تمثيلية هزيلة رديئة ؛ هو يهاجم فرنسا التى تطعمه ؛ وهو يجد خمسة أضلاع متعفة أو ستة من برميل ديوجين ويتسلقها لينبحا ؛ وهو يتخلى عن أصدقائه . ويكتب لى - لى ! - أشد ما سود به متعصب الصحائف إهانة ... ولولا أنه قزم حقير لا أهمية له ، انتفخت أوداجه غرورا ، لما كان فى الأمر أذى يذكر ؛ ولكنه أضاف إلى وقاحة خطابه عار التآمر مع متنطعى السوسنيين هنا للجيلولة بينى وبين إقامة مسرح لى فى تورنيه ، أو على الأقل لمنع المواطنين من التمثيل فيه معى . وإذا كان قصده من هذه الحيلة الوضيعة أن يعد لنفسه عودة ظافرة إلى الأزقة الحقيمة التى نشأ فيها ، فذلك فعل وغد ، ولن أصفح عنه ما حييت . ولو أن أفلاطون لعب على لعبة من هذا النوع لانتقمت منه ، فما بالك بتابع خانع لديوجين . إن مؤلف « ألويزا الجديدة » ليس إلا وغدا شريرا . » (٥٥)

فى هذين الخطابين اللذين كتبهما أشهر كاتبين فى القرن الثامن عشر نستشف من وراء تيارات العصر التى يحسبها الناس غير شخصية ، الأعصاب التى اشتد إحساسها بكل لطمة فى الصراع ، والغرور البشرى المشترك الذى تضطرب به أفئدة الفلاسفة والقديسين .

٥ - هلويز الجديدة

إن الكتاب الذى أخطأ فولتير فى تسميته كان طوال ثلاث سنين ملاذا لروسو من أعدائه ، وأصدقائه ، والعالم . بدأه عام ١٧٥٦ . وفرغ منه فى

سبتمبر ١٧٥٨ ، وأرسله إلى ناشر في هولندية ، وظهر في فبراير ١٧٦١ باسم « جولى ، أو هلويز الجديدة ، رسائل عاشقين جمعها ونشرها ج.ج روسو » . وصياغة الرواية في شكل رسائل كانت عادة قديمة ، ولكن لعل الذى دعا روسو إلى التصميم عليها هو محاكاته رواية رتشدسن « كلاريسا » .

والقصة بعيدة الاحتمال ولكنها نسيج وحدها . فجولى هى ابنة بارون ديتانج ، وهى فى السابعة عشرة أو نحوها . وتدعو أمها الشاب الوسيم سان-برو ليكون معلمها الخاص . ويقع أيلار الجديد هذا فى غرام هلويز الجديدة ، كما كان يمكن أن تتوقعه أى أم فى دنيا الواقع . ولا يلبث أن يرسل إلى تلميذته رسائل حب حددت اللحن لقرن من القصص الرومانسى :

« إنى لأرتعد كلما تصافحت أيدينا ، ولا أدرى كيف يحدث هذا ، ولكنها تصافح دوما . وإنى أجفل حالما أحس لمسة أصبعك ، وتأخذنى حمى أو قولى حمى مصحوبة بهذيان فى هذه المتع ، وتتخلى غنى حواسى شيئاً فشيئاً ، فإذا خرجت هكذا عن طورى فإذا أستطيع أن أقول ، أو أفعل ، وأين أختبئ ، وكيف أكون مستولاً عن سلوكى ؟ »^(٥٦) ثم يقترح أن يرحل ولكنه يكتفى بالكلام دون الفعل :

« وداعاً أذن يا جولى ، المفرطة الفتنة . . . غداً سأكون رحلت إلى الأبد . ولكن ثقب أن غرامى العنيف الطاهر بك لن ينتهى إلا بانتهاء حياتى ، وأن قلبى المفعم بهذا المخلوق الملائكى ، لن يهبط بنفسه إلى إفساح مكان فيه لحب ثان ، وأنه سيوزع كل ولائه المستقبل بينك وبين العفة ، وأنه لن يدنس لهيب آخر المديح الذى عبدت عليه جولى^(٥٧) » .

وقد تبسم جولى لهذا التعبد ، ولكن فيها من الأنوثة ما يمنعها من اقضاء مثل هذا الكاهن المبهج عن المديح . فتطلب إليه أن يؤجل قراره . فالاتصال الكهربى بين الذكر والأنثى قد أحدث بها على أى حال اضطراباً مماثلاً ، وسرعان ما تعترف بأنها هى أيضاً قد أحست باللذغة الغامضة : « منذ أول يوم التقينا فيه تشربت السم الذى يسرى الآن فى حواسى

وعقلى ، شعرت به فوراً وعيناك ، وعواطفك ، وحديثك ، وقلمك المذنب — كلها تزيد كل يوم أذاً^(٥٨) . ومع ذلك يتعهد بالآلا يطلب مطلباً أشد إثمًا من قبلة « كوفى عفيفة وإلا احتقرت ، وسأكون نجديراً بالإحترام وإلا عدت كما كنت ، ذلك هو الأمل الوحيد الباقي لى ، والذى يفضل الأمل فى الموت » . ويوافق سان — برو على أن يجمع بين الهذيان والعفة ، ولكنه يعتقد أن هذا يتطلب معونة خارقة من السماء .

« أيتها القرى الساوية ، . . . انفعلى فى روحا تطيق السعادة العظمى ! أيها الحب الإلهى ! يا روح وجودى ، أواه ، اسندنى لأننى أوشكت على السقوط تحت وطأة الوجد . . . أواه كيف أحتمل سيل السعادة المتدفق الذى يفيض به قلبى ؟ كيف أطرد هواجس عاشقة خائفة ؟^(٥٩) . وهكذا طوال ٦٥٧ صفحة ، فإذا بلغنا صفحة ٩١ قبلته . والكلمات تقصر عن وصف « حالى بعد ذلك بلحظة ، حين شعرت — إذ ارتعشت يداى — برعدة زقيقة — وشفثاك المعطرتان — شفتا جولى حبيبتى — تضغطان شفتى ، وأنا بين ذراعيها ! وبأسرع من البرق انطلقت من كيانى نار مبالغته^(٦٠) . فإذا وصلنا الرسالة التاسعة والعشرين وجدنا أنه أغواها ، أو أنها أغوته . ويهيم هو فى عوالم من النشوة ، ولكنها تحسب كل شىء قد ضاع . « إن لحظة غفلة واحدة قد أسلمتني إلى تعاسة أبدية . لقد سقطت فى وهدة العار التى لا تخرج منها^(٦١) .

وتموت أم جولى كمدا حين تعلم بأن بكارتها فضت . ويقسم البارون أن يقتل سان — برو ، فيخرج هذا فى رحلة بحرية حول الأرض . وتزوج جولى فولمار ، وهو روسى كريم المولد . متقدم السن ، تكفيراً عن ذنبا وطاعة لأبيها ، ولكنها تظل ترأسل سان — برو خفية ، وتشعر نحوه بعاطفة أقوى من حبها الواجب عليها لزوجها . ويدعشها أن تجد فولمار إنساناً طيباً ، وفيها ، حريصاً على راحتها ، منصفاً كريماً

مع الجميع ، وذلك رغم إلحاده . وفي رسالة كتبها لسان — برو تؤكد له أن الرجل والمرأة قد يجدان الرضى في « زواج المصلحة » ولكنها لن تعرف السعادة الكاملة أبدا . فاتحرافها قبل زواجها يثقل ذاكرتها وأخيرا تعترف لزوجها بلحظة الإثم تلك . ويقول أنه علم بها ، وصمم على ألا يذكرها أبدا . ويخبرها بأنه لم يكن إثمًا قط ، وتأكيدها لغفرانه لها يدعو سان — برو للحضور والإقامة مع الأسرة معلما خاصاً لطفلهما ، ويحضر سان — برو ؛ ويؤكد لنا المؤلف أن الثلاثة يعيشون معاً في وفاق حتى يفرق بينهم الموت . ويغيب الزوج العجيب أياما . وتخرج جولى وسان — برو للتجديف على بحيرة جنيف ، ويعبران إلى سافوى ، ويريهما الصبحور التي كتب عليها اسمها في منقاه ، ويبكى ؛ وتمسك بيده المرتعشة ، ولكنهما يعودان بريئين من الإثم إلى بيتها في كلارنس في إقليم فو (٦٢) .

ويعجبان كيف يمكن فولمار أن يكون بهذه الطبيعة دون إيمان ديني . ويفسر سان — برو هذه الظاهرة الشاذة ، وهو كجولى بروتستنتي متمسك بدينه :

« ان فولمار الذى أقام فى أقطار كاثوليكية رومانسية لم يغيره ما خبره من إيمان أهلها . بأن يرى فى المسيحية رأياً أفضل . فقد رأى أن مذهبهم لا يتجه إلا لمصلحة كهنتهم ، وهو يتألف بجملة من حركات مشيرة لاسخرية وרטانة بالفاظ لا معنى لها . ولاحظ أن ذوى الفطرة السليمة والأمانة يجمعون على رأيه ، وأنهم لا يتخرجون من الجهر برأيهم ، لا بل أن القساوسة أنفسهم فى الخفاء كانوا يهزأون سراً بما يعلمون ويثبتون فى الأذهان علانية ، ومن ثم فكثيراً ما أكد لنا أنه بعد أن أنفق كثيراً من الوقت والجهد فى البحث ، لم يلتقى قط بأكثر من ثلاثة قساوسة يؤمنون بالله (٦٣) » . ويضيف رسو فى حاشية ، معاذ الله أن أوافق على هذه التأكيدات القاسية الطائشة ! ومع ذلك يذهب فولمار بانتظام إلى

الخدمات الدينية البروتستنتية مع جولى ، بدافع من احترامه لها ولخيراته .
وترى جولى وسان — برو فيه « أغرب اللامعقول » — إنسانا يفكر تفكير
مألوف ويسلك مسلك مسيحي (٦٤) .

وهو لا يستحق اللطمة الأخيرة ، ذلك أن جولى تعهد إلى فولمار
وهى على وشك الموت بحمى أصابتها وهى تنقذ ابنها من الغرق — بخطاب
غير مختوم يعلن لسان — برو أنه كان على الدوام حبا للوحيد . وفى
وسعنا أن نفهم دوام ذلك الحب الأول ، ولكن لم تجزى طول وفاة
زوجها وثقته بها بمثل هذا الرفض القاسى وهى على فراش الموت ؟ أن
هذا لا يكاد يتفق والنبل الذى أضفاه المؤلف على خلق جولى .

ومع ذاك فهمى من أعظم اللوحات فى القصص الحديث . وقد استلهمها
روسو من وحى ذكرياته الخاصة رغم أن (كلاريسا) رتشر دسن أوحى
بها فى أغلب الظن ، الفاتتان الملتان قادا جواديهما عبر النهر فى آنسى ،
والذكريات التى احتفظ بها فى اعزاز لدمام دافران حين كانت تبسط
عليه حمايتها فى سنوات صباه ، ثم لدمام دودتو ، التى أشعرته بفيض
الحب حين وقفت سدا أمام شهوته ، وبالطبع ليست جولى واحدة من
هاتين المرأتين ، ولعلها ليست أى امرأة التقى بها روسو طيلة حياته ، بل
مثالا مخلقا من أحلامه . وقد أفسد الصورة أصرار روسو على جعل
شخصه كليا تقريبا تتكلم كروسو ، فجولى حين تزيدها الأمومة عمقا
تغلو حكمة من الحكماء ، فتطيل الحديث فى كل شيء من التدبير
المنزلى إلى الاتحاد الصوفى بالله . وهى تقول لابلد أن نفحص صحة هذه
الحجة ، ولكن أى امرأة جديرة بالحب نزلت يوما ما إلى مثل
هذه التفاهة .

أما سان — برو فهو بالطبع أشبه بالشخص بروسو ، حساس لكل
مفاتيح النساء ، تواق للركوع عند أقدامهن التى يحلم بها ، ويسكب عبارات
الولاء والحب البليغة التى ردها فى وحدته . ويصفه روسو بأنه لا يفئا

بأنى عملاً مجنوناً ثم يحاول أن يثوب إلى رشده^(٦٥). وسان - برو إنسان متزمت أشد التزمت باليقاس إلى لفليس الوجد السافر كما صورته رتشرسن. وهو الآخر لأبد أن ينطق بلسان روسو ، فهو يصنف باريس بأنها دوامة من الشرور - غنى فاحش ، وفقير مدقع ، وحكومة عاجزة ، وهواء فاسد ، وموسيقى رديئة ، وأحاديث تافهة ، وفلسفة باطلة ، وأنهار كامل تقريباً للدين ، والفضيلة ، والزواج ، وهو يردد مقال روسو الأول عن صلاح الإنسان الفطرى وتأثيرات الحضارة المفسدة المحطة ، ويهنيء جولى وفولمار على إثارهما حياة الريف الهائلة الصحية فى كلارنس .

أما فولمار فأكثر الأشخاص أصالة فى معرض روسو . فمن كان النموذج الذى حاكه المؤلف على غراره ؟ لعله دولباخ ، « الملحد اللطيف » ، والبارون الفليسوف ، والمادى الفاضل ، والزوج الوفى لزوجته واحدة ومن بعدها لأختها . أو لعله سان - لامبير ، الذى صدم روسو بتبشيريه بالإلحاد، ولكنه صفح عنه لمغازلته خليلته . ويعترف روسو صراحة باستخدامه النماذج الأصلية الحية والذكريات الشخصية :

« إن قلبى المغمم بما وقع لى ، والذى لم يزل جيشاً بالكثير من الأنفعالات العنيفة ، أضاف الشعور بآلامه إلى الأفكار التى أوحى لى بها التأمل ... وعلى غير وعى منى وصفت المواقف التى كنت فيها آنئذ ، ورسمت صوراً بحریم ، ومدام ديينيه ، ومدام دودتو ، وسان - لامبير ، ولشخصى^(٦٦) .

وخلال لوحات الأشخاص هذه عرض روسو جوانب فلسفته كلها تقريباً . فأعطانا صورة مثالية للزواج السعيد ، ولضبعة تدار بكفاية ، وعدالة ، ورحمة ؛ ولأطفال يربون ليكونوا مزيجاً مثالياً من الحرية والطاعة ، ومن ضبط النفس والذكاء . وأستبق الحجج التى سيوردها فى كتابه « إميل » : أن يوجه التعليم أولاً لتربية البدن ليكون صحيحاً ، ثم لتربية الخلق ليعود النظام الصارم ، وبعد ذلك فقط لتربية الذهن ليعود الجدل العقلى . تقول جولى

« إن السبيل الوحيد لجعل الأطفال طيعين ليس سبيل الجدل العقلى معهم ، بل إقناعهم بأن الجدل العقلى فوق سنهم ^(٦٧) . وينبغى ألا نلجأ إطلاقاً للجدل العقلى ، أو ألا يكون هناك أى تعليم عقلى ، قبل سن البلوغ . وحرصت القصة حرصاً شديداً على مناقشة الدين . فترى إيمان جولى يغدو الأداة لخلاصها ، وقد ألهمها الاحتفال الدينى الذى قدس زواجها إحساساً بالتطهر والوفاء . ولكنه إيمان بروتستانتى خالص ذلك الذى يشيع فى الكتاب . فسان — برو يسخر مما يبدو له من نفاق القساوسة الكاثوليك فى باريس ؛ ويندد فولمار بعزوبة الكهنة لأنها قناع يخفى وراءه الفجور ، ويضيف روسو بشخصه هذه العبارة : « إن فرض العزوبة على جماعة كبيرة مثل قساوسة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ليس لمنعمهم من أن يكون لهم زوجات ، بقدر ما هو لأمرهم بأن يقنعوا بزوجات غيرهم من الرجال ^(٦٨) » . ويصرح روسو بهذه المناسبة بتأييده للتسامح الدينى ، ويبسطه حتى على الملحدين ، « أن المؤمن الحقيقى لا يتعصب ولا يضطهد غيره . ولو كنت قاضياً ؛ ولو قضى القانون بعقوبة الموت على الملحدين ؛ لبدأت بحرق كل مبلغ يشئ بإنسان آخر ، لأنه هو نفسه ملحد ^(٦٩) » .

وكان للقصة تأثير بالغ فى تنبيه أوروبا لمفانن الطبيعة وروائعها . ففى فولتير ؛ وديدرو ، ودالامبير ، لم تشجع حمى الفلسفة وحياة الحضرة الأحساس المرهف بجمال الجبال وجمال ألوان السماء . أما روسو فقد تميز بولادته فى أحضان أزوع مناظر أوروبا وقعا فى النفوس . وكان قد مشى من جنيف متجولاً فى سافوى عبر الألب إلى تورين ، ومن تورين إلى فرنسا ؛ وأستمتع بمشاهد الريف وأصواته وعيبره ؛ وأحس بكل شروق شمس كأنه إنتصار الأله على الشر والشك . وقد تصور توافقاً صوفياً بين حالات مزاجه والمزاج المتغير للأرض والهواء ؛ وعانقت نشوة حبه كل شجرة وزهرة ، وكل ورقة عشب . وتسلى الألب إلى نصف ارتفاعها ، ووجد نقاء فى الهواء ، خيل إليه أنه يظهر أفكاره ويجلوها . وقد وصف هذه التجارب بأحاساس وحيوية جعلاً من تسلى الجبال ، لاسيما فى سويسرة ، رياضة من أكبر رياضات أوروبا .

ولم يحدث من قبل في الأدب الحديث أن ظفر الوجدان ، والعاطفة المشبوية، والحب الرومانسى ، يمثل هذا العرض والدفاع المستفيضة البليغين. فلقد أعلن روسو ، في تمرده على عبادة العقل من بوالو إلى فولتير ، مكانة الوجدان العليا وحقه في أن يسمع في ترجمة الحياة وتقييم القصائد ، وبرواية « هلويز الحديدة » أعلنت الحركة الرومانسية تحديها للعصر الكلاسيكى . وقد سبقها بالطبع لحظات رومانسية حتى في عز الكلاسيكية ، مثال ذلك أن أوتوريه دورفيه داعب الحب الريفى في قصته « لاستريه » (١٦١٠ — ١٦٢٧) ، وأن الآنسة سكوديرى أسهبت في وصف الغراميات في قصتها « أرطمين ، أو قورش العظيم » (١٦٤٩ — ١٦٥٣) ، كذلك زاجت مدام دلا فييت بين الحب والموت في قصتها « أميرة كليف » (١٦٧٨) ، وأدخل راسين هذا الموضوع في مسرحيته « فيدر » (١٦٧٧) ، وهى قمة العصر الكلاسيكى ، ونحن نذكر كيف ورث روسو الروايات الغرامية القديمة عن أمه ، وقرأها مع أبيه . أما جبال الألب فان البرشت فون هالتر كان قد تغنى بجبالها (١٧٢٩) ، كذلك تغنى جيمس طومسن بجبال الفصول ورهبها (١٧٢٦ — ١٧٣٠) . ولا بد أن جان — جاك قرأ قصة بريفوست « مانون لسكو » (١٧٣١) ، وأحاط علما برواية رتشرد سن « كلاريسا » في ترجمة بريفوست (١٧٤٧ — ١٧٤٨) (لأنه كان يقرأ الإنجليزية بصعوبة) . ومن قصة الإغواء تلك التى طالت إلى ألفى صفحة (ولم تكتمل بعد) لإقتبس شكل الرسائل في الرواية لصالحيتها. للتحليل النفسى ، وكما دبر رتشرد سن لكلاريسا نجية تدعى الآنسة هاو ، كذلك دبر روسو لجولى نجية هى أبنة عمها كليز . ولاحظ روسو في غيظ أن ديلرو نشر تقریظا حماسيا لرتشردسن (١٧٦١) عقب نشر جولى ، فحجب بذلك سناء قصته جولى .

ولا نقل رواية جولى عن كلاريسا أصالة ومآخذ ، وهى تسمو عنها كثيرا في أسلوبها والروايتان غنيتان في شطحات الخيال مثقلتان بالمواعظ . ولكن فرنسا ، التى تبرز العالم أسلوبا ، لم ترقط اللغة الفرنسية تتخذ مثل هذا اللون ، والحرارة ، والنعومة ، والإيقاع ، فروسو لم يكن مجرد مبشر

بالوجدان ، إنما كان يملكه ، فكل ما يمس مشرب بالحساسية والعاطفة . وقد نبتم لشواته ولكننا نجد أن ناره تدفئنا . وقد ننكر الخطب المقحمة ونمر بها مرور الكرام ، ولكننا نمضى فى القراءة ، وبين الحين والحين تتجدد حياة القصة بمشهد شعر به المؤلف شعورا حادا . كان فولتير يفكر بالآراء ويكتب بالأبحر امات ، أما روسو فكان يبصر بالصور ويؤلف بالأحاسيس . ولم تكن عباراته ووقفاته بريئة من الصنعة ، فقد اعترف بأنه كان يقلبها وهو فى فراشه حين تقضى النوم عن جفنيه عاطفة الفنان المشبوبة^(٧٠) . يقول كانط « لأبد من أن أقرأ روسو إلى أن يكف جمال عبارته عن فتنى ، وعندها فقط أستطيع أن أفحصه فى روية وتعقل^(٧١) » .

ولقيت جولى النجاح فى أعين الجميع إلا الفلاسفة . فوصفها جريم بأنها تقليد هزيل لكلا ريسا ، وتنبأ بأن النسيان سيطورها سريعا^(٧٢) . وقال فولتير وهو يهدير غضبا (٢١ يناير ١٧٦١) لا تردنى حديثا عن رواية جان — جاك من فضلك ، فلقد قرأتها لشدة أسفى ، ولشدة أسفه . لو كان لدى من الوقت ما يتسع لأبداء رأيى فى هذا الكتاب السخيف^(٧٣) . وبعد شهر أفصح عن رأيه فى كتابه « رسائل حول هلويز الجديدة » الذى نشر بأسم مستعار . فنبه إلى الأخطاء اللغوية ، ولم يبد منه أى إشارة تدل على تقديره لوصف روسر للطبيعة — وأن كان سيقلد جان — جاك بعد حين بتسلقه ربوة ليتبعد للشمس المشرقة . وتبينت باريس قلم فولتير ، وحكمت بأن « الشيخ » عضته الغيرة بأنيابها .

ولإذا ضربنا صفحا عن هذه الوخزات ، فإن روسو إبتهج بالاستقبال الذى لقيه أول عمل مطول له . يقول ميشليه « لم يعهد فى تاريخ الأدب كله نجاح عظيم كهذا^(٧٤) » . وظهرت الطبعة تلو الطبعة ، ولكن المطبوع كان أقل كثيرا من الطلب ووقف الجمهور فى طوابير أمام المكتبات لشراء الكتاب ، وكان القراء الملهوفون يدفعون أثنى عشر سوأ فى الساعة ليستعبروه ، وقراء النهار يؤجرونه لغيرهم يقرؤنه فى الليل^(٧٥) . وروى روسو فى أغتباط أن نبيلة طلبت مركبتها وقد تهايت للذهاب إلى مرقص فى الأوبرا ، وشرعت تقرأ

جولى خلال ذلك ، وشوقها القصة تشويقاً أغراها بالمضى فيها حتى الرابعة صباحاً بينما الخادمة والجياذ فى أنتظارها ^(٧٦) . وقد عزا أنتصاره إلى اللذة التى يجدها النساء فى قراءة قصص الغرام ، ولكن كان هناك أيضاً نساء ملأن حياتهن خليلات ، وتقن إلى أن يكن زوجات ، وأن يكون لاطفالهن آباء . وتلقى روسو مئات الخطابات فى مونمورنسى يشكره فيها أصحابها على كتابه ، وكثر عدد النساء اللاتى عرضن عليه حبن حتى أنهى به خياله إلى أنه « ما من امرأة فى المجتمع الراقى لم أكن لألقى التوفيق فى الاتصال بها لو حاولته ^(٧٧) » .

وكان من الطريف أن يكشف إنسان عن سريره كشفاً كاملاً كما فعل روسو خلال سان — برو وجرى ، وليس هناك أكثر طرافة وإمتاعاً من نفس إنسان تتجرد أمام الناظرين ولو تجرداً جزئياً أو لاشعورياً . تقول مدام دستانال « هنا مزقت كل أقنعة القلب ^(٧٨) » . وبدأ الآن سلطان الأدب الداقى ، تلك السلسلة الطويلة الممتدة إلى زماننا ، من أفشاءات الذات ، من القلوب المخطمة فى صفحات مطبوعة ، من « النفوس الجمية » التى تسبح فى المأساه جهاراً نهاراً . وفشايين الناس الإفصاح عن حرارة العاطفة ، والأعراب عن الأنفعال والشعور ، لا فى فرنسا وحدها بل فى إنجلترا وألمانيا أيضاً . وبدأ يتلاشى الأسلوب الكلاسيكى ، أسلوب ضبط النفس ، والنظام ، والعقل ، والشكل ، وأوشكت دولة « الفلاسفة » أن تدول . لقد أصبح القرن الثامن عشر بعد عام ١٧٦٠ ملكاً لروسو ^(٧٩) .



الفضل السباع

روسو الفيلسوف

١ - العقد الاجتماعي

قبل نشر « هلويز الجديدة » بشهرين كتب روسو إلى ميسيو لينبس (١١ ديسمبر ١٧٦٠) يقول :

« لقد طلقت حرفة الكاتب إلى الأبد . وبقيت خطيئة قديمة يجب التكفير عنها في كتاب مطبوع ، وبعدها لن يسمع الجمهور مني أبداً . ولست أعرف حظاً أسعد من أن يكون الإنسان مجهولاً إلا من أصدقائه ومنذ الآن سيكون نسخ الموسيقى شاغلي الوحيد (١) » .

ثم كتب ثانية في ٢٥ يوليو ١٧٦١ :

« ظللت عاقلاً إلى الأربعين . ثم تناولت القلم ، وهأنذا أضعه قبل أن أبلغ الخمسين ، وأنا العن في كل يوم من أيام حياتي ذلك اليوم الذي دفعني فيه غروري الأحمق إلى تناوله ، والذي رأيت فيه سعادتي ، وراحتي ، وصحتي ، كلها تتطاير هباء دون أمل في استعادتها ثانية (٢) » .

أكان هذا منه تظاهراً ؟ ليس بالضبط . صحيح إنه في ١٧٦٢ نشر كتابيه « في العقد الاجتماعي » و « إميل » ، ولكنهما كانا قد اكتملا قبيل ١٧٦١ ، وكانا « الخطيئة القديمة التي يجب التكفير عنها في كتاب مطبوع » ، وصحيح إنه بعد ذلك كتب ردوداً على رئيس أساقفة باريس ، وعلى مجمع الكنائس الخنفي ، وعلى طلبات من كورسيكا وبولندة بأن يقترح عليهما دستورين ، ولكن هذه المؤلفات كانت مؤلفات مناسبات ، دعت إليها أحداث غير

متوقعة . وقد نشرت « الاعترافات » و « الحوارات » و « أحلام جوال منفرد » بعد موته . وهكذا التزم أساسا بتعهده الجديد . ولا عجب أن يشعر في ١٧٦١ أنه قد أرهق ونضب ، لأنه كان قد ألف في خمس سنوات ثلاثة أعمال كبرى ، كان كل منها حدثا في تاريخ الأفكار .

ومنذ عام ١٧٤٣ يوم كان سكرتيرا للسفير الفرنسي في البندقية ، هدته ملاحظة لحكومة البندقية بالقياس إلى الحكومتين الحنيفية والفرنسية إلى تخطيط رسالة هامة في المؤسسات السياسية . وكان « المقالان » شرارتين بعثتهما تلك النار ، ولكنهما كانا محاولتين متعجلتين لإثارة الانتباه بالمبالغة ، ولم تنصف واحدة منهما فكره المتطور . وراح خلال ذلك يدرس أفلاطون ، وجروتيوس ، ولوك ، وبوفندورف . ولم تكتمل قط الرائعة الأدبية التي حلم بها . فروسو لم يوهب الذهن المنظم ، والإرادة الصابرة ، والطبع الهادئ الذي يتطلبه مشروع كهذا يقتضيه الاستدلال العقلي لا الوجدان فقط ، وإخفاء العاطفة لا إعلانها ، وكان مثل هذا الإنكار للنفس فوق طاقته . لقد كان هجرانه للتأليف أعترافا منه بالهزيمة . ولكنه أعطى العالم عام ١٧٦٢ قطعة رائعة من مخطوطه في ١٢٥ صفحة نشرت بأمر دامت تحت عنوان « في العقد الاجتماعي ، أو مبادئ القانون السياسي » .

وكلنا يعرف الصيحة الحريثة التي استهل بها الفصل الأول « ولد الإنسان حرا وهو في كل مكان مكبل بالأغلال » وقد افتتح روسو كتابه بمبالغة مقصودة ، لأنه عليم بأن للمنطق سلطانا منوما قويا ، وقد أصاب في ضربه على هذه النغمة العالية ، لأن هذه العبارة أصبحت شعار قرن بأكمله . وافترض روسو هنا — شأنه في « المقالين » — وجود « حالة طبيعية » بدائية لم تكن فيها قوانين ، واتهم الدولة القائمة بتدمير تلك الحرية ، واقترح بدلا عنها « إيجاد شكل من المجتمع يدافع عن شخص كل عضويه وعن متاعه ويحميها بكل ما أوتي ذلك المجتمع من قوة مجموعته ، مجتمع يظل الإنسان فيه رغم اتحادهم مع الجميع يطيع نفسه فقط ، ويبقى حرا كما كان من قبل ... تلك هي العضلة الأساسية التي يقدم لها العقد الاجتماعي الحل (٣) » .

يقول روسو أن هناك عقدا اجتماعياً ، لا كتعهد من المحكومين باطاعة الحاكم ، كما جاء في كتاب هوبز (اللويثان) « الوحش » ، بل كاتفاق الأفراد على أن يخضعوا رأيهم ؛ وحقوقهم ، وسلطاتهم لحاجات ورأى مجتمعهم ككل . وكل شخص يدخل ضمناً في مثل هذا العقد بقبوله حماية القوانين العامة . والسلطة العليا في أى دولة لا تستقر في أى حاكم — فرداً كان أو جماعة — بل في « الإرادة العامة » للمجتمع ، وتلك السيادة لا يمكن التخلي عنها أبداً وإن جاز تفويضها جزئياً إلى حين .

ولكن ما هذه « الإرادة العامة » ؟ أهى إرادة جميع المواطنين ؛ أم إرادة الأغلبية فقط ؟ ومن الذين يعتبرون مواطنين ؟ أنها ليست إرادة الجميع ، لأنها قد تناقض كثيراً من الإرادات الفردية . ولاهى دائماً إرادة الأغلبية الذين يعيشون (أو يصوتون) في لحظة بعينها ، بل هى إرادة المجتمع باعتباره صاحب حياة وواقع مضافين إلى حيوات وإرادات الأعضاء الأفراد . (وروسو ، كفكر واقعى من العصر الوسيط ، ينسب للجماعة مجتمعة ، أو للفكرة العامة ، واقعا بالإضافة إلى واقع أعضائها الأفراد . فالإرادة العامة أو « روح الجماعة » يجب أن تكون الصوت المعبر لا عن المواطنين الأحياء فحسب ، بل الأموات أو الذين لم يولدوا بعد ، ومن ثم فالذى يعطيها طابعها ليس هو الإرادات الراهنة فحسب ، بل تاريخ الجماعة الماضى وأهدافها المستقبلية . وما أشبهها بأسرة عريقة تفكر في نفسها على أنها واحدة على مر الأجيال ، وتكرم أسلافها ، وتحمى أخلاقها — (بمعنى أن أباً من الآباء قد يدفعه التزامه قبل حفدته الذين لم يولدوا بعد إلى مناقضة رغبات أبنائه الأحياء ، وأن سياسياً ما قد يشعر بأنه ملتزم بالتفكير لابلغة انتخاب واحد بل أجيال (*) كثيرة .) ومع ذلك فان (صوت الأغلبية ملزم دائماً للباقيين جميعاً^(٤)) . ومن له حق التصويت ؟ كل مواطن^(٥) . ومن المواطن ؟ واضح أنه ليس كل بالغ ذكر . وروسو غامض جداً في هذه النقطة ، ولكنه يمتدح دالامبير لتفريقه بين

(*) العبارة المقتواة بين القوسين تفسير اجتهادى وليست واردة صراحة في روسو .

« طبقات الناس الأربعة ٠٠٠ الذين يسكنون مدينتنا (جنيف) ، وطبقتنا من هؤلاء فقط تؤلفان الشعب . ولم يفهم كاتب فرنسي آخر ٠٠٠ المعنى الحقيقي لكلمة المواطن (٦) . »

يقول روسو أن القانون ، في الحالة المثالية ، ينبغي أن يكون التعبير عن الإرادة العامة . فالإنسان بفطرته يغلب عليه الخير ، ولكن له غرائز يجب التحكم فيها ليصبح المجتمع أمراً ممكنًا . وليس العقد الاجتماعي تمجيد « حالة الطبيعة » فروسو يتكلم لحظة كما يتكلم لوك أو مونتسكيو لابل فولتير :

« ان الانتقال من حالة الطبيعة إلى الحالة المدنية يتمخض عن تغير ملحوظ جداً في الإنسان ، لأنه يحل القانن محل الغريزة في سلوكه ، ويضفي على أفعاله ، الفضيلة التي كانت تعوزها من قبل . ومع أنه في هذه الحالة (المدنية) يحرم نفسه من بعض المنافع التي تلقاها من الطبيعة . إلا أنه يكسب نظير ذلك منافع أخرى عظيمة جداً ؛ فقدراته تحفر حفراً شديداً وتطور تطويراً كبيراً ، وأفكاره توسع كثيراً وروحه كلها تسمو سمواً عظيماً . ولولا أن مساوىء حالته الجديدة كثيراً ما تهبط به إلى مستوى أدنى من ذلك الذي تركه ، لكان عليه أن يبارك على الدوام تلك اللحظة السعيدة التي نقلته من حالته الأولى إلى غير رجعه ، والتي جعلته كائناً ذكياً وإنساناً بدلاً من أن يظل حيواناً غيبياً عديم الخيال (٧) . »

وهكذا نجد روسو (الذي تكلم يوماً ما كما يتكلم فوضوى لا يفلسف كلامه تماماً) يناصر بكلية قداسة القانون ، إذا عبر القانون عن الإرادة العامة . فإذا لم يتفق فرد ما كما يحدث في حالات كثيرة . . . مع تلك الإرادة كما يعبر عنها في القانون ، حق للدولة إكراهه على الخضوع (٨) . وليس هذا انتهاكاً للحرية بل صيانة لها ، حتى للفرد المقاوم ، لأنه بفضل القانون وحده يستطيع الفرد في الدولة المدنية أن يتمتع بتحرره من العدوان ، والسرقة ، والاضطهاد ، وتشويه السمعة ، وعشرات الشرور الأخرى . ومن ثم فإن المجتمع بإكراهه الفرد على طاعة القانون إنما « يكرهه على أن يكون حراً » . فـ

الواقع ^(٩) . وهذه هى الحالة على الأخص فى الجمهوريات ، لأن وطاعة القانون الذى نضعه لأنفسنا هى الحرية » ^(١٠) .

والحكومة جهاز تنفيذى تفوض فيه الإرادة العامة مؤقنا بعض سلطاتها . وينبغى أن تكون فكرتنا عن الدولة لا على أنها الحكومة فقط ، بل الحكومة ، والمواطنون ، والإرادة العامة أو روح الجماعة . والدولة تكون جمهورية إذا حكمتها القوانين لا المراسيم الأوتقراطية ، وبهذا المعنى يمكن حتى اعتبار الملكية جمهورية إذا حكمتها القوانين لا المراسيم الأوتقراطية ، وبهذا المعنى يمكن حتى لإعتبار الملكية جمهورية . أما إذا كانت الملكية مستبدة — أى إذا كان الملك يضع القوانين وينفذها — فليست هناك جمهورية أو دولة ، بل طاغية يحكم عبدا . ومن ثم رفض روسو الانضمام إلى أولئك الفلاسفة الذين امتدحوا « الاستبداد المستنير » — استبداد فردريك الثانى أو كاترين الثانية سبيلا لدفع الحضارة والإصلاح قدما . وكان رأيه إن الشعوب التى تعيش فى أجواء قطبية أو مدارية قد تحتاج إلى الحكم المطلق حفاظا على الحياة والنظام ، ^(١١) أما فى المناطق المعتدلة فيحسن المزج بين الارستقراطية والديمقراطية . والارستقراطية الوراثية « اسوأ الحكومات قاطبة » ، والارستقراطية الانتخابية أفضلها ^(١٢) ، أى أن أفضل حكومة هى تلك التى تضع القوانين وتنفذها فيها أقلية من الرجال ينتخبون دوريا لتفوقهم الفكرى والخلق .

أما الديمقراطية بوصفها حكما مباشرا بواسطة الشعب كله فقد بدت لروسو مستحيلة .

« لو أخذنا هذا اللفظ بمعناه الدقيق لم نجد قط ديمقراطية حقيقية ، ولن توجد أبداً هذه الديمقراطية . فما يناقض النظام الطبيعى أن تكون الكثرة حاکمة والقلّة محكومة . وما لا يمكن تصوّره أن يظلّ الناس مجتمعين بصفة مستمرة ليتفرغوا للشئون العامة ، وواضح أنهم لا يستطيعون إنشاء لجان لهذا الغرض دون تغيير فى شكل الحكومة » .

ثم كم من الظروف التى يصعب الجمع بينها تفرض لهذه الحكومة ؟

أولاً دولة صغيرة جداً يمكن جمع الشعب فيها عاجلاً ، ويمكن لكل مواطن فيها أن يعرف سائر المواطنين بسهولة ؛ ثانياً ، البساطة التامة في العادات ، منعاً لتكاثر الأعمال وإثارة المشاكل الشائكة ، ثم قدر كبير من المساواة في الرتب والثروات بدونه لا تستطيع المساواة في الحقوق والسلطة البقاء طويلاً ؛ وأخيراً قلة الترف أو انعدامه ، لأن الترف مفسدة للأغنياء والفقراء جميعاً . . . للأغنياء بالاعتناء ، وللفقراء بالاشتباء . . . وهذا هو ما حدا كاتباً شهيراً (مونتسكيو) إلى اعتبار الفضيلة المبدأ الأساسي للجمهوريات ، لأن هذه الظروف كلها لا يمكن توافرها بغير الفضيلة . . . ولو كان هناك شعب من الآلة لكانت حكومة ديمقراطية أما البشر فليست هذه الحكومة البالغة الكمال مما يناسبهم ^(١٣) .

وقد تغرى هذه الفقرات بسوء التفسير . فروسو يستعمل لفظ « الديمقراطية » بمعنى ندر أن ينسب له في السياسة أو التاريخ ، وهو أنها حكومة تشرع فيها كل القوانين بواسطة الشعب كله المجتمع في مجالس قومية . والواقع أن « الأرستقراطية الانتخابية » التي فضلها هي ما يجب أن نسميه الديمقراطية النيابية . . . أى الحكومة التي يتولاها موظفون يختارهم الشعب لما يفترض فيهم من صلاحية عليا . على أن روسو يرفض الديمقراطية النيابية على أساس أن الممثلين أو النواب سرعان ما يشرعون لمصلحتهم لا للخير العام . « أن الشعب الإنجليزي يعتبر نفسه حراً ولكنه يخطئ بذلك خطأ فاحشاً ؛ فهو حر فقط خلال انتخاب أعضاء البرلمان ؛ وما إن يتم انتخابهم حتى تسيطر العبودية على الشعب فلا يعود له وزن » ^(١٤) . فالممثلون يجب أن ينتخبوا ليشغلوا المناصب الإدارية والقضائية لا ليشرعوا ، ويجب أن تشرع جميع القوانين بواسطة الشعب في جمعية عامة ، وأن يكون لتلك الجمعية سلطة إقالة الموظفين المنتخبين ^(١٥) . ومن ثم وجب أن تكون الدولة المثالية من الصغر بحيث تسمح لجميع المواطنين بالإجماع مراراً كثيرة . « وكلما اتسعت الدولة تقلصت الحرية » ^(١٦) .

أكان روسو اشتراكياً ؟ إن « المقال » الثاني نسب جميع رذائل الحضارة إلى إقرار الملكية الخاصة ، ولكن حتى ذلك المقال رأى أن هذا النظام أعمق

جلدورا في البنيان الاجتماعي من أن يتيح القضاء عليه دون ثورة فوضوية مدمرة .
« والعقد الاجتماعي » يسمح بالملكية الخاصة بشرط رقابة الجماعة ، فيجب أن تحتفظ الجماعة بكل الحقوق الأساسية، ولها أن تستولي على الأملاك الخاصة لخير المجتمع ، ويجب أن تحدد أقصى مايسمح للأسرة الواحدة بتملكه (١٧) .
ولها أن تؤمن على توريث الملكية ، ولكن إذا رأت الثورة تنحو إلى تركيز مترك فلها أن تستخدم ضرائب التركات لإعادة توزيع الثروة والتخفيف من عدم المساواة الاجتماعي والإقتصادي . « يجب أن يتجه التشريع دائماً إلى الحفاظ على المساواة بالضبط لأن قوة الأشياء تنجبه دائماً إلى القضاء عليها (١٨) .
ومن أهداف « العقد الاجتماعي » أن يصبح الأفراد الذين قد يكونون مختلفين قوة أو ذكاء متساوين في الحقوق الاجتماعية والقانونية (١٩) . ويجب أن تفرض الضرائب العالية على الكماليات . « ان الحالة الاجتماعية لاتقيد الناس إلا إذا ملك كل فرد شيئاً ولم يملك أحد فوق ما ينبغي (٢٠) » . ولم يورط روسو نفسه في القول بالجماعية ، ولا خطرت بباله قط (دكتاتورية البرولتاريا) ، وكان يحتقر البرولتاريا الوليدة في المدن ، واتفق مع فولتير على تسميتها (الرعاع أو حشالة المجتمع) (٢١) . وكان مثله الأعلى طبقة فلاحين تعيش مستقلة رخيّة الحال ، وطبقة وسطى فاضلة تتألف من أسركأسرة فولمار في « هلويز الحديدية » وسيتهمه بيير - جوزف برودون بتمجيد البورجوازية (٢٢) »

ترى أى مكان للدين في الدولة ؟ لقد شعر روسو أن ديناً ما لاغنى عنه للفضيلة ، « ما قامت دولة قط دون أساس ديني » (٢٣) .

« ان الحكماء أن حاولوا الكلام بلغتهم إلى القطيع العام بدلا من لغته لن يستطيعوا ايصال ما يريدون إلى أفهامهم . . . ولكي يمكن شعب ناشئ من ايثار الأصول السليمة للنظرية السياسية . . . يجب أن تصبح النتيجة سبباً : فالروح الاجتماعية التي ينبغي أن تخلقها هذه المؤسسات يجب أن تسود أساسها نفسه ، ويجب أن يكون الناس أمام القانون ما يجب أن يصبحوه بالقانون . إذن فالمشروع لعجزه عن الالتجاء إلى القوة أو للعقل

يجب أن يلبأ إلى سلطة من نوع مختلف ، قادرة على الكبح دون عنف .
هذا ما دعا آباء الأمم في جميع العصور إلى الإلتجاء للتدخل الإلهي ،
ونسبة حكمهم هم لآلهم ، حتى ، تطيع الشعوب بخضوعها لقوانين الدولة
كما تخضع لقوانين الطبيعة ، . . . دون عائق ، وتحمل نير الخير العام
عن طيب خاطر » (٢٤) .

ولين يتشبث روسو دائماً بهذا الرأي السياسي القديم في الدين ، ولكنه
في « العقد الاجتماعي » جعل من الإيمان فوق الطبيعي أداة للدولة ، واعتبر
القساوسة على أفضل تقدير ضرباً من الشرطة السماوية . على أنه رفض اعتبار
الكهنة الكاثوليك الرومان كذلك ، لأن كنيستها زعمت أنها فوق الدولة ،
فهي إذن قوة مفسحة ، تقسم ولاء المواطن^(٢٥) . وفضلاً عن ذلك فإن
المسيحي — كما زعم — إذا أخذ لاهوته مأخذ الجد ، يركز إهتمامه على الحياة
الآخرة ، ولا يقيم وزناً يذكر لهذه الحياة الدنيا ، فهو إلى هذا الحد مواطن
ضعيف . ومثل هذا المسيحي يكون جندياً وسطاً ؛ قد يقاتل دفاعاً عن
وطنه ، ولكنه لا يفعل إلا تحت إكراه وأشراف مستمرين ، وهو لا يؤمن
بشن الحرب دفاعاً عن الدولة ؛ لأن له وطناً واحداً فقط — هو الكنيسة .
والمسيحية تبشر بالعبودية والتبعية الطيعة ؛ ومن ثم كانت روحها مواتية جداً
للاستبداد بحيث أن الطغاة يرحبون بتعاونها . « أن المسيحيين الحقيقيين خلقوا
ليكونوا عبيداً^(٢٦) » . وهكذا أنفق روسو مع ديدرو ، وأسبق جيون ؛
وكان في تلك الفترة أشد عنفاً في عداوته للكاثوليكية من فولتير ؛ ومع ذلك
شعر بأن ديناً ما لا غنى عنه ؛ « ديناً مدنياً » تصيغه الدولة وتفرضه فرضاً على
جميع سكانها . أما عن العقيدة :

« فأن عقائد الدين المدني يجب أن تكون قليلة ؛ بسيطة ؛ دقيقة العبارة ؛
دون شروح أو تعليقات . فوجود إله قادر ؛ ذكي ؛ خير ؛ ذي بصيرة
وتدبر ؛ ثم حياة آخرة ؛ وسعادة الأبرار ؛ وعقاب الأشرار ؛ وقداسة
العقد الاجتماعي والقوانين ؛ تلك هي عقائد الدين الإيجابية^(٢٧) » .

وهكذا اعترف روسو بعقائد المسيحية الأساسية ؛ على الأقل لأغراض

سياسية ؛ على حين رفض أخلاقياتها لغلوها في المسألة والدولية — على العكس تماماً ومما درج عليه الفلاسفة من الاحتفاظ بأخلاقيات المسيحية مع رفض لاهوتها . وقد سمح بأديان أخرى في دولته الوهمية ؛ بشرط عدم معارضتها مع العقيدة الرسمية . وهو يتسامح مع الأديان « التي تتسامح مع غيرها » ؛ أما من يجسر على القول « بأنه لا خلاص خارج الكنيسة » فيجب طرده من الدولة ، إلا أن تكون الدولة هي الكنيسة ، والملك هو حبرها الأعظم (٢٨) . « ولا يسمح بانكار البنود الواردة في ديانة الدولة .

« وإذا كانت الدولة لا تستطيع أكراه أحد على الإيمان بهذه البنود ، فإن في استطاعتها أن تنفيه ، لا لزندقته ، بل بوصفه كائناً أرسقراطياً ، عاجزاً عن محبة القوانين والعدالة محبة صادقة ، وعن بدل حياته عند الحاجة في سبيل الواجب . وإذا سلك إنسان — بعد إقراره بهذه العقائد علانية — مسلك من لا يؤمن بها ، كان عقابه الموت (٢٩) » .

وهذه الجملة الأخيرة هي أشهر الجمل في « العقد الاجتماعي » بعد « ولد الإنسان حراً وهو في كل مكان مكبل بالأغلال » وإذا أخذت بمنطوقها الحرفي كان معناها إعدام كل من يسلك مسلك من لا يؤمن بالله ، أو الجنة أو النار ، ولو طبقت على باريس ذلك الزمان لأنضبت تلك العاصمة من أهلها . ولعل حب روسو للعبارات المسرفة التي تهز القراء طوح به إلى أن يقول أكثر مما يعني . ولعله تذكر مجمع أوجزنورج (١٥٥٥) الذي وافق فيه كل الأمراء الموقعين على قراراته على أن يكون لكل منهم الحق في أن ينفي من أملاكة أى شخص لا يقبل مذهب الأمير . وفي قوانين جنيف إذا أخذت حرفياً (كما حدث في حالة سرفيتوس) سابقة لروحانية روسو المفاجئة . وقد اعتبرت أثينا القديمة « رفض الاعتراف بالآلهة الرسميين » جريمة كبرى ، كما حدث في نفى أناكساجوراس وقتل سقراط بالسّم ، وكان هذا بالمثل القدر الذي بررت به روما الامبراطورية لضبطهاها للمسيحيين ، وأخذاً برأى ، وسو هذا في معاملة الهجرين يمكن أن يوصف الأمر باعتقاله بأنه من أفعال المحبة المسيحية .

أكان « العقد الاجتماعي » كتابا ثوريا ؟ لا ونعم . فهنا وهناك ، وسط مطالبة روسو بحكومة مسئولة أمام الإرادة العامة ، تهدىء تأثيرته لحظات من الحذر ، كما في قوله : « لا شيء يمكن أن يعدل خطر تغيير النظام العام غير الأخطار الكبرى ، ويجب ألا تعطل السلطة المقدسة للقوانين إطلاقا ما لم تكن حياة الوطن في خطر »^(٣٠) . ومع أنه حمل الملكية الخاصة اللوم على كل الشرور تقريبا ، إلا أنه دعا إلى صيانتها لأنها ضرورية يدعو إليها ما آل إليه الإنسان من فساد لا صلاح له . وتساءل ألا تعيد طبيعة الإنسان ، بعد أن يقوم بثورة ، نظاما وعبوديات قديمة تحت أسماء جديدة ؟ « إن قوما تعودوا الخضوع لسادة لن يدعوا السيادة تتوقف . . . فهم إذ يحسبون الإباحية حرية ، تسلمهم ثوراتهم إلى أيدي مضللين لا يزيدونهم إلا رسوفا في إغلالهم »^(٣١) .

ومع ذلك كان صوت روسو أكثر أصوات العهد ثورية . ففي هذا الكتاب كان خطابه موجها لكثرة الشعب ، وإن غض من شأن الجماهير ولم يثق بها في غيره من كتبه . لقد كان يعلم أنه لا مناص من عدم المساواة ، ولكنه أدانها بقوة وبلاغة . وأعلن في غير لبس أو غموض أن من حق الشعب أن يطيح بحكومة تصر على مخالفة الإرادة العامة . وبينما كان فولتير ، وديدرو ود الامبير ، ينحنون للملوك أو الأمباطورات ، أطلق روسو على الحكومات القائمة صرخة احتجاج قدر لها أن تسمع من أقصى أوروبا إلى إقصاها . وبينما إقتصر جماعة الفلاسفة ، الغارقين في « الحالة الراهنة » على الدعوة لإصلاح تدريجي لشرور معينة ، هاجم جان - جاك النظام الاقتصادي ، والاجتماعي ، والسياسي بجملته ، وبشمول بدا معه كل علاج مستحيلا إلا علاج الثورة . ثم أعلن أنها آتية : « محال أن تعمر ممالك أوروبا الكبرى أكثر مما عمرت . لقد كان لكل منها فترة مجدها ، ومآلها بعدها إلى الأضمحلال . . . إن الأزمنة تقترب ، ونحن على شفا ثورة »^(٣٢) . وتنبأ بوقوع تغييرات بعيدة المدى بعد أن تنشب هذه الثورة : « ستطلع إمبراطورية روسيا إلى غزو أوروبا ، وستغزى هي نفسها . وسيصبح التتار - رعاياها أو جيرانها - ساداتها وسادتنا ، بثرة أراها آتية لا ريب فيها »^(٣٣) .

على أن « العقد الاجتماعي » الذي نرى في نظرة مؤخرة أنه كان أكثر كتب روسو ثورية ، أثار ضجة أقل كثيراً مما أثارته «: هلريز الجديد » . فلقد كانت فرنسا مهيةة للانفراج العاطفي والحب الرومانسي ، ولكنها لم تنهأ لمناقشة الأطاحة بالملكية . وكان هذا الكتاب أكثر ما أنتج روسو إلى ذلك الحين من حجج مدعمة ، ولم يكن تتبعه سهلاً كتبتج دعايات فولتير المتألفة . ونحن الذين راعنا مالقى من ذبوع متأخر ، يدهشنا أن نعلم أن شعبيته وتأثيره بدأ بعد الثورة لا قبلها (٢٤) . ومع ذلك نرى دالامبير يكتب لفولتير في ١٧٦٢ قائلا : « لا جدوى من مهاجمة جان — جاك أو كتابه بصوت عال جداً ، فهو أشبه بملك في السوق » (ليزال (٢٥) — أى بين العمال الغلاظ في سوق باريس المركزيه ، و — بالتضمن — بين جماهير الشعب) . ولعل هذا كان غلوا في القول ، ولكن لنا أن نعتبر عام ١٧٦٢ تاريخاً لتحول الفلاسفه من مهاجمة المسيحية إلى نقد الدولة .

وقل من الكتب ما أثار مثل هذا النقد الكثير . وقد أشر فولتير على نسخه من « العقد الاجتماعي » بردود على الهامش ، فرداً على ما أشار به روسو من إعدام من يذنب بالكفر الإيجابي كتب « كل إكراه في العقيدة مردول (٣٦) » . ويذكرنا العلماء بقدم الدعوى بأن السيادة مستقره في الشعب ، فقد قدم ما رسيليوس البادواوى ، ووليم أوكم ، وحتى اللاهوتيون الكاثوليك أمثال بيللارمين ، وماريانا ، وسواريز ، هذه الدعوى كأنها الضربة خلف ركب الملوك . وقد ظهرت من قبل في كتابات جورج بوكانان وجروتوس ، وملتن ، والجرونون سلتى ، ولوك ، وبوفندورف . . . إن « العقد الاجتماعي » شأنه شأن فلسفه روسو السياسية والأخلاقية كلها تقريباً ، هو صدى وأنعكاس لجنيف بقلم مواطن على بعد كاف يتيح له تمجيده دون أن يحس بمخالها . لقد كان الكتاب مزيجاً من جنيف وأسبرطة ، من « قواعد » كلفن و « قوانين » إفلاطون .

وبين عشرات النقاد ذلك التناقض بين النزعه الفردية في مقال « روسو وحرفية القانونية في «العقد الاجتماعي» . لقد رفض فيلمر في كتابه Patriarcha

(١٦٤٢) قبل مولد روسو بزمن طويل الفكرة التي تزعم أن الناس ولدوا متساوين ، فهم في ميلادهم خاضعون للسلطان الأبوي وقوانين الجماعة وعاداتها . وروسو نفسه ، بعد الصرخة الأولى للدفاع عن الحرية ، أخذ يبتعد عن الحرية أكثر فأكثر متجها إلى النظام — إلى خضوع الفرد للأرادة العامة . والتناقضات التي تلاحظها في مؤلفاته هي أساساً بين خلقه وفكره ، فلقد كان فردياً متمرداً بحكم مزاجه ، وعلته ، وأفتقاره إلى الانضباط ، وكان بيثياً (لاشيوعياً إطلاقاً ، ولا حتى جماعياً) بحكم إدراكه المتأخر لا استحالة تكوين المجتمع الفعال من الخوارج . وعلينا أن نحسب حساساً للتطور ، فأفكار إنسان ما هي دالة خبرته وعمره ، ومن الطبيعي للمفكر أن يكون فردى النزعة في شبابه — فيحب الحرية ويبحث عن المثل العليا — وأن يكون معتدلاً حين ينضج ، فيحب النظام ويرضى الممكن . وقد ظل روسو من الناحية العاطفية طفلاً طوال حياته ، ينكر العرف ، والمحظورات ، والقوانين ، ولكنه حين فكر تفكيراً منطقياً أدرك أن في الأماكن بقاء الكثير من الحريات في نطاق القيود الضرورية للنظام الاجتماعي ، وانتهى إلى أن يدرك أن الحرية في مجتمع ما ليست ضحية القانون بل ثمرته — وأنها تتسع ولا تضيق بطاعة الجميع لقيود يفرضونها على أنفسهم جماعة . وفي وسع الفوضويين الفلاسفة والشموليين السياسيين جميعاً أن يستشهدوا بروسو تأييداً لدعواهم^(٣٧) ، وكلا الفريقين لاحق له في الاستشهاد ، لأنه اعترف بأن النظام أول قوانين الحرية ، والنظام الذي دافع عنه يجب أن يكون التعبير عن الإرادة العامة .

وقد نفى روسو أى تناقضات حقيقية في فاسفته فقال « كل أفكارى متسعة ، ولكنى لا أستطيع عرضها كلها مرة واحدة^(٣٨) » . وسلم بأن كتابه « في حاجه إلى أن يكتب من جديد ، ولكنى لست أملك من العافية ولا الوقت ما يسمح لى بذلك^(٣٩) » ، فحين كانت العافية متاحة له سلبه المضطهاد وقته ، وحين كف المضطهاد وأتيح له الفراغ ، كانت العافية قد تضاعفت . وفي تلك السنوات الأخيرة بات يتشكك في حججه ، « أن الذين يفاخرون بأنهم فهموا » العقد الاجتماعي « فهماً تاماً أذكى منى » . وقد أغفل تماماً ، من الناحية العملية ، المبادئ التي وضعها فيه ، ولم يخطر بباله قط أن

يطبقها حين طلب إليه وضع دستور لبولندة أو كورسيكا . ولو أنه مضى في خط التغيير الذي اتبعه بعد عام ١٧٦٢ لانتهى به المطاف إلى حضن الأرستقراطية ، والكنيسة ، وربما تحت سكين الجليوتين .

٢ - اميل

(أ) تربيته

في وسعنا أن نغتفر الكثير لكاتب استطاع في خمسة عشر شهراً أن يصدر « هلويز الحديدية » (فبراير ١٧٦١) و « العقد الاجتماعي » (إبريل ١٧٦٢) ، « واميل » (مايو ١٧٦٢) . وقد نشر ثلاثتها في أمستردام ، ولكن « اميل » نشر في باريس أيضاً ، بذن من الحكومة حصل عليه مالزيرب العطوف بمخاطرة كبيرة . ومن حق مارك - ميشيل راى ، الناشر الأمستردامى ، علينا أن نحياه نحياه عابرة ، ذلك أنه بعد أن كسب أرباحاً لم يتوقعها من هلويز أوقف على تربية معاشاً سنوياً مدى الحياة قدره ٣٠٠ جنيه ، وإذ تنبأ لاميل برواج أعظم من « العقد الاجتماعي » (الذى كان قد اشتراه بألف جنيه) دفع بلان - جاك ستة آلاف جنيه نظير المخطوطة الحديدية الأطول من سابقتها .

أما الكتاب فكان بعضه ثمرة مناقشاته مع مدام ديبنيه عن تربية ولدها ، ولأخذ أول شكل له في مقال صغير كتب - ليسر أمماً طيبة قادرة على أن تفكر - وهى مدام دشنونسو ، أبنه مدام دويان . وقد قصد به روسو أن يكون تدييلاً لقصته « هلويز الحديدية » : فكيف ينبغي أن ينشأ أبناء جولى ؟ وخامره الشك لحظه في صلاحية رجل أودع كل إطفاله في ملجأ للقطاء ، وفشل معلماً خاصاً في أسرة مابليه ، للكلام في موضوع الأبوة والتربية . ولكنه كعادته وجد لذة في إطلاق حبل خياله على غاربه دون أن يعوقه معوق من التجربة . ودرس مقالات « مونتيني » و « تليماك فيليون » ، ورسالة في الدراسات لرولان ، وكتاب لوك « خواطر في التربية » . وكان « مقاله » الأول تحدياً له ، لأنه صور الإنسان خيراً بفطرته ولكن أفسدته الحضارة بما فيها التربية . فهل في الأمل الاحتفاظ بهذا الخير الفطرى وتنميته بالتربية

الصحيحة ؟ لقد أجاب هلفتيوس قبيل ذلك بأن هذا ممكن ، وذلك في كتابه « عن العقل » (١٧٥٨) ، ولكنه قدم حجة لا مخططة .

أما روسو فقد استهل كتابه برفض الطرق القائمة لأنها تلقن ، بالصم عادة ، أفكارا بالية فاسدة ، وتحاول جعل الطفل آلة طيعة في مجتمع منحل ، وتمنع الطفل من التفكير والحكم لنفسه ، وتشوهه قهبط بمستوى قدراته ، وتلوح بملاحظات تافهة وأقوال قديمة مبتذلة . وقد أئخذ هذا التعليم المدرسى كل الحوافز الفطرية ، وجعل ، التربية عذابا يتوق كل طفل إلى تجنبه . ولكن التعليم يجب أن يكون عملية سعيدة فيها تفتح طبيعى ، وتعلم من الطبيعة والتجربة ، وتنمية حرة لقدرات الطفل نحو حياة فياضة للذيدة . يجب أن تكون « فن تدريب الناس ^(٤١) » والارشاد الواعى للجسم النامى ليبلغ الصحة ، وللخلق ليبلغ الفضيلة ، وللذهن ليبلغ الذكاء ، وللوجدان ليبلغ ضبط النفس وحب العشرة والسعادة .

وكان روسو يؤثر أن يكون هناك نظام تعليم عام تقوم عليه الدولة ، ولكن بما أن التعليم العام كان يومها في يد الكنيسة فقد أوصى بتعليم خاص يضطلع به معلم خاص أعزب ينقد أجراً نظير تكريس سنين كثيرة من حياته لتلميذه . وعلى هذا المعلم أن يبعد الطفل ما أمكن عن أبويه وأقاربه مخافة أن تصل إليه العدوى من رذائل الحضارة المتراكمة . وأضاف روسو على بحثه صبغة إنسانية بتخيله أنه قد فوض بكامل السلطة تقريبا ليربى غلاماً طيباً جداً يدعى إميل . وهى فكرة لا يمكن تصديقها ، ولكن روسو وفق في أن يجعل هذه الصفحات — وعددها ٤٥٠ — أمتع كتاب ألف في التربية إطلاقاً . وقد تناول كانط « إميل » ليقراه فاستغرق في قراءته استغراقاً أنساه الخروج للتمشى في نزهته اليومية ^(٤٢) .

ومادامت الطبيعة ستكون الهادى والمرشد للمعلم ، فسيعطى الطفل كل الحرية التى تسمح بها سلامته . وسيبدأ باقناع مربيته بأن تحرر الرضيع من أقمظته لأنها تعوق نموه وتطور أطرافه تطورا سليما . ثم يقنع أمه بارضاع طفلها بدلا من أن تعهد به لمرضعه ، لأن المرضعة قد تؤذيه بالقسوة أو الإهمال ،

أو قد تظفر منه - بفضل عنايتها الصادقة به - بتلك المحبة التي يجب بالطبيعة أن توجه للأم باعتبارها أول مصدر ورباط لوحدة الأسرة والنظام الأخلاقي . وهنا ساق روسو عبارات كان لها تأثير جدير بالاعجاب على الأمهات الشابات في الجيل الجديد :

« أتريدون أن تردوا الناس جميعاً إلى واجباتهم الفطرية ؟ إبدأوا بالأم إذن ، وسوف تدهشكم النتائج . فكل الشرور تأتي في أعقاب هذه الخطيئة الأولى ... والأم التي يغيب أطفالها عن بصرها لا تكتسب الاحترام الكثير ، فليس هنا حياة أمسية ، ورباط الطبقة لا تقوى بروابط العادة ، وليس هناك وجود بعد للآباء والأمهات والأخوة والأخوات . فهم أغراب تقريباً ، فكيف يحب بعضهم بعضاً ؟ ان كلا منهم يفكر في نفسه .

« أما إذا تنازلت الأمهات بإرضاع أطفالهن ، فسيكون هناك اصلاح في الخلق سينتعش الشعور الفطري في كل قلب ، ولن تشكو الدولة فقراً في عدد المواطنين . وهذه الخطوة الأولى وحدها ستعيد المحبة المتبادلة ومباهج البيت خير ترياق للرديلة . عندها يغدو لعب الأطفال الصاخب متعة بعد أن كنا نحسبه شديد الارهاق لنا ، ويزداد اعزاز الأم والأب بعضهما لبعض ويقوى رباط الزواج . . . وهكذا يأتي الشفاء من هذا الشر الواحد باصلاح شامل ، فتستعيد الطبيعة حقوقها . وإذا أصبحت النساء أمهات صالحات أصبح الرجال أزواجاً وآباء صالحين(٤٣) .

هذه الفقرات الماثورة جعلت إرضاع الأمهات لأطفالهن شطراً من تغير العادات الذي بدأ في العقد الأخير من حكم لويس الخامس عشر . وكان بوفون قد أذاع مثل هذا النداء في العقد السابق ولكنه لم يصل إلى نساء فرنسا . وبدأ الآن ظهور أجمل الصدور في باريس أعضاء للأمم فضلاً عن كونها مناتن جنسية ساحرة .

وقسم روسو حياة تلميذه التعليمية إلى ثلاث ، فترات إثنتي عشرة سنة طفولة ، وثمانى سنوات صبي ، وعمر غير محدود للإعداد للزواج والأبوة ، وللحياة

الاقتصادية والاجتماعية . ففي الفترة الأولى يكون التعليم كله تقريباً بدنياً وخلقياً ، وعلى الكتب والتعلم من الكتب ، وحتى الديانة أن تنظر نمو العقل ، فإلى أن يبلغ اميل الثانية عشرة لن يعرف كلمة في التاريخ ، ولا يكاد يسمع ذكر الله ^(٤٤) . فترية الجسم يجب أن يشرع فيها أولاً . ومن ثم يربى لامييل في الريف لأنه المكان الوحيد الذي يمكن أن تكون الحياة فيه صحية طبيعته :

لم يخلق البشر ليتكسبوا في كسبان نمل ، بل لينتشروا على الأرض ليفلحوها . وكلما حشدوا معاً فسدوا . والمرض والرذيلة هما النتيجةتان المحتومتان للمدن المكتظة . . . فأنفاس الإنسان تفتك باخوانه البشر . . . والإنسان تفرسه مدنا ، ولن تنقضي اجيال قليلة حتى ينقرض النوع الإنساني أو ينحفظ ، فهو في حاجة إلى التجديد ، وتجديده يكون دائماً من الريف . فأرسلوا أطفالكم إلى الخلاء ليجدوا أنفسهم . أرسلوهم ليستعيدوا في الحقل المكشوف تلك العافية التي فقدوها في الهواء الفاسد الذي يملأ مدنا المزدهمة ^(٤٥) .

شجعوا الصبي على حب الطبيعة والخلاء ، وعلى تربية عادات البساطة وعلى العيش على الأطعمة الطبيعية . وأى طعام ألد من ذلك الذي زرعه المرء في حديقته ؟ أن الغذاء النباتي أصبح الأغذية ومن شأنه أن يقلل كثيراً من الأمراض والعلل ^(٤٦) .

ان عدم اكتراث الأطفال باللحم من الأدلة على أن الميل لأكل اللحم غير طبيعي . وهم يؤثرون الأطعمة النباتية واللبن والفاكهة الخ . . . فحذار أن تغروا هذا الميل الفطري وتجعلوا أطفالكم أكلة للحوم . افعلوا هذا من أجل أخلاقهم أن لم تفعلوه من أجل صحتهم ، إذ كيف نعلل ان كبار أكلة اللحوم هم في العادة أشد ضراوة وقسوة من غيرهم من البشر ^(٤٧) .

وبعد الغذاء الصحيح ، والعادات الطيبة يعلم إميل البكور في الاستيقاظ . « رأينا الشمس تشرق في منتصف الصيف وسراها تشرق في عيد الميلاد ..

لستنا تؤمى الضحى ، فنحن نلتذ بالبرد^(٤٨) . ولأميل يكبر من الاستحمام وكلما اشتد عوده قلل من حرارة الماء إلى أن يستحم أخيراً بالماء البارد ، بل الثلج ، صيف شتاء . وتفاديا للخطر يكون هذا التغير بطيئاً ، تدريجياً ، غير محسوس^(٤٩) . ونادراً ما يلبس على رأسه أى غطاء ، وهو يمشى حافياً طوال السنة إلا إذا خرج من بيته وحديقته . « يجب أن يعود الأطفال على البرد لا على الحر ، فالبرد الشديد لا يضرهم إطلاقاً إذا تعرضوا له في بواكير حياتهم^(٥٠) » . وشجعوا محبة الطفل الطبيعية للنشاط والحركة « فلا تركوه على السكون إن أراد الجرى ، ولا على الجرى أن يراد القعود . . . فليجر ، وليقفز ، وليزق ما شاء^(٥١) » . وأبعدوا عنه الأطباء ما أستطعم^(٥٢) . ودعوه يتعلم بالممارسة لا بالكتب ولا حتى بالتعليم ، دعوه يصنع الأشياء بنفسه ، وأكتفوا باعطائه المواد والأدوات . والمعلم الذكى يرتب المسائل والواجبات ، ويدع تلميذه يتعلم من ضربة . تصيب إبهامة أو صدمة تصيب قدمه . وهو يحميه من الأذى البالغ لا من الآلام التى تربيه .

إن الطبيعة خير هاد ، ويجب أن تتبع فى أمر الأذى الذى نعرفه فى هذه الحياة :

« فلنكن قاعدتنا التى لانزاع عليها أن الدوافع الأولى للطبيعة صواب دائماً . ليس فى القلب البشرى خطيئة أصاياه . . . فلا تعاقب تلميذك أبداً ، لأنه لا يعرف معنى الخطأ . ولا تجعله يقول « سامعنى » . . . فهو فى أفعاله التى لاصبة أخلاقية لها كلها لا يمكن أن يأتى خطأ من الناحية الأخلاقية ، ولا يستحق عقاباً ولا تقرعاً . . . فأبدأ بترك بذرة شخصيته حرة فى الإفصاح عن نفسها ، ولا تقسره على شيء ، وبهذا يتكشف لك على حقيقته^(٥٣) » .

على أنه سيحتاج إلى التربية الخلقية ، فبغيرها يصبح إنساناً خطراً تعسباً . ولكن لا تعظه . فإن أردت لتلميذك أن يتعلم العدل والرحمة كن أنت عادلاً رحماً فيقائك . « القدوة القدوة ! فبدونها لن تنجح فى تعليم أى شيء للأطفال^(٥٤) » . وهنا أيضاً قد تجد أساساً طبيعياً . فالخير والشر (من وجهة نظر المجتمع) كلاهما فطرى فى الإنسان ، وعلى التربية أن تشجع الخير

وتبسط الشر . ومحبة الذات عامة ، ولكن في الأماكن تعديلها حتى لتدفع الإنسان إلى إقترحام الأخطار الداهية حفاظا على أسرته ، أو وطنه ، أو عرضه . فهناك غرائز اجتماعية تحفظ الأسرة والجماعة كما أن هناك غرائز أنانية تحفظ الفرد (٥٥) . والرحمة قد تنبع من محبة الذات (كما يحدث حين نحب الأبوين اللذين يغدواننا ويحمياننا) ، ولكنها قد تؤثى ثمارا شتى من السلوك الاجتماعى والمعونة المتبادلة . ومن ثم فإن نوعاً من الضمير يبدو أنه عام وغريزى .

« ألقى ببصرك إلى كل أمة فى الأرض ، واقرأ كل سفر من أسفار تاريخها ، ففى جميع ألوان العبادة العجيبة القاسية هذه ، وفى هذا التنوع المذهل من العادات والتقاليد ، ستجد فى كل مكان نفس الأفكار (الأساسية) أفكار الخير والشر . . . ففى أعماق قلوبنا مبدأ فطرى للعدل والفضيلة نحكم بمقتضاه — رغم قواعدها — على أفعالنا ؛ أو أفعال غيرنا ، أخير هى أم شر ، وهذا المبدأ هو الذى نسميه الضمير (٥٦) » .

ومن ثم ينطلق روسو فى مناجاة سنجدها تتردد حرفياً تقريباً فى كانط :

« إيه أيها الضمير ! أيها الضمير ! أيها الفطرة المقدسة ، والصوت الخالد الآتى من السماء ، الهادى الأمين لإنسان هو جاهل محدود حقاً ، ولكنه ذكى حر ؛ أيها القاضى المعصوم والفيصل بين الخير والشر ، الذى يجعل الإنسان شبيها بالله ، فىك يكمن سمو طبيعة الإنسان وفضيلة أفعاله ، لست أجد فى نفسى إذا انفصلت عنك شيئاً يرفعنى فوق الهائم — لا شئ إلا إلمتياز مؤسف — هو قدرته على أن يهيم من خطأ إلى خطأ بمعونة ذكاء طليق من كل قيد وعقل لا يعرف له مبدأ (٥٧) » .

إذن فالتربية العقلية يجب ألا تبدأ إلا بعد تكوين الخلق الفاضل . ويسخر روسو من نصيحة لوك بمناقشة الأطفال منطقياً :

« أن الأطفال الذين كانوا يناقشون عقلياً باستمرار يبدوون لى غاية فى البلاهة . فالعقل هو آخر ما يتمو من قدرات الإنسان وأسمائها . . . وأنت تريد أن تستخدمه لتدرب الطفل المبكر ؟ وجعل الإنسان منطقياً هو الحجر الأعلى

في التربية الحسنة ، ومع ذلك تريد أن تربي الطفل عن طريق عقله . إنك إذن تبدأ من الطرف الخطأ^(٥٨) .

كلا ، بل يجب أن تؤجل التربية العقلية . « أبق ذهن الطفل (فكره) عاطلاً أطول ما تستطيع^(٥٩) » ، فإذا كانت له آراء قبل أن يبلغ الثانية عشرة ففك أنها ستكون سخيفة . ولا تزعجه في هذه السن بالعلم ، فهذا سباق لأنها له ، كل ما نكتشفه فيه إنما يزيدنا جهلاً وحروراً أحمق^(٦٠) . فدع تلميذك يتعلم حياة الطبيعة وأساليبها بالتجربة ، دعه يستمتع بالنجوم دون الزعم بأنه يتتبع تاريخها .

ويمكن أن تبدأ التربية العقلية في الثانية عشرة ، ويجوز لإميل أن يقرأ بعض الكتب . ويستطيع أن ينتقل من الطبيعة إلى الأدب بقراءة روينسن كروزو ، لأنها قصة رجل جاز - على جزيرة - بمختلف المراحل التي جاز بها الناس من الحمجية إلى المدنية . ولكن لإميل لا يكون قد قرأ كتباً كثيرة حين يبلغ الثانية عشرة ، وسيضرب صفحاً عن الصالونات والفلاسفة ، ولن يكثر للفنون ، لأن الجمال الحق الوحيد كائن في الطبيعة^(٦١) : ولن يصبح أبداً « موسيقياً ، أو ممثلاً ، أو مؤلفاً^(٦٢) » ، بل سيكون قد اكتسب مهارة كافية في حرفة ما ليكسب قوته بعمل يديه أن اقتضته الظروف يوماً ما (وبعد ثلاثين عاماً سيندم الكثير من المهاجرين الذين لا حرفة لهم على أنهم سخروا كما سخر فولتير من النجار النحيل)^(٦٣) . على أية حال يجب أن يخدم إميل المجتمع بيده أو بعقله (رغم أنه وارث لثروة متواضعة) ، « فالرجل الذي يأكل وهو عاطل ما لم يكسبه بمجهده ليس إلا لصاً^(٦٤) » .

(ب) ديانتسه

واخيراً نستطيع أن نحدث إميل عن الله إذا بلغ الثامنة عشرة :

« إنى أعلم أن الكثير من قرأى سيد هشهم أن يجدوني متبعاً سير تلميذى لخلال سنه الأولى دون أن أحدثه في الدين . إنه وهو في الخامسة عشرة لن يعرف حتى أن له نفساً ، وقد لا يكون في الثامنة عشرة مهياً بعد للإمام

بهذه الحقيقة ولو كان على أن أصور الغباوة في أفجع أشكالها لصورت معلما متحذلقا يلقي التعليم الديني للأطفال ، ولو أردت أن أخرج طفل عن طوره لطلبت إليه أن يشرح ما تعلمه في دروسه الدينية . . . لاشك أننا يجب ألا نضيع لحظة واحدة إن وجب أن نكون مستحقين للخلاص الأبدي ، ولكن إذا كان تكرار الفاظ معينة يكفي للحصول على هذا الخلاص فلست أرى لم لا نملأ السماء بالزراير والعقاق كما نملؤها بالأطفال (٦٥) » .

ثم جرد روسو أمضى سهامه على جماعة الفلاسفة ، رغم إعلانه هذا الذي أثار غضب رئيس أساقفة باريس . وليتصور القارئ فولتير أو ديدرو يقرءان هذا الكلام :

« لقد استشرت جماعة الفلاسفة ، فوجدتهم كلهم سواء في الغرور ، والجزم ، والدجماطية ، يتظاهرون — حتى في شكوكيتهم المزعومة — بأنهم عليهمون بكل شيء ، لا يثبتون شيئا ، ويهزأ بعضهم ببعض . وقد بدت لي . . . هذه الخاصة الأخيرة ، النقطة الوحيدة التي أصابوا فيها . فهم ضعاف في الدفاع رغم تبجحهم في الهجوم . زن حججهم تجدها كلها مدمرة ، وأحص أصواتهم تجد كلاً منهم يتحدث عن نفسه وحده وما من واحد فيهم — إن تصادف واكتشف الفرق بين الباطل والحق — لا يؤثر باطله على الحق الذي اكتشفه غيره من قبله . فأين الفيلسوف الذي يعف عن خداع الدنيا بأسرها في سبيل مجده (٦٦) » .

ومع أن روسو واصل تنديده بالتعصب ، فإنه على نقيض بيل أدان الكفر لأنه أشد خطراً من التعصب . وقدم لقراءه « إعلاننا بالإيمان » رجاء به أن يحول التيار من إلحاد دولباخ ، وهلفتيوس ، وديدرو ، عوداً إلى الإيمان بالله ، وحرية الإرادة ، والخلود . وقد تذكر الرئيسين الدينيين — جيم وجاتييه — اللذين التقى بهما في صباه ، فزج بينهما وأخرج من المزيج كاهنا وهما في سافوى ، وأنطق هذا الكاهن الريفى بالمشاعر والحجج التي بررت (في نظر روسو) العودة إلى الدين .

ويصور روسو كاهن سافوى قسيساً على أبرشية صغيره فى الألب
الاطاليه . وهو يعترف منرا بشيء من الشكوكية ، ويرتاب فى الوحى
الإلهى للأنبياء ، وفى معجزات الرسل والقديسين ، وفى صحة الأناجيل^(٦٧) ؛
ثم يتساءل كما تساءل هيوم « من يجرؤ على أن يخبرنى كم شاهد عيان يقتضيههم
لإقناعنا بتصديق معجزة ما ؟ »^(٦٨) وهو يرفض صلاة التضرع ، فصولواتنا
يجب أن تكون ترانيم لمجد الله ، وتعبيرات عن امتثالنا لمشيئته^(٦٩) . وهو يرى
الكثير من مواد العقيدة الكاثوليكية حديث خرافة أو أساطير الأولين^(٧٠) .
ومع ذلك يشعر بأنه يحسن خدمة شعبه بكتبان شكوكه ، وممارسة العطف على
المجميع والبرهم (مؤمنين وغير مؤمنين على السواء) . وأداء طقوس الكيسة
الرومانية كلها بأمانة . فالفضيلة ضرورية للسعادة ، والإيمان بالله ، وبحرية
الإرادة ، وبالجنة ، وبالنار ، ضرورى للفضيلة ، والأديان رغم ما قارفت
من جرائم جعلت الرجال والنساء أكثر فضيلة ، أو على الأقل أقل قسوة
ولوما مما كان يمكن أن يكونوا . فإذا بشرت هذه الأديان بعقائد تبدو لنا غير
معقولة ، أو إذا ارهقنا بطقوسها ومراسمها ، وجب أن نسكت شكوكنا فى
سبيل الجماعة .

والدين صواب فى جوهره حتى من وجهة نظر الفلسفة . ويستهل
الكاهن الكتاب كديكارت بقوله « لأننى موجود ولى حواس أتلقى من خلالها
الانطباعات ، هذه أولى الحقائق التى تسترعى انتباهى ، وأنا مضطر إلى قبولها^(٧١) » .
وهو يرفض رأى باركلى : « إن سبب أحاسيسى خارج عنى ، لأنها تؤثر فى
سواء كان عندى داع لها أو لم يكن ، وهى تخلق وتهدم مستقلة عنى . إذن توجد
كيانات أخرى فضلاً عنى » . ونقطة ثالثة ترد على هيوم وتسبق كانط :
أننى أبجد لدى القدرة على المقارنة بين أحاسيسى ، إذن فقد وهبت قوة
إيجابية للتعامل مع التجربة^(٧٢) . وهذا العقل لا يمكن تفسيره على أنه شكل من
أشكال المادة ، فليس فى فعل التفكير أماراة على عملية مادية أو ميكانيكية . أما
كيف يستطيع عقل غير مادى أن يؤثر فى جسم مادى . فذلك أمر يتجاوز
فهمنا ، ولكنه حقيقة تدرك للتو ، ويجب ألا ننكرها لأجل الاستدلال

المجرد . وعلى الفلاسفة أن يتعلموا الاعتراف بأن شيئاً ما قد يكون حقيقياً ولو عجزوا عن فهمه - خصوصاً إذا كان يدرك بأسرع من جميع الحقائق .

والخطوة التالية (كما يسلم الكاهن) هي الاستدلال العقلي الخالص : « فأنا لأدرك الله بحسى ، ولكن استدل عقلاً على أنه كما أن فى أفعالى الارادية عقلاً هو السبب المدرك للحركة ، كذلك هناك على الأرجح عقل كوفى وراء تحركات الكون . إن الله لا يمكن معرفته ، ولكنى أشعر أنه تعالى موجود وفى كل مكان . وأبصر قصداً فى مبادئ الحالات ، من تكوين عيني إلى حركات النجوم ، وينبغى ألا أفكر فى أن أنسب إلى الصدفة (مهما ازداد تكاثرها « على طريقة ديدرو ») تكييف الوسائل وفق الغايات فى الكائنات الحية ونظام العالم ، أكثر مما أنسب إلى الصدفة تجميع الحروف جميعاً لذيذاً فى طبع الانياذة (٧٣) .

فاذا كان هناك إله ذكى وراء عجائب الكون ، فبحال أنه سيسمح بأن يهزم الحق هزيمة دائمة . ولا بد لى من الإيمان بإله خير يؤكد انتصار الخير ، ولو لأتخاشى ذلك الإيمان الكثيب بانتصار الشر . إذن يجب أن أومن بحياة آخرة ، بجنة تجزى فيها الفضيلة . ومع أن فكرة الجحيم تقززنى ، وأوثر عليها الاعتقاد بأن الأشرار يصلون نار جهنم فى قلوبهم ، فأننى متقبل حتى تلك العقيدة الرهيبة إذا اقتضاها ضبط الدوافع الشريرة فى الإنسان . وفى تلك الحالة أتوسل إلى الله ألا يجعل آلام الجحيم خالدة (٧٤) . ومن ثم كانت فكرة المطهر باعتباره مكاناً للعقوبة الممكن اختزالها للخطاة جميعاً إلا أشدهم عناداً وعصياً أكثر انسانية من تقسيم الموتى كلهم إلى فريق المباركين إلى الأبد ، والمالكين إلى الأبد . وهبنا عاجزين عن البرهان على وجود الجنة ، فبالها من قسوة أن ننتزع من الناس هذا الرجاء الذى يعزيهم فى أحزانهم ويشدد عزائمهم فى هزائمهم (٧٥) . ولو انعدم الايمان بالله وبالأخرة ، لتعرضت الفضيلة للخطر وتجردت الحياة من معناها ، لأن الحياة فى الفلسفة الملحدة صدفة آليه تمر بمئات الآلام إلى موت أليم أبدي .

وعليه وجب أن نتقبل الدين على أنه في مجموعه عطية كبرى للبشر ولا حاجة بنا إلى أن نعلق أهمية كبيرة على شتى المذاهب التي مزقت المسيحية ، فكلها خسر إذا حسنت السلوك وغذت الرجاء . ومن السخف أن نفترض أن أصحاب العقائد والآلهة والأسفار المقدسة الأخرى سوف يحكم عليهم بالهلاك ، « فلولم يكن على الأرض سوى دين واحد ؛ ولو حكم على كل الخارجين عنه بالعقاب الأبدى . لكان إله ذلك الدين أظلم الطغاة وأقساهم ^(٧٦) . وعليه فلن يعلم إميل لونا بعينه من المسيحية ، ولكننا سنعطيه الوسيلة لأن يختار لنفسه حسبما يرثيه عقله صوابا ^(٧٧) . ونخير الطرق أن نمضى في الدين الذى ورثناه عن آبائنا أو مجتمعنا . ونصيحة كاهن روسو الومى له هى « عد لى وطنك ؛ وارجع لى دين آبائك ، واتبعه بكل قلبك ولا تتخل عنه أبدا فهو بسيط جداً ومقدس جداً ، وما من دين آخر تجد فيه الفضيلة أشد نقاء ، ولا العقيدة أكثر اشباعا للعقل ^(٧٨) . »

وكان روسو عام ١٧٥٤ قد سبق إلى هذه النصيحة ، وعاد الى جنيف وعقيدتها ، على أنه لم يف بوعده الذهاب اليها والإقامة فيها بعد أن يسوى أموره فى فرنسا . وفى «رسائل من الجليل» التى كتبها بعد عشر سنوات تنكر لمعظم دين آبائه كما سرى . وفى العقد الأخير من حياته سنجده يوصى غيره بالدين ، ولكنه لا يكاد يبدى أماراة على الإيمان الدينى أو الممارسة الدينية فى حياته اليومية . واجمع الكاثوليك والكالڤينيون واليسوعيون على مهاجمته هو «واعلان الإيمان» الذى ناب عن عقيدته لأنهما أساسا غير مسيحيين ^(٧٩) . وصدىم التعليم الذى اقترحه لإميل قراءه المسيحيين لأنهم رأوه فى حقيقة تعليمه لادينيا ، وخامرهم الظن فى أن قفى من أواسط الشباب ، نشيء على غير دين ، لن يعتنق ديننا بعد حين ، إلا لداعى المصلحة الاجتماعية . وقد رفض روسو عقيدة الخطيئة الإصامية والدور القدائى الذى يؤديه موت المسيح وذلك برغم قبوله الرسمى للكلفةنية . وأبى قبول العهد القديم بوصفه كلمة الله ، وذهب إلى أن العهد الجديد «يحفل بأشياء لا يمكن تصديقها ، أشياء ينفر منها العقل ^(٨٠) . ولكنه أحب الأناجيل لأنها أعظم الأسفار تأثيرا وإلهاما للنفس .

أمكن أن يكون كتاب اجتمع له كل هذا الجلال والبساطة في وقت
معاً من عمل إنسان ؟ أيمن أن يكون ذلك الذي احتوى تاريخه فيها مجرد
إنسان ؟ . . . أى رقة وطهر في أفعاله ، وأى نعمة تمس القلوب في تعاليمه ،
وما اسمى أقواله ، وما أعمق حكمة مواعظه ، وما أعظم إجاباته سداداً
وتميزاً وأى إنسان ، وأى حكيم يستطيع أن يحيا ويتألم ويموت دون ضعف
أو تباه ؟ . . . إذا كانت حياة سقراط وموته هما حياة فيلسوف وموته ،
فحياة المسيح وموته هما حياة إله وموته^(٨١) .

ج - حبه وزواجه

حين اختتم روسو صفحات كاهن سافوا الخمسين وعاد إلى إميل
تصدى لمشاكل الجنس والزواج .

فهل يحدث تلميذه عن الجنس ؟ لا تفعل حتى يسألك . فإذا سألك
فاجبره بالحقيقة^(٨٢) . ولكن افعل كل ما يتفق والصدق والصحة لكي تؤجل
وعيه بالجنس . على أى حال لا تنبه هذا الوعى : « إذا اقتربت السن
الحرجة فقدم للشباب من المشاهد ما هو كفيل بالحد من رغباتهم الجنسية
لا بإثارتها . . . أبعدهم عن المدن الكبيرة حيث يعجل لباس النساء
اللاتى يعرضن في زهو وتباه ، وتعجل جرأتهن دوافع الطبيعة وتستبقها ،
وحيث يعرض كل شىء على أبصارهم ، لذات يجب ألا يعرفوا عنها شيئاً
حتى يبلغوا من العمر ما يمكنهم من أن يختاروا بأنفسهم . . . وإذا أبقاهم
ميلهم للفنون في المدينة فابعدهم عن . . . حياة التبطل الخطرة . واختر
بناية عشراهم ، وشواغلهم وملاهيهم ، ولا تتركهم شيئاً غير الصور المحترمة
المثيرة للشفقة . . . وغير حسهم المرهف دون أن تثرب حواسهم^(٨٣) . »

وأقلتت روسو العواقب الوخيمة لعادة يبدو أنه عرفها معرفة خبير :
« حذار أن تترك الفتى ليلاً ولا نهراً ، وعليه على الأقل أن تقاسمه
حجرته . وإياك أن تسمح له بالذهاب إلى فراشه حتى يأخذ الكرى بجفونه ،
ثم اجعله ينهض بمجرد استيقاظه . . . فلو أنه اعتاد هذه العادة الخطرة

هلك . فسيئته جسمه ونفسه من تلك اللحظة فصاعداً وسيحمل إلى الغير آثار . . . أضر عادة يكتسبها شاب » .

ثم يضع هذا القانون لتلميذه .

« إن عجزت عن التحكم في شهواتك يا عزيزي إميل فإني أرى لك ، ولكني لن أتردد لحظة ، فلن أسمح بالروغان من مقاصد الطبيعة . وإذا كان حتماً عليك أن تكون عبداً فإني أؤثر أن أسلمك إلى طاغية قد أنقذك منه ، فهما حدث ، فإني قادر على تحريرك من العبودية للنساء بسهولة أكثر من عبوديتك لنفسك^(٨٤) . »

ولكن لا تدع رفاقك يغرونك بالذهاب إلى ما جور ! « فلم يريد هؤلاء الفتيان أغراءك ؟ لأنهم يرغبون في إفسادك . . . فحافظهم الوحيد هو غل دفين لأنهم يرونك خيراً منهم ، فهم يريدون أن يجروك إلى الهوة التي تردوا فيها » .

والزواج خير من هذا . ولكن من ؟ يصف المعلم المثل الأعلى للفتاة ، والمرأة ، والزوجة ، ويحاول أن يطبع ذلك المثل على ذهن إميل هادياً له . وهدفاً في البحث عن زوجة . وكان روسو يخاف النساء المسترجلات ، المسيطرات ، الوقحات ، ويرى سقوط الحضارة في تسلط النساء المسترجلات استرجالاً متزايداً على الرجال المخنثين تخنثاً متزايداً « في كل بلد تجد أن الرجال من النوع الذي تصنعه النساء . . . فردوا النساء إلى الأنوثة ، نعد رجالاً مرة أخرى^(٨٥) » أن نساء باريس يغتصبن حقوق جنس دون أن يردن التخلي عن حقوق الآخر ، وهن لذلك لا يملكن هذه ولا تلك مكتمله^(٨٦) » . والقوم يتصرفون بطريقة أفضل في الأقطار البروتستنتية حيث الحشمة ليست أضحوكة بين المسفطين بل وعدا يبشر بأمانة^(٨٧) . أن مكان المرأة في البيت ، كما كانت الحال عند قدماء اليونان ، ويجب أن تقبل زوجها سيداً . ولكن يجب أن تكون صاحبة الكلمة العليا في البيت^(٨٨) . وبهذه الطريقة تصان صحة النوع .

ويجب أن تهذب تربية الفتيات إلى أخراج أمثال هؤلاء النساء . يجب أن يربين في البيت على أيدي أمهاتهن ، وأن يتعلمن كل فنون البيت ، من الطهو إلى التطريز ، وأن يحصلن الكثير من الدين ، بأسرع ما يمكن ، لأن من شأن هذا أن يعينهن على الحشمة ، والعفة ، والطاعة . وعلى البنت أن تقبل دين أمها دون جدل ، ولكن على الزوجة أن ترفض دين زوجها^(٨٩) على أية حال لتجنب الفلسفة وتحتقر حياة الصالونات^(٩٠) . على أنه يجب ألا تكره الفتاة على الإحجام الغبي ، فينبغي أن تكون خفيفة الروح ، مرحة ، تواق ، وأن تغني وترقص كما تشتهي ، وتستمتع بكل لذات الشباب البريئة ، ولتذهب إلى المراقص والألعاب الرياضية ، وحتى إلى المسارح - تحت الملاحظة الواجبة وفي صحة طيبة^(٩١) . ويجب العمل على أن يظل ذهنها نشيطا يقظا إن أريد بها أن تكون زوجة صالحة لرجل مفكر « ولا بأس بأن يسمح لها بقدر من التذلل » باعتبار هذا جزءا من اللعبة المعقدة التي تختبر بها خطاها وتختار زوجها^(٩٢) . ان الرجل هو موضوع الدراسة الصحيحة لجنس النساء^(٩٣) .

فلإذا ثبت هذا المثل الأعلى للفتاة والمرأة في آمال إميل جاز له أن يخرج ويبحث عن زوجته . وهو الذي يختار ، لأبواه ولامعلمه . ولكن من واجبه نحوهم ونحو خدبهم عليه سنين طوالا ، أن يستشيرهم في احترام . أتريد أن تذهب إلى المدينة وتطلع إلى الفتيات اللاتي يعرضن هناك ؟ حسنا جداً ، سندهب إلى باريس وسرى بنفسك حقيقة هؤلاء الأوانس المثيرات . وهكذا يعيش إميل برهة في باريس ويختلط بـ « المجتمع الراقى » . ولكنه لا يجد فيه فتاة من النوع الذي وصفه له معلمه الماكر « إذن وداعاً يا باريس الذائعة الصيت ، بكل ما فيك من ضجيج ودخان وقذارة ، حيث كفت النساء عن الإيمان بالشرف ، والرجال عن الإيمان بالفضيلة ، إننا نبعث عن الحب والسعادة والبراءة ، وكلما بعدنا عن باريس كان خيرا لنا^(٩٤) .

وعليه يقفل المعلم وتلميذه إلى الريف ، وإذا هما يصادفان صوفي في قرية هادئة نائية عن الزحام المجنون . هنا (الكتاب الخامس) تتحول

رسالة روسو إلى قصة حب مثالية التصوير ولكنها مبهجة ، تروى ببراعة كاتب قدير . فبعد تلك الأحاديث المسبهة في التعليم والسياسة والدين ، يعود إلى الشاعرية والخيال ، وبينما تنكب ثريز على أشغال بيتها ، يعاود أحلامه بتلك المرأة الرقيقة التي لم يجدها إلا في لحظات متفرقة من جولاته ، ويطلق عليها اسما اشتقه من آخر غرام اشتعل في قلبه .

وصوفى الجديدة هذه ابنة سيد كان يوما ما ثريا ، يعيش الآن في عزلة وبساطة قانتين . فتاة مصيصة الجسم ، جميلة ، محتشمة ، رقيقة - ونافعة وتعين أمها بكفايتها السريعة الماهرة في كل شيء « ما من شيء لا تستطيع عمله بأبرتها »^(٩٥) . ويجد إميل المبرر لعاودة لقاءها ، وتجد هي المبرر لمزيد من زيارته . وشيئا فشيئا يتضح له أن صوفى حائزة لكل الفضائل التي صورها له معلمه في صورة مثالية . فيا للصدفة الإلهية ! وبعد أسابيع يصل إلى القمة التي تدير رأسه ، قمة لثم هذب ثوبها . وما هي إلا أسابيع أخرى حتى يخطبها . ويصر روسو على أن تكون الخطبة احتفالا رسمياً مهيباً فيجب أن تتخذ كل التدابير - بالطقوس وسواها - للتسامى بقُدسية رباط الزوجية وإقرارها في الذاكرة ، وبينما يرتعش إميل وهو على حافة النعيم ، يحمله معلمه العجيب الذي يضرب بالحرية والطبيعة عرض الحائط على ترك خطيبته والقياب عنها عامين والسفر لمتحاناً لمحبتهما ووفائهما . ويكي إميل ويصدع للأمر « فإذا عاد وهو محتفظ بعذريته كأنما بمعجزة وجد صوفى عفيفة في وقاء ، فيزوجان ، ويرشدهما المعلم إلى واجبات الواحد نحو صاحبه » فيطلب إلى صوفى أن تطيع زوجها إلا فيما يتصل بالفراش والمأكل « ستهيمن عليه طويلاً بالحُب إذا جعلت واصلك له نادراً غالياً . . » وليكرم إميل عفة زوجته دون أن يشكو من برود عاطفتها^(٩٦) . ويختتم الكتاب بنصر ثلاثي :

« ذات صباح » يدخل إميل حجرني ويعانفني قائلاً : « هنيء ابنك يا أستاذي فهو يأمل أن يحظى بعد قليل بشرف الأبوة . ما أعظم المشولية التي ستحملها يوما أشد حاجتنا إليك ! ولكن معاذ الله أن أدعك تربي

المولد كما ربيت الولد ، معاذًا الله أن يقوم لإنسان غيرى بهذه المهمة اللذيذة المقدسة . . . ولكن واصل مهمة تعليم المعلمين الشابين . أبذل لنا النصيح وأشرف علينا . وسيسلس قيادنا لك وسأحتاج إليك ما حييت
لقد أديت واجبك فعلمتني كيف اقتدى بك ، بينما تستمتع أنت بالفراغ الذي تستحقه جزاء جهودك (٩٧) » .

لقد اتفق العالم عموما بعد قرنين من الثناء ، والسخرية ، والتجربة على أن « اميل » كتاب جميل موح ، ومستحيل . فالتربية موضوع ثقيل ، لأننا نتذكرها في ألم ، ولانحب أن نسمع المزيد عنها ، ونكره أن تفرض علينا من جديد بعد أن أتممنا مدة الخدمة التي فرضت علينا في المدرسة . ومع ذلك فقد صنع روسو من هذا الموضوع المنفر رواية تسحر قارئها . فالأسلوب البسيط ، المباشر الشخصي يأسرنا برغم ما شابه من تمجيد بليغ ، ونحن ننساق للرواية ونسلم أنفسنا لذلك المعلم الكلى العلم ، وأن ترددنا في إسلام أبنائنا له . ذلك أن روسو ، بعد أن امتدح حذب الأم وحياة الأسرة ، يأخذ إميل من أبويه وينشئه في عزلة مضادة للفساد عن المجتمع الذي لابد له من العيش فيه بعد حين . وروسو لم يرب أطفالا قط ، لذلك لا يعلم أن الطفل المتوسط هو : « الطبيعة » لص صغير ، غيور ، جشع ، مسيطر ، ولوانتظرنا حتى يتعلم الانضباط دون أوامر ، والاجتهاد دون تعليم ، لشب إنسانا سيء التكيف ، بليدا قليل الحيلة ، فوضويا ، قذر الجسم أشعت الشعر ، لا يطاق .
وأنى لنا هؤلاء المعلمون الخصوصيون الراغبون في تكريس عشرين عاما من حياتهم لتربية طفل واحد ؟ تقول مدام دستال (١٨١٠) أن هذا الضرب من العناية والاهتمام . . . يضطر كل رجل إلى تكريس حياته كلها لتربية مخلوق آخر ، ولا تتاح الحرية في النهاية إلا للأجداد ليهتموا بمصالحهم (٩٨) .

وأكبر الظن أن روسو أدرك هذه الصعوبات وغيرها بعد أن أفاق من نشوة تأليف كتابه . فقد جاءه في ستراسبورج عام ١٧٦٥ أحد المتحمسين له وهو يتدفق ثناء وقال له « سيدى انك ترى رجلا ينشئ أبناءه على المبادئ التي أسعده أن يتعلمها من كتابك اميل » . وقال روسو

غاضبها « هذا أسوأ لك ولأينك^(٩٩) . وفي الرسالة الخامسة من « رسائل من الجيل » بين أنه لم يؤلف إميل للآباء العاديين بل للحكام « لقد أوضحت في المقدمة أن اهتمامي كان بتقديم خطة نظام جديد للتربية لينظر فيه الحكام ، لا طريقة يستخدمها الآباء والأمهات^(١٠٠) » . فهو كعلمه افلاطون انتزع الطفل من أذى أبويه مؤملا أن يصبح صالحاً لتربية اطفاله بعد ان اكتملت له التربية المنقذة . وكأفلاطون « ذخر في السماء أنموذجا لحالة أو طريقة مثالية ، حتى « يشهدا كل راغب ، فإذا شهدا استطاع أن يوجه نفسه وفقها^(١٠١) » . وقد اذاع على الناس حلمه هذا ، عسى أن يحمل الإلهام في بلد ما ، لبعض الرجال والنساء ، ويعين على صلاح الحال . ولقد فعل .



الفصل الثامن

روسو المنبوذ

١٧٦٢ - ٦٧

١ - الهروب

عجيب أن يقلت من الرقيب كتاب يحوى ما حوى لإميل من هجوم صريح على كل شيء إلا أسس المسيحية ، وأن يطبع في فرنسا . ولكن الرقيب كان مالزيرب المتسامح العطوف . وقبل أن يأذن بالنشر حث روسو على أن يحوذف فقرات من المؤكد أنها تدفع الكنيسة إلى العداء للشيطان . ولكن روسو رفض . ولقد نجا زنادقة آخرون من الاضطهاد لأشخاصهم بالتخفى وراء أسماء مستعارة ، أما روسو فقد ذكر اسمه بشجاعة على صفحات غلاف كتبه .

وبينا ندد جماعة الفلاسفة بإميل باعتباره خيانة أخرى للفلسفة ، أدانه أحرار فرنسا وقضاة باريس وجنيف باعتباره مروجاً من المسيحية . وأعد رئيس أساقفة باريس ، عدو الجنسنيين ، للنشر في أغسطس ١٧٦٢ رسالة قوية تهاجم الكتاب . وكان برلمان باريس المناصر للجنسنيين مشغولاً بطرد اليسوعيين ، ولكنه أراد رغم ذلك أن يبدى غيرته على الكاثوليكية ، وأتاح له ظهور إميل فرصة ليضرب ضربة دفاعاً عن الكنيسة . واقترح مجلس الدولة الذى كان يخوض حرباً مع البرلمان . ويكره أن يكون دونه غيرة على سلامة العقيدة ، أن يلقى القبض على روسو . فلما نعى الخبر إلى أصدقاء روسو من النبلاء نصحوه بالرحيل فوراً عن فرنسا . وفي ٨ يونيو بعثت إليه مدام دكريكى رسالة تشي بانفعالها . قالت : لاريب في أن أمراً صدر بالقبض عليك . فاستحلفك بالله أن تهرب . . . إن حرق كتابك ان يضيرك أما شخصك فلا يطيق السجن . فاستشر جيرانك (١) .

أما الجيران فكانا مرشال ومرشالة لكسمبورج . وقد خشيا أن يجرطا في الأمر لو قبض على روسو ^(٢) ، فحشاهما وأمير كونتى على الهروب إلى سويسرة ، وأعطوه مبلغا من المال وعربة ليحبر بها الطريق الطويل من فرنسا إلى سويسره . وأذعن روسو على مضض . وترك تريتز في رعاية المرشالة . وبرز مونمورنى في ٩ يونيو . في ذلك اليوم حضر مرسوم بالقبض عليه ولكنه نفذ ببطء رحيم ، لأن الكثيرين من رجال الحكومة سرهم أن يتركوه يهرب . وفي ذلك اليوم ذاته قال الأستاذ أومير جولى دفلورى لبرلمان باريس وهو يلوح بنسخة من إميل :

« يبدو أن هذا العمل ألف لهدف واحد هو رد كل شيء إلى الدين الطبيعي ، وتطوير ذلك النظام الإجرامى فى خطة المؤلف لتربية تلميذه ...

وأنه ينظر إلى جميع الأديان على أنها تستوى فى الخير ، وعلى أنها كلها منبثقة من مناخ الناس ، وحكومتهم وطبيعتهم . . وأنه بناء على هذا يجرؤ على هدم صحة الكتاب المقدس والنبؤات ، ويقينية المعجزات الواردة فى الأسفار المقدسة . وعصمة الوحي ، وسلطان الكنيسة . . وهو يسخر من الدين المسيحى ويهدف عليه . ذلك الدين الذى هو وحده من صنع الله .

ومؤلف هذا الكتاب الذى جرؤ على وضع اسمه عليه يجب القبض عليه بأسرع ما يمكن . ومن الأهمية بمكان ، أن تجعل العدالة - من المؤلف وأولئك الذين . . . شاركوا فى طبع هذا الكتاب وتوزيعه - مثالا وعبرة للناس بكل صرامة » .

ومن ثم فقد أمر البرلمان :

بأن يمزق الكتاب المذكور ويحرق فى فناء القصر (قصر العدالة) أسفل السلم الكبير ، بيد كبير الجلادين ، وعلى كل الذين يملكون نسخا من الكتاب أن يساموها إلى المسجل لإبادتها ، ومحظور على الناشرين طبع هذا الكتاب أو توزيعه ، وسيقبض على جميع بائعيه وموزعيه ويعاقبون طبقا لنص القانون الصارم ، ويجب القبض على ج - ج روسو وزجه فى سجن الكونسيرجرى فى قصر العدالة ^(٣) .

وفي ١١ يونيو مزق وحرق إميل كما نص الأمر، ولكن روسو كان قد وصل إلى سويسرة . أمرت الخوذة أن يقف لحظة دخوله إقليم برن وخرجت من مركبتي، وخررت على وجهي، وقبلت الأرض وصحمت في غمرة فرحي : « حمدا لك أيتها السماء، حامية الفضيلة، إنني ألمس أرضاً للحرية (٤) . »

ولم يكن مطمئناً كل الاطمئنان . فواصل ركوبه إلى إيفردون ، قرب الطرف الجنوبي لبحيرة نوشاتل ، في مقاطعة برن ، وهناك مكث شهرا مع صديقه القديم روجان . أبحث عن منزل في جنيف ؟ ولكن في ١٩ يونيو أذان مجلس الخمسة والعشرين الذي يحكم جنيف كلا من « إميل » و « العقد الاجتماعي » لأنهما خارجان على التقوى ، فاضحان ، وقحان ، مفعمان بالتجديف والافتراءات على الدين . وقد جمع المؤلف تحت ستار الشك كل مامن شأنه أن يضعف المقومات الرئيسية للدين المسيحي المنزل ، ويهزها ويهدمها . . . ويتعاطم خطر الكتابين ووجوب شجبهما لأنهما مكتوبان بالفرنسية (لا باللاتينية التي لا تعرفها غير القلة) بأسلوب شديد الإغراء ، منشوران باسم مواطن جنيفي (٥) .

وعليه فقد أمر المجلس بحرق الكتابين ، وحرّم بيعهما ، وأصدر مرسوماً بالقبض على روسو إذا دخل يوما ما أرض الجمهورية . ولم يعترض قساوسة جنيف على هذا التبرؤ من أشهر أبناء جنيف الأحياء . ولا ريب في أنهم شعروا بأن أي عطف يبدونه لمؤلف « إعلان بليمان كاهن سافوى » ، سيؤكد ما كشفه دالامبير عما يبطونه من ميول للتوحيد ، وانقلب عليه يعقوب فيرن الذي ظل صديقا له سنين كثيرة ، وطالب بأن يسحب روسو أقواله . يقول روسو وهو يذكر ذلك الموقف « لو سرت بين الجماهير أي شائعة عنى لأضرت بي ، وقد عاملني كل روجي الشائعات والمتفقيهن كأنني تلميذ يهدد بالجلد لأنه لم يحسن حفظ درسه الديني (٦) . »

وتأثر فولتير من موقف غريمه ، فلقد قرأ إميل ، وتعليقاته مازالت ترى على نسخته المحفوظة بمكتبة جنيف . وفي خطاب مؤرخ ١٥ يونيو كتب عن الكتاب « إنه خليط تهرف به مرضعة بلهاء في أربعة مجلدات بها أربعون

صفحة ضد المسيحية من أجراً ما عرفنا . . . وهو يقول في الفلاسفة من الأشياء المؤذية قدر ما يقوله في المسيح ، ولكن الفلاسفة سيكونون أكثر تسامحاً من القساوسة^(٧) . على أية حال أعجبه « إعلان الإيمان » فقال عنه نحسون صفحة كاملة ، ولكنه أضاف « من المؤسف أن يكون كتابها . . . وغداً كهذا^(٨) . وكتب إلى مدام دودفان صاحب مؤلف كاهن سافوى ، مهما فعل ومهما يفعل^(٩) . . . ولما سمع أن جاك طريد لا مأوى له صاح « فليات إلى هنا (إلى قريته) . . . يجب أن يأتي . سأستقبله بذراعين مفتوحتين . سيكون هنا سيداً أكثر منى . سأعامله كأنه ابني^(١٠) » . وبعث بدعوته إلى خمسة عناوين مختلفة ، ولابد أنها وصلت إلى أحدها ، لأن روسو أعرب فيما بعد عن أسفه لأنه لم يرد عليها^(١١) . وفي ١٧٦٣ جدد فولتير الدعوة ، فرفضها روسو ، واتهم فولتير بأنه حرض مجلس الخمسة والعشرين على إدانة « العقد الاجتماعي » و « إميل » . . . ولكن فولتير أنكر التهمة ، وبحق فيما يبدو .

وفي بواكير يوليو ١٧٦٢ أخطر مجلس شيوخ برن روسو بأنه لا يستطيع السماح بوجوده في إقليم برن ، وأن عليه أن يرحل عنه في بحر خمسة عشر يوماً وإلا واجه السجن . وتلقى خلال ذلك خطاباً رقيقاً من دالامبير ينصحه بأن يحاول الإقامة في إمارة نوشاتل ، وكانت تقع في قضاء فردريك الأكبر ، ويحكمها إيرل ماريشال جورج كيث ، الذي قال عنه دالامبير إنه سيستقبله ويعامله كما كان الآباء في العهد القديم يستقبلون ويعاملون الفضيلة المضطهدة^(١٢) . وتردد روسو ، لأنه كان قد انتقد فردريك زاعماً أنه طاغية في ثياب فيلسوف^(١٣) . ومع ذلك قبل في ١٠ يوليو ١٧٦٢ دعوة ابنة أخى روجان ، مدام دلاتور ، بأن ينزل بيتاً تملكه موتيه — ترافير ، على خمسة عشر ميلاً جنوب شرق مدينة نوشاتل في بقعة سيصفها بوزويل بأنها واد برى بديع تحيط به الجبال الشاهقة^(١٤) . وحوالى ١١ يوليو تقدم جان — جاك بالتماس إلى الحاكم ، وبما تميز به من تواضع وإباء . كتب إلى : (ملك بروسيا) .

« لقد قلت فيك الكثير من سوء ، وأغلب الظن أنى قاتل فيك المزيد منه ؛ ولكننى وأنا مطازد من فرنسا ومن جنيف ، ومن مقاطعة برن ، جئت أتمس ملجأ فى ولاياتك . . . سيدى ، لم أستحق منك فضلاً ، ولا أطلب فضلاً ، ولكننى أحسست بأن من واجبى أن أصرح لجلالتك بأننى فى قبضتك ، واننى شئت أن أكون كذلك ، لجلالتك أن تتصرف معى كما تشاء » .

وكتب فردريك إلى كيث فى تاريخ غير مؤكد ، وهو لم يفرع بعد من حرب السنين السبع :

« يجب أن نفقد هذا الشقى المسكين . فذنبه الوحيد أن له آراء غريبة نحسبها سديدة ، سأرسل إليك مائة كروان ، فتفضل باعطائه منها ما يحتاج إليه . وأظنه سيقبأها عينا بأسهل مما يقبأها نقداً ، ولولا أننى نخوض حرباً ، ولولا أننا أفلسنا ، لبنيت له كوخاً بخديفة حيث يستطيع العيش كما عاش فى ظنى أبائنا الأولون أظن أن روسو المسكين قد اختار المهنة الخطأ ، فواضح أنه ولد ليكون ناسكاً مشهوراً ، وأباً من آباء البرية يشتهر بنسكه وجلده لجسده . ختاماً أقول أن نقاء أخلاقيات صاحبك المتوحش يعادل عدم منطقية عقله^(١٥) » .

أما المارشال ، الذى يقول روسو إنه قديس بخيل ، عجوز ، شارد الدهن ، فقد أرسل إليه الزاد والفحم والخشب ، واقترح أن يبنى له بيتاً صغيراً . وفسرجان - جاك هذا العرض بأنه آت من فردريك ، فرفضه ، « ولكن منذ تلك اللحظة تعلقت به تعلقاً صادقاً حتى أصبحت أهم الآن بمجده قدر ما كنت أرى انتصاراته إلى ذلك الحين ظالمة^(١٦) » . وفى أول نوفمبر ، والحرب قاب قوسين من نهايتها ، كتب إلى فردريك يصف مهام السلم :

« مولاي :

أنت حامى وولى نعمتى ، وإن لى لقلبا خاق ليعرف الجسيل ، وأريد أن أبرئ نفسى . معك ، ان استطعت . تريد أن تعطينى الخبز ، أفليس بين رعاياك من يعوزه الخبز؟ أبعده عن غيبنى ذلك السيف الذى يومض ويخرجنى ... أن سيرة الملوك الذين أوتوا همتك عظيمة ، وأنت لاتزال بعيدا عن ساعة منيتك ، ولكن الوقت كالسيف ، وليس أمامك لحظة واحدة تضيعها . أو تستطيع ان تعزم الموت دون أن تكون أعظم الرجال قاطبة .

ولو أتيت لى يوما أن أرى فردريك العادل المرحوب يملأ بلاده فى نهاية المطاف بشعب سعيد سيكون أيا له ، إذن لذهب جان - جاك روسو علو الملوك ، لموت فرحا فى أسفل عرشه^(١٧) .

ولم يرد فردريك ردا وصل إلينا علمه ، ولكن حين ذهب كيث إلى برلين أخبره الملك بأنه تلقى توبيخاً من روسو^(١٨) .

وحين خيل لجان - جاك أنه ضمن بيتاً يقيم فيه ، أرسل إلى تريز لتلحق به . ولم يكن واثقا من أنها ستأتى ، لأنه أحس قبل ذلك بزمى طويل بفتور محبتها له ، وعزا هذا إلى توقفه عن الاتصال الجنسي بها ، لأن «الاتصال بالنساء كان يؤذى صحتى^(١٩)» . فلعلها الآن تؤثر باريس على سويسرة . ولكنها حضرت . وكان لقاء ذرفا فيه الدموع ، وتطلعا أخيرا إلى بضعة سنين ينعمان فيها بالسلام .

٢ - روسو ورئيس الأساقفة

ولكن السنوات الأربع التالية كانت أشقى ماليا . ذلك أن قساوسة نوشاتل الكلفين أدانوا روسو علانية بالهرطقة ، وحظر القضاة بيع إميل . ، واستأذن روسو راعى الكنيسة فى موته فى أن ينضم إلى شعب كنيسته ، ربما لهدىء ثائرة القساوسة ، أو مدفوعا برغبة صادقة فى اتباع مبادئ كاهن سافوى ، (أما تريز فظلت كاثوليكية) ، فقبل . واختلف إلى الكنيسة للصلاة ، وتناول القربان « بعاطفة من القلب ، وعينائى تملؤهما دموع الحنان^(٢٠)» ، وأعطى الساخرين منه سلاحا باتخاذ الزى الأرمنى - قلنسوة من فراء ،

وقفطان ، وحزام . وأتاح له الروب الطويل أن يستر آثار حصر البول الذى ابتلى به . وكان يختلف إلى الكنيسة فى هذا الزى ، وارتداه وهو يزور اللورد كيث ، الذى لم يعلق عليه إلا بتحيته بعبارة (السلام عليكم) . وواصل الإضافة إلى دخله بنسخ الموسيقى ، ثم أضاف إليها الآن أشغال الأبرة ، وتعلم صناعة الدنتلا . كنت أحمل كالنساء غنقى فى زيارتى ، أو اجلس لأشتغل بالأبرة عند باب بيتى . . وأتاح لى هذا أن انفق وقتى مع جارائى دون أن أحس مالا . . (٢١)

وأغلب الظن أن الناشرين أقنعوه فى هذه الفترة (أواخر ١٧٦٢) بأن يبدأ كتابه « اعترافات » وكان قد أقسم أن يعنزل التأليف ، ولكن هذا لن يكون تأليفاً بقدر ما هو دفاع عن خلقه وسلوكه ضد عالم من الخصوم ، لا سيما ضد تهم جماعة الفلاسفة وشائعات الصالونات . أضف إلى ذلك أنه كان مضطراً إلى الرد على عدد كبير من مختلف الرسائل . وقدم له النساء على الأخص بخوراً معزباً من إعجابهم الشديد ، لا لتعاطفهن فحسب مع المؤلف المطارد لرواية مشهورة ، بل لأن نفوسهن كانت تهفو للرجوع إلى الدين ، ولم يرين فى « كاهن سافوى » وصانعه عدواً حقيقياً للدين ، بل المدافع الشجاع عنه ضد إلحاد يشيع الكآبة فى النفوس . لمثل هؤلاء النساء ولرجال عديدين ، غدا اب الاعتراف ، ومرشداً للنفوس والضائير . وقد نصحهم بأن يقيموا عل دين شبابهم أو يعودوا إليه ، ضاربين صفحاً عن كل الصعوبات التى يوحى بها العلم والفلسفة . فتلك العجائب البعيدة التصديق ليست هى الجوهر ، ولا ضمير فى تنحيها فى صمت ، إنما العبرة بالإيمان بالله وبالحلود ، فهذا الإيمان والرجاء يستطيع الإنسان أن يتساقى فوق كل كوارث الطبيعة التى لا تفهم ، وكل آلام الحياة وأحزانها . وطلب كاثوليكي شاب متمرد على دينه تعاطف روسو ، فأجابه روسو ناسياً تمرداته ألا يهتم كثيراً بالتوافه العارضة . « لو أننى ولدت كاثوليكيًا لظللت كاثوليكيًا ، علماً بأن كنيسة كاثوليكية تضيع قيداً صحيحاً على شطحات العقل البشرى الذى لا يجد قراراً ولا شاطئاً حين يريد سير أعماق الأشياء السحيقة (٢٢) » . وأشار على جل طلاب الحكمة هؤلاء

بالحروب من المدينة إلى الريف ، ومن التكلف . والتعقد إلى البساطة الطبيعية للحياة ، والرضا الهادىء بالزواج والأبوة .

وأحببت النساء اللاتي صدمهن القساوسة المتعلقون بالحياة الدنيا ورؤساء الدين المتشككون ، هذا المهرطق الزاهد الذى نددت به جميع الكنائس ، وإن اقتصر هذا الحب على الرسائل . فقالت مدام دبلو ، النبيلة المحترمة ، لجماعة من النبلاء والنبيلات ، « مامن شيء يمنع امرأة ذات حسن مرهف صادق من تكريس حياتها لروسو إلا أسمى ضروب العفة ، لو كانت واثقة من أنه سيحبها حبا حارا ^(٢٣) . وحسبت مدام دلاتور بعض ماجاء فى خطاباتهن لها من مجاملات اعترافاً بالحب ، فاستجابت و رقعة وحرارة وتدفق وبعثت إليه بصورتها ، مؤكدة أنها لا تنصفها . وابتأسست حين أجاب بهدوء رجل لم يرها قط ^(٢٤) . إلا أن معجبات أخريات تمنين لو قبلن الأرض التى يمشى عليها ، وأقامت بعضهن مذابح له فى قلوبهن ، ودعاها بعضهن المسيح المولود من جديد . وكان يصدقهن أحيانا ، ورأى فى نفسه المؤسس المطلوب لدين جديد ^(٢٥) .

وسط هذا التمجيد كله ، أثار الشعب عليه كاهن أعلى من كهنة التمويل (الهيكل) — كأنما لتأكيد القياس — ليدينوه ناثرا خطرا . فى ٢٠ أغسطس ١٧٦٢ أصدر كرسثوف دهمون ، رئيس أساقفة باريس ، رسالة لجميع الكهنة فى أسقفيته ليقرءوا على شعبهم ، ويعلنوا على الملأ ، اتهامه لإميل ذا التسع والعشرين صفحة . وكان رجلا صارم العقيدة طاهر السمعة ، حارب الجانسينيين والموسوعية والفلاسفة ؛ وبدا له الآن أن روسو ، بعد ماظهر من انفصاله عن الملحدين ، قد انضم إليهم فى مهاجمة الإيمان الذى يركز عليه ، رأى رئيس الأساقفة نظام فرنسا الاجتماعى كله وحياتها الأخلاقية بأسرها . واستهل اتهامه بالاستشهاد بمساجاة فى رسالة بولس الرسول الثانية إلى تيموثاوس :

« ستأتى أزمئة صعبة لأن الناس يكونون محبين لأنفسهم .. متعظمين ،

مستكبرين ، مجذفين ، غير طائعين لوالديهم متصليين ، محبين للذات ، دون محبة الله ... أناس فاسدة أذهانهم ومن وجهة الإيمان مرفوضون (٢٦) .

وهاهى قد جاءت تلك الأزمنة مافى ذلك شك :

« إن الكفر الذى تشجعه جميع الشهوات يلبس كل لبوس ليكيف نفسه على نحو ما وفق جميع الأعمار ، والأشخاص والطبقات ... فقد يستعير أسلوباً خفيفاً لطيفاً لعباءة ، ومن هنا الحكايات الكثيرة التى تستوى بداءة وزندقة (رويات فولتير) ، وترفه عن الخيال لأنها غواية للعقل ومفسدة للقلب . وقد يدعى الرجوع إلى الأصول الأولى للمعرفة متظاهراً بعمق آرائه وسموها ، ويزعم له سنداً إليها ، لكي يخلع نيراً يقولون إنه يجلب البشر بالعار . وقد يعلو صوته كأنه امرأة غضبي فيهاجم الغيرة الدينية ، ومع ذلك يبشر بالتسامح الشامل بحماسة . وقد يمزج الجد بالهزل فى جمعه بين هذه الأساليب الكلامية المختلفة ، ويخلط الحكم بالفحش ، والحقائق الكبيرة بالأخطاء الكبيرة ، والإيمان بالتجديف ، ويأخذ على عاتقه — باختصار — التوفيق بين النور والظلمة ، وبين المسيح وبليعال » (٢٧) .

وقال رئيس الأساقفة أن هذه الطريقة لجأ إليها إميل بصفة خاصة ، فهو كتاب حفل بلغة الفلسفة دون أن يكون فلسفة حقاً ، وطفح بنتف من المعرفة لم تثر المؤلف ، وكل ما تفعله أنها تربك قراءه لاجمالة . أنه رجل مولع بمفارقات الآراء والسلوك ، يجمع بين بساطة العادات وخيلاء الفكر ، بين الحكم القديمة وجنون التجديد ؛ وبين احتجاب عزلته وورغبته فى أن تعرفه الدنيا بأسرها . إنه يندد بالعلوم ، ثم يصادقها . إنه يمتدح روعة الانجيل ، ثم يدمر تعاليمه . لقد أقام نفسه معلماً للنوع الإنسانى ليخدعه ، ومرشداً للشعب ليضل العالم ، ونبياً للقرن ليهدمه ، فياها من مغامرة (٢٨) .

وهال رئيس الأساقفة ما اقترحه روسو من إغفال ذكر الله أو الدين لإميل حتى يبلغ الثانية عشرة أو حتى الثامنة عشرة ، فعنى هذا أن « الطبيعة

كلها تكون قد تحدثت عبثاً بعظمة الخالق . . وأن كل تعليم خلق سيفقد مساندة الإيمان الدينى . ولكن الإنسان ليس بطبيعته خيراً كما زعم المؤلف . فهو يولد ملوثاً بالخطيئة الأصلية ، وهو يشارك فى افساد البشرية العام . والمعلم الحكيم — وخير المعلمين كاهن ترشده النعمة الإلهية — يتوسل بكل وسيلة سليمة ليغذى دوافع الخير فى الناس ، ويقتلع دوافع الشر ، ومن ثم فهو يطعم الطفل بلبن الدين الروحى ، لحتى ينمو نحو الجلاص . . وبهذا التعليم وحده يمكن أن يغدو الطفل عابداً مخلصاً للإله الحق ، وواحداً من رعايا الملك الأوفياء (٢٩) . وأن الكثير من الخطايا والجرائم ليظل باقياً حتى بعد هذا التعليم المجتهد ، فما بالك بها إذا حرم الطفل منه . إن سيلاعرما من الشر يغرقا فى هذه الحالة (٣٠) .

وقال رئيس الأساقفة فى ختام كلامه إنه لهذه الأسباب :

« بعد استشارة عدة أشخاص عرفوا بورعهم وحكمتهم ، وبعد التضرع لإسم الله القدوس ، ندين هذا الكتاب لأنه يحوى تعليماً بغضاً من شأنه أن يقلب القانون الطبيعى وأسس الدين المسيحى ، وأن يرسى مبادئ تناقض تعليم الأناجيل الخلقى ، وينحوى إلى تكدير سلام الدول ، وتزعم الثورة على سلطان الملك ، ولأنه يتضمن الكثير جداً من الدعاوى الباطلة المفترية المفعمة بالحققد على الكنيسة ورعاتها . . لذلك نخطر صراحة على جميع الأشخاص فى أسففتنا أن يقرأوا الكتاب المذكور أو يقتنوه ، وإلا وقعوا تحت طائلة العقاب (٣١) . »

وطبع هذه الرسالة « بامتياز الملك » وسرعان ما وصلت إلى موته — ترافير . وقرر روسو أن يرد عليها ، وهو الذى كان على الدوام مصمماً على الكف عن الكتابة . وقبل أن يضع قلمه (١٨ نوفمبر ١٧٦٢) كان قد أطلق له العنان حتى بلغ الرد ١٢٨ صفحة ، وطبع باستردام فى مارس ١٧٦٣ ، بهذا العنوان : « من جان — جاك روسو المواطن الجينيفى إلى كرسstof ديمومون رئيس أساقفة بازيى » . وسرعان ما أدانه برلمان باريس ومجمع جنيف . ورد روسو على الهجوم الذى شنه عليه مذهبا أوربا الكبران

بالمهجوم عليهما جميعاً . وراح الرومانسي الخجول الذى نبذ من قبل جماعة الفلاسفة يكرر الآن حججهم بجرأة مستهجرة .

واستهل رده بسؤال مازال يسأله جميع الخصوم بعضهم لبعض فى هذا الجدل الذى لاينتهى . « لم يتحتم على أن أقول أى شىء لك يا صاحب النياقة ؟ وأنى لغة مشتركة يمكننا أن نتحدث بها ، وكيف نستطيع أن يفهم الواحد منا الآخر (٣٢) ؟ وأبدى أسفه لأنه ألف كتباً على الاطلاق ، وهو لم يفعل إلا حين بلغ الثامنة والثلاثين ، وقد جره إلى هذه الغلظة أنه لاحظ مصادفة ذلك « السؤال التعس » الذى وجهته أكاديمية دييجون ، ودفعه نقاد المقال إلى الرد عليهم ، ثم أفضى كل جدل إلى جدل جديد . . . فألفيتنى ، إن جاز التعبير ، أغدو مؤلفاً فى سن يهجر فيها المؤلفون التأليف عادة . . ومنذ ذلك الحين إلى اليوم اختفت الراحة والأصدقاء (٣٣) . وزعم أنه فى حياته كلها كان :

« أكثر حماسة منى استفادة . . ولكنى كنت مخلصاً فى كل شىء . . بسيطاً طبعاً ، وإن كنت مرهف الحس ضعيفاً ، أفعال الشر كثيراً وأحب الخير دائماً . . أتبع عواطفى أكثر من مصالحى . . أخشى الله دون أن أخشى الجحيم . . أجادل فى الدين ولكن دون إباحية . لأحب الكفر ولا التعصب ، ولكنى أمقت المتعصبين أكثر مما أمقت الملحددين . . وأعترف بأخطائى لأصدقائى وأعلن آرائى للعالم كله (٣٤) » .

وأحزنته إدانة الكاثوليك لإميل أقل مما أحزنته إدانة الكلفينيين . فهو الذى كان يعتز بلقبه « مواطن جنيفيا » هرب من فرنسا أملاً فى أن يتنفس فى مسقط رأسه نسيم الحرية ، وأن يجد فيه من الترحيب ما يعزیه عما لى من اذلال كثير . أما الآن ؟ فإذا أقول ؟ إن قلبى ينفلق ، ويدى ترتعد ، والقلم يسقط منها ، وعلى أن أصمت . . ويجب أن اجترأ فى الخفاء أشد أحزاني مرارة (٣٥) . فهاهو الرجل الذى اجترأ فى قرن اشتهر بالفلسفة ، والعقل والإنسانية ، على أن يدافع عن قضية الله ، ها هو قد وسم ، وحرم وطورد من بلد إلى بلد ، ومن ملجأ إلى ملجأ ، دون اكتراث لفقره ، ولا راحة

لأمراضه ، ثم وجد ملاذا آخر الأمر عند « ملك مستنير ذائع الصيت » وأنزوى في قرية صغيرة رابضة بين جبال سويسرة ، ظاناً أنه في النهاية ، واجد العزلة والهدوء ، ولكن طارده حتى هناك لعنات الكهنة .. أن رئيس الأساقفة هذا ، « الرجل الفاضل ، النبيل النفس ، الكريم المعتقد » ، كان ينبغي أن يوبخ هؤلاء المضطهدين ، ولكنه بدلاً من هذا أصدر لهم الأذن في غير خجل ، « وهو الذي كان يجب أن يدافع عن قضية المظلومين (٣٦) ..

وأحسن روسو أن أشد ماساء رئيس الأساقفة هو تعليم روسو أن الناس يولدون اختيار ، أو غير أشرار على الأقل ، وقد أدرك بومون أنه لو كان هذا حقاً ، ولو لم يكن الإنسان ملوثاً منذ مولده بوراثته خطيئة آدم وحواء ، لسقط التعليم بكفارة المسيح ، وهذا التعليم لب العقيدة المسيحية . ورد روسو بأن تعليم الخطيئة الأصلية لم يذكر بوضوح في أى مكان من الكتاب المقدس . وقد إدرك أن رئيس الأساقفة قد صدمه الاقتراح بتأجيل تعليم الدين ، فرد بأن تربية الأطفال على أيدى الراهبات والقساوسة لم تقلل من الخطيئة أو الجريمة ، فهؤلاء الأطفال بعد أن يكبروا يفقدون خوفهم من الجحيم ، ويؤثرون لذة صغيرة حاضرة على الجنة التى وعدوا بها . ثم ما بال هؤلاء القساوسة انفسهم — أترأهم نماذج للفضيلة في فرنسا المعاصرة (٣٧) ؟ ومع ذلك « فأنا مسيحي ، مسيحي بأخلاص ، طبقاً لتعليم الإنجيل ، لا مسيحي متملذ للقساوسة ، بل تلميذ للمسيح » . ثم أضاف روسو وعينه على جنيف « لأننى في سعادتي بالولادة في أقدس وإعقل دين في الأرض ، ما زلت متعلقاً تعاقماً لا أنفهام فيه بإيمان آبائى . وأنا مثلهم أتخذ من الأسفار المقدسة والعقل القواعد الوحيدة لإيماني (٣٨) ... وأحسن بلوم من أخبروه بأنه « مع أن كل أصحاب العقول الذكية يفكرون كما تفكر ، فإنه ليس من الخير أن يفكر العوام على هذا النحو » .

« ذلك ما يتصايحون به على من كل جانب ، ولعله ما كنت أنت نفسك قائلاً لى لو كنا وحيدين في مكتبك . هكذا الناس ، فهم يغيرون لغتهم مع ملابسهم ، ولا يقولون الحق إلا وهم في أروابهم ، أما في ثيابهم التى

يبدون فيها أمام الناس فلا يعرفون إلا أن يكذبوا . وهم ليسوا بخادعين غشاشين
أمام وجوه البشر فحسب ، بل لأنهم لا يخجلون من أن يعاقبوا كل من يأبون
أن يكونوا غشاشين كذابين علانية مثاهم ، مخالفين في ذلك ضمائرهم (٣٩) .

وهذا الخلاف بين ما تؤمن به وما نبشر به هو سر الفساد في الحضارة
العصرية . أن هناك تحيزات ينبغي أن نحترمها ، على ألا تحيل التربية إلى
خداع هائل وتقوض الأساس الخلقى للمجتمع (٤٠) . فإذا أصبحت هذه
التحيزات قتالة فهل نسكت على جرائمها ؟

« لست أقول ، ولا أرى ، أن الدين الحسن لا وجود له ... ولكن
الذي أقوله ... أنه ما من دين من الأديان التي سادت لم يشحن الإنسانية
بالجراح . وكل المذاهب عذب بعضها بعضاً ، وكلها قدّم لله قربان الدم
البشري . وأيا كان مبعث هذه التناقضات فهي قائمة ، فهل من الأجرام
المرغبة في إلزائها (٤١) ؟ »

وقبيل ختام رده دافع روسو عن إميل دفاع المحب المقيم بكتابه ، وتساءل
لم لم يقم لمؤلفه تمثال .

« هبني أرتكبت بعض الأخطاء ، لا بل كنت دائماً مخطئاً ، أفلاشفاعة
لكتاب يشعر المرء في كل جزء فيه - حتى في أغلاطه وحتى في الضرر الذي
قد يكون فيه - بالحُب الصادق للخير وبالغيرة على الحق ؟ . . . كتاب لا يشع
غير السلام ، واللاطف ، والصبر ، وحُب النظام ، وطاعة القوانين في كل
شيء ، حتى في أمر الدين . كتاب تؤكد فيه قضية الدين تأكيداً رائعاً ،
وتحترم فيه مكارم الأخلاق احتراماً كبيراً . . . ويصور الشر فيه على أنه
حماقة ، والفضيلة على أنها شيء محب للنفوس . . . أجل ، لأنني لا اخشى
أن أقولها . . . فلو أن في أوروبا حكومة واحدة مستنيرة حقاً . . . لحملت على
مؤلف إميل أسباب التشريف العلنية ، ولأقامت له تمثالاً . . . ولكن خبرني
الكبيرة بالبشر تمنعني من أن أتوقع تقدير أكهنا وأنا لم أعرفهم معرفة تكفي
لأن أتوقع ذلك الذي أتوه .
ولكنهم أقاموا له التماثيل .

٣ - روسو والكلفنيون

لم يتهج بخطاب روسو الذى وجهه إلى كرسstof بومون غير بعض أحرار الفكر فى فرنسا وبعض المتمردين السياسيين فى سويسرة . وجاءت من البروتستنت معظم الردود « المفندة » لدعاوى روسو والموجهة إلى المؤلف . ورأى قساوسة جنيف الكلفنيون فى الخطاب هجوما على المعجزات وتنزيل الكتاب المقدس ، والإغضاء عن هذه المهرطقات معناه التهيد من جديد للخطر الذى عرضهم له دالامبير . وغضب روسو من إحجام الأحرار الجنييفيين عن الجهر بالدفاع عنه ، فارسل (١٢ مايو ١٧٦٣) إلى مجلس جنيف الكبير يتخلى عن مواطنته .

وقد حظى عمله هذا ببعض التأييد المسموع . ففي ١٨ يونيو رفع وفد إلى الرئيس الأول للجمهورية « لاحتجاجا غاية فى التواضع والاحترام من مواطني جنيف وسكان مدنها » شكافيا شكافا من مظالم ، من أن الحكم الصادر على روسو غير قانونى ، وأن مصادرة نسخ إميل من مكنتبات جنيف كانت عدوانا على حقوق الملكية . ورفض مجلس الخمسة والعشرين الاحتجاج . وفى سبتمبر أصدر المدعى العام ، جان روبير ترونشان (ابن عم طبيب فولثير) ، خطابات مكتوبة من الريف « للدفاع عن إجراءات المجلس المختلف عليها . وناشد « المحتجون » روسو الرد على ترونشانى . وإذ لم يكن بروسو أى نية فى البعد عن الشر ، فقد نشر (ديسمبر ١٧٦٤) تسعة « خطابات مكتوبة من الجبل » - وهى رد من بيته الجبل على أوليجاركية السهل الجنييفى . وكان ساخظاً أشد السخظ على القساوسة والمجلس جميعا ، فهاجم الكلفنية كما هاجم الكاثوليكية ، واحرق بذلك معظ جس من خلفه .

وقد وجه الخطابات من الناحية الشكلية لزعيم المحتجين . واستهلها بناول الأذى الذى لحق به من جراء الإدانة المتعجلة لكتبه وشخصه ، دون أنه تتاح له أى فرصة للدفاع . واعترف بعيوب كتبه . « لقد وجدت أنا نفسى الأخطاء الكثيرة فيها » . ولست أشك فى أن غيرى قد يرون فيها أخطاء أكثر .

وأنه مازالت هناك أخطاء أخرى لم أدركها لأننا ولا غيري . . . فبعد الاستماع إلى الطرفين سيحكم الجمهور . . . وسينجح الكتاب أو يسقط ، وتنتهى القضية عند هذا^(٤٣) . ولكن أكان الكتاب مؤذيا ؟ أم يمكن أن يقرأ انسان « هلويز الجديدة » « وإعلان إيمان كاهن سافزوى » ثم يعتقد حقاً أن مؤلفها قصد هدم الدين ؟ صحيح ان الكتابين حاولا تدمير الخرافة لأنها شر بلاء وزنت به البشرية ، ولأنها مخنة الحكماء وأداة الطغيان^(٤٤) . ولكن ألم يؤكد ضرورة الدين ؟ ان المؤلف يتهم بعدم إيمانه بالمسيح ، وهو مؤمن بالمسيح ولكن بطريقة مختلفة عن طريقة متهميه .

اننا نعترف بسلطان المسيح ، لأن فكرنا يوافق على تعاليمه ولأننا نجدها تعاليم سامية . ونحن نسلم بالوحي منبثقاً من روح الله ، دون أن نعرف كيف . . . وإذا نقر بسلطان إلهى فى الانجيل ، فاننا نؤمن بأن المسيح بشر بهذا السلطان ، ونحن نقر بفضيلة فى سلوكه تفوق فضيلة البشر ، وبحكمته فى تعليمه تفوق حكمة البشر .

وأنكر الخطاب الثانى حق مجلس مدنى فى الحكم فى قضايا الدين (ناسيا العقد الاجتماعى) . وفى إدانة إميل انتهاك لمبدأ أساسى من مبادئ حركة الإصلاح البروتستنتى ، وهو حق الفرد فى أن يفسر الكتاب المقدس لنفسه^(٤٥) .

« لوبرهنتلى اليوم اننى فى مسائل الدين مضطر للاذعان لقرارات غيرى ، فسأتحول إلى الكاثوليكية غدا^(٤٦) » . وسلم روسو بأن دعاة الإصلاح البروتستنتى أصبحوا بدورهم مضطهدين للتفسير الفردى^(٤٧) . ولكن هذا لا يبطل المبدأ الذى لولاه لكانت ثورة البروتستنت على السلطة البابوية ظالمة . واتهم القساوسة الكلفنيين (باستثناء راعى) بأنهم اعتنقوا روح الكاثوليكية المتعصب ، ولو كانوا أوفياء لروح الإصلاح البروتستنتى لدافعوا عن حقه فى نشر تفسيره الخاص للكتاب المقدس . وجاد الآن بكلمة ثناء على رأى دالامبير فى قساوسة جنيف :

« أن أحد الفلاسفة يلتقى عليهم نظرة عجل ، ثم يتغلغل إلى أعماقهم ،

فيرى أنهم أربوسيون ، سوسينيون ، فيقول هذا ، وبحسب أنه بهذا القول يشرفهم ولكنه لا يدرك أنه يعرض مصالحهم الدنيوية للخطر ، وهو الأمر الوحيد الذى يقرر على العموم إيمان البشر فى هذه الدنيا (٤٨) .

وفى الخطاب الثالث تناول اتهامه برفض المعجزات . فنحن إن عرفنا المعجزة بأنها خرق لقوانين الطبيعة ، فلن نستطيع أبدا أن نعرف هل الشيء معجزة أم غير معجزة ، لأننا لانعرف كل قوانين الطبيعة (٤٩) . فحتى فى ذلك العصر كان كل يوم يشهد معجزة جديدة يحققها العلم ، لا تخالفاً بذلك قوانين الطبيعة ، بل بفضل معرفته بها معرفة أعظم .

كاف الأنبياء فى قديم الزمان يستنزلون النار من السماء بكلماتهم ، أما اليوم فالأطفال يفعلون هذا بقطعة صغيرة من الزجاج (المشتعل) . ان يشوع أوقف الشمس ، وأى واضع للتقاويم يستطيع الوعد بمثل هذه النتيجة إذا حسب كسوف الشمس (٥٠) . وكما أن الأوربين الذين يجرون عجائب كهذه بين الهمج يعدهم هؤلاء آلهة ، فكذلك معجزات الماضى — حتى معجزات المسيح — ربما كانت نتائج طبيعية فسرتها الجماهير خطأ بأنها تعطيلات إلهية للقانون الطبيعى (٥١) . ولعل لعازر الذى أقامه المسيح من بين الأموات لم يكن فى حقيقة الأمر ميتا . ثم ، كيف يمكن أن تثبت معجزات معلم صدق تعليمه ، إذا كان معلمو التعاليم المعتبرة عموما تعاليم كاذبة قد أجرو معجزات قيل إنها أيضاً حقيقية ، كما حدث حين بارى سحرة مصر هارون فى تحويل العصى إلى حيات ؟ (٥٢) . ان المسيح حذر من « المسحاء الكذبة » الذين يعطون آيات عظيمة وعجائب (٥٣) .

كان روسر قد بدأ خطابه بغير مساعدة المحتجين من رجال الطبقة الوسطى ، ولم يطلب توسيعا لحق الانتخاب فى اتجاه ديمقراطى ، لا بل انه فى الخطاب الرابع يلتم بالرائى بأن الارستقراطية المنتخبة هى خير أشكال الحكم ، وأكد لحكام جنيف أن المثل الأعلى الذى رسمه فى «العقد الاجتماعى» كان فى صميمه متفقاً مع الدستور الجنيفى (٥٤) . ولكن فى الخطاب السابع أخبر أصدقاءه من البورجوازية المنتجة أن الدستور لا يقر سيادة المواطنين

ذوى الحقوق الانتخابية إلا خلال الانتخابات للمجلس العام ومؤتمره السنوى ، أما فى باقى السنة فالمواطنون مجردون من السلطة . وفى تلك الفترة الطويلة كلها يكون مجلس الخمسة والعشرين الصغير هو الحكم الأعلى فى القوانين ، وفى مصير جميع الأفراد تبعاً لذلك ، والواقع أن المواطنين والبورجوازيين الذين يبدون أصحاب سيادة فى المجلس العام ، يصبحون بعد فضه عبيداً لسلطة استبدادية اسلموا بغير دفاع لرحمة خمسة وعشرين مستبداً^(٥٦) .

وكان هذا اقرب إلى الدعوة للثورة . ولكن روسو استنكر هذا الملجأ الأخير . ففي خطابه الأخير اثنى على البورجوازية باعتبارها اعقل طبقة فى الدولة ، واكثرها حباً للسلام ، محصورة بين طبقة اشراف غنية ظالمة ، وجمهير متوحشة غبية^(٥٧) . ولكنه نصح المحتجين بالصبر والمصابرة ، وبأن يركنوا إلى العدالة والزمن لينصفاهم من مظالمهم .

واعضبت « خطابات الجبل » هذه اعداء روسو وساءت اصدقاؤه . . وأزعجت هرطقاته القساوسة الجنيفيين ، وزادهم فزعاً لدعاؤه أنهم يشاطرونه أياها . فانقلب الآن فى عنف على القساوسة الكلفنيين ورماهم بأنهم « رعا عشاؤون ، بطانة غبية ، وذئاب مسعورة » . « وأعرب عن ليثاره للكهننة الكاثوليك البسطاء فى القرى والمدن الفرنسية^(٥٨) . ولم يستعن « المحتجون » بالخطابات فى حملتهم الناجحة لنيل المزيد من السلطة السياسية ؛ واعتبروا روسو حليفاً خطراً لا يركن إليه ، فاعتزم ألا يشارك بعدها بأى نصيب فى السياسة الجنيفية .

٤ — روسو وفولتير

كان قد تساءل فى الخطاب الخامس ، لم لم يوح « المسيو فولتير » الذى « طالما زاره » أعضاء المجلس الجنيفيون ، لهم « بروح التسامح تلك التى لابنى عن التبشير بها ، والتى يحتاج هو إليها أحياناً ؟ وأجرى على لسان فولتير حديثاً خيالياً^(٥٩) يهجد فيه حرية الكلام للفلاسفة بحجة أن قلة لا تذكر

هى التى تقرأ لهم . وكان تقليده لأسلوب فولتير الخفيف الرشيق بارعا . ولكنه صور حكيم فرنية معترفا بتأليفه لكتاب نشر حديثا اسمه « عظة الخمسين » وكان فولتير أنكر أبوته غير مرة لأنه زخر بالمرطقات . ولاندرى أكان كشف روسو للسّر متعمداً خبيثاً ؟ على أى حال هذا ما وآه فولتير ، وحنق منه أشد الحنق ، لأنه عرضه لإمكان طرده من فرنسا من جديد ، فى الوقت الذى كان مسقراً فيه فى فرنية .

وصاح حين قرأ الخطاب الواشى « ياللمجرم ! يا للوحش ! كان يجب أن أضربه بالنبوت — نعم ؛ سأمر بضربه بالنبوت فى جباله عند ركبتي مربيته ؛ » وقال متفرج « أرجو أن تهدى روعك ، لأنى أعلم أن روسو ينوى أن يزورك ، وسيكون فى فرنية قريباً جداً » .. وصاح فولتير وقد بدت عليه نية الأذى « آه ، فليأت فقط . »

« ولكن كيف ستستقبله ؟ »

« سأقدم له العشاء ، وأعطيه فراشى ، وأقول له « هالك عشاء طيبا ، وها هو أفضل فراش فى البيت ؛ فتفضل بقبول الأثنين وانعم بالسعادة هنا (٦١) » .

ولكن روسو لم يحضر . وثأر فولتير لنفسه بأصداره (٣١ ديسمبر ١٧٦٤) كتيباً بقلم مجهول ، سماه « عواطف المواطنين » هو لطفة من أشد اللطف التى تلوث خلقه ومهنته سوادا . ولا بد من نقل ماجاء به ليصدق القارىء :

« أننا نرثى للأحق ، ولكن حين تستحيل حماقته جنونا فأننا نوثق رباطه . ذلك أن التسامح — وهو فضيلة — يصبح عندها رذيلة لقد غفرنا لهذا الرجل رواياته ، التى آذى فيها اللياقة والحياء كما آذى المنطق السليم . وحين خلط الدين بقصصه ، أضطر قضائنا إلى محاكاة قضاة باريس وبرز واليوم ألا يفرغ الصبر حين ينشر كتابا جديداً يعتدى فيه إعتداء مجنوناً على الدين المسيحى ، وعلى الأصلاح البروتستنتى الذى يدعيه ، وعلى كل خدام الأنجيل المقدس وكل هيئات الدولة ؟ — إنه يقول بجلاء ، وباسمه

صراحة ، ليس فى الانجيل معجزات نستطيع أخذها حرفياً دون أن نطلق عقولنا

« أهو عالم يجادل العلماء ؟ لا . . . بل رجل مازال يحمل آثار فجوره الخزية . . . ويحرم معه من بلد إلى بلد ، ومن جيل إلى جيل ، المرأة التلسة التى كان سبباً فى موت أمها ، والتى ألقى باطفاها على باب مستشفى . . . جاحداً كل مشاعر الطبيعة ، كإنكاره لمشاعر الشرف والدين . . .

« أريد أن يطيح بدستورنا بتشويهه ، كما يريد أن يطيح بالمسيحية التى يدعيها ؟ يكفى أن ينذر بأن المدينة التى يزعمها تنكره فإذا ظن أنها تمتشق الحسام [أى تقوم بثورة] بسبب [لدانة] إميل ، فليصف هذه الفكرة إلى سخافات وحماقات . . ولكن يجب أن نخر بأننا إن ترفقنا فى عقاب رواية فاجرة ، فإننا سنفسو فى عقاب خائن لثيم^(٦١) .

وكان هذا الكلام فعلة مخزية لا يشفع لها غضب فولتير ولا أمراضه ولا شيخوخته ، (وكان الآن فى السبعين) .

لأعجب إذا كان روسولم يصدق قط (وحتى فى يومنا هذا لا نكاد نصدق) أن فولتير هو كاتبه ، بل نسبه إلى القس الجنيى فيرن ، الذى أكد عبثاً أنه ليس كاتبه . وأذاع روسو فى لحظة من أجمل لحظاته رداً على « العواطف » (يناير ١٧٦٥) :

« أريد أن أدلى ببساطة بالتصريح الذى يبدو أنه مطلوب منى بهذا المقال . فما من علة صغيرة أو كبيرة ، كما يدعى المؤلف ، قد لوثت قط جسدى . والعلة التى أصابتنى ليس هناك أدنى شبه بينها وبين تلك المشار إليها فقد ولدت معى ، ويعرف ذلك الذين رعونى فى طفولتى ، الباقون على قيد الحياة . وهى معروفة للسيدات مالوان ، وموران ، وتيرى ، وداران . . . فإذا وجدنا فى هذه العلة أقل أماراة من أمارات الفجور ، فأنى أرجوهم أن يلغنى ويفضحنى . والمرأة العاقلة التى يقدرها العالم ، والتى تعنى بى فى كوارثى . لا يشقىها إلا مشاطرتها لشقائى . أما أمها فهى فى

الواقع فياضة بالخيانة ، وفي صحة سابعه ، رغم شيخوختها [فقد نغرت إلى الثالثة والتسعين] . ولم ألق قط ، ولا تسببت في إلقاء أى أطفال على باب مستشنى ولا في أى مكان آخر . . . ولن أزيد . . اللهم إلا القول بأننى حين يحضرنى الموت أؤثر أن أكون قد ارتكبت ما يتهمنى به المؤلف ، عن أن أكون كاتب كتيب كهذا . (٦٢)

ومع أن تسليم روسو أطفاله للمجأ للقطاء (لا إلقاءهم في العراء بالضبط) كان موضوعاً يعرفه المقربون في باريس (فقد اغترف به للمرشالة لكسمبورج) ، فإن نشر فولتير كانت أول إفشاء على لهذا السر . وخامر جان — جاك الظن في أن مدام دينيه أفشته عند زيارتها لجنيف ، واقتنع الآن بأنها هى وجريم وديدرو كانوا يأترون لتشيويه سمعته . وقد هاجم جريم روسو في هذه الفترة غير مرة في « الرسائل الأدبية » (٦٣) . وفي خطابه المؤرخ ١٥ يناير ١٧٦٥ في معرض الحديث عن « خطابات من الجبل » أنضم إلى فولتير في اتهام روسو بالخيانة : « إن وجد في أى مكان على الأرض جريمة تدعى الخيانة العظمى ، فهى ولاريب في مهاجمة الدستور الأساسى لدولة بالأسلحة التى استخدمها روسو ليطيح بدستور وطنه » .

والشجار الطويل الذى نشب بين فولتير وروسو من أفجع اللطخ التى لوثت وجه حركة التنوير . لقد باعد بينهما مولدهما ومركزهما . ففولتير ، ابن الموثق الموسر ، تلقى تعليماً حسناً ، لاسيما في الدراسات القديمة ؛ أما روسو المولود في أسرة فقيرة وشبكة التفكك ، فلم يتلق أى تعليم نظامى ، ولم يرث أى تقليد كلاسيكى ، وقد قبل فولتير القواعد الأدبية التى وضعها بوالو — « أحب العقل ، ولتستق كل كتاباتك من العقل بهاءها وقيمتها » (٦٤) . أما في رأى روسو (كما في رأى فاوست وهو يغوى ما رجريت بروسو) فإن « الوجدان كل شئ » (٦٥) . وكان فولتير لا يقل عن جان — جاك حساسية وسرعة أنفعال ، ولكنه عادة كان يرى من سوء الأدب أن يترك الأنفعال يشوه فنه ، وقد اشتم في دعوة روسو للوجدان والغريزة لاعقلية فوضوية فردية تبدأ بالثورة وتنتهى بالدين . وقد شجب فولتير بسكال ، أما روسو

فردده كالصدى . وكان فولتير يعيش كما يعيش أصحاب الملايين ، أما روسو فكان ينسخ الموسيقى ليكسب قوته . وكان فولتير خلاصة كل لطائف المجتمع ، أما روسو فكان يشعر بالقلق في المجتمعات ، وكان أقل صبرا وأضيق صدرا من أن يحتفظ بصداقة صديق . وكان فولتير ابن باريس ، وريب مرحها وترفها ، أما روسو فكان طفل جنيف ، بورجوازي مكتئب ، وبيورتانيا يكره تمييز الطبقات الذى يجرحه ، وألوان البذخ التى لا قدرة له على الاستمتاع بها ، ودافع فولتير عن الترف لأنه يداول مال الإغنياء بتشغيل الفقراء ، أما روسو فادانه لأنه « يطعم مائة فقير في مدنا ويسبب هلاك مائة ألف في قرانا » (٦٦) وذهب فولتير إلى أن آثام الحاضرة ترجحها فنونها وما توفره من أنساب الراحة ، أما روسو فكان لا يشعر بالراحة في أى مكان ، ويندد بكل شيء تقريبا . وأصغى المصلحون إلى فولتير ، واستمع الثوار إلى روسو .

إن هوراس وليلول حين قال إن « هذه الدنيا ملهاة لمن يفكرون ، ومأساة لمن يشعرون » (٦٧) . أجمل في سطر واحد ، على غير قصد منه ؛ حياة أعظم عقليين من عقول القرن الثامن عشر تأثيرا في الناس .

٥ — بوزويل يلتقى بروسو

في رواية بوزويل لزيارات خمس قام بها لجان — جاك في ديسمبر ١٧٦٤ تصوير غاية في اللطف لروسو . فلقد أقسم ذلك المعجب الذى لامه رب منه عينا مغلظة (٢١ أكتوبر) أنه « لن يكلم ملحدًا ؛ ولن يتمتع بامرأة ؛ قبل أن يلقى روسو » (٦٨) وفي ٣ ديسمبر شد رحاله من نوشاتل إلى موتييه — ترافير . وحين بلغ برو في منتصف الطريق وقف بنزل وسأل ابنة صاحبه ماذا تعرف عن فريسته . وكان جوابها مقلقا :

« إن المسيو روسو يحضر هنا كثيرا ويمكث أياما مع مدبرة بيته ؛ الآنسة ليفاسير . وهو رجل لطيف جدا ؛ له وجه جميل ؛ ولكنه لا يجب أن يأق الناس ويحملوا فيه كأنه رجل له رأسان . باللهاء ! أن فضول

الناس لا يصدق ؛ أن كثيرين ؛ كثيرين يأتون لبروه ؛ وكثيراً ما يرفض لقيامهم . إنه مريض ؛ ويكره أن يزججه أحد (٦٩) » .

ولكن بوزويل واصل رحلته بالطبع . وفي موثيه نزل بفنلق القرية .

« وأعددت خطاباً لمسيو روسو أخبرته فيه أن سيداً أسكتلنديا عتيق الطراز في الرابعة والعشرين قدم بأمل لقائه . وأكدت له أنني جدير باحترامة . . . وفي خاتم خطابي بينت له أن لي قلباً وروحاً . . . والخطاب آية في بابه حقاً . وسأحتفظ به ما حييت برهاناً على أن في قدرة روحي أن تتسامى (٧٠) » .

وكان خطابه - الذي كتبه بالفرنسية - مزيجاً بارعاً من السداجة المتعمدة والأعجاب الذي لا يرد :

« إن كتاباتك يامسدي أذهبت قلبي . ورفعت روحي . وأهبت خيالي . صدقتني سيهيجك أن تلتقي بي . إيه ياسان - برو العزيز ! أيها المعلم المستنير ! أي روسو البليغ المحبوب ! يحدثنني قلبي بأن صداقة شريفة حقاً ستولد اليوم . . . لدى الكثير الذي أحدثك به . ومع أنني لست إلا شاباً فقد خبرت من الوان الحياة ما سيدهشك . . . ولكني أتوسل إليك أن تلقاني وحدك . . . ولا أدري هلا أفضل أن ألقاك إطلاقاً من أن ألقاك أول مرة في صحبة . وأني مترقب ردك بفارغ الصبر (٧١) » .

وأرسل له روسو كلمة يقول إن في استطاعته الحضور إذا تعهد بأن تكون زيارته قصيرة . وذهب بوزويل « مرتدياً سترة وصدرية قرمزية بدانتيللاً مذهبة ، وبنطلون ركوب من جلد الغزال ، ومنتعلاً حذاء طويلاً . وفوق ذلك كله لبست معطفاً كبيراً من وبر الجمل الأخضر المبطن بفراء الثعلب » . وفتحت تريز الباب « فتاة فرنسية قصيرة رشيدة أنيقة » . وقادته صعداً إلى روسو - رجل ظريف أسمر اللون في زي الأرمن . . . وسألته عن صحته فقال : « مريض جداً ولكني طلقت الأطباء » . وأعرب روسو عن إعجابه

بفردريك وازدراثة للفرنسيين - « شعب جدير بالاحتقار ، ولكنك ستجد نفوسا عظيمة في أسبانيا » . بوزويل : « وفي جبال اسكتلندة » . وقال روسو عن اللاهوتين أنهم « سادة يقدمون تفسيراً جديداً لشيء من الأشياء ويتركونه مغلقاً على الأفهام كما كان » . وناقشا أحوال كورسيكا ، وقال روسو أنه قد طلب إليه أن يشرع لها قوانين ، وبدأ بوزويل تحمسه الدائم لاستقلال كورسيكا . ثم صرفه روسو بعد قليل ، قائلاً أنه يود التمشي منفرداً .

وفي ٤ ديسمبر استأنف بوزويل الحصار . وتحدث معه روسو ملياً ، ثم صرفه : انك « تزعجني . هذا طبعي ولا حيلة لي فيه » . بوزويل : « ارفع الكلفة معي » . روسو « امضي » . وصحبت تيريزا بوزويل إلى الباب وقالت له « لقد عشت مع المسيوروسو اثنين وعشرين عاماً ، ولن أتخلي عن مكاني لأكون ملكة فرنسا . وأنا أحاول الانتفاع بالنصيحة الطيبة التي يسديها إلي . وإذا مات سأضطر إلى دخول الدبر^(٧١) »

وطرق بوزويل الباب مرة أخرى في ٥ ديسمبر . وتأوه روسو « ياسيدي العزيز ، يؤسفني عجزى عن التحدث إليك كما أشتى » بوزويل : نحى هذه الأعدار وأثار الحديث بقوله : لقد اعتنقت الكاثوليكية وأنوى الاختفاء في دير روسو بالحماقة ! . . بوزويل : « أخبرني بحق أأنت مسيحي ؟ » وقرع روسو صدره وأجاب : « نعم لأنني أعز بأني مسيحي . » بوزويل (الذي كان مصاباً بالاكثئاب) قل لي : هل تعاني من الاكثئاب ؟ روسو : لقد ولدت هادئاً ، وليس بي ميل طبيعي للاكثئاب . لقد أصابني به الكوارث التي حلت بي . بوزويل : ما رأيك في الأديار ، والكفارات ، والعلاجات التي من هذا النوع ؟ روسو : كلها سخافات . بوزويل : هل لك ياسيدي أن تضطلع بارشادي الروحي ؟ روسو : لا أستطيع . بوزويل : سأعود . روسو : لا أعد ببقائك . لأنني أعاني ألماً ، انني احتاج إلى مbole كل دقيقة (١٧٣) .

في عصر ذلك اليوم ، في بيت القرية كتب بوزويل في أربع عشرة

صفحةً جملاً لحياتي وبعث به إلى روسو . وقد اعترف فيه بحادث زنا أناه ، وسأل روسو ألا يزال في امكاني أن أجعل نفسي رجلاً ؟ وعاد إلى نوشاتل ، ولكنه كان يباب روسو مرة أخرى في ١٤ ديسمبر . وأخبرته تريز أن سيدها مريض جداً ، وأصر بوزويل ، واستقبله روسو « ووجدته جالساً وهو في غاية الآلم » . روسو : لقد غلبني العلل ، وخيبات الأمل ، والحزن . لأنني استعمل مجساً . كل إنسان يعتقد أن من واجبي أن أصغى له . . . عد في العصر . موزويل : ولم تظول زيارتي ؟ روسو : « ربيع ساعة ، لأكثر . بوزويل : عشرين دقيقة . روسو : هيا انصرف . ولكنه لم يمالك نفسه من الضحك .

وعاد موزويل في الرابعة وهو يحلم بلويس الخامس عشر . « إن الأخلاق تبدو لي أمراً غير يقيني . فأنا مثلاً أحب أن يكون لي ثلاثون امرأة . ألا أستطيع أن أشبع تلك الرغبة ؟ لا . ولكن انظر ، لو كنت غنيا لاستطعت أن اتخذ عدداً من الفتيات ، وأجبلهن ، وبهذا يزداد النسل . ثم أعطينهن مهوراً ، وأزوجهن لفلاحين طيبين سيسعدون جداً بالزواج منهن . وهكذا يصبحن زوجات في نفس السن التي كن يتزوجن فيها لو ظلن أبكاراً ، وأكون أنا من ناحيتي قد أفدت بالاستمتاع بعدد كبير من مختلف النساء * فلما لم يقع من نفس روسو هذا الفرض الملكي ، سأله « أخبرني من فضلك كيف أكفر عن الشر الذي ارتكبته ؟ وأجاب روسو جواباً ذهبياً « ليس هناك تكفير عن الشر إلى الخير ^(٧٤) . وطلب بوزويل إلى روسو أن يدعوه للغداء ، وقال روسو « غدا » وعاد بوزويل إلى الفندق ممتعشاً غاية الانتعاش .

وفي ١٥ ديسمبر تناول الطعام مع جان — جاك وتريز في المطبخ ، وقد وجده نظيفاً مشرقاً . وكان روسو رائق المزاج ، ولم تبد عليه علامات الاضطرابات العقلية التي ستظهر فيما بعد . وكان كلبه وقطته على وفاق مع بعضهما البعض ومعه . « ووضع بعض الطعام على صينية خشبية ، وجعل كلبه يرقص حوله وغنى روسو .. لحنا مرحاً بصوت

رخيم وذوق رفيع . وتحدث بوزويل في الدين .. « ان الكنيسة الانجليكانية أفضل المذاهب عندي . روسو : نعم ، ولكنها ليست الإنجيل . ألا تحب القديس بولس ؟ اننى احترمه ، ولكنى أحسبه مستولا إلى حد ما عما فى رأسك من اختلاط . لوعاش لكان قسيسا انجليكانيا .

الآنسة ليفاسير : أستلقى المسيو دفولتير يا سيدى ؟ بوزويل : بكل تأكيد . ثم إلى روسو : ان المسيو دفولتير لا يحبك . روسو : أن المرء لا يجب من أذاهم أذى شديداً . أن حديثه ممتع جداً ، لا بل إنه يفضل كتبه . وطال وزويل المكث فوق ما تتحمله الضيافة ، ولكن حين ودع « قبلنى روسو مرات ، وضمنى بين ذراعية بود رقيق » . فلما وصل بوزويل إلى الفندق قالت ربه سيدى : أظنك كنت تبكى . ويضيف إننى احتفظ بذكرى هذه الكلمات إطراء صادقا لإنسانيتى (٧٥) .

٦ - دستور لكورسيكا

بعد أن زار بوزويل فولتير فى فرنیه ، مضى فى رحلته إلى إيطاليا ونابلى وكورسيكا ، ربما بحث من روسو . وكانت كورسيكا بزعامة باسكالى دى باولى قد حورت نفسها من سيطرة جنوه (١٧٥٥) ورحب روسو فى « العقد الاجتماعى » من قبل بمولد الدولة الجديدة .

ما زال فى أوروبا بلد واحد مفتوح للمشروع . انه جزيرة كورسيكا . والبسالة والأصرار اللذان برهن بهما هذا الشعب الشجاع على قدرته على استرداد حريته والدفاع عنها يستحقان المعونة من انسان حكيم يعلمهم كيف يحتفظون بها . ونفسى تحدثنى بأن هذه الجزيرة الصغيرة سوف تدهش أوروبا يوما ما (٧٦) .

ولو أخذ رأى فولتير لرأى أن روسو آخر رجل فى أوروبا يصح دعوته للتشريع . ولكن الذى حدث أن جان - جاك تلقى فى ٣١ أغسطس ١٧٦٤ الخطاب الآتى من ماتيو بوتافوكو ، المبعوث الكورسيكى لدى فرنسا :

« لقد ذكرت كورسيكا ياسيدى فى « عقدك الاجتماعى » على نحو يتبه به وطننا . وهذا الثناء من قلم مخلص كل الإخلاص كقلمك . . أوحى بالرغبة القوية فى إنك يمكن أن تكون المشرع الحكيم الذى يعين الأمة على الحفاظ على الحريات التى إقنتها بدم كثير . وإنى إدرك بالطبع أن المهمة التى أجرؤ على الالتحاح عليك فى الأضطلاع بها تحتاج إلى معرفة خاصة بالتفاصيل ... ولكنك إن تفضلت أن تقبل المهمة فسأزودك بكل المعرفة الضرورية لإنارتك . وسبيل المسيو باولى . . . قصاراه ليرسل اليك من كورسيكا كل المعلومات التى قد تحتاج إليها . ويشاطرني رغبتى هذا الزعيم المرموق ، لابل جميع اخوانى المواطنين الذين أتيح لهم الإطلاع على أعمالك ، ويشاركونى مشاعر الاحترام التى تشعر بها أوربا كلها نحوك ، والتى أنت أهل لها لأسباب كثيرة جداً (٧٧) » .

ورد روسو (١٥ أكتوبر ١٧٦٤) بقبول المهمة ، وطلب تزويده بالمعلومات عن طبيعة الشعب الكورسيكى ، وتاريخه ، ومشاكله . واعترف بأن العمل قد يكون « فوق طاقتى وإن لم يكن فوق تمسسى » . ثم كتب إلى بوتافيوكو ، فى ٢٦ مايو ١٧٦٥ يقول : غير أنى أعدك أنه لن يكون لى إهتمام فيما بقى لى من أجل غير نفسى وكورسيكا ، وكل ماعدا ذلك من أمور ساقصية عن أفكارى (٧٨) . ثم عكف من فوره على وضع « مشروع دستور لكورسيكا » .

واقترح روسو فى مشروعه و « العقد الاجتماعى » فى ذاكرته ، أن يوقع كل مواطن على تعهد ملزم لا رجعة فيه بوضع نفسه - « جسدى وأملاكى وارادى ، وكل قدراتى » - تحت تصرف الأمة الكورسيكية (٧٩) . وحيا « الكورسيكيين البواسل » الذين ظفروا باستقلالهم ، ولكنه نههم إلى أن فيهم رزائل كثيرة - كالكسل ، وقطع الطريق ، والعداوات ، والوحشية - ومعظمها ناجم عن كراهيتهم لسادتهم الأجانب . وخير علاج لهذه الرزائل أن يعيشوا عيشة زراعية خالصة . وينبغى أن توفر القوانين كل إغراء للشعب ليلزم الأرض بدلا من التجمع فى المدن ، فالزراعة تعين على الخلق الفردى

والصحة القومية ، أما التجارة بأنواعها والمالية فتفتح الأبواب لكل ضروب الغش والاحتيال ، ويجب على الدولة ألا تشجعها . ويجب أن يكون السفر كله على الأقدام أو على ظهور الدواب ، وأن يكافأ الزواج المبكر والأسرة الكبيرة ؛ وأن تسقط المواطنة عن الرجال الذين يظلون عزابا إلى الأربعين . ويجب خفض الملكية الخاصة وزيادة ملكية الدولة . « بودى أن أرى الدولة المالك الوحيد ؛ ولا يصيب الفرد من ملكية المشتركة إلا بنسبة خدماته (٨٠) » ، وينبغي إلزام السكان بفلاحة أراضي الدولة إذا إقتضى الأمر ، وأن تشرف الحكومة على التعليم كله ، وعلى الآداب العامة كلها ؛ وأن تشكل الحكومة نفسها على غرار الولايات السويسرية (الكنتونات) .

وفي ١٧٦٨ اشترت فرنسا كورسيكا من جنوه ؛ وجردت عليها جيشا ؛ وعزلت باولى ، وأخضعت الجزيرة للقانون الفرنسى . وكف روسو عن المضى فى مشروعه ؛ وندد بالغزوة الفرنسية لأنها إنتهاك « لكل عدل ؛ وإنسانية ؛ وحق سياسى ، وتفكير سليم (٨١) » .

٧ - اللاجىء

ظل روسو عامين يحيا حياة متواضعة هادئة فى موتيبة ؛ يقرأ ؛ ويكتب ويرعى مرضه ، ويعانى من إصابة بعرق النسا (أكتوبر ١٧٦٤) ؛ ويحتفى بالزوار الذين تميزهم تريز بعد الفحص . وقد وصفه أحدهم وصف عارف بالجميل فقال :

« أنك لا تتصور أى سحر فى الاجتماع به ؛ ولا أى إدب صادق فى سلوكه ؛ ولا أى عمق من الهدوء والبشاشة فى حديثه . ألم تتوقع صورة مغايرة تماما لهذه الصورة ؛ وألم تصور لنفسك مخلوقا غريب الأطوار ؛ جادا دائما لا بل فظا أحيانا ؟ فيهاها من غلطة ! إنه يجمع إلى سمات اللطف الكثير نظرة من نار ؛ وعينين لم ير قط مثل لحيويتهما . فأذا تناولت موضوعا يهتم به ، تكلمت عيناه ، وشفته ، ويداه — وكل ما فيه . وأنت تخطىء كل الخطأ أن تصورته إنسانا لا يكف عن التذمر . فهو على النقض يضحك مع الضاحكين ويثرثر ويمزح مع الأطفال ؛ ويسخر من مديرة منزله (٨٢) » .

ولكن القساوسة المحليين كانوا قد اكتشفوا ما في « إميل » و« خطابات الجبل » من هرطقات ، ورأوها فضيحة أن يمضي هذا الوحش في تلوّث سويسرة بوجوده فيها . ورغبة في تهدئة ثائرتهم غرض (١٠ مارس ١٧٦٥) أن يتعهد ، في وثيقة رسمية « بالا ينشر أبداً أى كتاب جديد في أى موضوع ديني ، لا بل أن يتناوله عرضاً في أى كتاب جديد آخر . . . وأكثر من ذلك أننى سأظل شاهداً ، بمشاعري وسلوكي ، بالقيمة العظمى التي أعلقها على سعادة الاتحاد بالكنيسة^(٨٣) . وإستدعاه مجمع كنيسة نه شاتل للمثول أمامه والرد على تهم الهرطقة الموجهة إليه ، فالتمس إعفاهه : « يستحيل على رغم صدق نيتي أن أحتمل جلسة طويلة^(٨٤) وهو ما كان الحقيقة المؤلمة » . وانقلب عليه راعي كنيسته ، وندد به في مواعظ علنية متهاً أياه بأنه عدو المسيح^(٨٥) . وأهبت هجمات القساوسة شعب أيرشيلتهم ، فراح بعض القرويين يحصبون روسو إذا خرج للتمشى . وقرب نصف ليلة ٦ - ٧ سبتمبر أيقظته هو وتريز حجارة تقلد على جدرانها وتحطم نوافذها . وأحترق حجر كبير الزجاج وسقط عند قدمه . واستدعى جاره — وكان موظفاً في القرية — بعض الحراس لإنقاذه ، وتفرق الجمع ، ولكن إصديقاً روسو الباقي في موتيه نصحوه بأن يرحل المدينة :

وأته عدة عروض تقدم له الملجأ « ولكنى كنت متعلقاً بسويسرة تعلقاً منى من أن أصمم على الرحيل عنها مادام في إستطاعتي العيش فيها^(٨٦) » . وكان قد زار قبل عام « الإيل دسان — بيبير » ، الجزيرة الصغيرة الواقعة في وسط بحيرة بيبين ، ولم يكن على الجزيرة سوى بيت واحد — هو بيت الوكيل ، وخيل لروسو أن المكان بقعة مثالية لعاشق للعزلة يكرهه الناس . وكان يقع في كانتون برن التي طرده قبل عامين ، ولكنه تلقى تأكيدات غير رسمية بأن في إستطاعته الانتقال إلى الجزيرة دون أن يخشى الاعتقال^(٨٧) .

وهكذا ، حوالى منتصف سبتمبر ١٧٦٥ ؛ بغد ستة وعشرين شهراً في موتيه ، ترك هو وتريز المنزل الذي أصبح عزيزاً عليهما ، وذهبا للأقامة مع (م ٢٢ قصة الحصاره ج ٣٩)

أسرة الوكيل في مكان لا يتيح إنعزاله « لا للجمهور ولا لرجال الكنيسة تكديره^(٨٨) ». « ونخيل إلى أنني سأكون في تلك الجزيرة أشد إنعزالاً عن الناس وأن البشر سيكونون أسرع نسياناً لي^(٨٩) ». ورغبة في تغطية نققاته أعطى الناشر دويرو حق نشر كل كتبه ؛ « وجعلته مستودع جميع أوراقى ؛ بشرط صريح هو ألا يستعملها إلا بعد موتى ؛ لأن غاية أمانى كانت أن اختتم حياتى فى هدوء ؛ دون أن أفعل شيئاً يعيدنى مرة أخرى إلى ذاكرة الجماهير^(٩٠) ». وعرض عليه المارشال كيت معاشاً سنوياً قدره ألف ومائتا جنيه ؛ فوافق أن يأخذ نصفه . ودبر معاشاً آخر لتريز . واستقر معها على الجزيرة وهو لا يتوقع من الحياة شيئاً آخر . وكان الآن فى سنته الثالثة والخمسين .

وبعد ثلاثة عشر عاماً — فى آخر سنة فى عمره — ألف كتاباً من أروع كتبه اسمه « أحلام متجول وحيد » وصف فى بلاغة مخففة معيشته على جزيرة سان — بيير « كانت أول وأهم متعة أتوق إلى تذوقها بكل حلاوتها هى حياة الدعة اللذيذة^(٩١) » . وقد رأينا فى غير هذا الموضوع مبلغ إعجابه ببلينايوس ؛ أما الآن ، وفى يده أحد كتب عالم نبات سويدي ؛ فقد بدأ يعدد ويدرس النباتات التى وجدها على ملكه الصغير . أو كان إذا صحا الجوى يفعل كما يفعل تورو على بركة فولدن :

« كنت أرتدى وحيداً فى زورق أجذف به إلى وسط البحيرة حين يكون الماء هادئاً . هناك ؛ وأنا ممدد بطولى كله فى الزورق ؛ وعينائى إلى السماء كنت أترك نفسى للماء يحملنى هونا كما يشاء ؛ ساعات عدة أحياناً ، وأنا غارق فى مئات الأحلام المبهجة^(٩٢) » .

ولكن راحته لم تطل حتى على هذه المياه . ذلك أن مجلس شيوخ برن أمره فى ١٧ أكتوبر ١٧٦٥ بأن يرحل عن الجزيرة والمقاطعة خلال خمسة عشر يوماً . وغلبته الحيرة والهزيمة « فالتدابير التى كنت قد اتخذتها تأميناً لموافقة الحكومة الضمنية ، والهدوء الذى تركت فيه لأستقر ، وزيارات العديدين

من أهل برن لى» ، كل هذا حدا به إلى الاعتقاد بأنه الآن فى مأمن من الازعاج والمطاردة . والتمس من مجلس الشيوخ شيئا من التفسير والتأجيل ، واقترح بديلا يائسا لحكم النفى :

« لست أرى لى غير سبيل واحد ، ومهما بدا رهيباً ، فالى سأأخذ
لا حول نفور فحسب ، بل برغبة شديدة إذا تفضل أصحاب السعادة بالموافقة .
وذلك لأننى إن طاب لهم سأقضى مابقى لى من أجل بعيننا فى إحدى قلاعهم ،
أو فى أى مكان آخر فى ضياعهم يرون اختياره . وسأعيش فيه على نفقتى ،
وسأقدم ضمانا بالا أكلفهم أى نفقة . وأقبل لإأجل ورقا أو قلما ، أو أكون
على اتصال بأى إنسان فى الخارج . فقط اسمحوا لى ، مع بعض الكتب ،
بالاحتفاظ بحرية المشى بين الحين والحين فى حديقة ، وسيرضينى هذا .

أكان ذلك ايلانا بأنهيأ عقله ؟ أنه يؤكد لنا عكس هذا :

« لا تظنوا أن وسيلة تبدو بهذا العنف هى ثمرة اليأس . فعقلى فى تمام
الهدوء فى هذه اللحظة . وقد ترويت فى إتخاذ قرارى ، ولم أنته إليه إلا بعد
تفكير عميق . وأرجو أن تلاحظوا أنه إذا بدا هذا قرارا شاذا فإن وضعى
أكثر شذوذا . فالحياة المضطربة التى أكرهت على أن أحيها سنوات عديدة
دون انقطاع ، خليقة بتعذيب رجل موفور العافية ، فبالكم بعليل تعس براه
التعب وسؤ الحظ ، ولم يعد له الآن من أمنية إلا أن يموت فى هدوء
وسلام (٩٢) » .

وكان رد برن أن أمرته بالرحيل عن الجزيرة وعن كل إقليم برن خلال
أربع وعشرين ساعة (٩٤) .

فالى أين يمضى ؟ كان لديه دعوات إلى بوتسدام من فردريك ، وإلى
كورسيكا من باولى ، وإلى اللورين من سان - لامير ، وإلى امستر دام من
ناشره رى ، وإلى إنجلترا من ديفد هيوم . ففى ٢٢ أكتوبر كتب إليه هيوم
الذى كان يومها سكرتيرا للسفارة البريطانية فى باريس يقول :

« أن عمحك العجيبة التى لم يسمع بمثلا ، فضلا عن فضيلتك وعبترتك

لا بد أن تثير عواطف كل إنسان فينحاز إليك ، ولكني أجعل نفسي بأنك
واحد في إنجلترا أماناً مطلقاً من كل اضطهاد ، لا بفضل ما تمتاز به قوانيننا
من روح سمحة فحسب ، بل بفضل الاحترام الذي يكرمه كل الناس هناك
لشخصيتك (٩٥) .

وفي ٢٦ أكتوبر غادر ووسو جزيرة سان - بيير ورتب أن تظل تريز
جينا في سويسرة ، ورحل هو إلى ستراسبورج ، ومكث فيها شهراً كاملاً
دون أن يستقر على رأى . وأخيراً قرر أن يقبل دعوة هيوم إلى إنجلترا ،
ومنحته الحكومة الفرنسية جوازاً بالحضور إلى باريس . هناك التقى به هيوم
أول لقاء ، وما لبث أن شغف به ، وتحدثت باريس كلها عن عودة للنفي .
وكتب هيوم يقول « محال وصف أو تصور تحمس هذه الأمة لروسو . . .
فلم يظفر شخص قط بمثل ما ظفر به من اهتمام القوم . . . لقد حجب بهاء
فولتير وسواه حجباً تاماً (٩٦) » .

ولكن الصداقة الوليدة أصيبت بصدع في المهد ومن العسير هنا أن نحدد
الحقائق بدقة أو نرويها دون تحيز : ففي أول يناير ١٧٦٦ أرسل جريم إلى
قرائه التقرير الآتي :

دخل جان - جاك روسو باريس في ١٧ ديسمبر ، وفي الغد تمشى في
حدائق اللكسومبرج وهو يرتدى زيه الأرمني ، ولما لم ينبه أحد إلى الأمر فإن
احداً لم ينتفع بالمشهد . وقد أسكنه الأمير كوتى في التامبل حيث يعقد الأرمني
المذكور بلاطه كل يوم . كذلك يتمشى يومياً في ساعة معينة في الشوارع الكبيرة
القريبة من مسكنه (*) . وها هو ذا خطاب تداولته الأيدي في باريس خلال
مكثه هنا ، وقد لقي نجاحاً كبيراً (٩٨) .

وهنا نقل جريم خطاباً زعم أن روسو تلقاه من فردريك الأكبر . وكان

(*) قارن خطاب روسو لصديقة دلوز : « وددت لو استطعت الخروج
وزيارتك ، ولكني مضطر لرجائك أن تحضر أنت إلى تحاشيا للإعلان عن
قلنسوتي الارمنية في الشوارع » .

قد زيفه على روسو هوراس وليول . ولنندع وليول نفسه يتحدث عنه في خطاب له إلى ه . س كونواى فى ١٢ يناير ١٧٦٦ .

و أن الفضل فى شهرقى الراهنة لتأليف تافه جداً ، ولكنه أثار ضجة لا تصدق . ذلك لأننى كنت ذات مساء فى بيت مدام جوفران أسخر من ادعاءات روسو وتناقضاته ، وقلت لإشياء أضحكهم . فلما عدت إلى البيت دونها فى خطاب ، وأريته فى الغد لهلفيتيوس ودوق نفرنوا ، وقد سرا به كثيراً حتى لإنهما ، بعد الإشارة على بعض الأخطاء اللغوية شجعانى على اطلاع الناس عليه . وأنا كما تعلم بطيب لى أن اهزأ بالدجالين سواء السياسيين منهم أو الأدباء مهما عظم قدر مواهبهم ، لذلك لم أنكر الفكرة . وسرت النسخ مسرى النار ، وهأنذا «أصبحت موضوعة et me voici à la mode وإليك الخطاب (وهو مترجم حرفياً عن فرنسية وليول) :

ملك بروسيا إلى مسيو روسو عزيزى جان — جاك

لقد لفظت جنيف وطنك ، لقد جعلتهم يطاردونك من سويسرة ، البلد الذى أطرية كثيراً فى كتاباتك ، وقد أصدرت فرنسا أمراً باعتقالك . فتعال إلى إذن ، فأنا معجب بمواهبك ، وتمتعى أحلامك ، وهى (بهذه المناسبة) تشغلك فوق ما ينبغى وأطول مما ينبغى . وعليك أن تكون فى النهاية حكماً وسديداً . لقد أثرت ما يكفى من الاقاويل بسبب غرائب لاتلىق برجل عظيم بحق . فأثبت لخصومك أن فى استطاعتك أحياناً أن تكون معقولا ، فمن شأن هذا أن يغيظهم دون أن يؤذيك . إن بلادى تقدم لك معتكفا هادئا ، ولأننى أرجو لك الخير ، وأحب أن أساعدك إذا استطعت أن تستطيع مقامك . أما إذا واصلت رفض معونتى ، فتأكد أننى لن أخبر أحدا بالأمر . وإذا اصررت على إجهاد نفسك لتجد نكبات جديدة ، فأختر ما يحلو لك منها ، فأنا ملك ، وفى استطاعتى أن أحصل لك منها على مايلبى رغباتك ، وسأكف عن اضطهادك حين تكف عن أن تجد فخرك فى أن تضطهد — وهو بالتأكيد ما لن يحدث لك أبدا بين خصومك .

صديقك المخلص فردريك (٩٩)

أما وليول فلم يحدث له أن التقى بروسو قط . ولم يجد عقله الرفيع الثقافة ، وقرأه الموروث معنى في كتابات روسو . وقد عرف عيوب روسو وخفاقاته من حفلات عشاء مدام جوفران ، حيث كان يلتقى ديدرو وجريم . وأغلب الظن أنه لم يدرك أن روسو الحساس إلى درجة العصاب ، قد دفعته إلى مشارف الأنهيـار العقلي سلسلة من الخادلات والضيقات . ولو كان وليول على علم بهذا حقا لكانت دعابته قاسية قسوة شائنة . على أننا ينبغي أن نضيف أنه حين طلب هيوم رأيه في إيجاد معتكف لروسو في إنجلترا ، تعهد وليول بأن يمد الطريق بكل ضروب المعونة^(١٠٠) .

أكان هيوم على علم بهذا الخطاب ؟ يبدو أنه كان موجودا بيت مدام جوفران حين لفق أول الأمر ، وقد لطم بأنه « شارك » في تحريره^(١٠١) . وقد كتب إلى المركيزة دبارنتان في ١٦ فبراير ١٧٦٦ :

« إن الدعابة الوحيدة التي سمحت بها لنفسى في أمر خطاب ملك بروسيا المزعوم كانت على مائدة عشاء اللورد أوسورى^(١٠٢) » . وفي ٣ يناير ١٧٦٦ قام هيوم بزيارة وداع لضيوف البارون دولباخ وأخبرهم بآماله في إنقاذ « الرجل القصير القامة » من الأضطهاد وتوفير أسباب السعادة له في إنجلترا . أما دولباخ فتشكك قائلا يوسفنى أن ابدد الآمال والأوهام التي تخدعك ، ولكنى أقول لك إنه لن يمضى طويل زمن حتى ينقشع عنك الوهم بصورة محزنة . إنك لا تعرف صاحبك ، وأصارك بأنك تحتضن ثعبانا في صدرك^(١٠٣) » .

وفي صباح الغد غادر باريس إلى كالية في مركبتي اجرة هيوم وروسو مع جان — جاك دلوـز وسـلطان كـلب روسو . ودفع روسو نفقاته بعد أن رفض عروض هيوم ومدام دهبوفليه ، ومدام دفرديلان بمده بالمال . فلما بلغوا دوفر (١٠ يناير) عانت روسو هيوم ، وشكره لأنه أتى به إلى بلد تسوده الحرية .

٨ - روسو في إنجلترا

وصلوا إلى لندن في ١٣ يناير ١٧٦٦ ولاحظ المارة زى روسو - قلنسوته الفراء ، وروبه الارجوانى ، وحزامه ، وأوضح لهيوم أنه يشكو مرضا يجعل سراويل الركوب القصيرة غير مريحة له^(١٠٤) . واقنع هيوم صديقه كوفواى بأن يقترح معاشاً للغريب الكبير ، ووافق جورج الثالث على منحه مائة جنيه في العام ، وأبدى رغبة في أن يلقي عليه نظرة سريعة بصفة غير رسمية . وحجز جاريك لروسو وهيوم مقصورة في مسرح درورى لين في مواجهة المقصورة الملكية في ليلة تقرر فيها حضور الملك والمملكة . ولكن حين زار هيوم روسو لقي عنقا شديدا في اقناعه بأن يترك كلبه الذى مزق نباحه بسبب حبسه قلب الغريب المنفى . وأخيرا « إحتويت روسو بين ذراعى و حملة على المسير في شىء من الإكراه^(١٠٥) » . وبعد الحفل دعى جاريك روسو إلى عشاء لثكريمة وهنأ روسو على تمثيله : « سيدى ، لقد جعلتنى اذرف الدموع على مأساتك ، وأبدسم للمهالك ، مع مع أننى لم أكد أفهم كلمة من لغتك » .

وإلى هنا كان هيوم على الجملة مسرورا غاية السرور بضيفه . وكتب إلى مدام دباربنتان بعد وصوله إلى لندن بعايل يقول :

سألتنى رأيي في جان - جاك روسو . وأنى بعد أن راقبته في جميع النواحي أصرح بأننى لم أعرف رجلا أكثر منه لطفًا ولا أكرم خلقا . فهو رقيق ، متواضع ، ودود ، نزيه ، مرهف الحس ، فإذا بحثت عن عيوب فيه لم أجد سوى قلة صبر مفرطة ، وميل لاحتضان شبها ظالمة في خير أصدقائه أما عن نفسى فبودى لو أمضيت حياتى في صحبته دون أن يكدر علاقتنا مكدر . أن فى سلوكه بساطة عجيبة . وهو فى الأمور العادية طفل بمعنى الكلمة . وهذا من شأنه أن يسهل . . . لمن يعيشون معه أن يسوسوه^(١٠٦) » .

ثم يقول : « إن له قلبا حارا ممتازا ، وفى الحديث كثيرا ما تشتد حماسته

إلى ما يشبه الالهام . وإني أحبه حباً جما وأرجو أن يكون لى فى وده نصيب . . . لقد تنبأ لى فلاسفة باريس لأننى لن أستطيع اصطحابه إلى كاليه دون شجار ، ولكنى أحسبى قادراً على العيش معه طوال حياتى فى صداقة وتقدير متبادلين . وأعتقد أن من أكبر أسباب انسجامنا أن كليتنا لا يجب الجدل ، وهذا ليس حالهم . ويسؤهم منه أيضاً ظنهم أنه مغال فى الدين ؛ ومن الغريب حقاً أن يكون فيلسوف هذا الجيل ، الذى لقنى أشد اضطهاد أكثرهم تديناً (١٠٧) . . . أن به شوقاً إلى الكتاب المقدس ، وهو فى الحق أفضل من المسيحيين قليلاً (١٠٨) .

على أنه كان هناك صعوبات . ففى لندن ، كما فى باريس ، توافد النبلاء والنبيلات ، والمؤلفون والنواب على بيت السيدة آدمز فى شارع بكنجهام ، حيث أسكن هيوم روسو . وسرعان ما ضاق بهذه الحمايلات ، ورجا هيوم أن يجد له بيتاً بعيداً عن لندن . وجاء عرض بالعباية به فى دير ولزى ، فأراد أن يقبله ، ولكن هيوم اقنعه بأن يسكن مع بدال فى تشيزيك على التيمز على ستة أميال من لندن . فانتقل إلى هذا المنزل روسو وسلمان فى ١٨ يناير وأرسل الآن فى طلب تريز ، وأزعج مضيفه وهيوم باصراره على وجوب السماح لها بالجلوس إلى المائدة معه . وشكا هيوم فى خطاب إلى مدام دبوفايه .

« إن مسيو دلوز.. يقول أن الناس يرونها شريرة محبة للشجار والثروة ، ويفظنون أنها أهم سبب فى رحيله عن نوشاتيل (موتيه) . وهو نفسه يعترف أنها من الغباء بحيث لاتعرف فى أى سنة ميلادية نحن ولأى أى شهر من السنة ، ولأى فى أى يوم من الشهر أو الأسبوع ، وأنها لاتستطيع أن تتعلم أبدا القيم المختلفة للعملة فى أى بلد . ومع ذلك فهى تحكمه حكماً مطلقاً كما تحكم المربية طفلاً . وقد اكتسب كلبه هذه السيادة فى غيابها ، فحببه لهذا المخلوق يفوق كل تعبير أو تصور (١٠٩) .

ووصلت تريز خلال ذلك إلى باريس فاستقبلها بوزويل وتطوع باصطحابها إلى إنجلترا . وفى ١٢ فبراير كتب هيوم إلى مدام دبوفايه

يقول « جاءنى خطاب فهمت منه أن الآنسة مسافرة على جناح السرعة في صحبة صديق لى ، وهو شاب فى غاية الطيبة ، وفى غاية اللطف ، وفى غاية الجنون . . وبه من الولع بالأدب ما يجعلنى أتوجس من حدث مؤذ لشرف صديقنا^(١١٠) . وقد ادعى بوزويل أنه برر هذا الإحساس السابق . وقد جاء فى صفحات فى يوميته ، تالفة الآن^(١١١) ، أنه شارك تريز فراشها فى نزل ثانى ليلة بعد رحيلهما عن باريس . ثم لىالى عديدة بعدها . ووصلا إلى دوفر باكرا فى ١١ فبراير . وتقول اليومية : « الأربعاء ١٢ فبراير . ذهبت صباح أمس إلى الفراش مبكرا جدا ، وفعلتها مرة ، والجملة ثلاث عشرة . كنت فى الحق محبا لها . وفى الثانية بعد الظهر قنا فى رحلتنا . فى ذلك المساء صحب تريز إلى هيوم بلندن ووعدها بأنه « لن يذكر علاقتهما الغرامية حتى مماتها أو ممات الفيلسوف . »

وفى المرة الثالثة عشرة أسلمها إلى روسو . ولقيها بقبلات كثيرة . . وقد بدا فى حال من الشيخوخة والضعف حتى « إنك (بوزويل) لم يعد فىك حاسة له^(١١٣) طبعاً . »

وفى تشيزيك ، كما فى موتيه ، تلقى روسو من البريد أكثر مما أراد ، وشكا من نفقات البريد التى كان عليه أن يدفعها . وذات يوم ، حين جاءه هيوم بـ « شحنة » من لندن ، رفض تسلمها ، وطلب اليه أن يردّها إلى مكتب البريد . ونبهه هيوم أن موظفى البريد فى هذه الحالة سيفتجونه لخطابات المرفوضة ويطلعون على أسرارهم . وتطوع الاسكتلندى الصبور بأن يفتح ما يرد من رسائل روسو إلى لندن ولألا يأتية إلا بمساراه هاما منها . ووافق جان - جاك ، ولكنه سرعان ما توجس شرا من عبث هيوم ببريده .

وأنته دعوات للغداء ، شاملة للآنسة ليفاسير عادة ، من الأحيان فى لندن فاعتذر روسو من قبولها بحجة مرضه ولكن السيب على الأرجح هو كرهه إظهار تريز أمام عليّة القوم . وكان يبدى رغبته فى الانزواء فى أعماق الريف . فلما سمع رتشر ديفنيورت برغبته هذه من جاريك ،

عرض عليه بيتا في ووتن بداربيشير على ١٥٠ ميلا من لندن . فقبله روسو مغتبطا . وأرسل ديفنبوت مركبة تنقله هو وتريز ، وشكا روسو من أنه يعامل معاملة المتسولين ، وأردف قائلا لهيوم « ان كانت هذه حقا حيلة من حيل ديفنبورت ، زانت عليم بها موافق عليها ، وما كان في امكانك أن تسيء إلى بأكثر من هذا » . وبعد ساعة (كما يقول هيوم) ، جلس فجأة على ركبتى ، وطوق عنقى بيديه ، وقبلنى بكل حرارة ثم قال وهو يبلل وجهى كله بالدموع : « أمممكن أن تصفح عنى يا صديقى العزيز ؟ اننى بعد جميع دلائل الود التى تلقيتها منك ، أجازيك ' النهاية بهذه الحماقة وهذا المسلك السيء . ولكن لى رغم ذلك قلبا جديرا بصداقتك ، وأنا أحبك وأقدرك ، ولم تضع على سدى أقل مكرمة من مكرماتك » فقبلته وعانقته عشرين مرة بفيض من الدمع (١١٣) .

وفى الغد ٢٢ مارس انطلق جان --- جالك وتريز قاصدين ووتن ، فلم يرها قط بعدها . ولم يلبث هيوم أن كتب إلى هيوبلير تحليلا بصيرا بحالة روسو وخلقه .

كان مصحما تصميم البائس على الاندفاع إلى هذه العزلة رغم كل اعتراضاتى ، وأنا أتوقع أنه سيكون تعسا فى موقفه ذاك كما كان فى الواقع تعسا فى جميع المواقف . فسيكون محروما تماما من أى شغل يشغله ، ومن الأصحاب ومن أى تسلية من أى نوع تقريبا . لقد قرأ أقل القليل فى حياته ، وطلق الآن كل قراءاته طلاقا بائنا ، ولقد رأى أقل القليل من الدنيا وليس به أى فضول ليرى أو يلاحظ . والواقع أنه لا يملك الكثير من المعرفة ، وكل ما فعله طوال حياته أنه أحس فقط ، واحساسه فى هذه الناحية مرهف إلى حد لا أعرف له مثيلا ، ولكنه مع ذلك يشعره بالألم بأحد مما يشعره باللذة ، وما أشبهه برجل لم تنزع عنه ثيابه فحسب ، بل جلده أيضا . ثم دفع به فى ذلك الموقف ليصارع قوى الطبيعة الغاشمة الصاخبة التى تلم على الدوام بهذا العالم الأسفل (١١٤) .

ووصل روسو وتريز إلى ووتن في ٢٩ مارس . وراقه البيت الجديد لأول وهلة . فوصفه في خطاب لصديق بنوشاتل : « بيت منززل ، ليس واسعا جدا ولكنه مناسبا جدا ، شيد في منتصف الطريق على جانب واد ، وأمامه « أبداع مخضرة في الوجود » ومشهد طبيعي من مروج ، وأشجار ، ومزارع متفرقة ، وعلى مقربة منه طرق للتنزه على ضفاف غدير . وفي أسوأ الأجواء أخرج في هدوء لجمع النباتات^(١١٥) » . وكان آل ديفنبورت يشغلن قسما من البيت حين يلмон به ، وبقي به خدمهم ليعنوا بالفيلسوف و « مديرة بيته » ، وأصر روسو على أن يؤدي لديفنبورت ثلاثين جنيها في العام نظير الأجرة والخدمة .

ولم تعمر سعادته أكثر من أسبوع ، ففي ٣ إبريل نشرت مجلة لندنية تسمى « سانت جيمس كرونكل » بالفرنسية والانجليزية خطاب فردريك الأكبر المزعوم إلى روسو ، دون إشارة إلى كتابه الحقيقي ، وحز الأمر في نفس جان — جاك حين نعى إليه الخبر ، وزاد من ألمه أن محرر المجلة وهو وليم ستراهان كان صديقا قديما لهيوم ، يضاف إلى هذا ان نغمة الصحف البريطانية في حديثها عن روسو تغيرت تغيرا واضحا منذ برح تشريك : فكثرت المقالات التي انتقدت الفيلسوف الغريب الأطوار ، واحتوى بعضها على أشياء اعتقد أن هيوم وحده هو الذي يعرفها ، ويمكن أن يزود بها الصحف ، على أي حال شعر أن واجب هيوم كان يقتضيه أن يكتب شيئا للدفاع عن ضيفه الأسبق ، وسمع أن الاسكتلندي كان يسكن بلندن البيت الذي يسكنه فرانسوا ترونشان : ابن عدو جان — جاك في جنيف ، وأغلب الظن أن هيوم كان الآن على علم تام بنقائص روسو .

وفي ٢٤ إبريل كتب روسو إلى سانت جيمس كرونكل ما يأتي :

« لقد عدوت ياسيدي على الاحترام الذين يدين به كل فرد للملك بأن نسبت علنا إلى ملك بروسيا خطابا إمتلا مبالغة وغلا ، وكان يجب بناء عليه أن تعرف إنه ما كان يمكن أن يصدر عنه . لا بل إنك جرؤت على نقل

توقيفه كانك رأيته مكتوباً بيده . وإلى أخبرك يا سيدى أن هذا الخطاب زيف فى باريس ، ومما يخزننى ويمزق قلبى أن المحتال الذى كتب له شركاء ضالعون معه فى انجلترا . وواجبك نحو ملك بروسيا ، ونحو الحقيقة ، ونحوى أيضاً ، يقتضيك أن تنشر خطابى هذا ، الموقع بامضائى ، تصحيحاً لخطأ لا شك إنك كنت تلوم نفسك على ارتكابه لو علمت أى مؤامرة خبيثة سخرت لها . وأنى أقدم لك خالص تحيى .

جان — جاك روسو^(١١٦)

وفى وسعنا الآن أن نفهم لم ظن روسو أن هناك « مؤامرة » عليه . فمن غير خصومة القدامى ، فولتير ، وديدرو ، وجريم ، وغيرهم من نجوم التنوير ، يمكن أن يدبروا هذا التغير الفجائى فى لهجة الصحف البريطانية من الترحيب والتكريم إلى الهزاء والتحقير ؟ وفى نحو هذه الفترة نشر فولتير « خطاباً إلى الدكتور ج . ج . يانسوف ، غفلاً من أسمه ، أعاد فيه ذكر الأشارات المؤذية للشعب الانجليزى فى كتابات جان — جاك — كقولهم ليسوا فى الحقيقة أحراراً ، وأنهم شديداً الولع بالمال ، وأنهم ليسوا بطبيعتهم طيبين . واعدى نشر أكثر الفقرات ابداء فى كتيب فولتير فى دورية لندنية تسمى (للويدز ايفننج نيوز^(١١٧)) .

وفى ٩ مايو كتب روسو إلى كونواى يطلب اليه وقف المعاش الذى يمنح له مؤقتاً . والح عليه هيوم فى قبوله . فرد عليه روسو بأنه لا يستطيع قبول أى امتياز يأتيه من وساطة هيوم . وطالبه هيوم بالتفسير . ويبدو أن روسو قد انتقل الآن إلى حالة من الشك والغيب . وفى ١٠ يوليو بعث إلى هيوم بخطاب من ثمانى عشرة صفحة من القطع الكبير ، لا يسمح طوله المفرط بنقله هنا كاملاً ، ولكنه من الأهمية البالغة لهذا الشجار الأشهر بحيث يقتضينا الأمر أن نذكر بعض فقراته الرئيسية : « اننى مريض يا سيدى ، وليس بى كبير ميل للكتابة ، ولكن بما أنك طلبت التفسير ، فلا بد من تقديمه لك

«أنتى أعيش خارج العالم ، واجهل الكثير مما يدور فيه . . . ولا أعرف
إلا ما اشعر به .»

« انك تسألنى فى جرأة من هو الذى يهتمك ؟ انه يا سيدى الرجل
الوحيد فى العالم كله الذى . . . أود تصديقه ، انه انت . . . وإذا اشير
إلى ديفد هيوم بشخص الغائب ، فأتى جاعلك الحكم فيما ينبغى أن يكون
رأى فيه . »

واعترف روسو فى إسهاب بافضال هيوم ، ولكنه ازدف :

«أما إذا تحريت عن الخير الحقيقى الذى صنعته لى ، فان هذه الخدمات
ظاهرية أكثر منها جوهرية ، . . . فأنا لم أكن نكرة تماما بحيث اننى
لو وصلت وحيدا ، لما لقيت عوناً ولا مشورة .. وإذا كان مستر ديفنبورت
قد تفضل باعطائى هذا المسكن فهو لم يفعل ذلك لإرضاء مستمر هيوم الذى
لم يكن يعرفه . . . وكل الخير الذى أصابنى هنا كان يصيبنى بالطريقة ذاتها
بدونه (هيوم) ولكل الشر الذى أصابنى ما كان يقع لى . إذ لم يكون لى
أعداء فى إنجلترا ؟ وكيف يؤتمتفق أن يكون هؤلاء الأعداء بالضبط أصدقاء
لمستر هيوم ؟

« وقد نمى إلى أيضاً ان ابن المشعوذ ترونشان ، ألد خصومى ، لم
يكن فقط صديق مستمر هيوم بل محسوبة أيضاً ، وانهما يسكنان معا

« وكل هذه الحقائق مجتمعة تركت فى انطباعا جعلنى قلقاً . . . وفى
الوقت نفسه لم تصل الخطابات التى كتبتها لى وجهتها ، وتلك التى تلقيتها
كانت مفتوحة ؟ وهذه كلها تناولتها يد مستر هيوم .

« ولكن ما الذى حدث لى حين رأيت خطاب ملك بروسيا المزعوم
منشورا فى الصحف العامة ؟ . . . لقد كشف لى شعاع من النور ، سر ما طرأ
على اتجاه الشعب البريطانى نحوى من تغير فجأتى إلى حد مذهل ؟ ورأيت
فى باريس مركز المؤامرة التى تنفذ فى لندن . . . فحين نشر هذا الخطاب

المزعوم في لندن لم ينيس مستر هيوم بينت شفة ، ولا كتب لي شيئا ،
وهو العليم ولا ريب بأنه خطاب زائف

« لم يبق لي غير كلمة واحدة أقولها لك . إن كنت مذنباً فلا تكتب
إلي ، إذ لا جدوى من الكتابة ، وثق انك لن تخدعني . ولكن ان كنت
برئياً فتفضل بتبرير نفسك . . وإلا فودعا إلى الأبد » (١١٨) .

وكان رد هيوم موجزا (٢٢ يوليو ١٧٦٦) ولم يجب عن التهم ،
لأنه خلص إلى أن روسو مشرف على الجنون . وكتب إلى ديفنبورت يقول
ان جاز لي ان ابدل النصيح فهو أن تمضي فيما بدأت من حسنة حتى يحبس
كلبه في مستشفى المجاذيب (١١٩) ... فلما سمع ان روسو ندب به في خطابات
أرسلها إلى باريس (كخطابه إلى الكونتيسة دبولفيه في ٩ ابريل ١٧٦٦) ،
بعث إلى دبولفيه صورة من خطاب جان - جاك الطويل . فردت على
هيوم بما يلي :

« ان خطاب روسو فظيع ، انه مبالغ جدا ولا عذر له فيه اطلاقا ...
ولكن لا تحتسبه قادرا على الكذب أو الخداع ، ولا تتصور انه دجال أو وغد ،
ان غضبه بلا مبرر حق ، ولكنه غضب مخلص ، وليس لدى في هذا
أى شك ...

« واليك ما اتصوره السبب فيه . لقد سمعتهم يقولون ، ولعله أخير ،
انك صاحب عبارة من خير ما ورد في خطاب مستر ولبول - وانك قلت
مازحا واذت تتحدث باسم ملك بروسيا « ان شئت الاضطهاد ، فأنا ملك ،
وأستطيع اضطهادهم نيابة عنك بأى نوع تريد » وأن مستر ولبول . . .
قال انك صاحب هذه العبارة . فان صح هذا ، وعلم به روسو ، فهل
تعجب ان يثور سخطه . . . وهو المرهف الحس ، الغضوب ، السوداوى
المزاج ، المتكبر » (١٢٠) .

وفي ٢٦ يوليو كتب ولبول إلى هيوم يحمل نفسه كل اللوم - دون
الإعراب عن أى ندم - في أمر الخطاب المزيف ، ويدين « قلب روسو

الجهود الشريرة^(١٢١) ، ولكنه لم ينكر ان هيوم كان له يد في الخطاب . وكتب هيوم إلى دولباخ يقول « انك بحق تماماً ، فروسو وحش » . وسحب الكلمات الرقيقة التي وصف بها من قبل خلق روسو^(١٢٢) . فلما سمع من ديفنبورت ان جاك ... جاك يكتب « اعترافاته » افترض أن روسو سيذيع رأيه في الأمر على الملأ . ونصحته آدم سميث ، وطورجو والمرشال كيث ، بأن يتحمل الهجوم صامتاً ، ولكن جماعة الفلاسفة في باريس يقودهم دالامبير ، حرضوه على أن ينشر روايته عن نزاع ذاع خبره في عاصمتين . وعليه فقد أصدر (اكتوبر ١٧٦٦) عرضاً موجزاً للنزاع الذي ثار بين السيدين هيوم وروسو ، صاغه بالفرنسية دالامبير وسوار ، وبعد شهر ظهر بالانجليزية . وأذاع جريم مضمونه على نطاق واسع « في خطاب الاشتراك » الذي كتبه في ١٥ اكتوبر ، فتردد صدى المشاجرة في جنيف ، وامستردام ، وبرلين ، وسانت بطرسبورج . وضاعفت الضجة أكثر من عشر نشرات ، ونشرولبول روايته للنزاع ، وهاجم بوزويل ولبول ، ورمت مدام دلاتور في « مجمل عن مسيو روسو » ، هيوم بأنه خائن ، ووفاه فولتير بمزيد من البيانات عن نقائص روسو وجرائمه ، وعن اختلاله إلى أماكن سيئة السمعة ، وعن أعماك التحريض التي أتاها في سويسره^(١٢٣) . أما جورج الثالث فقد تابع المعركة بفضول شديد^(١٢٤) . وأرسل هيوم الوثائق المتعلقة بها إلى المتحف البريطاني^(١٢٥)

ووسط هذه الضجة الكبرى ازم روسو الصمت الرهيب . ولكنه صمم الآن على العودة إلى فرنسا أيا كان الخطر والتمن . فقد اكتب لرطوبة مناخ إنجلترا وتحفظ الخلق الانجليزي ، وكانت العزلة التي نشدها فوق ما يطبق ، ولم يكن قد بذل أى جهد في تعلم الانجليزية فوجد مشقة في التفاهم مع الخدم . ولم يستطع الحديث إلا مع تيريز - التي ما فتئت كل يوم تلح عاياه في أن يأخذها إلى فرنسا . ودعماً لخطوطها أكدت له ان الخدم يبيتون دس السم له . وعليه ففي ٣٠ ابريل كتب إلى مالك بيته الغائب يقول :

« غدا أترك بيتك يا سيدى .. ولست اجهل الكائنات التى تدبر لى ، ولا عجزى عن حماية نفسى ، ولكننى عشت يا سيدى ، ولم يبق لى إلا أن أنسى بشجاعة حياة قضيت بشرف .. وداعا سيدى . سأسلف دوما على المسكن الذى ابرحه الآن، ولكن أسئنى سيكون أكثر لأننى وجدت فيك مضييفا غاية فى اللطف ، ومع ذلك لم استطع أن اجعل منه صديقا^(١٢٦) .

وفى أول ما يوفر مع تريز على عجل وفى رعب . وتركنا خفائهما ومالاً للوفاء بإيجاز ثلاثة عشر شهرا . . ولجهلهما بجغرافية إنجلترا استقلا مختلف وسائل الانتقال غير المباشرة، وقطعا شظرا من الطريق على الإقدام ، وظلا عشرة أيام تأهين لا يعرف أحد مستقرهما . وأعلنت الصحف عن اختفائهما، ثم ظهرا فى ١١ مايو فى سبولدنغ يلنكولنشير ، ومنها وجدا طريقهما إلى دوفر، وهناك استقلا سفينة إلى كاليه فى ٢٢ مايو . بعد أن قضيا فى إنجلترا ستة عشر شهرا : وكتب هيوم إلى طورجو وغيره من الأصدقاء طالبا اليهم أن يمدوا يد المعونة للمنبوذ الذى عاد الآن وحيدا منهجوا إلى فرنسا، وهو من الناحية القانونية لا يزال تحت طائلة الأمر باعتقاله .



المراجع

CHAPTER I

1. Rousseau, *The Confessions of Jean-Jacques Rousseau*, I, 22.
2. *Ibid.*, 4.
3. I, 156-57; II, 70, 321.
4. Saintsbury, *History of the French Novel*, I, 391.
5. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 174.
6. Lanson, G., *Histoire de la littérature française*, 801.
7. *Encyclopaedia Britannica*, XIX, 587a.
8. Rousseau, *The Confessions*, I, 3.
9. *Ibid.*, 8.
10. 9.
11. 11.
12. 13.
13. 9.
14. 16.
15. 22.
16. 41.
17. 44.
18. *Ibid.*; Lemaitre, *Jean-Jacques Rousseau*, 190; Mann, Thomas, *Three Essays*, 156.
19. Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, I, 51 f.
20. Rousseau, *The Confessions*, I, 69.
21. Rousseau, *Les Confessions*, I, 140.
22. *The Confessions*, I, 117-19.
23. *Ibid.*, 76.
24. 76.
25. 106.
26. 91.
27. 92.
28. 96.
29. 104.
30. 107.
31. 116.
32. 122.
33. 130.
34. 154.
35. 138.
36. 148.
37. 160.
38. 178.
39. *Les Confessions*, I, 138.
40. *Ibid.*; *The Confessions*, I, 178.
41. *Ibid.*, 124.
42. 195.
43. Josephson, J.-J. Rousseau, 111.
44. *Ibid.*, 113-14.
45. *The Confessions*, I, 247, 250.
46. *Ibid.*, 259.
47. 262.
48. 265.
49. *Ibid.*
50. 296.
51. 295.
52. 300.
53. Josephson, 132.
54. *Ibid.*, 133.
55. *The Confessions*, I, 305.
56. Letter of Frederick, 1762, in Gooch, *Frederick the Great*, 145.
57. *The Confessions*, I, 309.
58. *Ibid.*, 310.
59. *Ibid.*, II, 139.
60. Martin, Henri, *Histoire de France*, XVI, 83; Collins, J. C., *Bolingbroke, and Voltaire in England*, 209.
61. Josephson, 140.
62. Morley, John, *Rousseau and His Era*, I, 127; Hendel, C. W., *Citizen of Geneva*, 108.
63. Diderot, *Essai sur les règnes de Claude et Néron*, Ch. 67.
64. Marmontel, *Memoirs*, I, 321.
65. *The Confessions*, II, 21.
66. *Ibid.*, 32.
67. Rousseau, *Discourse on Arts and Sciences*, in *Social Contract and Discourses*, 130.
68. *Ibid.*, 132.
69. 134.
70. 134.
71. 146.
72. 151.
73. 142.
74. 151.
75. 135.
76. 139.
77. 153.
78. 153.
79. Rousseau, preface to *Narcisse*.
80. Michelet, *Histoire de France*, V, 371.
81. Grimm, *Correspondance littéraire*, IX, 49.
82. Bayle, Pierre, *Réponse aux questions d'un provincial*.
83. Rousseau, *Reveries of a Solitary*, Book VI, pp. 127-32.
84. *The Confessions*, II, 21.
85. Lemaitre, 92.
86. Letter of July 15, 1756, in Hendel, *Citizen of Geneva*, 142.
87. Marmontel, *Memoirs*, I, 321.
88. *The Confessions*, II, 34.
89. *Ibid.*, 48.
90. 49.
91. 51.
92. 56; Goncourt, E. and J. de, *Madame de Pompadour*, 143.
93. Faguet, *Rousseau artiste*, 192.
94. Grimm, II, 307.

ROUSSEAU AND REVOLUTION

95. Rousseau, *Reveries*, 111.
96. In Faguet, *Rousseau artiste*, 193.
97. Musée, St.-Quentin.
98. Levey, Michael, *Painting in 18th-Century Venice*, 155.
99. Marmontel, *Mémoires*, I, 169.
100. Épinay, Mme. d', *Mémoires and Correspondence*, II, 52.
101. *Ibid.*; Masson, *La Religion de Rousseau*, I, 183-85.
102. Preface to *Narcisse*.
103. Masson, I, 182.
104. Michelet, *Histoire de France*, V, 428.
105. *The Confessions*, II, 63.
106. *Ibid.*, 58.
107. Rousseau, *Discourse on the Origin of Inequality, in Social Contract* . . . , 157.
108. *Ibid.*, 159.
109. 160.
110. 239.
111. Nietzsche, *Thus Spake Zarathustra*, 129.
112. Rousseau, *Discourse on the Origin of Inequality*, loc. cit., 181.
113. *Ibid.*, 169.
114. 175.
115. 222.
116. Rousseau, *Social Contract*, Book I, Ch. ii.
117. Second *Discourse*, in *Social Contract* . . . , 214.
118. *Ibid.*, 207.
119. 220-22.
120. 238.
121. 242-44.
122. Rousseau juge de Jean-Jacques, in Cas-sirer, *The Question of Rousseau*, 54.
123. Second *Discourse*, loc. cit., 236.
124. End of second *Discourse*.
125. Mumford, Lewis, *The Condition of Man*, 275.
126. Helvétius, *Treatise on Man*, II, xx.
127. Duclos, *Considérations sur les moeurs*, 11.
128. Lemaître, 122.
129. Second *Discourse*, loc. cit., 175, 246.
130. Voltaire, *Œuvres*, XXIa, 227-30.
131. *Ibid.*
132. *The Confessions*, II, 65.
133. *Social Contract*, 271.
134. *Ibid.*, 272.
135. 281.
136. 269.
137. 262.
138. 253.
139. 260.
140. 256.
141. *The Confessions*, II, 40.
142. *Ibid.*
143. Masson, I, 181.
144. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 181.
145. *The Confessions*, II, 40.
146. Grimm, *Correspondance*, II, 239.
147. Sainte-Beuve, II, 195n.
148. *Ibid.*, 180.

149. 191.
150. 213.
151. Morley, *Rousseau*, I, 272.
152. Macdonald, Frederika, Jean Jacques Rousseau, II, 83.
153. Source lost.
154. Toth, Karl, *W'oman and Rococo in France*.
155. Hobbes, *De Corpore*, Ch. xxv.
156. Toth, 194; Josephson, 194; Faguet (*Vie de Rousseau*, 214) thought Mme. d'Épinay had been infected by Dupin de Francuëll.
157. Épinay, II, 85.
158. *Ibid.*, 130.
159. Josephson, 149.
160. *The Confessions*, II, 81.
161. *Ibid.*, 66.
162. Letter to Malesherbes, Jan. 26, 1762.
163. Épinay, II, 128; Sainte-Beuve, II, 187; Morley, *Rousseau*, I, 274.

CHAPTER II

1. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 4.
2. Frederick the Great, *Histoire de la guerre de Sept Ans*, 388.
3. Dorn, W. L., *Competition for Empire*, 306.
4. Mahan, A. T., *Influence of Sea Power upon History*, 74.
5. Aldis, Janet, *Madame Geoffrin*, 200.
6. Goodwin, A., *The European Nobility in the 18th Century*, 113.
7. Cox, Wm., *History of the House of Austria*, III, 346.
8. Walpole, H., *Mémoires of . . . the Reign of George the Second*, II, 73; Marmontel, *Mémoires*, I, 175.
9. Carlyle, *History of Friedrich the Second*, V, 72.
10. Levron, Jacques, *Pompadour*, 174.
11. Treitschke, H. von, *Life of Frederick the Great*, 149.
12. Mann, Thos., *Three Essays*, 163.
13. Dorn, *Competition for Empire*, 15.
14. Treitschke, *Frederick*, 181.
15. Carlyle, *Friedrich*, V, 263-69; Martin, H., *Histoire de France*, XV, 497; Reddaway, *Frederick the Great*, 198; Cox, *History of . . . Austria*, III, 370.
16. Reddaway, 199.
17. Gooch, G. P., *Frederick the Great*, 334.
18. Reddaway, 201.
19. Dorn, 300; *Cambridge Modern History*, VI, 251.
20. Gooch, *Frederick*, 334.
21. *CMH*, VI, 402.
22. Cox, *History of . . . Austria*, III, 369.
23. *Ibid.*
24. Padover, *The Revolutionary Emperor*, 33.
25. Gooch, *Frederick*, 43.

16. Coxe, 379.
17. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 369; Carlyle, *Friedrich*, V, 479.
18. *Ibid.*, 523.
19. 527.
20. 534; Sainte-Beuve, II, 373.
21. *Ibid.*, I, 219; Brandes, *Voltaire*, II, 77.
22. Sainte-Beuve, II, 372.
23. Martin, H., *France*, XV, 522.
24. Micheler, *Histoire de France*, V, 402.
25. Dorn, 323.
26. Micheler, V, 402.
27. Carlyle, VI, 22.
28. *Ibid.*, V, 547.
29. Jahn, *Life of Mozart*, I, 47.
30. Carlyle, VI, 42; Robinson, J. H., *Readings in European History*, 395.
31. Macaulay, *Critical and Historical Essays*, II, 173.
32. Acton, Lord, *Lectures on Modern History*, 297.
33. Carlyle, VI, 63.
34. Martin, XV, 527.
35. *Ibid.*, 528.
36. Carlyle, VI, 63.
37. Dorn, 338.
38. Carlyle, VI, 115.
39. CMH, VI, 290.
40. Wilhelmine, *Memoirs*, vii.
41. *Ibid.*, ix.
42. Frederick, *Guerre de Sept Ans*, 44.
43. Carlyle, VI, 265.
44. Coxe, *History*, III, 407.
45. Voltaire and Frederick the Great, *Letters*, 259.
46. Carlyle, VI, 322, 386.
47. Martin, XV, 533.
48. Dorn, 363.
49. Voltaire and Frederick, *Letters*, 262; Carlyle, VI, 399.
50. Martin, XV, 565.
51. Voltaire and Frederick, *Letters*, 271.
52. Coxe, III, 425.
53. Dec. 25, 1761, by the Russian calendar.
54. Frederick, *Guerre de Sept Ans*, 229.
55. *Ibid.*, 227.
56. 295.
57. Gooch, *Frederick*, 64.
58. Frederick, *Guerre de Sept Ans*, 305.
59. Macaulay, *Essays*, II, 185.
60. Voltaire and Frederick, *Letters*, 245; Mann, *Three Essays*, 210.
61. Gooch, *Frederick*, 64.
62. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 192.
4. Aldis, *Madame Geoffrin*, 129.
5. Lewis, D. B. Wyndham, *Four Favorites*, 42.
6. Goncourts, *Mme. de Pompadour*, 317.
7. *Ibid.*, 319; Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 451.
8. Mitford, Nancy, *Madame de Pompadour*, 234.
9. Levron, Jacques, *Pompadour*, 260.
10. Bancroft, George, *Literary and Historical Miscellanies*, 91.
11. See Stryiński, *Eighteenth Century*, 189.
12. Mitford, *Pompadour*, 234.
13. Ercole, Lucienne, *Gay Court Life*, 236.
14. Mitford, 234-35.
15. Taine, H., *Ancient Regime*, 338.
16. Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 181-82; Martin, H., *France*, XVI, 236.
17. Barnes, H. E., *Economic History of the Western World*, 253.
18. Nussbaum, F. L., *History of the Economic Institutions of Modern Europe*, 213.
19. Martin, H., *Age of Louis XIV*, I, 54.
20. Mousnier and Labrousse, *Le Dix-huitième Siècle*, 135.
21. Du Hausser, *Memoirs*, 27.
22. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 352.
23. Rousseau, *La Nouvelle Héloïse*, in Ducros, Louis, *French Society in the 18th Century*, 193.
24. Parton, James, *Life of Voltaire*, II, 329.
25. Voltaire, *Works*, VIIb, 56.
26. Goldoni, *Memoirs*, 359.
27. Taine, *Ancient Regime*, 308.
28. Cru, R. L., *Diderot as a Disciple of English Thought*, 61.
29. Ducros, *French Society*, 325.
30. Martin, H., *France*, XVI, 163; Acton, *Lectures on Modern History*, 326.
31. Higgs, Henry, *The Physiocrats*, 18.
32. Say, Léon, *Turgot*, 47, 67.
33. Turgot, *Eloge de Gournai*, in Martin, *France*, XVI, 165.
34. Mirabeau père in Higgs, 21.
35. Higgs, 24.
36. Wolf, A., *History of Science, Technology, and Philosophy in the 18th Century*, 730.
37. Higgs, 37.
38. Warwick, C. F., *Mirabeau and the French Revolution*, 146.
39. Higgs, 68.
40. In Sée, Henri, *Les Idées politiques en France au XVIII^e siècle*, 161.
41. Pomeau, René, *La Religion de Voltaire*, 405.
42. Hume, letter to Morellet, July 10, 1769.
43. Voltaire, *Works*, Ib, 247-48, 265.
44. In Gay, Peter, *Voltaire's Politics*, 169n.
45. Smith, Adam, *Wealth of Nations*, Book IV, Ch. ix.
46. Higgs, 135.

CHAPTER III

1. Du Hausser, *Memoirs of Mme. de Pompadour*, 97.
2. Goncourts, *Madame de Pompadour*, 338-42.
3. *Ibid.*, 200.

ROUSSEAU AND REVOLUTION

4. Besterman in Voltaire, *Love Letters to His Niece*, 9.
5. Chaponnière, 203.
6. Parton, II, 475.
7. Letter of July 4, 1782, in Desnoiresterres, Voltaire, VI, 288.
8. *Boswell on the Grand Tour: Germany and Switzerland*, 283.
9. *Ibid.*, 293.
10. 302.
11. Low, D. M., *Edward Gibbon*, 144.
12. Desnoiresterres, VI, 290; Chaponnière, 202.
13. Parton, *Life of Voltaire*, II, 481.
14. *Ibid.*
15. Desnoiresterres, I, 131.
16. Noyes, A., *Voltaire*, 550.
17. Torrey, N. L., *The Spirit of Voltaire*, 189.
18. Desnoiresterres, VII, 335.
19. *Ibid.*, 335.
20. Parton, II, 480.
21. Voltaire, *Philosophical Dictionary*, art. "Malady—Medicine."
22. Molière, *Le Malade imaginaire*.
23. Chaponnière, 202; Parton, II, 480.
24. Voltaire, art. "Malady."
25. Parton, I, 529.
26. Chaponnière, 202.
27. Brandes, *Voltaire*, II, 312.
28. Parton, II, 263.
29. Desnoiresterres, V, 324.
30. Parton, II, 471.
31. Chaponnière, 202.
32. Lanson, *Voltaire*, 197.
33. Desnoiresterres, VII, 482.
34. Torrey, *Spirit of Voltaire*, 201.
35. Faguet, *Literary History of France*, 507.
36. Lanson, *Voltaire*, 197.
37. Torrey, 34.
38. Lanson, 197.
39. Voltaire, *Oeuvres complètes*, XXXIX, 546.
40. *Works*, VIIIb, 286.
41. *Philosophical Dictionary*, art. "Ancients and Moderns."
42. Michelet, *Histoire*, V, 426.
43. Parton, II, 489.
44. Brunetière, 361.
45. Torrey, 176.
46. Letter of Mar. 12, 1766.
47. Voltaire, *Age of Louis XV*, II, Ch. xxxix.
48. Lanfrey, *L'Église et les philosophes*, 335.
49. Letter of Frederick to Voltaire, June 10, 1759.
50. Letter of July 2, 1759.
51. Voltaire and Frederick, *Letters*, 266.
52. *Ibid.*, 358.
53. 363.
54. Brandes, II, 241.
55. Desnoiresterres, VI, 391.
56. *Phil. Dict.*, art. "Peter the Great."
57. Robespierre, speech of 18 Floréal, Year II, in Hazard, *European Thought*, 265.
58. Parton, II, 260.
59. Chaponnière, 238.
60. Gibbon, *Memoirs*, 154n.
61. Parton, II, 556.
62. Voltaire, *Mémoires*, in Parton, I, 141.
63. Letter to Frederick, January, 1737, in Voltaire and Frederick, 41.
64. *Phil. Dict.*, art. "Property."
65. *Ibid.*
66. *Ibid.*
67. Letter to Dr. Daquir in Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 228.
68. *Phil. Dict.*, art. "Equality."
69. Lacroix, Paul, *The Eighteenth Century in France*, 47.
70. *Phil. Dict.*, art. "Country" ("Pays").
71. Voltaire, *L'A, B, C*, in Sée, *Les Idées politiques*, 84.
72. *Phil. Dict.*, art. "Laws."
73. *Essai sur les moeurs*, xii, 161, in Gay, *Voltaire's Politics*, 181.
74. *Métopie*, Act. II, Sc. ii.
75. Michelet, *French Revolution*, 47.
76. In Parton, II, 544.
77. Desnoiresterres, VI, 240.
78. Casanova, *Memoirs*, II, 406-7.
79. Letter of Oct. 28, 1773.
80. *Phil. Dict.*, art. "Democracy."
81. Letter of Sept. 20, 1760.
82. In Gay, 236.
83. *Phil. Dict.*, art. "Government," Sec. 3.
84. *Ibid.*, Sec. 6, slightly transposed.
85. *Phil. Dict.*, art. "Equality."
86. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 415.
87. Quoted in Black, *Art of History*, 48.
88. *Phil. Dict.*, art. "Law, Civil and Ecclesiastical."
89. In Hearnshaw, *Social . . . Ideas of Some Great French Thinkers*, 157.
90. Art. "Execution."
91. Art. "Torture."
92. In Gay, 307.
93. Art. "Wit."
94. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 146.
95. *Ibid.*, 228.
96. Black, 29.
97. *Candide*, last chapter.
98. In Pomeau, 261.
99. Desnoiresterres, V, 24.
100. Brandes, *Voltaire*, I, 118.
101. Torrey, 10.
102. Letter of Aug. 28, 1751.
103. Brandes, *Creative Spirits of the 19th Century*, 138.
104. *Ibid.*, 142; Höffding, H., *Jean Jacques Rousseau and His Philosophy*, 80; Desnoiresterres, VI, 310.
105. *Ibid.*
106. Mme. de Graffigny in Parton, I, 392.

NOTES

107. Hume, letter of Apr. 26, 1764, in Gay, 81.
108. Torrey, 131.
109. Letter to Thieriot, Dec. 10, 1738.
110. Torrey, 131.
111. *Ibid.*
112. Voltaire, *English Notebooks*, in Gay, 353.
113. *Phil. Dict.*, art. "Solomon."
114. Desnoiresterres, V, 157; Parton I, 106.
115. See letter of March, 1737, to Moussinot, in *Works*, XXII, 190.
116. Parton, II, 520.
117. *Ibid.*, I, 507.
118. *Ibid.*, 144.
119. Morley, *Voltaire*, in Voltaire, *Works*, XXII, 96.
120. Parton, II, 600.
121. In Noyes, *Voltaire*, 536.
122. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 61.
123. Pomeau, 462.
124. Desnoiresterres, II, 239.
125. In Torrey, 197.
126. Desnoiresterres, VI, 287.
127. Torrey, 91.
- and a few of his to her; see Martin, H., *France*, XVI, 91n.
32. *The Confessions*, II, 136.
33. Sainte-Beuve, II, 213.
34. *The Confessions*, II, 144.
35. *Ibid.*, 146.
36. 147.
37. Epinay, III, 130-32; Josephson, 249.
38. Epinay, III, 140-42.
39. *Ibid.*, 186.
40. *The Confessions*, II, 154.
41. Josephson, 252.
42. *The Confessions*, II, 155.
43. Letter of Nov. 26, 1758, in Hendel, *Citizen of Geneva*, 160.
44. Lemaître, *Rousseau*, 174.
45. Josephson, 308.
46. *The Confessions*, II, 165.
47. Rousseau, *Politics and the Arts*, 7.
48. *Ibid.*, 121.
49. 125-26.
50. *The Confessions*, II, 165.
51. Torrey, *Spirit of Voltaire*, 97, 105.
52. Hendel, *Citizen of Geneva*, 169; Desnoiresterres, VI, 85.
53. Chaponnière, 169; Josephson, 278.
54. Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, III, 33.
55. Josephson, 279.
56. *Rousseau juge de Jean-Jacques*, Part I, Letter i.
57. Letter II.
58. Letter IV.
59. Letter V.
60. Letter XIV.
61. *Rousseau juge*, p. 139.
62. *Ibid.*, Part IV, Letter XVII.
63. Part V, Letter V.
64. *Rousseau juge*, p. 186.
65. *Ibid.*, Part V, Letter x.
66. *The Confessions*, II, 163.
67. In Hendel, J.-J. Rousseau, *Moralist*, II, 47.
68. *Rousseau juge*, Part VI, Letter VI.
69. Part V, Letter V.
70. *The Confessions*, I, 101.
71. Kant, Fragment 618, in Cassirer, *Rousseau, Kant, and Goethe*, 6.
72. Texte, J., *Rousseau and the Cosmopolitan Spirit*, 236.
73. Desnoiresterres, VI, 87.
74. Michelet, *Histoire*, V, 427.
75. *Ibid.*
76. *The Confessions*, II, 213.
77. *Ibid.*, 211.
78. Maritain, *Three Reformers: Luther, Descartes, Rousseau*, 119.
79. Taine, *Ancient Regime*, 271.

CHAPTER VI

1. Rousseau, *Émile*, p. 371.
2. *The Confessions*, II, 84.
3. Josephson, 190.
4. *Ibid.*; *The Confessions*, II, 84.
5. *The Confessions*, II, 88.
6. Diderot, *Le Fils naturel*, Act. IV, Sc. iii.
7. Brockway, W., and Winer, B., *Second Treasury of the World's Great Letters*, 195.
8. *Ibid.*, 201.
9. *The Confessions*, II, 107.
10. *Ibid.*, 99.
11. Rousseau, *Collection complète des œuvres*, I, 424.
12. *Ibid.*, I, 428.
13. 431.
14. 438.
15. 442.
16. 449.
17. 443.
18. Desnoiresterres, V, 141.
19. *The Confessions*, II, 105.
20. Innay, Mme. d', *Mémoires*, II, 329.
21. *Ibid.*, 334.
22. *The Confessions*, II, 102.
23. Josephson, 213.
24. *The Confessions*, II, 114-15, 110.
25. *Ibid.*, 113.
26. 114-16.
27. Josephson, 220.
28. *The Confessions*, II, 118.
29. *Ibid.*, 121.
30. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 195.
31. *The Confessions*, II, 133. Several of Mme. d'Houdetot's letters to Rousseau survive,
1. Hendel, *Citizen of Geneva*, 179.
2. *Ibid.*, 195.

CHAPTER VII

3. Rousseau, *Social Contract*, Book I, Ch. v.
4. *Ibid.*, IV, ii.
5. IV, i.
6. I, vii.
7. I, viii.
8. I, vii.
9. II, iv.
10. I, viii.
11. Vaughn, *Political Writings of Rousseau*, I, 81.
12. *Social Contract*, Book III, Ch. v.
13. III, iv.
14. III, xv.
15. III, xviii.
16. III, i.
17. I, ix.
18. II, xi.
19. I, end.
20. II, i.
21. Letter to Mme. d'Étang, in Cobban, *Rousseau and the Modern State*, 193.
22. Cobban, *Rousseau*, 211.
23. *Social Contract*, IV, viii.
24. II, vii.
25. IV, viii.
26. *Ibid.*
27. *Ibid.*
28. *Ibid.*
29. *Ibid.*
30. IV, vi.
31. In Cobban, *Rousseau*, 55.
32. *Émile*, p. 157.
33. *Ibid.*
34. Cobban, *In Search of Humanity*, 168.
35. Voltaire, *Works*, XXIIb, 332.
36. Havens, *Voltaire's Marginalia*, 68, in Gay, *Voltaire's Politics*, 168.
37. Cf. *Social Contract*, II, iv; Talman, *Origins of Totalitarian Democracy*; Crocker, *Rousseau et la philosophie politique*, p. 111.
38. *Social Contract*, II, v.
39. Faguet, *Rousseau penseur*, 397.
40. *Ibid.*
41. *Émile*, preface.
42. Boyd, *Educational Theory of Jean Jacques Rousseau*, 297.
43. Rousseau, *Émile*, 13.
44. *Ibid.*, 216.
45. 26.
46. 256.
47. 118.
48. 133.
49. 27.
50. 92.
51. 50.
52. 21-22, 46.
53. 56-58.
54. 341.
55. 253.
56. 251.
57. 254.
58. 53.
59. 58.
60. 167.
61. 149, 306.
62. 160.
63. Martin, H., *France*, XVI, 98.
64. Rousseau, *Émile*, 158.
65. *Ibid.*, 220.
66. 230.
67. 261-62.
68. 263.
69. 257.
70. 272.
71. 232.
72. *Ibid.*
73. 238-49.
74. 245-47.
75. Letter of Oct. 5, 1758, in Hendel, *Citizen of Geneva*, 152.
76. *Émile*, 261.
77. 223.
78. 275.
79. See Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 256.
80. *Émile*, 272.
81. 271-72.
82. 179.
83. 192.
84. 298-99.
85. Letter of Nov. 5, 1758, in Hendel, *Citizen*, 158.
86. In Faguet, *Rousseau penseur*, 111.
87. *Émile*, 351; Hendel, J.-J. *Rousseau*, II, 23.
88. *Émile*, 330, 370.
89. 340.
90. 341, 371.
91. 337, 350.
92. 350.
93. 349.
94. 320.
95. 357.
96. 443.
97. 444.
98. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 125.
99. Seillière, J. J. *Rousseau*, 132, in Maritain, *Three Reformers*, 125.
100. Rousseau, *Collection complète des oeuvres*, IXb, 157.
101. Plato, *Republic*, No. 592.

CHAPTER VIII

1. Hendel, *Citizen of Geneva*, 232.
2. *The Confessions*, II, 243.
3. *Collection complète*, IXa, pp. v-x.
4. *The Confessions*, II, 253.
5. *Collection*, IXb, 4.
6. *The Confessions*, II, 255.
7. In Torrey, *Spirit of Voltaire*, 110.
8. Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, III, 33.
9. Voltaire, letter of July 26, 1764.

10. In Brandes, *Voltaire*, II, 97.
11. *Ibid.*, 98; Desnoiressterres, VI, 320-23.
12. Hendel, J.-J. *Rousseau*, II, 252.
13. *The Confessions*, II, 257.
14. *Boswell on the Grand Tour: Germany and Switzerland*, 226.
15. In Gooch, *Frederick the Great*, 138.
16. *The Confessions*, II, 264.
17. Hendel, *Citizen of Geneva*, 252.
18. *The Confessions*, II, 265.
19. *Ibid.*, 259.
20. 270.
21. 265-66.
22. Letter of July 22, 1764, in Masson, P. M., *La Religion*, III, 171.
23. In Goncourts, *Women of the 18th Century*, 287.
24. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 138.
25. Masson, III, 73-75.
26. 2 Timothy iii, 1 f.
27. *Collection complète*, IXa, pp. xi-xiii.
28. *Ibid.*, p. xiii.
29. P. xiv.
30. P. xvi.
31. P. xxxix.
32. P. 1.
33. 2.
34. 4.
35. 7.
36. 8.
37. 26-28.
38. 55.
39. 63.
40. 65-66.
41. 70-71.
42. 121-22.
43. 8.
44. 15.
45. 42.
46. 44.
47. 47.
48. 50.
49. 83.
50. 86.
51. 87-89.
52. Exodus vii, 9-12.
53. Matthew xxiv, 24.
54. *Collection complète*, IXa, 201-2.
55. *Ibid.*, 210-12.
56. 244-45.
57. 334.
58. Letter of Mar. 8, 1765, in Masson, P. M., *La Religion*, III, 206-7.
59. *Collection complète*, IXa, 184-85.
60. Morley, *Voltaire*. in *Voltaire, Works*, XXIIb, 97.
61. In Faguet, *Vie de Rousseau*, 318-20.
62. *Rousseau juge de J.-J.*, I, 16-17.
63. Grimm, *Correspondance*, May 15, 1763, Dec. 15, 1763, Jan. 15, 1765; see also Masson, P. M., II, 126-40.
64. Boileaux-Despréaux, Nicolas, *L'Art poétique*, lines 37-38.
65. Goethe, *Faust*, Part I, Everyman's Library translation, p. 116.
66. *Collection complète*, I, 196n.
67. Horace Walpole, letter of Dec. 31, 1769, to Horace Mann.
68. *Boswell on the Grand Tour: Germany and Switz.*, 150.
69. *Ibid.*, 215.
70. 217.
71. 219.
72. 229.
73. 230-31.
74. 254.
75. 258-68.
76. In Vaughn, *Political Writings of Rousseau*, II, 293.
77. Macdonald, Frederika, *Jean Jacques Rousseau*, II, 118.
78. Vaughn, II, 369n.
79. *Ibid.*, 350.
80. 338.
81. Letter of Feb. 26, 1770.
82. Morley, *Rousseau and His Era*, II, 94.
83. Letter of Mar. 10, 1765.
84. Letter of Mar. 29, 1765.
85. Macdonald, F., II, 123.
86. *The Confessions*, II, 301.
87. *Ibid.*
88. Letter of Oct. 1, 1765.
89. *The Confessions*, II, 302.
90. *Ibid.*
91. Rousseau, *Reveries*, 106.
92. *Ibid.*, 108; cf. *The Confessions*, 308.
93. Morley, *Rousseau*, II, 117.
94. *The Confessions*, II, 312.
95. Hendel, *Citizen of Geneva*, 326.
96. Burton, *Life of David Hume*, II, 299.
97. Macdonald, F., II, 166.
98. *Ibid.*, 213-14.
99. Walpole, Letter of Jan. 12, 1766.
100. Macdonald, II, 168.
101. Lemaître, 322; Macdonald, II, 172.
102. *Ibid.*, II, 171.
103. Morellet, *Mémoires*, in Mossner, *Life of Hume*, 575.
104. *Ibid.*, 517.
105. 518.
106. Faguet, *Vie de Rousseau*, 332.
107. In Burton, *Hume*, II, 304, 309.
108. Hume, letter to Lord Charlemont, in Mossner, 523.
109. Mossner, 519.
110. *Boswell on the Grand Tour: Italy, Corsica, France*, 279.
111. But summarized by Col. Robert Isham, who read them before their destruction by the executors.
112. *Boswell on the Grand Tour: Italy . . .*, 177-81.
113. Mossner, 521.

ROUSSEAU AND REVOLUTION

- 114. *Ibid.*, 523.
- 115. Letter of May 10, 1766, in Hendel, *Citizen of Geneva*, 336.
- 116. Letter of Apr. 24, 1766, in Hendel.
- 117. Josephson, 460.
- 118. Macdonald, F., II, 186-209.
- 119. Mossner, 529.
- 120. Macdonald, II, 171.
- 121. *Ibid.*, 174.
- 122. Josephson, 464; Morley, *Rousseau*, II, 133.
- 123. Josephson, 467.
- 124. Morley, II, 135.
- 125. *Ibid.*
- 126. Josephson, 471.
- 127. Faguet, *Vie de Rousseau*, 361; Ségur, *Julie de Lespinasse*, 203.

فهرس

صفحة

٦	إهداء
٩	الكتاب الأول : مقدمة
٩	الفصل الأول : روسو جواب الآفاق ١٧١٢ - ١٧٥٦
٩	١ - الاعترافات
١٤	٢ - التقى الشريد
٢٢	٣ - ماما : ١٧٢٩ - ١٧٤٠
٣٠	٤ - ليون ، والبنديقية ، وباريس : ١٧٤٠ - ١٧٤٩
٣٨	٥ - هل الحضارة مرض ؟
٤٧	٦ - باريس وجنيف . ١٧٥٠ - ١٧٥٤
٥٣	٧ - جرائم الحضرة
٦٠	٨ - المحافظ
٦٢	٩ - الهروب من باريس : ١٧٥٦
٦٩	الفصل الثاني : حرب الدين البع ١٧٥٦ - ١٧٦٣
٦٩	١ - كيف تشعل نار الحرب
٨٠	٢ - طريق القانون : ١٧٥٦ - ١٧٥٧
٨٣	٣ - من براغ إلى روسباخ : ١٧٥٧
٩١	٤ - الثعلب يكره على الدفاع : ١٧٥٧ - ١٧٦٠
١٠١	٥ - بناء الإمبراطورية البريطانية
١٠٥	٦ - الإعياء : ١٧٦٠ - ١٧٦٢
١١٠	٧ - الصلح
١١٤	الكتاب الثاني : فرنسا قبل الطوفان
١١٤	الفصل الثالث : حياة الثورة

الصفحة

١١٤	١ - رحيل الخليفة
١١٨	٢ - إنتعاش فرنسا
١٢٢	٣ - الفزيوقراطيون
١٣١	٤ - ظهور طورجو ١٧٢٧ - ١٧٧٤
١٣٦	٥ - الشيوعيون
١٤١	٦ - الملك
١٤٤	٧ - دويارى
١٤٨	٨ - شوازيل
١٥٠	٩ - تمرد البرلمانات
١٥٩	١٠ - رحيل الملك
١٦١	الفصل الرابع : فن الحياة
١٦١	١ - التفضيلة والكياسة
١٦٦	٢ - الموسيقى
١٦٨	٣ - المسرح
١٧٤	٤ - مارمونتيل
١٧٧	٥ - حياة الفن
١٧٧	أ - النحت
١٨٢	ب - العمارة
١٨٥	ج - جروز
١٩١	د - فراجونار
١٩٦	٦ - الصالونات الكبرى
١٩٦	أ - مدام جوفران
٢٠٢	ب - مدام دو دفان
٢٠٨	ج - الأنسة دليسيناس
٢١٨	الفصل الخامس : فولتير الشيخ : ١٧٥٨ - ١٧٧٨
٢١٨	١ - الإقطاعي الطبيب

الصفحة

٢٢٤	٢ - صولجان القلم
٢٣١	٣ - فولتير السياسى
٢٣٨	٤ - المصلح
٢٤٢	٥ - فولتير الصميم
٢٥٠	الفصل السادس : روسو الرومانسى : ١٧٥٦ - ١٧٦٢
٢٥٠	١ - فى الإيميتاج
٢٥٥	٢ - العاشق
٢٦١	٣ - لفظ كثير
٢٦٤	٤ - خصامه مع جماعة الفلاسفة
٢٧١	٥ - هلويز الجديدة
٢٨١	الفصل السابع : روسو الفيلسوف
٢٨١	١ - العقد الاجتماعى
٢٩٣	٢ - إميل
٢٩٣	أ - تربيته
٢٩٩	ب - ديانتته
٣٠٩	ج - حبه وزواجه
٣١٠	الفصل الثامن : روسو المنبوذ : ١٧٦٢ - ١٧٦٧
٣١٠	١ - الهروب
٣١٥	٢ - روسو ورئيس الأساقفة
٣٢٣	٣ - روسو والكلفنيون
٣٢٦	٤ - روسو وفولتير
٣٣٠	٥ - بوزويل يلتقى بروسو
٣٣٤	٦ - دستور الكورسيكا
٣٣٦	٧ - السلاجىء
٣٤٣	٨ - روسو فى إنجلترا
٣٥٣	المراجع
٣٦٣	المفهرس